

المواظبة على الحسنة

مواضيع أخلاقية من خطب الجمعة الدينية

لشيخنا الشيخ محمد عبد المهيدي الكربولي

بطاقة الفهرسة

الكربلائي، عبد المهدي - ١٩٥٥ - ، مؤلف.

المواعظ الحسنة: مواضيع أخلاقية من خطب الجمعة الدينية لسماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي دامت بركاته / إعداد وتنظيم وتحقيق مؤسسة الخلق العظيم - الطبعة الأولى - النجف، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢١م / ١٤٤٣ للهجرة.

مجلد؛ ٢٤ سم. (العتبة الحسينية المقدسة؛ ٥٠٤)، (مؤسسة الخلق العظيم؛ ٧).

يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ٥٦١ - ٥٧٤).

الجزء ٣. خطب الجمعة لعامي (٢٠٠٧ - ٢٠٠٨م).

١. خطب الجمعة - الجوانب الأخلاقية. ٢. الوعظ والإرشاد - الشيعة الإمامية.

٣. الخطب الدينية الإسلامية. ٤. خطب الجمعة - العتبة الحسينية - العراق - كربلاء.

أ. العتبة الحسينية. مؤسسة الخلق العظيم.

ب. العنوان. BP10.5 .K37 M3 2021

تمت الفهرسة في قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٥٨٣) لسنة ٢٠٢١م.

المواظبة على الحسنة

مواضيع أخلاقية من خطب الجمعة الدينية

لسماعة الشيخ محمد عبد المهدى الكبرلاوي

إعداد وتنظيم

مؤسسة الخلق العظيم

الجزء الثالث

خطب الجمعة لعامي

(٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ هـ)

الإشراف العلمي

د. محمد العبدية في مؤسسة فنون وفكر

الإصدار ٧



جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

مؤسسة الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الجمعة: آية ٩).

هوية الكتاب

- عنوان الكتاب: المواعظ الحسنة، مواضيع أخلاقية من خطب الجمعة الدينية/ ج ٣
- المؤلف: سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي
- إعداد وتنظيم وتحقيق: مؤسسة الخلق العظيم
- الإشراف العلمي: اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم
- الناشر: العتبة الحسينية المقدسة
- الإخراج الفني: يوسف أحمد العلي
- الطبعة: الأولى
- المطبعة: دار المؤمن
- سنة الطبع: ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م
- عدد النسخ: ٥٠٠

كلمة سماحة المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين
أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.
وبعد، فإنّ هذا الكتاب عبارة عن مواضيع أخلاقية أُلقيت في خطب الجمعة
الدينية في الصحن الحسيني الشريف، وقد عمل الإخوة في مؤسسة الخلق العظيم
(جزاهم الله خيراً) على إعدادها وتنظيمها وتحقيقها ضمن موسوعة (المواعظ
الحسنة) التي اهتمت بجمع المواضيع الأخلاقية من الخطب الدينية. وقد تصفّحت
بعض المواضيع من هذا الجزء منها فوجدته منسجماً مع ما طُرح في تلك الخطب.
كما اطلّعت على أنّ هذا الكتاب - كسائر الكتب الأخرى التي تعمل المؤسسة
على إصدارها - قد تمّت مراجعته بأكمله من قبل اللجنة العلمية في المؤسسة.
ومن منطلق ثقتي بالإخوة العاملين في المؤسسة واللجنة العلمية فيها، فقد
أجزت طباعة هذا المجلد من هذه الموسوعة، عسى أن ينفع منها المؤمنون، وعسى
أن يكون ذخراً لنا وللمؤمنين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.
والحمد لله رب العالمين.

كلمة المؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيّين الطاهرين.

وبعد؛ فقد كانت الأخلاق ولا تزال هاجساً مهماً يشغل مساحةً واسعة من الفكر الإنساني على اختلاف اتجاهاته ومصادره المعرفية، وقد اشتركت في حمل هذا الهمّ الكبير مختلف المدارس الفكرية والديانات والحضارات، وسعت إلى معالجته وفق رؤاها المتفاوتة ومبانيها المختلفة. ويدلّل هذا الاهتمام البالغ على حقيقة في غاية الأهمية، تفيد أنّ الجانب الأخلاقي لدى أبناء البشر عصيّ على الإهمال والتجاهل، وأنّ أيّ محاولة لتجاهل هذا البعد المحوري والفطري، أو التغافل عنه ليست إلاّ محاولة لضبط بركان هائج، أو السيطرة على ثورة عارمة في أعماق الإنسان تسوقه إلى ما يرى فيه خيره وسعادته وكماله، وهذا ما يدعو إلى التوقّف عند هذا الميل الفطري الجارف نحو الأخلاق؛ للإحاطة به والتعرّف على دقائقه وخفائيه، والسعي لمعالجته نظرياً وعملياً.

إنّ التأمّل في ما تعيشه البشرية - اليوم - من أزمات مختلفة على مستوى المجتمعات والأفراد يؤكّد حقيقةً مهمّة؛ وهي أنّ قسطاً كبيراً من تلك الأزمات يعود إلى وجود فراغات كبيرة في المجال الأخلاقي، أخذت تنعكس سلباً على الجانبين الروحي والسلوكي للإنسان المعاصر، وقد كان لمجتمعاتنا الإسلامية نصيبها من تلك الأزمات المتعدّدة الجوانب، فأثّرت بشكل كبير على التراجع الأخلاقي الملحوظ، سيّما مع ملاحظة مدى التعقيد الذي تتسم به التحدّيات الراهنة، وما تحمله الحياة المعاصرة من تغييرات مهمّة، وانفتاح غير مسبوق على الأفكار والثقافات والأنماط السلوكية المختلفة في ظلّ الثورة المعلوماتية، والتنوّع المذهل في وسائل الإعلام والتواصل.

لا ريب أنَّ ملاحظة ما مرَّ ذكره، تدعو المهتمين بالشأن الفكري والثقافي إلى وضع الحلول المناسبة، والعمل الجادَّ في سبيل مواجهة هذه الأزمات ومعالجتها على المستويين: (النظري والعملي)، من خلال التأسيس لرؤية أخلاقية شاملة، تقوم - في جانبها النظري - على الوعي التام والدقيق بطبيعة الإنسان، وأبعاده الوجودية، وخصائصه، وميوله، ورغباته، والعمل على إحياء القيم والفضائل الأخلاقية - في الجانب العملي - بشتى الطرق والوسائل المتاحة. ولا تخفى حاجة هذا العمل المهم إلى جهد مؤسساتي منظم، تتضافر فيه المساعي والخبرات في سبيل مواجهة التحديات، والنهوض بالواقع الأخلاقي للمجتمع المسلم. وقد سعت (مؤسسة الخلق العظيم) لتكون السبّاقة في هذا المجال، وإليك عزيزي القارئ هذه الإطلالة السريعة عليها.

(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها

لقد كان الشعور بالحاجة الملحة للعمل الجادَّ في المجال الأخلاقي، من قبل القائمين على العمل في العتبة الحسينية المقدسة، حافزاً مهماً لإنشاء مؤسسة متخصصة، ينصبَّ جهدها على إحياء النهج الأخلاقي الإسلامي على المستويين: (الفكري النظري، والسلوكي العملي)، ونشره وترويجه بين أبناء المجتمع الإسلامي بطرق ونشاطاتٍ مختلفة، فتمخّضت تلك الجهود المباركة عن تأسيس (مؤسسة الخلق العظيم)، التي اشتقَّ اسمها من قوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)؛ تيمناً بما نعت به الجليل الأعلى نبيّه الكريم ﷺ بهذه الصفة السامية، على أمل أن تسدَّ جزءاً من الفراغ الملحوظ في المجال الأخلاقي.

رؤية المؤسسة

تنطلق المؤسسة من الرؤية الإسلامية للأخلاق، وتتبنى استراتيجية عامة تقوم على ثلاثة عناصر أساسية يمكن أن نُعبّر عنها بـ (الأسس الميتافيزيقية للأخلاق)، وهي:

أولاً: الله تعالى بصفاته الكمالية والجمالية

تنطلق الرؤية الأخلاقية الإسلامية من مبدأ التوحيد، والإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وتبني على أن الله تعالى قد أودع في الإنسان ميلاً فطرياً يدفعه نحو الخير وتحصيل الكمال بإرادته واختياره، وتُعدّ الغاية القصوى للأخلاق هي الوصول إلى القرب الإلهي باعتباره الكمال المطلق، وتكمن السعادة الحقيقية للإنسان في وصوله إلى تلك الغاية والاصطباق بصبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١). فالله تعالى هو الموجد للميل الأخلاقي لدى الإنسان، وهو المقصد والمبتغى الذي يجب على الإنسان التوجه إليه في كل محطّات مسيرته الأخلاقية، وأن يكون التوجه إلى الله عزّ وجلّ هو الروح السارية في كلّ فعالياته الأخلاقية.

ثانياً: النظام الأخلاقي

تعتمد الرؤية الأخلاقية المتبنّاة على أن الله تعالى كما أودع نظامه الأحسن في الكون، والذي يسير فيه كل مخلوق إلى كماله المطلوب، أوجد - كذلك - نظاماً أخلاقياً متكاملاً، من شأنه أن يوصل الإنسان إلى الكمال من خلال رسم الهدف الأسمى له، وتعيين طريقه، وبيان العقبات التي تعترض مساره، وتعيين القدوة

(١) البقرة: آية ١٣٨.

والمرشد في هذا السير، وهو ما تكفل ببيانه الدين الإسلامي الحنيف، بل هو من أهم الوظائف التي بُعث لأجلها سيّد الرسل ﷺ، كما بيّنه بما روي عنه ﷺ: «إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١). ما يعني أنّ هناك نظاماً أخلاقياً متكاملاً ومنسجماً مع فطرة الإنسان، تكفّلت ببيانه الرسالة الإسلامية؛ فيفتحتم علينا التعرّف عليه، واستكشاف ركائزه وتعاليمه، والعمل على نشرها وترويجها والتثقيف عليها بمختلف الوسائل والأساليب.

ثالثاً: الإنسان

يُشكّل الإنسان المحور في السجل الأخلاقي؛ فهو الموضوع الذي تدور حوله كلّ الجهود والفعاليات الأخلاقية بكلّ ما يمتلكه من خصائص وجودية، ونفسية، وطبيعية، وعقلية، وميتافيزيقية، وما له من احتياجات ورغبات وميول، وكلّ ما يؤثر في اتصافه بالصفات الأخلاقية، وفي صدور الأفعال الاختيارية منه. ومن الواضح أنّ كل محاولة تهدف إلى تهذيب الأخلاق الإنسانية يجب أن تنطلق من رؤية صحيحة وواضحة ومتكاملة عن طبيعة تلك الخصائص والميول والمؤثرات. ونعتقد - جازمين - أنّ الرؤية الأخلاقية الإسلامية تتوفّر على قراءة واقعية ودقيقة وتامة وشاملة، تغطّي العناصر المهمة والأساسية في وجود الإنسان وطبيعته وخصائصه وميوله، وكلّ المؤثرات في مسيرته الأخلاقية.

وما ذكرناه - آنفاً - لا يمانع من الانفتاح على العلوم والمعارف المهمة بدراسة الإنسان وشؤون وأبعاده المختلفة، سيّما مع التطوّر الكبير الذي شهدته تلك العلوم وتخصّصاتها الدقيقة، كالعلوم الطبيعية والإنسانية؛ من قبيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)،

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٠.

وعلم النفس (السيكولوجيا)، وعلم الاجتماع (السيسيولوجيا)، وعلم التربية وغيرها، حيث يُمكن الاستفادة من معطيات تلك العلوم والمعارف في المجالات التي تصبُّ في سبيل تحصيل الوعي بخصائص الإنسان، والتعرّف على الوسائل المؤثرة في التربية والتهديب، شريطة أن لا تتصادم مع الأسس العقائدية، ولا تتنافى مع المبادئ والقيم الأخلاقية والتعاليم التربوية الإسلامية.

أهداف المؤسسة

تجدر الإشارة - في سياق الحديث عن مؤسسة الخلق العظيم - إلى الأهداف المتوخاة من وراء تأسيسها؛ إذ تهدف إلى:

١- رفد المكتبة الإسلامية بالنتاجات العلمية التحقيقية في المجال الأخلاقي؛ من خلال تأليف الكتب والموسوعات والبحوث والمقالات العلمية الرصينة.

٢- إحياء التراث الأخلاقي الإسلامي؛ من خلال رصد الكتب والمخطوطات الأخلاقية المهمة، والعمل على تحقيقها ونشرها، وفهرسة التراث الأخلاقي والتعريف به.

٣- النهوض بالجانب الأخلاقي والسلوكي للفرد والمجتمع؛ من خلال نشاطات مختلفة، تخاطب فئات المجتمع من الناشئة والشباب، وطلبة الجامعات، والأساتذة والكوادر العلمية والثقافية والمهنية، وأصحاب الاختصاص في المجال الأخلاقي، فضلاً عن الأسر، والمجتمعات بأطيافها كافة.

٤- رصد المحاضرات والدروس والخطب الأخلاقية النافعة والمؤثرة التي أفادها العلماء والمختصّون في هذا المجال، والعمل على نشرها بأساليب مختلفة؛ كتدوينها وتحويلها إلى كتب، أو نشرها على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٥- إقامة المؤتمرات العلميّة، والندوات البحثيّة المختصّة؛ من أجل إثراء الفكر الأخلاقي، وفتح آفاق بحثيّة جديدة، تتناسب مع روح العصر ومتطلباته، وإقامة الدورات المختصرة في الأخلاق العمليّة، سواء منها ذات الموضوعات العامّة، كالأخلاق الإسلاميّة، أو الخاصّة كالدورات في الأخلاق التطبيقية؛ من قبيل أخلاق الوظيفة، وأخلاق الأسرة، وأخلاق التعليم، وأخلاق المهنة وغيرها.

٦- رصد الظواهر السلبيّة في المجال الأخلاقي، والمشاكل السلوكيّة التي يعاني منها المجتمع، والسعي لتقديم دراسة متكاملة حولها؛ بغية وضع الحلول المناسبة لها.

٧- إعداد البرامج الإعلاميّة التي تُسهم في معالجة المشاكل الفرديّة والاجتماعيّة المختصّة بالجوانب الأخلاقيّة، سواء منها البرامج المُعدّة للبتّ على شاشات التلفاز، أو المناسبة للنشر على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعيّ.

٨- رفد الساحة الفكرية بالنتاجات الأخلاقية المهمّة عبر ترجمتها من اللغات المختلفة إلى اللغة العربيّة، وكذلك ترجمة النتاجات المكتوبة باللغة العربيّة إلى اللغات الأخرى.

٩- فتح آفاق التعاون مع الجامعات والمراكز العلميّة والمؤسسات والشخصيّات المختصّة والمعنيّة بهذا الشأن؛ لترشيد العمل وتطويره، والإفادة من الكفاءات في هذا المجال.

١٠- إعداد كوادِر متخصّصة بالأخلاق الإسلاميّة؛ من أساتذة وخطباء وباحثين.

١١- السعي لإعداد المناهج الدراسيّة في مجال الأخلاق الإسلاميّة، وتقديمها للمدارس الدينيّة، والمدارس والمعاهد والجامعات الأكاديميّة، والمراكز العلميّة الأخرى.

مشاريع المؤسسة

باشرت مؤسسة (الحلق العظيم) بإنشاء جملة من المشاريع في سبيل الوصول إلى أهدافها المنشودة، سواء المشاريع الطويلة الأمد والاستراتيجية أو غيرها، وقد صدر لها بعض الإصدارات في هذا الصدد، فيما سيري بعضها النور قريباً بإذن الله تعالى، وهذه المشاريع هي:

١- موسوعة المواعظ الحسنة

ويعمل هذا المشروع على تدوين وتحقيق خطب الجمعة الدينية ذات المضامين الأخلاقية، التي ألقاها ممثل المرجعية العليا في النجف الأشرف والمتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) في الصحن الحسيني الشريف منذ عام (٢٠٠٣م)، حيث تعمل المؤسسة على إخراجها بصيغة كتاب، بكل ما يتطلبه من تعديل وتحقيق واستخراج للعناوين وغير ذلك.

٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية الألفبائية

يهدف هذا المشروع إلى تأليف موسوعة ألفبائية أخلاقية، أو ما يُسمى بـ(دائرة المعارف الأخلاقية) تهتم بجمع المفاهيم الأخلاقية - والمقصود منها الصفات والأفعال الأخلاقية - مرتبةً بحسب الترتيب الهجائي، وتقديم عرضٍ كاملٍ ومستوفٍ وموثقٍ لكل ما ورد حول تلك المفاهيم وفق الأسلوب المتبع في تدوين الموسوعات ودوائر المعارف؛ من بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي، وبيان حقيقة المفهوم الأخلاقي، ووصفه في القرآن والسنة والتراث الأخلاقي، وبيان أقسامه وأسبابه ومناشئه وآثاره ونتائجه، والآلية العملية للتحلي به إن كان من الفضائل، والتحرز عنه إن كان من الرذائل، وما إلى ذلك من المباحث المتعلقة بكل موضوع؛ وهذا ما يجعل من هذا

المشروع سابقة مهمة في المصنّفات الأخلاقية الشيعية، ومرجعاً مهماً ومعتبراً في الأخلاق الإسلامية.

٣. ترجمة النتاجات الأخلاقية

تهتم المؤسسة بترجمة الكتب الأخلاقية المهمة إلى اللغة العربية وبالعكس، ونشرها بعد المراجعة الدقيقة لها وتقويمها من قِبَل اللجنة العلمية في المؤسسة، وقد تمّ العمل على ترجمة عدة كتب.

٤. مشروع التراث الأخلاقي

يتضمّن تعريفاً مختصراً بالكتب الأخلاقية، وفق الترتيب الهجائي، مع فهرسة تفصيلية للمباحث الأخلاقية في كلّ كتاب، ويتهى بفهرس موضوعي للمباحث الأخلاقية في جميع تلك الكتب؛ ليكون دليلاً نافعاً للمحققين والباحثين.

٥. تأليف سلسلة الفضائل والردائل

تعمل المؤسسة على تأليف سلسلة كتيّبات حول جملة من الفضائل والردائل الأخلاقية، يتمّ من خلالها مخاطبة الشريحة المتوسطة من القراء، وتتناول المواضيع الأخلاقية المهمة وذات الأولوية على الساحة الاجتماعية، لمعالجة أهمّ المشاكل الأخلاقية، والحثّ على مكارم الأخلاق الإسلامية، والترويج لها.

٦. مشروع المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية

تعمل المؤسسة على إقامة سلسلة من المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية، بحضور نخبة من الأساتذة والباحثين المختصّين بالجانب الأخلاقي، لبيان المواضيع الأخلاقية التخصصية المهمة، وعرض أهمّ الآراء والنظريات فيها، كفلسفة الأخلاق، وتاريخ علم الأخلاق، والمدارس الأخلاقية، والمقارنة بين علم الأخلاق والعلوم والحقول المعرفية الأخرى وما شابه ذلك؛ بغية إثراء الساحة

الإنسانية والدينية بالفكر الأخلاقي الرصين الذي يعتمد بالدرجة الأساس على الأسس والمبادئ الإسلامية.

٧. المشاريع الإعلامية

تعمل المؤسسة على إعداد جملة من البرامج الإعلامية المختلفة، سواء منها ما يُعدّ للبتّ التلفزيوني، أو ما يكون مناسباً للنشر على مواقع التواصل الاجتماعي، من مقاطع وملصقات تعليمية وثقافية ذات مضامين أخلاقية.

٨. إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية

من مشاريع المؤسسة الاستراتيجية هو إقامة دورات قصيرة في الأخلاق العملية لمختلف الفئات، يتم فيها تدريس التعاليم الأخلاقية الخاصة بكل فئة من الفئات، وهو ما يتعارف عليه تسمية: (الأخلاق التطبيقية)، كأخلاق الوظيفة، وأخلاق الأسرة، وأخلاق التعليم، وما شابه ذلك.

٩. المكتبة الإلكترونية الأخلاقية

إذ قامت المؤسسة بعملية مسح ميداني في المكتبات والمواقع الإلكترونية وجمع النسخ المتوفرة للكتب الأخلاقية والتربوية؛ لتكون مصدراً مهماً للباحثين في هذا المجال، ليتم العمل على إعداد تطبيقٍ مختصٍّ بالمجال الأخلاقي.

هذا الكتاب

يُعدّ الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - حلقةً من سلسلة نشاطات المؤسسة، وهو جمعٌ وإعدادٌ وتحقيقٌ لمجموعةٍ من الخطب الدينية ذات المحاور الأخلاقية، والتي أُلقيت في الصحن الحسيني الشريف، وصدحت بها حنجرة سماحة

العلامة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته)، وقد لاقت تفاعلاً ملحوظاً من شرائح المجتمع كافة، لما تحمله من كلمات هداية مستقاة من نور الثقلين، ومعالجات ميدانية للعديد من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية التي تعيشها الساحة بلغة سهلة ويسيرة، دون أن تُعَدِّم المضمون العالي، والمعنى الغالي. فدعت الحاجة إلى تدوينها وإخراجها بشكل كتابٍ يُرشف هذه الخطب ويوثّقها، كما من شأنه أن يكون مرجعاً مهماً للخطباء وروّاد المنبر وأئمة الجُمع وبُغاة العلم والمعرفة.

وقد احتوى هذا الجزء من هذه السلسلة ثلاث وثلاثين خطبة أُلقيت بين شهري ذي الحجة عام (١٤٢٧)، وذي الحجة عام (١٤٢٩) للهجرة النبوية المباركة، أي: في الفترة الممتدة من شهر كانون الثاني عام (٢٠٠٧) إلى كانون الأول عام (٢٠٠٨) للميلاد.

منهجنا في العمل

تلخّص عمل المؤسسة بما يلي:

- ١ - تدوين مادة خطب الجُمع المسموعة وتنضيدها حرفياً بشكلٍ دقيق.
- ٢ - إعادة صياغة عبارات الخطب وتقويمها من خلال الحذف والإضافة، وتحويل الجمل من شكلها الخطابي إلى شكلها الكتابي.
- ٣ - تخرّيج العناوين للخطب والمطالب التفصيلية في كلّ خطبة بما يتناسب مع مضامينها.

٤- تحقيق المطالب الواردة في الخطب؛ من خلال:

(أ) تخرّيج الآيات والروايات والأدعية والنصوص الواردة في الخطب وذكر مصادرها.

(ب) توثيق المعلومات الواردة في الخطب من أقوال العلماء وبياناتهم بإرجاعها إلى مصادرها.

ج) توضيح بعض المصطلحات العلميّة والمفردات الغامضة، وتعريف بعض الأعلام ما يُسهم في بيان المعنى المقصود وإيضاحه.

د) إضافة العديد من التعليقات في هامش الكتاب، والتي تتضمّن شواهد نقلية من آياتٍ ورواياتٍ وأقوالٍ للعلماء في تأييد ما ورد في متن الخطبة، وزيادة إيضاحه.

هـ- إدراج بعض الإضافات الضروريّة على متن الخطبة، ملء الفراغ الذي أوجبه الظروف التي أُلقيت فيها الخطب، وقد حاولنا تقليص هذه الإضافات قدر الإمكان؛ للحفاظ على مضامين الخطب ومستواها.

وقد ساهم عدّة من الإخوة الأفاضل في إعداد هذا الجزء، وهم كلّ من: الشيخ حيدر النصر اوي، والشيخ عصام العلي الذي تولّى تدوين معظم خطب هذا الجزء، والشيخ يوسف العلي، والأخ نجم الويس، فقد تنوّعت جهودهم في سبيل إنجاز هذا العمل بمراحله المتقدمة من خلال تدوين مطالب هذه الخطب وإعادة صياغتها وتحقيقها وتقويمها وإخراجها، ف شكر الله سعيهم وبارك جهودهم، وأحسن جزاءهم.

وقد كان للأساتذة الكرام أعضاء اللجنة العلميّة في مؤسسة الخلق العظيم جهودٌ متواصلة في الإشراف العلمي على العمل والمراجعة المتأنّية للكتاب وإبداء الملاحظات القيّمة التي أسهمت في خروجه بهذه الحُلّة القشبيّة، ف شكر الله سعيهم وجزاهم خير جزاء المحسنين.

ونرى لزماً علينا أن نتقدّم بالشكر والامتنان لسماحة المتولّي الشرعي للعتبة الحسينيّة المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته)، على رعايته

للمؤسسة ودعمه لمشاريعها، فنسأل الله تعالى أن يمدّ في عمره، ويجعل هذا المشروع المبارك ذخراً له ولنا.

وختاماً: نرجو أن يساهم هذا العمل المتواضع في التعريف بشيء يسير من معارف القرآن الكريم والعترّة الطاهرة عليهم السلام، وأن يشارك في نشر الفضيلة والخلق الرفيع في مجتمعاتنا الإسلاميّة، ونسأل الله تعالى أن يتقبّل منّا ومن القائمين على هذا العمل والمنجزين له بأحسن القبول، وأن يجعله ذخراً لنا ولهم جميعاً يوم نلقاه؛ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١).
والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

اللجنة العلميّة في مؤسسة الخلق العظيم

٢٥ / رمضان المبارك / ١٤٤٢ هـ

٨ / ٥ / ٢٠٢١ م

الخطبة الثالثة والستون

دروس أخلاقيّة من النهضة الحسينيّة المباركة

القسم الأوّل

بتاريخ: ١٩ / ١ / ٢٠٠٧م

➤ مفهوم النصر وحقيقته

➤ الدروس والعبر المستوحاة من واقعة كربلاء وسيرة المعصومين عليهم السلام

﴿ أولاً: دروسٌ حسيّّةٌ للقادة والمسؤولين

١- ضرورة السعي للإصلاح في المجتمع

٢- الشجاعة في قول الحقّ ومجابهة الباطل

٣- ديمومة الارتباط الروحي مع الله تعالى

٤- تقوية الارتباط والانفتاح بين المسؤولين وعامة الناس

٥- تبني سياسة نكران الذات

نصائح وتوصيات للإخوة المسؤولين في الدولة

﴿ ثانياً: دروسٌ حسيّّةٌ إلى عامة الناس

١- الصبر والتضحية

٢- الاستعداد للتضحية

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من فضله، ودليلاً على آلائه وعظمته.

أوصيكم ونفسي الأمانة بالسوء بتقوى الله تعالى، والسير على نهج أبي الأحرار سيّد الشهداء عليه السلام، بمقارعة الظلم والفساد والانحراف، وقول الحق، والوقوف في وجه الباطل، ونحن على أبواب العشرة الأولى من شهر محرّم الحرام، حيث تتجدّد لنا في كلّ عام أعظم فجيعة، وأكبر مصيبة، باستشهاد السبط الشهيد الإمام الحسين عليه السلام، ولا بدّ هنا أن نأخذ من ملحمة كربلاء دروساً وعبراً، ولكن لا بدّ أن ننتقي من هذه الدروس الكثيرة والعبر ما ينفعنا فيما نمرّ به من ابتلاءات في الوقت الحاضر، وقبل الخوض في ذلك لا بدّ من التطرّق إلى تحديد مفهوم النصر، وماذا يعني في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وكيف يمكن أن يتحقّق؟

مفهوم النصر وحقيقته

النصر الحقيقي هو الثبات على الحقّ، ووضع الأمّة الإسلاميّة على مسارها الصحيح، وإقامة معالم الدين وحدوده، وليس من الصحيح أن نتخذ في مفهوم النصر الحقيقي الوصول إلى مواقع القيادة والاستئثار بالسلطة، نعم، من الضروري اعتبار الوصول إلى هذه المواقع وسيلة وآلية إلى تطبيق أحكام الله تعالى، فمتى ما كانت السبل متاحة لا بدّ - هنا - للقادة الإسلاميين أن يصلوا إلى مواقع الدولة، حتّى يستطيعوا تطبيق أحكام الله تعالى، ولكن عليهم أن ينتبهوا أن لا يكون تحقيق المكاسب السياسيّة والعسكريّة على حساب مخالفة أحكام الله تعالى، فعليهم أن

يقدّموا المواقف التي تكون موافقة لحكم الله تعالى، ومن الشواهد على ذلك موقف مسلم بن عقيل عليه السلام حينما طُلب منه أن يقتل عبيد الله بن زياد، وكان من الممكن له ذلك، ولكنه امتنع عن ذلك ووقف في مفترق طريقين، إمّا أن يقتل هذا الطاغية، فيحقق نصراً عسكرياً وسياسياً سريعاً، ويكون بذلك الفعل قد خالف أحكام الله تعالى، وإمّا الامتنال للحكم الشرعي وعدم الفتك بالعدو، ليخرج بذلك عن قبضته وقد لا تتحقق له الفرصة في قتله فيما بعد، فاختار ما يُرضي الله عزّ وجلّ، وحينما عُوتب بعد ذلك، وقيل له: لم لا قتلت عبيد الله بن زياد، وهدفك وهدف أصحابك هو التخلص من هذا الطاغية^(١)؟! أجاب: إنّ ذلك كان لخصلتين: الأولى: كراهة هاني لقتله في داره.

الثانية: حديث النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتَكِ؛ فَلَا يَفْتَكُ مُؤْمِنٌ»^(٢).

ومن أجل أن لا يقع مسلم بن عقيل في أثم الغدر، وحرصه على أن يُطبّق الحكم الإلهي؛ امتنع مسلم عليه السلام عن تحقيق هذا النصر العسكري والسياسي بهذه الطريقة؛ لأنّه يُعدّ مخالفة لحكم من أحكام الله تعالى. وهذا النموذج الفذّ الذي قدّمته مدرسة الإمام الحسين عليه السلام ينبغي أن يُقتدى به، فكثير ما يتعرّض القادة العسكريون، وكذلك السياسيون إلى حالة من الضغط النفسي، بسبب كثرة

(١) إشارة إلى المحاورة التي دارت في بيت هاني بن عروة بين مسلم بن عقيل وشريك بن الأعور، حيث قال له شريك: «ما منعك من قتله؟ فقال: خصلتان، أمّا إحداها فكراهية هاني أن يُقتل في داره، وأمّا الأخرى فحديث حدّثنيّه الناس عن النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتَكِ فَلَا يَفْتَكُ مُؤْمِنٌ، فقال له شريك: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقاً فاجراً كافراً غادراً». الأصفهاني، علي بن الحسين، مقاتل الطالبين: ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٥.

التضحيات، وكذلك بعض الظروف التي تجعلهم تحت هذا الضغط النفسي، وضغط الجماهير، وربما يكون هناك ارتكاب لموقفٍ يخالف حكم الله تعالى.

ومن خلال دراسة سيرة الأئمة عليهم السلام؛ يتّضح لنا أنّ النصر الحقيقي في نظرهم هو في تطبيق أحكام الله تعالى، وتحقيق رضاه، وحمل الأُمة على المسار الصحيح، وإقامة معالم الدين وليس في تحقيق النصر السياسي أو العسكري على حساب مخالفة الأحكام الشرعية.

ونحن نعيش في العراق وفي بعض البلدان الإسلامية في ظلّ هذه الظروف الصعبة؛ حيث يحاول أعداء الإسلام تأجيج الفرقة والاحتراب الطائفي وإثارة الفتن، في الكثير من الدول الإسلامية، فلا بدّ أن نتبّه خاصّة ونحن أتباع أهل البيت عليهم السلام على أن يكون هدفنا دائماً هو تطبيق أحكام الله تعالى، وتحقيق رضاه، وإن كلفنا ذلك الكثير من التضحيات والدماء؛ لأنّ الهدف الأسمى في الحياة إنّما هو تطبيق أحكام الله تعالى؛ وهذا درس نتّخذه من سيرة الإمام الحسين عليه السلام.

الدروس والعبر المستوحاة من واقعة كربلاء وسيرة المعصومين عليهم السلام

يُمكننا أن نستخلص الكثير من الدروس والعبر من واقعة الطف، سواء ما كان منها يخصّ القادة والمتصدّين لشؤون السياسة والإدارة، أو ما كان لعموم الناس بمختلف طبقاتهم. وسوف نعرض بعض تلك الدروس في نقطتين:

أولاً: دروسٌ حسينيةٌ للقادة والمسؤولين

١. ضرورة السعي للإصلاح في المجتمع

لا بدّ أن نأخذ من كلمات الإمام الحسين عليه السلام وأقواله هدفاً ومقصداً لنا في

الحياة الدنيا، وخاصة الإخوة المسؤولون، قال الإمام عليه السلام: «...وأني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً؛ وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي عليه السلام، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق»^(١)، فنلاحظ من خلال هذا البيان أن الهدف الأساسي الذي قصده الإمام عليه السلام هو تحقيق الإصلاح، على جميع مستويات الحياة؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذه المفردات المتعددة من الإصلاحات كان المجتمع الإسلامي في وقته بأمس الحاجة إليها.

وهناك بعض المفردات الأخرى التي تُحقق هذا المقصد، وربما تكون حاكية عنه في كثير من الأحيان.

وهي أن يُلاحظ المسؤولون الذين تولّوا إدارة أمور الناس - سواء أكانوا في المواقع العليا أو الدنيا - أن عليهم جميعاً أن يتحمّلوا مسؤولية إعادة الحق إلى نصابه، وأن يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، وعليهم - أيضاً - أن يتعدوا عن الأهداف التي تحقّق مكاسب شخصية، وعن كلّ ما يجعل هذا الموقع وسيلة لتحقيق ذلك، وأيضاً الحفاظ على تطبيق أحكام الله تعالى؛ وهو ما نلاحظه من خلال دراسة سيرة الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام، بل حتّى أصحابهم كانوا كذلك، وقد بينت الموقف الذي تبناه ابن عمّ الحسين عليه السلام الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام، عندما سنحت له الفرصة المؤاتية للفتك بعبيد الله بن زياد، فكان له موقف آخر في هذه الحادثة يكشف عن تقوى عالية وقيم رجولية وأخلاقية رفيعة؛ من خلال التمسك بأحكام الله تعالى، وعدم سلوك طريق الغدر والخيانة، من أجل الوصول إلى بعض الأهداف، وإن كانت مشروعة إذا ما قورنت بالنتيجة المترتبة

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

على هذا الإقدام وهو الفتك؛ أي: الغدر بشخص وإن كان بهذا المستوى من الانحراف والظلم كعبيد الله بن زياد، ولكنّ الحسّ الأخلاقي والنبيل وما يترتب على ذلك من مخالفة لله رسوله، هو الذي منعه من الإقدام على هذا الأمر.

٢. الشجاعة في قول الحق ومجابهة الباطل

هذه النصيحة عامّة لا تختصّ بالمسؤولين، بل هي شاملة لجميع شيعة أهل البيت (عليه السلام)؛ حيث يتطلّب الأمر في بعض الأحيان أن تقف أمام المشركين لكي تقول الحقّ، وتنادي به، وتارة أمام طرف ضالّ إرهابيّ، أو جهة تكفيرية ضالّة ومنحرفة، وتارة أخرى تقف بين أصحابك لتدعو إلى تطبيق الحقّ أمام المفسدين، والمنحرفين، وسُرّاق المال العام، ونلاحظ هذه المواقف في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) حينما وقف أمام أعداء الدين الإسلامي من المشركين والمنحرفين، ثمّ جاء الدور بعد ذلك إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما وقف أمام الناكثين والقاسطين والمارقين، وكذلك في توجيهاته لولّاته وأصحابه، فكان لا يهاب قول الحقّ وبكلّ شجاعة، حتّى لو كان المعنيّ من بعض أصحابه وقادته؛ لكي لا يسمح للباطل أن يسود، وكذلك كان الإمام الحسين (عليه السلام) في تجسيده للحقّ عندما وقف في وجه بني أميّة الظالمين، وقال الحقّ غير آبه بالموت.

وكذلك ما نحن فيه، حيث نحتاج إلى نماذج من القادة والمسؤولين يتحلّون بهذه الصفة؛ لأجل إدامة المسيرة في قول الحقّ، والوقوف أمام المنحرفين المفسدين، وإن تطلّب هذا الأمر التضحية بالنفس في بعض الأحيان.

ولا بدّ أن تكون للإنسان الجرأة والشجاعة في قول الحقّ، وأن لا يسمح للباطل أن يعلو ويسود، حتّى وإن تطلّب هذا الموقف التضحية بالنفس وبالموقع والمنصب والمكانة، ومّا يؤسّف له أنّنا نلاحظ بعض الحالات التي تتمّ فيها المداهنة

والتساهل والتسامح مع بعض الأشخاص؛ لكونه من الجهة الفلانيّة، ومن التيّار الفلاني، فلا بدّ أن تكون هناك جرأة وشجاعة كما فعل الحسين عليه السلام حينما فضح معاوية الطاغية المستبد؛ فكشف مواقفه وأفعاله المنافية لأحكام الإسلام، وكذلك حينما وقف عليه السلام أمام والي المدينة وبين حقيقة يزيد، وفضل أهل البيت عليهم السلام، وهذا الموقف يكشف عن الشجاعة والجرأة التي يتحلّى بها الإمام عليه السلام في قول الحقّ.

فكما لو كان الإنسان يعيش في دولة فيها حاكم ظالم مستبدٌ يقتل كلّ مَنْ حاول الوقوف بوجهه، ومع ذلك تجده يجهر أمام الناس بأنّ هذا الحاكم ظالم ومستبد، ويبيّن للجميع حقيقة هذا الحاكم، وأنّه لا يستحقّ المنصب الذي هو فيه؛ فكان الإمام الحسين عليه السلام في مناداته بهذا الحقّ، هو أعظم من جسّد دور الثائر والبطل والمصلح. ولهذا فالحسين عليه السلام حاضرٌ في وجدان كلّ إنسانٍ له ضميرٌ حيّ، وذكره واستذكار مواقفه الأبيّة هو أهمّ محفّز نحو التطلّع لحياة كريمة وحرّة وعادلة.

٣. ديمومة الارتباط الروحي مع الله تعالى

نمّا نحتاج إليه في حياتنا وله أهميّة كبيرة ومؤثّرة؛ هو طبيعة التواصل الروحي الدائم مع الله تعالى، وعدم انقطاع القادة والمسؤولين في الدولة في هذه الظروف السياسيّة الصعبة، والمحن والابتلاءات التي يمرّون بها، وضرورة ديمومة هذا الارتباط بالله تعالى؛ لأنّ بعضهم في ظلّ هذه المحن والإغراءات الدنيوية، قد يضعف عنده الالتزام بالأحكام الشرعيّة، وربّما قد يسلك سلوكاً يُعدّ مخالفاً لأحكام الله تعالى؛ ولأجل ذلك فنحن نحتاج في كلّ يوم في هذه الظروف أن يكون لدينا اتصال دائم مع الله تعالى، ولو نظرنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام في معركة صفّين، وفي تلك الليلة المسماة بـ(ليلة الهير) ^(١)؛ وهي أشدّ ليلة مرّت على الإمام وأصحابه، مع

(١) من ليالي حرب صفّين، وهي ليلة الجمعة الحادي عشر من صفر سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة. وقد

ذلك لم يترك الصلاة^(١)، وإن كانت الصلاة صلاة الخوف، ولكننا نجد أن الإمام عليه السلام كان حريصاً على هذا الاتصال الروحي الدائم في أحلك الظروف، فهو بذلك يعزز حبل الوصل مع السماء؛ لكي يعزز تحقيق الهدف من إقامة الدين. وهذه الضرورة في تقوية الارتباط بالله تعالى لا تختص بالمسؤولين فقط، بل



سميت بذلك حيث كان القوم فيها لا ينطقون، بل كان لهم هَرير، كَهَرير الكلب، «وهو دون النُبَّاح من قلة صبره على البرد». أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٥، ص ٢٦٠. قال المسعودي في وصف ليلة الهريز: «... واختلط الناس، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجَنَّهم الليل، وتنادوا بالشعار، وتقصفت الرماح، وتكالم دم القوم، وكان يعتنق الفارسُ الفارسَ ويقعان جميعاً إلى الأرض عن فرسيهما، وكانت ليلة الجمعة، وهي ليلة الهريز، فكان جملة مَنْ قَتَلَ عليَّ عليه السلام بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلاً أكثرهم في اليوم؛ وذلك أنه عليه السلام كان إذا قتل رجلاً كَبُرَ إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلَّا قتل، ذكر ذلك عنه مَنْ كان يليه في حربه، ولا يفارقه من ولده وغيرهم. وأصبح القوم على قتالهم، وكسفت الشمس، وارتفع القتام، وتقطعت الألوية والرايات، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة...». المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب: ج ٢، ص ٣٨٩. انظر أيضاً: ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٩٨. (١) روى الحر العاملي عن الحسن بن محمد الديلمي في الإرشاد قال: «كان علي عليه السلام يوماً في حرب صَفِّين مشغولاً بالحرب والقتال، وهو مع ذلك بين الصَّفِّين يراقب الشمس، فقال له ابن عبَّاس: يا أمير المؤمنين، ما هذا الفعل؟ قال: أنظر إلى الزوال حتَّى نُصَلِّي، فقال له ابن عبَّاس: وهل هذا وقت صلاة؟ إنَّ عندنا لشغلاً بالقتال عن الصلاة، فقال عليه السلام على ما نقاتلهم؟ إنَّما نقاتلهم على الصلاة، قال: ولم يترك صلاة الليل قطَّ حتَّى ليلة الهريز». الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٤، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

تشمل غيرهم من المكلفين، فهم كذلك يمرّون بمواقف صعبة قد تستمرّ لأشهر وسنين، وطول المدّة من البلاء والاختبار قد يُضعف العامل الروحي، وقابليّة الصمود والثبات؛ فلذا يقتضي منّا المواظبة على الصلاة الدعاء والصمود؛ من أجل ديمومة الترابط الروحي مع الله تعالى.

وهذا ما نراه جليّاً في سيرة سيّد الشهداء عليه السلام، حيث لم ينقطع عن العبادة والارتباط الروحي بالله عزّ وجلّ في أحلك الظروف وأشدّ المحن، فنراه يصرف القوم عن القتال، ليتفرّغ ليلة عاشوراء لغرض التزوّد من العبادة والتقرب إلى الله تبارك وتعالى^(١).

٤- تقوية الترابط والانفتاح بين المسؤول وعامة الشعب

كثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُوصي أصحابه، كما نلاحظ ذلك في نهج أهل البيت عليهم السلام، بالانفتاح على عامة الناس^(٢)؛ وهذا مقوم أساسي وجوهري من مقومات

(١) ذكر المؤرخون أنّ عمر بن سعد أمر الجيش بالزحف على معسكر الحسين عليه السلام عصر يوم التاسع من المحرم، فأمر الحسين عليه السلام أخاه العباس عليه السلام أن يصرفهم إلى صباح يوم العاشر، وقال عليه السلام له: «ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخّره إلى غدوة لعلنا نصليّ لربنا هذه الليلة، وندعوه ونستغفّره؛ فهو يعلم أنّي كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار». أنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥٧.

(٢) روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «خالطوا الناس بألستكم وأجسادكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم». المفيد، محمّد بن محمّد، الأمالي: ص ١٣١.

وعن حذيفة بن منصور قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ قوماً من قريش قلّت مُدارئهم للناس فأنفوا من قريش، وأيم الله ما كان بأحسابهم بأس، وإنّ قوماً من غيرهم حسّنت مُدارئهم فألحقوا بالبيت الرفيع. قال ثمّ قال: من كفّ يده عن الناس فإنّها يكفّ عنهم يداً واحدة،

التلاحم والتواصل بين القواعد الشعبية والجاهريّة - كما نُسَمِّيها - مع القادة؛ لكي تبقى الدولة قويّة من خلال هذا التلاحم والتواصل بين القادة والرعيّة، ولو لاحظنا كلمة أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «أيما رجلٍ ولي شيئاً من أمور المسلمين، فأغلق بابه دونهم وأرخصي ستره؛ فهو في مَقْتٍ من الله عزّ وجلّ، ولعنته حتّى يفتح بابه، فيدخل إليه ذو الحاجة ومَن كانت له مظلمة»^(١).

وربّما يكون هناك الكثير من أبناء الأُمّة ممّن لديهم حاجات لا يستطيعون الوصول إلى المسؤول كي يقضي حوائجهم، والكثير منهم ربّما يتعرّض إلى الإهانة فيما لو حاول الوصول.

فلا بدّ أن يُوجَد المسؤول طريقاً يستطيع المواطن الوصول إليه من خلاله، من أجل رفع ظلامتهم، ولو لم يمدّ المسؤول جسر التواصل، وطريق خدمة المواطنين من خلال القرب منهم ومعرفة همومهم ومشاكلهم؛ فحينئذٍ ستحصل الفجوة الواسعة بين المواطنين، وبين المسؤولين، وربّما تؤدّي إلى الانهيار في العلاقة بين الطرفين، وهذا أمر في غاية الأهميّة يجب على المسؤولين الانتباه له.

٥- تبني سياسة نكران الذات

وهذه السياسة قد عمل بها رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام فقد كانا يعيشان كعامّة الناس من الفقراء في كلّ مفردة من مفردات حياتهم اليوميّة، فقد ورد عن



ويكفّون عنه أيادي كثيرة». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢ ص ١١٧، باب ٥٧، الحديث ٦.

(١) الطبرسي، علي بن الحسن، مشكاة الأنوار: ص ٥٤٥، ح ١٨٢٥.

أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دُنياه بطمَريه، ومن طُعمه بِقُرصيه... فوالله ما كنزت من دُنياكم تَبْراً، ولا ادَّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبِي طمراً...»^(١) فلا بدّ للقائد والمسؤول أن يُشعرا الأمة وعامة المواطنين؛ بأنّه اعلى هذا الموقع لخدمة الناس، لا يريد من ذلك تحقيق مكاسب شخصية ذاتية؛ وحينئذ سيكون التلاحم والتواصل كبيرين بين قواعد الأمة وبين الدولة ومسؤوليها.

نصائح وتوصيات للإخوة المسؤولين في الدولة

ولا بأس أن نذكر هذه المقترحات حيث نريد أن ننوّه إلى أمر:

من الواضح أنّ دور المرجعية هو دور الإرشاد والنصح، وما نذكره ليس المقصود منه توهين الحكومة، أو جهة معينة، أو مسؤول معين، فإنّ الحكومة الفعلية تمثل إرادة الناس، وقد حصل هذا بفضل توجيهات المرجعية الدينية العليا، فلا نقصد منه إلّا الإرشاد والنصح، بعد هذه المقدمة نعود إلى أهمّ المقترحات كما نراها في هذا المجال.

١- لا بدّ أن يظهر كلّ مسؤول - مهما كان موقعه - أنّه لا ينبغي من وراء هذا الموقع إلّا تقديم الخدمة للناس، وعدم جعل المكاسب الشخصية هي المحرك للعمل في الموقع الذي يشغله، وعليه أن يُشعر المواطن بالإيثار على نفسه ومقرّبيه، كمن كان متمكناً من الحصول على مقعد للذهاب إلى الحج، ولكن مع ذلك يترك هذا الحقّ إيثاراً منه، وتقديماً لغيره على نفسه؛ من أجل إشعار المواطن أنّه لا يرتجي من ذلك أن يحقق مكسباً شخصياً.

٢- هناك مقترح ربّما يظنّ بعضنا أن لا أثر معنوياً كبيراً له؛ وهو أنّ المسؤولين

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ص ٤١٧.

يمكنهم أن يستقطعوا جزءاً من رواتبهم، وهو ما يفيض عن الحاجة بعد سدّ الاحتياجات الأساسية، ويتبرّعوا به للمحتاجين من المهجّرين والمعوّزين؛ وهذا العمل له آثار كبيرة؛ منها: أنّه يشجّع الآخرين ويدفعهم نحو الاتصاف بصفة الإيثار، وحبّ الآخرين، والتضحية بالمال من أجلهم، وفي نفس الوقت إشعار جميع الناس أنّ هذا المسؤول يعيش مثل معيشتهم، وليس هناك فرق بينه وبينهم.

وخير شاهد على هذا الإيثار هو ما حصل في بيت عليّ والزهراء عليهما السلام، عندما مرض الحسن والحسين عليهما السلام فنذروا أن يصوموا ثلاثة أيّام إن شُفيا، وبعد أن شُفي الحسنان وأراد عليّ وأهل بيته الوفاء بالنذر، فكان في كلّ ليلة^(١) يطرق بابهم سائل

(١) عن الصادق، عن أبيه عليه السلام، في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنذَرِ﴾، قال: مرض الحسن والحسين عليهما السلام وهما صبيان صغيران، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه رجلان، فقال أحدهما: يا أبا الحسن، لو نذرت في ابنك نذراً إن الله عافاهما. فقال: أصوم ثلاثة أيّام شكراً لله عزّ وجلّ، وكذلك قالت فاطمة عليها السلام، وقال الصبيان: ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيّام، وكذلك قالت جاريتهم فضّة، فألبسها الله عافية، فأصبحوا صياماً وليس عندهم طعام.

فانطلق عليّ عليه السلام إلى جاري له من اليهود يُقال: له شمعون، يعالج الصوف، فقال: هل لك أن تُعطيني جِزّة من صوف تغزلها لك ابنة محمّد بثلاثة أصوع من شعير؟ قال: نعم. فأعطاه فجاء بالصوف والشعير، وأخبر فاطمة عليها السلام فقبلت وأطاعت، ثمّ عمدت فغزلت ثلث الصوف، ثمّ أخذت صاعاً من الشعير، فطحنته وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراص، لكلّ واحد قرص، وصلى عليّ عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله المغرب، ثمّ أتى منزله، فوضع الخوان وجلسوا خمستهم، فأول لقمة كسرها عليّ عليه السلام إذا مسكين قد وقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون أطعمكم الله على موائد الجنّة. فوضع اللقمة من يده،

عند الإفطار، وكانوا يعطونه ما عندهم من طعام تصدّقا، وكان التصدّق بأقراص من الخبز ليس لها قيمة ماديّة كبيرة، ولكن من حيث الحاجة إليها لسدّ الجوع، كانت حاجة ملحّة، أمّا القيمة المعنويّة فهي كبيرة عند الله تعالى؛ لأنّها تكشف عن نفوس وقلوب سمت إلى مرتبة عالية؛ ولذلك نزلت آيات قرآنيّة كريمة تخلّيدا لهذا الحدث^(١)، فأقراص من الخبز عبّرت عن مجموعة من الصفات الأخلاقيّة الحميدة،



وعمدت فاطمة إلى ما كان على الخوان فدفعته إلى المسكين، وباتوا جوعاً، وأصبحوا صياماً لم يذوقوا إلّا الماء القراح.

ثمّ عمدت إلى الثلث الثاني من الصوف فغزلته، ثمّ أخذت صاعاً من الشعير فطحته وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراص، لكلّ واحد قرص، وصلى عليّ عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ أتى منزله، فلمّا وضع الخوان بين يديه وجلسوا خستهم، فأولّ لقمة كسرها عليّ عليه السلام إذا يتيم من يتامى المسلمين، قد وقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، أنا يتيم من يتامى المسلمين، أطعموني ممّا تأكلون، أطعمكم الله على موائد الجنّة. فوضع عليّ عليه السلام اللقمة من يده، ثمّ عمدت فاطمة فأعطته جميع ما على الخوان، وباتوا جوعاً لم يذوقوا إلّا الماء القراح، وأصبحوا صياماً، وعمدت فاطمة رضي الله عنها فغزلت الثلث الباقي من الصوف، وطحنت الصاع الباقي وعجنته، وخبزت منه خمسة أقراص، لكلّ واحد قرص، وصلى عليّ عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ أتى منزله، ففرب إليه الخوان، وجلسوا خستهم، فأولّ لقمة كسرها عليّ إذا أسير من أسراء المشركين قد وقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، تأسرونا وتشدّونا ولا تُطعمونا؟! فوضع عليّ عليه السلام اللقمة من يده، وعمدوا إلى ما كان على الخوان فأعطوه، وباتوا جوعاً، وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شيء. أنظر: الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٣٢٩ - ٣٣٢.

(١) إشارة إلى الآيات من سورة الإنسان: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرُحْمَةِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (١٠) ﴿فَوَقَّهَمُ اللَّهُ سُرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ (١١) ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾. الإنسان: آية ٨ - ١٢.

والسموِّ القلبي والروحي؛ فخلّدها الله تعالى، وخلّدها القرآن على مدى مئات من السنين، من خلال الآيات القرآنية التي نزلت في حقهم ﷺ. فهذا المقترح من أجل تحقيق هذا الأثر المعنوي الذي نحتاج إليه في وقتنا الحاضر، وليس من أجل تحقيق أثر ماديّ بسيط.

٣- هناك اقتراح آخر أرجو من الإخوة المسؤولين العمل به، وله الأثر المعنوي أيضاً، وهو أنّ الكثير من الناس يعيشون معاناة نقص الخدمات، وليكن المسؤول شاعراً بمعاناة عامّة الناس، كما في الجانب الأمني والخدمي، وليس هناك اعتراض على كثرة الحمايات، فإنّ تأمين حياتهم مطلوب وضروري؛ للحفاظ على أرواح القادة والمسؤولين، ولكن نطلب منه؛ أي: المسؤول أن يعيش حالة المعاناة ويستشعرها جيداً مثلاً: في الشتاء الشديد البرودة، بلا وسائل تدفئة، وكذلك يحس بمن يفتقر إلى أبسط مقومات الحياة وأهمها وهي الكهرباء وكيف إذا بقي لساعات بدون الكهرباء، وإن كانت هذه الأعمال ليس لها ذلك التأثير، إنّما التأثير المعنوي هو المهمّ والمطلوب، وعلى المسؤولين أن يعرفوا أنّ ما جعل أمير المؤمنين عليه السلام مخلّداً هي مجموعة من هذه المقومات؛ حيث كان الإمام عليه السلام يعيش عيشة الفقراء، وعامّة الناس، وقد شاركهم في معاناتهم وهمومهم وآلامهم، فهذه الأعمال يمكن أن تكون صغيرة، ولكنّها أثراً معنوياً كبيراً، خلّد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام طيلة هذه القرون.

ثانياً: دروسٌ حسينيةٌ إلى عامّة الناس

بعد ما تقدّم من توجيهات ونصائح لطبقة المسؤولين؛ نتوجّه بالكلام إلى عامّة الناس، من خلال الاستيعاب لمجموعة من الدروس:

١- الاستعداد للتضحية

في ظلّ هذه الظروف والمحن والابتلاءات والمعاناة، وحيث الدم ينزف في كلّ

يوم، ولا يقتصر الأمر فقط على أن هناك أرواحاً طاهرة تذهب ضحية العنف والإرهاب في العراق، بل هناك آباء مفجوعون، وأمّهات ثكالى، وأطفال يتامى، وهناك عوائل مهجرة... وقائمة المعاناة كبيرة جداً، وما هو مطلوب منا من خلال الدرس والعبرة التي ينبغي أن نأخذها من الإمام الحسين عليه السلام؛ هي أن يكون المؤمن والموالي على استعداد تام في كل وقت لتقديم التضحية من أجل الحفاظ على الإسلام، ورفع المذهب، والسير بسيرة الحسين عليه السلام، ولا بد أن يكون التلقي لهذه التضحيات بالقبول والرضا، والتسليم لقضاء الله تعالى؛ طالما أنه يسير على الحق، وهذا المعنى نجده في الحوار الذي جرى بين الإمام الحسين وعلي الأكبر عليه السلام، حينما استرجع الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى كربلاء قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فأقبل إليه ابنه علي بن الحسين، فقال: ممّ حمدت الله واسترجعت؟ فقال: يا بُنيّ إني خفقت خفقة فعنّ لي فارس على فرس، وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمت أنّها أنفسنا نُعيت إلينا، فقال له ابنه: يا أبت لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه المرجع والمعاد، قال: إذن لا نبالي أن نموت مُحَقِّقِينَ، فقال له الحسين: جزاك الله من ولد خير ما جرى ولداً عن والد^(١)، فمهما كان حجم التضحيات في واقعة الطف كبيراً جداً؛ كان علي بن الحسين عليه السلام يريد أن يقول لنا - ولكل الذين يحملون راية الحق والدفاع عن الحق -: لا تُبالوا، لا تكثرثوا، ولا تهتمّوا ما دتم على الحق، فهذا الموقف هو المطلوب منا دائماً، وستكون النتيجة والثمار هي العزة والرفعة والكرامة، لهؤلاء الذين يدافعون عن الحق، والثواب العظيم، في الآخرة، ولنعلم أن فترة المحنة والابتلاء قصيرة مهما طال، وسوف يعقبها نعيم دائم في جنان الله تعالى، ورضوان من الله أكبر.

(١) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٥١.

٢. الصبر والصمود

ومن الدروس التي ينبغي - أيضاً - أن نأخذها بنظر الاعتبار، هو الصبر والصمود والثبات، إلى أن يمنّ الله تعالى علينا بالفرج، كما نلاحظ الإمام الحسين عليه السلام والأئمة عليهم السلام في مسيرة حياتهم المليئة بالتضحيات، فكان الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطف تتساقط أولاده وأولاد أصحابه أمامه، حتى الطفل الرضيع يُذبح بين يديه، وجسمه قد ضعف من كثرة الجراح التي أصابته، مع ذلك نجده صامداً صابراً، ولم ينتهِ الأمر على آل البيت عليهم السلام، بل استمرّ في مرحلة جديدة وهي مرحلة السبي، التي حصلت لبنات الرسالة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، فكان هذا الخطّ يمثل خطّ الصمود، والصبر، والثبات، والمقاومة، والذي كانت نتيجته وثمرته الخلود والفوز والعزة والكرامة، للدين والمذهب، والفوز الأعظم سيكون في الآخرة، هذا درس آخر أوجّهه لجميع الذين يقدمون الآن التضحيات الجسام، وكما هو في معركة الطفّ فإنّ الكثير من الآباء يرون أبناءهم مقطّعة رؤوسهم، ويرون هذه الابتلاءات وهذه التضحيات الكثيرة في كلّ يوم، ولكن لا بدّ من هذه المسيرة حتى يظهر الإسلام الحقيقي ناصعاً قوياً معافى، ولا بدّ أن تكون هذه المسيرة مسيرة التضحيات والدماء، وإن شاء الله يكون هؤلاء مع الإمام الحسين عليه السلام.

أودّ أن أختتم الخطبة بهذا الحديث الذي ذكره الزمخشري في الكشف، وهو من علماء العامة ومفسّريهم، ينقل هذا الحديث عندما تعرّض إلى آية المودّة، وهذا الحديث لا بدّ أن نحفظه؛ لأنّه يمثل لنا دعماً معنوياً وروحياً كبيراً في مسيرة التضحية.

رُوي عن النبي ﷺ: «مَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مات شهيداً، أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مات مغفوراً له، أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مات تائباً، أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مات مؤمناً مستكمل الإيمان....»، ويتّضح لنا في الوقت الحاضر حينما نقدّم مثل هذه النماذج الرائعة وهم يقدمون أنفسهم قرايين على درب الولاء والمحبة لمحمد وآله الطاهرين، ومن أجل الثبات على حبِّ آلِ محمد؛ فإنّنا نقدّم كوكبة من الشهداء؛ فهم في عداد الشهداء عند الله تعالى.

ومن هنا أوجّه خطابي إلى الآباء الذين قدّموا أبناءهم قرايين في سبيل حبِّ آلِ محمد، وأخاطب الأمّهات الشكالي بأبنائهنّ، وأخاطب الزوجات اللواتي فقدن أزواجهنّ، إذا كنتم تريدون الاطلاع على حال هذه القرايين، وما هو حالها في ذلك العالم، يمكن معرفة ذلك من خلال تتمة الحديث، قال: «أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بشره ملك الموت بأنّ له الجنة ثم منكر ونكير...»، ثم كي تفرحوا أكثر؛ اطلّعوا على حالٍ آخر يُسعدكم، ويجعلكم تتمنّون أن يكون حالكم حال هؤلاء الشهداء، الذين بذلوا أنفسهم في سبيل حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ، وهو قوله: «أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزفّ إلى الجنة كما تُزفّ العروس إلى بيت زوجها...»، ثم أكثر من هذا نحن إخوان نعيش هذه الأمور وهذه المصاعب التي تعترضنا، ولكن شهداءكم هؤلاء الذين قدّموا أنفسهم في حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ قد فُتحت لهم الآن بابان إلى الجنة، فقد ورد في الحديث: «أَلَا وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتح له في قبره بابان من الجنة...» ثم من هم الذين يزورون هؤلاء الشهداء في قبورهم: «وَمَنْ مات على حبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة...».

أمّا جزاء مَنْ مات على بغض آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فيكون مصيره كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «أَلَا وَمَنْ مات على بغض آلِ مُحَمَّدٍ جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من

رحمة الله، ألا ومَن مات على بغض آلِ محمد مات كافراً، ألا ومَن مات على بغض آلِ محمد لم يشم رائحة الجنة»^(١).

أكتفي بهذا القدر وأسأل الله تعالى أن يجعل خاتمة حياتنا موتاً على حبِّ آلِ محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشف: ج ٣، ص ٤٦٧.

الخطبة الرابعة والستون
دروس أخلاقيّة من النهضة الحسينيّة المباركة
القسم الثاني
(مقوّمات توطّين النفس على البلاء)

بتاريخ: ٢ / ٢ / ٢٠٠٧ م

﴿ مقوّمات توطّين النفس على البلاء: ﴾

- ❦ المقوم الأول: عدم الاغترار بالدنيا والانخداع بها
- ❦ المقوم الثاني: عدم الانقياد للشهوات والملذّات الدنيويّة
- ❦ المقوم الثالث: التحلّي بالوعي والبصيرة
- ❦ المقوم الرابع: الشعور بالمسؤوليّة
- ❦ المقوم الخامس: متابعة القيادة الحقّة والوفاء لها
- ❦ المقوم السادس: الاستقامة والثبات
- ❦ المقوم السابع: الشجاعة والاستهانة بالموت أمام المبادئ
- ❦ المقوم الثامن: تقوية الارتباط بالله تعالى

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين، ابتدع بقدرته الخلق ابتداءً، واخترعهم على مشيئته اختراعاً، ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل محبته، لا يملكون تأخيراً عما قدّمهم إليه، ولا يستطيعون تقدماً إلى ما أخرهم عنه، وجعل لكل روح منهم قوتاً معلوماً مقسوماً من رزقه، لا ينقص من زاده ناقص، ولا يزيد من نقص منهم زائد»^(١).

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

نعزي الرسول الأكرم ﷺ، والأئمة الأطهار عليهم السلام، وصاحب العصر والزمان ﷺ، والمراجع العظام، والأئمة الإسلامية، بمناسبة استشهاد سيّد الشهداء، وأبي الأحرار الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

أوصيكم بتقوى الله تعالى واتخاذ منهج نهضة الإمام الحسين عليه السلام مناراً تسيرون عليه في درب الجهاد والتضحية، وإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل.

مقومات توطئ النفس على البلاء

لكي نرتقي إلى المستوى الذي وصل إليه أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، لا بدّ

(١) الصحيفة السجّادية: ص ١٧.

من الاتّباع السليم للمنهج الذي وضعه الإمام عليه السلام لأصحابه وشيعته، ومنها إقامة الشعائر الحسينيّة، والبكاء على مصاب الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته المظلومين، هو تعبير عن الولاء والحب لأهل البيت عليهم السلام، ولكن إقامة هذه الشعائر والحزن والبكاء لا يكفي لكي نرتقي إلى ذلك المستوى من الاستعداد للتضحية في سبيل إقامة العدل، ونُصرة الحقّ، والوقوف في وجه الباطل، وما تعرّض له الناس في زمن الإمام الحسين عليه السلام في ذلك الوقت من البلاء والاختبار هو بنفسه ما نتعرّض له في كلّ زمان ومكان، والذي انقسم الناس على إثره إلى ثلاثة شرائح؛ الشريحة الأولى: هم من ناصر للإمام الحسين عليه السلام، وضجّى بنفسه وأهله وماله، في سبيل اتّباع الحقّ، ونصرة أهل البيت عليهم السلام، والشريحة الثانية: هي من رفعت السيف ووقفت في وجه الإمام عليه السلام، والشريحة الثالثة: هي من تقاعست وتحاذلت عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام، واتّخذت موقف النأي بنفسها عما يحصل من ظلم واضطهاد لأهل البيت عليهم السلام.

وهذا الاختبار لا ينحصر في زمن الإمام عليه السلام، بل هو مستمرّ في كلّ زمان ومكان، وفي كلّ يوم، وفي كلّ ساعة، طالما أنّ معركة الحقّ والباطل قائمة، ويعيش معها الإنسان في جميع أدوار حياته، ما دامت هناك دنيا وشيطان، وما دام هناك استكبار وشهوات، وحقّ وعدل، هذا الصراع مستمر لا ينتهي أبداً في كلّ لحظة وفي كلّ ساعة هناك صراع، وهناك امتحان وابتلاء يتعرّض له المؤمنون.

فلا بدّ أن نرتقي إلى المستوى الذي نكون فيه على استعداد لنُصرة الحقّ، والوقوف في وجه الباطل، ولا نكون كالأشخاص الذين يدّعون الولاء للإمام الحسين عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، ولكنهم سقطوا في الفتنة، ووقف الكثير منهم ممن يدّعون الولاء للإمام الحسين عليه السلام والبكاء عليه هؤلاء وقفوا مع الباطل وناصروه ضدّ الحقّ، وما نعيشه في هذه الأيام خير شاهد على ذلك، فلا بدّ أن نوطن أنفسنا لكي نكون في صفّ الحقّ، ونقف ضدّ الباطل.

وهناك مقومات لا بدّ أن نراعيها ونعتني بها، ونوطن أنفسنا عليها؛ لكي نُوصف بأننا حسيّيون حقّاً، ونكون صادقين في ولائنا للإمام الحسين ولأهل البيت الأطهار عليهم السلام.

ولو تأملنا في الحوارات والأقوال التي صدرت من الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكذلك ما صدر من الذين وقفوا مع الباطل، فيمكن لنا معرفة تلك المواصفات والمقومات الواجب توفرها، ومن هذه المقومات التي تُسهم في تشكيل الشخصية الولائية لأهل البيت عليهم السلام، والتي تكون قادرة على الثبات والصمود في طريق ولاية أهل البيت عليهم السلام والتضحية في سبيلها.

المقوم الأول: عدم الاغترار بالدنيا والاندفاع بها

ومن تلك المقومات عدم الانخداع بالدنيا والاعترار بها، فإن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، الذين بلغوا تلك المرتبة العالية، حيث قال عنها الإمام الحسين عليه السلام: «أما بعد فيّ لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي...»^(١)، فإن أصحاب الإمام عليه السلام لم يغترّوا بالدنيا، ولم تُفسدهم المادّيات، وحبّ السلطة والجاه، ولم يلهثوا وراء الشهوات، وليس الأمر كما يفهم بعضنا أنّ حبّ الدنيا هو حبّ المال فقط، بل يمكن أن يكون حبّاً للجاه، والمنصب، والرئاسة، واتباعاً للشهوات، وطاعة للشيطان، كلّ هذه الأمور تمثّل حبّاً للدنيا وتعلّقاً بها، حيث كان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام الذين نالوا تلك المرتبة من الشرف والعزّة في نصرته الإمام عليه السلام

(١) المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد: ص ٩١.

والاستشهاد معه، بلغوا ذلك بعد أن طهروا أنفسهم من حب الشهوات، والتعلق بالدنيا، ولم تكن الدنيا أكبر همهم، بل كان همهم هو نصره الحق، وهذا كان بارزاً في مواقفهم مع الإمام عليه السلام.

نلاحظ أن شدة تعلق عمر بن سعد بالدنيا، والركون إليها، هو الذي دفعه إلى أن يقدم على ارتكاب جريمته في مواجهة الإمام الحسين عليه السلام؛ فأدى به ذلك الموقف إلى أن تكون نهايته الحزبي والعار والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، حيث نرى ذلك واضحاً في الحوار الذي جرى بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام، حينما دعاه الإمام عليه السلام لنصرته، فقال له: «وَيْحَكَ أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ مَعَادُكَ؟ أَتَقَاتِلُنِي وَأَنَا ابْنُ مَنْ عَلِمْتَ؟ يَا هَذَا! ذَرْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكُنْ مَعِيَ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ لَكَ مِنَ اللَّهِ. فقال له عمر: أخاف أن تهدم داري! فقال الحسين عليه السلام: أَنَا أَبْنِيهَا لَكَ! فقال عمر: أخاف أن تؤخذ ضيعتي! فقال عليه السلام: أَنَا أُخْلِفُ عَلَيْكَ خَيْراً مِنْهَا مِنْ مَالِي بِالْحِجَازِ. فقال: لي عيال أخاف عليهم! فقال: أَنَا أَضْمَنُ سَلَامَتَهُمْ. ثم سكت فلم يجبه عن ذلك، فانصرف عنه الحسين عليه السلام، وهو يقول: مَالَكَ، ذَبَحَكَ اللَّهُ عَلَى فِرَاشِكَ سَرِيعاً عَاجِلاً، وَلَا غَفَرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ وَنَشْرِكَ، فَوَاللَّهِ! إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْ بُرِّ الْعِرَاقِ إِلَّا يَسِيراً. فقال له عمر: يا أبا عبد الله! في الشعر عوض عن البر! ثم رجع عمر إلى معسكره»^(١).

ولا نستغرب من هذا المنطق، فإنه قد يكون منطق الكثير منّا، في معركة الحق

(١) ابن كثير الدمشقي، إسماعيل، البداية والنهاية: ج ٨، ص ١٨٩. أنظر أيضاً: المجلسي، محمد باقر،

بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٨٨. وانظر أيضاً: المقرّم، عبد الرزاق، مقتل الحسين عليه السلام: ج ١،

ضدّ الباطل، ألم يكن الكثير منّا يخاف على أمواله وأولاده ومنصبه من صدام والبعثيين، فكان موقفه مع الباطل ضدّ الحقّ؟ وربّما نكون ممّن تعلّق بالدنيا وركن إليها؛ فلا نكون على استعداد للتضحية في سبيل نصره الحقّ، وتغرّ أنفسنا علينا من أجل نصره الحقّ!

وفي قبال ذلك نلاحظ مواقف أصحاب الحسين عليه السلام، عندما أذن لهم الإمام عليه السلام بالانصراف، فقام إليه مسلم بن عوسجة، وقال: «أنحن نخليّ عنك ولم نعذر إلى الله تعالى في أداء حقّ؟! لا والله، حتى أطعن في صدورهم برمح، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمهم في يدي، والله؛ لو علمتُ أنّي أُقتل، ثمّ أُحرق، ثمّ أُحیی، يُفعل بي ذلك سبعين مرّة، ما فارقْتُك حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً!»^(١). وقام بطل آخر من أبطال كربلاء، وهو زهير بن القين، فقال: «والله لو ددْتُ أنّي قُتلتُ، ثمّ نُشرتُ، ثمّ قُتلتُ، وهكذا ألف مرّة، وأنّ الله سبحانه يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»^(٢).

ولو لاحظنا منطق أصحاب الحسين عليه السلام القائم على التضحية بالنفس والأهل والمال دون الحسين عليه السلام؛ يظهر جلياً مدى الفرق بينهم وبين من غرّته الدنيا، وكان أكبر همّه نيل شهواتها والركون إليها.

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوری بأعلام الهدى: ج ١، ص ٤٥٦.

(٢) المصدر السابق.

المَقوم الثاني: عدم الانتقياد للشهوات والملذات الدنيوية

المَقوم الآخر الواجب توفّره في نفوسنا حتّى نستطيع اتّخاذ المواقف التي اتّخذها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، هو الانتصار على النفس في معركتها مع الشهوات، فهناك كما هو واضح معركتان يقاتل بهما الإنسان؛ الأولى: هي المعركة مع النفس والشهوات والشیطان، وهي مقدّمة لا بدّ من الانتصار فيها؛ كي نتمكّن من الوقوف مع الحقّ، والمعركة الثانية: هي معركة السلاح؛ فهي من المعارك التي قوامها مواجهة الباطل بالسيف، فلا بدّ أولاً أن نتصر على الشيطان الذي في داخلنا، ولا نندفع مع الشهوات والغرائز، وهذا المعنى يبيّنه النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله حينما بعث برسّية من المسلمين، وحينما رجعوا قال لهم: «مرحباً بكم قضاة الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»^(١). فلا بدّ أن تتصر في معركة الجهاد ضدّ النفس الأمّارة بالسوء، ومواجهة الشيطان وإغوائه لنا بالشهوات، وهو الجهاد الأكبر، كما عبّر عنه الرسول صلّى الله عليه وآله؛ لأنّه مع الإنسان من ساعة تكليفه إلى يوم وفاته.

وليس من السهولة الاستهانة بهذه المعركة؛ لأنّنا نقاتل فيها الشيطان في كلّ لحظة وكلّ يوم، نحن في صراع مع الشيطان، والشهوات، والغرائز، وحبّ الدنيا، وإذا تمكّن الإنسان من الانتصار في هذه المعركة، تمكّن من الانتصار في معركة الجهاد الأصغر، ولذا فإنّ هذا الحوار الذي جرى بين الإمام الحسين عليه السلام وبين عبيد الله بن الحرّ الجعفي الذي يُعدّ نموذجاً ممّن خذل الإمام الحسين عليه السلام، حينما دعاه لنصرته؛ لأنّ حبّ الدنيا قد هيمن على قلبه، فلم يتمكّن من مقاومة إغواء الشيطان، فهو يعرف

(١) الصدوق، محدّد بن علي، معاني الأخبار: ص ١٦٠. رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بعث سرّية، فلمّا رجعوا قال: مرحباً بكم قضاة الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال صلّى الله عليه وآله: جهاد النفس».

عندما قال: «والله إني لأعلم أنّ من شايحك كان السعيد في الآخرة»، فهو يعرف أنّ الإمام الحسين عليه السلام على الحق، وأنّ الذين يشايعون الإمام وينصرونه هم السعداء في الآخرة، ولكن ما يحول بينه وبين نصرة الحق، قوله: «ولكن ما عسى أن أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً...». فهو يتعلّل بقلّة الناصر للحسين عليه السلام، وهذه من علل النفس الأمّارة بالسوء، ويركن إلى الدنيا، كما هو موقف بعضنا، فحينما تدعوه لنصرة الحق؛ يقول: وما يُعني قولي، ونحن قلّة في نصرة الحق!

إنّ المهمّ ليس هو كثرة العدد، بل المهمّ هو ثبات الموقف وصوابه، وليست الكثرة معياراً ليتحقّق النصر، كما كان يرى عبيد الله بن الحرّ الجعفي في حوارهِ مع الإمام الحسين عليه السلام، حيث قال للإمام عليه السلام معتذراً عن نصّرتِه: «فأشذك الله أن تحمّلني على هذه الخطّة، فإنّ نفسي لم تسمح بعد بالموت»^(١).

ولو نظرنا في موقف الحرّ بن يزيد الرياحي (رضوان الله عليه)؛ سنلاحظ الفرق بين من تعلّق بالدنيا ومن زهد فيها، فحينما وقف الحرّ في تلك اللحظات الصعبة، يُخَيّر نفسه بين الجنّة والنار، ويقول: «إني خيّر نفسي بين الجنّة والنار، وإني لا اختار على الجنّة شيئاً»^(٢)، هذا هو الانتصار على الذات، كما أنّ يقظة الضمير هي التي دفعته لأن يقف مع الحق، ويكون في معسكر الحسين عليه السلام.

المقوّم الثالث: التحلّي بالوعي والبصيرة

لا بدّ للمؤمن أن يتحلّى بالوعي والبصيرة؛ لكي تكون نظرته ثاقبة، وتكون

(١) الدينوري، ابن قتيبة، الأخبار الطوال: ص ٢٥١.

(٢) الحلي، ابن نها، مثير الأحرار: ص ٤٤.

الأُمور واضحة بالنسبة إليه، ولا يجعل العاطفة مقدّمة على العقل، بل لا بدّ أن يكون للإنسان وعي وبصيرة؛ حتّى يعرف الحقّ فيتّبعه، والباطل ليتجنّبه، وحتّى في داخل هذه الفرقة المحقّقة هناك مَنْ يدّعي الباطل ويلبسه لباس الحقّ، ولا يتأتّى للإنسان أن يُميّز بين الحقّ والباطل إلّا إذا كانت لديه رؤية ثاقبة، نابعة من البصيرة والوعي بحقائق الأمور.

وقد تعرّضنا - في خطب سابقة - إلى بعض الدعاوى الضالّة، والعقائد المنحرفة عن مذهب أهل البيت (عليه السلام)، التي جرى نشرها والترويج لها في الآونة الأخيرة؛ وفي ذلك كفاية في توضيح بعض الأمور^(١).

وليس من المصلحة أن أُعلّق على ما حصل في النجف من أحداث^(٢) ولكنّا انطلاقاً من شعورنا بالمسؤوليّة في بيان الضلال والانحراف عن العقيدة الحقّة؛ تعرّضنا في خطبة سابقة إلى بيان الضلال في الكتاب الذي سُمّي بعنوان: (قاضي السماء)^(٣)، والذي تبنيّ عقائد منحرفة عن مذهب أهل البيت (عليه السلام)، وما ذكرناه يكفي في توعية الإخوة بحقائق الأمور.

(١) تعرّض سباحته إلى ظاهرة الفرق المنحرفة والدعاوى الضالّة في الخطبة السابعة والأربعين في الجزء الثاني لهذا الكتاب. أنظر: الكربلائي، عبد المهدي، المواعظ الحسنة، ج ٢، ص ٢٤٩ - ٢٦٤.

(٢) إشارة إلى أحداث (الزركة) التي وقعت بتاريخ: ٢٨ - ٣٠ / ١ / ٢٠٠٧ م، حيث دارت معارك عنيفة بين القوّات الأمنيّة العراقيّة وحركة (جند السماء)، وهي حركة عقائديّة مسلّحة تحمل أفكاراً منحرفة، أسّسها المدعو (ضياء عبد الزهراء كاظم الكرعائي) الذي قُتل في هذه المعركة.

(٣) وهو كتاب نشرته حركة (جند السماء)، قبل أحداث (الزركة)، مع جريدة بعنوان (يوم الظهور المقدّس)، وقد تضمّنت خلاصة أفكار الكتاب، وتمّ توزيعها في بغداد والمحافظات. ادّعى الكرعائي فيه أنّه المهدي المنتظر، وأنّه وُلد بـ (ولادة جنينيّة) من علي وفاطمة (عليهما السلام)، وغير ذلك من الدعاوى التي تتنافى مع بديهيّات العقل السليم. أنظر: علي ذو الفقار، ذو الفقار، الحركات المهدويّة تاريخها - عقائدها - خطرهما، ص: ١٩٣ - ٢٠٠.

المَقْوَمُ الرابع: الشعور بالمسؤولية

من الضروري أن يكون هناك شعور بالمسؤولية في إقامة العدل ونصرة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَةُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١) هذه الآية تُشير إلى أن كل واحد منكم يتحمل المسؤولية في كل وقت، وفي كل مكان؛ من أجل نصرة الحق وإقامة معالم الدين.

المَقْوَمُ الخامس: الانقياد للقيادة الحقة والوفاء لها

الوفاء والتسليم والانقياد والخضوع والطاعة للقيادة الحقة هو من المقومات الأساسية للمؤمن؛ فلا بد أن يكون في دواخلنا خضوع وانقياد وطاعة تامة لتلك القيادة، ومن دون هذا الوفاء والخضوع والطاعة؛ سيكون ادعاء الولاء لأهل البيت عليه السلام ادعاءً كاذباً.

ومن الواضح أن أهمية القيادة الحقة نابع من مرتكزات الصراع بين الحق والباطل، التي تمتد عبر القرون والأجيال، فلا بد أن يكون هناك في كل زمان وفي كل مكان قيادة حقة تمثل امتداداً لقيادة الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك هناك قيادة باطلة، ومهما تلونت هذه القيادة الباطلة بألوان شتى؛ فهي تمثل امتداداً لقيادة بن معاوية، ولا بد أن يكون هناك من ينصر الحق وكذلك من ينصر الباطل، وإن هذا النصر لمنهج الإمام الحسين عليه السلام يعتمد على مقدار الوفاء لهذه القيادة الحقة وطاعتها والخضوع لها.

(١) التوبة: آية ٧١.

ولو نظرنا إلى ما قاله بعض أصحاب الإمام الحسين عليه السلام والذين أظهروا فيها عمق وفائهم وولائهم له، فقد جمعهم الحسين عليه السلام عند اقتراب المساء في ليلة العاشر من شهر محرم، وقال لهم: «... ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلٍّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً. فقال له إخوته وأبنائوه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لم نفعل ذلك؟! لنبقى بعدك؟! لا أرانا الله ذلك أبداً. بدأهم بهذا القول العباس بن علي عليه السلام واتبعته الجماعة عليه، فتكلموا بمثله ونحوه»^(١).

من خلال هذا الكلام؛ نعلم مدى عمق الطاعة والوفاء للإمام عليه السلام لدى أهل بيته وأصحابه، فهم معه حتى التضحية بالنفس، ومن الشعراء من عبّر عن هذا الحب الصادق الذي يعكس عمق الولاء والطاعة والخضوع والوفاء للمحب الموالي، قال الشاعر:

تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تُظَهِّرُ حَبَّةً هَذَا لَعَمْرُكَ فِي الْفَعَالِ بَدِيعٌ
لَوْ كَانَ حَبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمَحَبَّ لَمَنْ أَحَبَّ مُطِيعٌ^(٢)
فإذا كان المؤمن محباً حقاً؛ فعليه اتباع من هو امتداد لخط الإمام الحسين عليه السلام ونُصْرته، وأن لا يكون ناصراً، ومتبعاً لمن هو امتداد للمنهج اليزيدي المنحرف.

المَقْوَمُ السَّادِسُ: الاستقامة والثبات

من الواضح أنَّ المعركة بين الحقِّ والباطل غير محدودة بزمان ومكان، فعلى المؤمن التحلّي بالاستقامة والثبات، وعدم التراجع والانزهاض أمام الحملات المتلاحقة

(١) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ٢، ص ٩٢.

(٢) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ٢٩٤.

من أهل الباطل. ونظراً لعظم المعركة وخطورتها فإنَّ هناك مَنْ يصمد في أوّل الطريق ثمّ ينهزم في وسطه، وهناك مَنْ يصمد في أوّله ووسطه وينهزم في آخره، وهناك مَنْ يصمد إلى نهاية الطريق، فيخرج من المعركة منتصراً.

والمطلوب هو الاستمرار والثبات على الحقّ، كما هو الحال في أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حيث إنَّهم ثبتوا على نصرتهم للحقّ، وتحملوا الكثير من المعاناة والتضحيات، حتّى توجّوا تضحياتهم بسقوطهم شهداء بين يدي الحسين عليه السلام، هذا الثبات قد تحقّق من خلال استقامتهم وثباتهم، وعدم تراجعهم وانهزامهم، حتّى وإن طالت فترة الصراع بين الحقّ والباطل.

المقوّم السابع: الشجاعة والاستهانة بالموت في سبيل المبادئ

المقوّم الآخر هو الشجاعة والاستهانة بالموت والاستعداد للتضحية من أجل القيم والمبادئ، وهذا المقوّم تجسّد في أصحاب الحسين عليه السلام، وتجلّى في موقف شهيد الطفّ القاسم بن الحسن عليه السلام، حين سأله عمّه الحسين عليه السلام: «يا بُني كيف الموت عندك؟!»، فأجاب: «يا عمّ أحلى من العسل»^(١)، هذا هو موقف القاسم عليه السلام وكيف يرى الموت في نُصرة الحقّ، فهذا الإنسان الذي بلغ هذه المرتبة من التضحية بالنفس، والاستعداد لبذل الغالي والنفيس، قد لا نحمل نحن تلك الروح ذات الاستعداد للتضحية في سبيل الحقّ، بل يعزّ علينا أن نُضحي ببعض الأيام من حياتنا في سبيل نُصرة الحقّ، ولننظر إلى أولئك الذين كانوا بالمدينة وتقاعسوا وتخاذلوا عن نُصرة الحسين عليه السلام، كم طال بهم الزمن بعد الحسين عليه السلام؟ حيث لم

(١) القمي، عباس، نفس المهموم: ص ٢٣٠.

يسلموا ممّا كانوا يخافون منه؛ وهو الموت؛ فقد أرسل لهم يزيد جيشه بقيادة مسلم بن عقبة، وأنزل بهم القتل وانتهاك الأعراض ونهب الأموال^(١)، وكذلك من غير أهل المدينة ممّن خذلوا الإمام الحسين عليه السلام، ولم يجيبوا داعيه، كم عاشوا من بعد الإمام الحسين عليه السلام؟ كانت عاقبتهم هي العذاب والحزني والذلّ في الحياة الدنيا، فضلاً عن العذاب في الآخرة، وأمّا أصحاب الإمام الحسين عليه السلام كم خسروا من أيام الدنيا، وكم خسروا من ملذّاتها وشهواتها حينما نصروا الإمام الحسين عليه السلام؟! ما هي إلاّ أيام قلائل بذلوا أنفسهم فيها، وضحّوا من أجل الإمام الحسين عليه السلام، ولكن بعد ذلك خلّدهم التاريخ، وأصبحوا في النعيم الدائم عند الله.

المقوم الثامن: تقوية الارتباط بالله تعالى

من المقومات المهمّة - لنصرة الحقّ وتوطين النفس على الثبات والاستقامة - تقوية الارتباط والاتصال بالله تعالى، فلو لاحظنا أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في ليلة العاشر، وهم يعلمون أنّ بينهم وبين الموت ومواجهة السيوف والرماح ساعات قلائل فقط، ومع ذلك كانوا يحيون ليلتهم في ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن،

(١) وقعة الحرّة: كانت وقعة الحرّة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة (٦٣هـ) والتي استباح بها (مسرف - مسلم بن عقبة المري) المدينة ثلاثة أيام بأمر من يزيد بن معاوية، بعد مقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام، حيث نزل مسلم الموضع المعروف بالحرّة - وهي تقع شرق المدينة، يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة - بخمسة آلاف مقاتل، فخرج أهل المدينة لمحاربتهم فكسروهم، ونكّل بهم أشدّ تنكيل، واستباح المدينة حتّى ولدت الأبيكار لا يعرف من أولدهن، ثمّ أخذ الناس على أن يبايعوا على أنّهم عبيد يزيد بن معاوية، وقد قتل من الموالي في هذه الوقعة ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، ومن الأنصار ألفاً وأربعمائة، وقيل: ألفاً وسبعمائة، ومن قريش ألفاً وثلاثمائة». أنظر: اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢٥٠. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ج ٤، ص ٣٧٤.

يُصَلُّونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَيَدْعُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ، فباتوا ولهم دويٌّ كدويِّ النحل؛ ما بين رакع وساجد وقائم وقاعد^(١)، فلا بدّ أن يكون الاتصال دائماً ومتواصلاً مع الله تعالى، حتّى في أصعب الظروف وأقساها، وهذه الميزة التي تميّز بها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام؛ هي ما تجعلنا نسعى لأن يكون لكلّ واحد منّا تلك الروح التي يقوى بها على مجابهة الباطل، والاستعداد للتضحية بالنفس.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموالين حقّاً وصدقاً للإمام الحسين عليه السلام إنّه سميع

مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) أنظر: الأمين، محسن، لواعج الأشجان: ص ١٢٠.

الخطبة الخامسة والستون
نفحات من توجيهات الإمام السّجّاد عليه السلام الأخلاقية
القسم الأوّل

بتاريخ: ١٦ / ٢ / ٢٠٠٧م

﴿رسالة الإمام علي بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه

﴿من ملامح سيرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام

﴿الملمح الأوّل: الإمام السّجّاد عليه السلام هو الامتداد لخطّ الإمامة

﴿وصوت الحقّ

﴿الملمح الثاني: الثراء في الدعاء

﴿دعاء الإمام عليه السلام لأهل الثغور وتغليب المصلحة العامة

﴿الإفادة من سيرة الإمام السّجّاد عليه السلام في مواجهة الفتن

﴿البرامج التربويّة من الصحيفة السّجّادية

﴿صرف الوقت في طلب العلم

﴿رفقة العلماء

﴿صون اللّسان

﴿صون السمع

﴿الاستغفار والتوبة

مقدمة الخطبة^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما عرّفنا من نفسه، وألهمنا من شكره، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيّته، ودلّنا عليه من الإخلاص له في توحيده، وجنّبنا من الإلحاد والشك في أمره.

«حمداً نُعَمِّرُ به في مَنْ حَمَدَهُ من خلقه، ونسبق به مَنْ سبق إلى رضاه وعفوه. حمداً يُضِيءُ لنا به ظلمات البرزخ، ويسهّل علينا به سبيل المبعث، ويشرف به منازلنا عند مواقف الأَشْهاد، يوم ﴿تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٢)، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣)، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٤)... حمداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إلى أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٥)»^(٦).

والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمّد وآل بيته الطيّبين الطاهرين.

(١) صادف أن وقعت هذه الخطبة في الأسبوع الذي تمرّ فيه ذكرى شهادة الإمام عليّ بن الحسين زين

العابدين عليهما السلام.

(٢) غافر: آية ١٧.

(٣) الجاثية: آية ٢٢.

(٤) الدخان: آية ٤١.

(٥) المطففين: آية ٢٠-٢١.

(٦) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

سلام عليكم بما تشرفتم به من الولاء لآل بيت الرسول ﷺ ورحمة منه وبركات.

أوصيكم - إخواني وأخواتي ونفسي الأمارة بالسوء - بتقوى الله تعالى والسير على نهج وهدى آل بيت الرسول ﷺ والاعتصام بحبله، والثوق بنصره وفرجه ورحمته.

مرّت علينا في هذا الأسبوع ذكرى استشهاد الإمام السّجاد عليّ بن الحسين (عليه السلام)، لذا سوف تكون لنا في المقام وقفات مع سيرة هذا الإمام الهمام، والشار التي نقتطفها من تلك السيرة المضيئة، بما يتناسب والمحنة والابتلاء اللذين تمرّ بهما الأمة الإسلامية.

رسالة الإمام عليّ بن الحسين (عليه السلام) إلى بعض أصحابه

افتتح حديثي بقراءة بعض الفقرات من رسالة الإمام السّجاد (عليه السلام) التي وجهها إلى أصحابه، يقول (عليه السلام) فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، كفانا الله وإياكم كيد الظالمين، وبغي الحاسدين وبطش الجبارين.

أيها المؤمنون، لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في هذه الدنيا، المائلون إليها، المفتنون بها، المقبلون عليها وعلى حطامها الهامد وهشيمها البائد غداً، واحذروا ما حذركم الله منها، وازهدوا في ما زهدكم الله فيه منها، ولا تركنوا إلى ما في هذه الدنيا ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان. والله، إنّ لكم ممّا فيها لدليلاً وتنبيهاً من تصريف أيامها، وتغيّر انقلابها ومثلاثتها^(١) وتلاعبها بأهلها، إنّها لترفع

(١) المثلة - بفتح الميم وضمّ الثاء - العقوبة، والجمع المثالات. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح:

الخميل^(١) وتضع الشريف، وتورد أقواماً إلى النار غداً، ففي هذا معتبر ومختبر وزاجر لمنتهبه...»^(٢) إلى آخر هذه الرسالة الشريفة الطويلة والتي فيها الكثير من المواعظ والعبر والإرشادات.

من ملامح سيرة الإمام علي بن الحسين عليه السلام

الملح الأول: الإمام السَّجَّاد عليه السلام هو الامتداد لخط الإمامة وصوت الحق

لقد أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يبقى صوت الحق - الذي أيقظ الضمائر، ونبه المسلمين على عظم الجرائم التي ارتكبتها ويرتكبها النظام الأموي - حياً مدوياً مدى الدهر؛ لأنه لا يقل تأثيراً عن السيوف التي يحملها الثائرون الذين ناصروا الحق في معركة الطف، وضحووا بدمائهم من أجله.

ولما كان الإمام السَّجَّاد عليه السلام يمثل الامتداد لخط الإمامة والرسالة الإسلامية المحمدية، فقد كان هو لسان تلك الثورة الحسينية وصوتها الهادر الذي يدوي في مسامع الظالمين، ويعلو في مجالسهم، ومن على منابرهم في مسيرة السبي التي جالت بسبايا الطف منطلقاً من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى الشام.

لقد أيقظ الإمام زين العابدين عليه السلام خلال هذه المسيرة بخطبه الرثانة الضمائر المنيئة، منبهاً على عظم الجريمة التي ارتكبتها الطغاة في كربلاء من أجل إخماد الثورة

(١) الخميل: هو الخامل الساقط الذي لا نباهة له. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ٥،

ص ٣٦٦، [خل].

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ١٥.

الحسينية ودفن مبادئها؛ كي لا تبقى حية في نفوس الأمة الإسلامية. لكن الإمام السجّاد عليه السلام وعمته العقيلة زينب عليها السلام صدحا بالحق وأحيا تلك المبادئ، مدافعين عن الحق وأنصاره الذين سُفكت دماؤهم ظلماً وجوراً.

من هذا المنطلق - وهو الدفاع عن صوت الحق - لا بدّ لنا أن نهتدي بسيرة الإمام السجّاد عليه السلام ونتعلّم منها كيفية المسير على الطريق الذي نشعر فيه بأنّ صوتنا هو صوت الحق، واعين تلك المسالك الباطلة التي ربّما توقعنا في التيه؛ إذ ربّما يتصوّر بعضنا بأنّ صوته الذي يعلو منه هو صوت الحق، لكنّه في حقيقته هو صوت باطل، فلا بدّ أن نتخذ المسار الصحيح الذي يمكن من خلاله معرفة أنّ صوتنا هو الصوت المدافع عن الحق وأهله.

الملح الثاني: إثراء الساحة الدينية بالأدعية والمناجاة

هناك ملمح بارز في سيرة الإمام السجّاد عليه السلام، وهو الدعاء، بل الإثراء في الدعاء؛ إذ قد كانت السمة البارزة في سيرة الإمام السجّاد عليه السلام وحياته بعد واقعة كربلاء الأليمة هي الدعاء، فبعد أن أباد الحكّام الظالمون أهل الحق قتلاً وإرهاباً، لم تكن عند الإمام زين العابدين عليه السلام وسيلة يُعلن من خلالها عن الحق والتعريف به وبأهله سوى الدعاء، فاتخذ هذه الوسيلة لكي يُبين المعارف الإلهية أولاً، وينشر الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلامية ثانياً، ويعرّف بأهل الحق ثالثاً.

لقد حوت الصحيفة السجّادية المباركة - المعروفة بزبور آل محمد ﷺ - جملةً من الأدعية الرائعة في أسلوبها وبلاغتها، وقد استهوت النفوس والعقول والأفكار؛ لأنّها عبارة عن مناهج متكاملة في المعارف العقائدية والتربوية، وخلاصتها كيفية تقوية الاتصال والارتباط بين العبد وربّه.

وفي الوقت الراهن ولصعوبة الظروف التي نعيشها في ظل التحديات التي

يمرّ بها أبناء المجتمع الإسلامي، نكون بحاجة ماسّة إلى أن نتعاهد هذه الصحيفة المباركة؛ لنستلهم منها منهجاً قوياً نسير عليه في حياتنا اليومية.

دعاء الإمام عليه السلام لأهل الثغور وتغليب المصلحة العامة

ومن جملة النماذج التي أثرى بها الإمام السَّجَّاد عليه السلام الأُمَّة الإسلامية هو دعاؤه لأهل الثغور^(١)، هذا الدعاء الذي حرص الإمام عليه السلام فيه على الحفاظ على المصالح العامّة للدولة الإسلامية؛ وذلك لأنّ أهل الثغور الذين كان عليه السلام يدعو لهم هم أولئك المجموعة من الناس المرابطين على حدود الدولة الإسلامية، أي: هم حرس الحدود، وقد كانوا آنذاك يمثلون وحدةً من وحدات الكيان أو الحزب الأموي الحاكم الظالم، أي: هم قطعة من قطعات الحكومة الأمويّة الفاسدة. فكان الإمام السَّجَّاد عليه السلام يدعو لهم بحرارة وبكلّ قوّة لكي ينتصروا على أعداء الإسلام.

وهذا الموقف من الإمام السَّجَّاد عليه السلام يُشابه غيره من مواقف الأئمة عليهم السلام، كموقف أمير المؤمنين عليه السلام حينما سكت عن المطالبة بحقّة بالخلافة، وموقف الإمام

(١) الثغور: جمع ثغر - بفتح الثاء وإسكان الغين - وهو الطرف الملاصق من بلد المسلمين لبلاد الكفار. عبد المنعم عبد الرحمن محمود، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة: ج ١، ص ٥٠٦. وفي (النهاية): «هو موضع يكون حدّاً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد». ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ١، ص ٢١٣، (ثغر). ودعاء أهل الثغور يتكوّن من مجموعة مقاطع، أولها: «اللهم صلّ على محمّد وآله، وحصّن ثغور المسلمين بعزّتك، وأيد حماتها بقوّتك، وأسبغ عطاياهم من جدّتك...». الصحيفة السَّجَّاديّة: ص ١٢٨.

الحسن المجتبى ﷺ عندما أمضى معاهدة الصلح مع معاوية. فإنّ مثل هذه المواقف تنطلق من إيثار الأئمة ﷺ للمصلحة الإسلامية العامة على المصلحة الشخصية؛ لأنّ مصلحة الإسلام مقدّمة على ما سواها من أمور الإسلام، سواء في فروع الدين، أم عناوين الأشخاص، أم مصالح الآخرين. فكان دعاؤه ﷺ لأهل الثغور انطلاقاً من مبدأ إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة حتى لو كان فيها هضم لحق الإمام ﷺ وسلب لبعض اعتباراته.

إنّ هذا الموقف يُعطينا درساً عملياً في حياتنا - ولا سيّما في مثل هذه الظروف الراهنة - في كيفية اختيار الموقف الصحيح وتقديمه إذا كان فيه مصلحة عامة، فإذا كان هناك موقفان أحدهما يؤيّد المصلحة الإسلامية العامة، والآخر يؤيّد مصلحةً ضيقةً خاصّةً، كأن تكون تابعةً لكيان سياسي وإن كان إسلامياً، فسيراً على نهج الإمام السجّاد ﷺ لا بدّ من الوقوف مع الموقف الأوّل الذي يُغلب المصلحة العامة للمذهب أو الإسلام على المصلحة الخاصة.

الإفادة من سيرة الإمام السجّاد ﷺ في مواجهة الفتن

ومن منطلق تغليب مصلحة الإسلام العامة يمكن إخماد نيران الاحتراب الطائفي والفتن التي يُثيرها أعداء الإسلام - في العراق وغيره من الدول الإسلامية - لأجل سحب المسلمين وجّرههم إلى الدخول في حروب داخلية يُقاتل فيها بعضهم بعضاً، وإفشاء العداوة والبغضاء فيما بينهم.

إنّ بعض قنوات الإعلام الفضائية ومن يتتهجون النهج السياسي الأموي، هدفها إثارة الفرقة بين صفوف المسلمين، وتحريك المشاعر، والدفع بهم للاحتراب الطائفي، فتراها تُحرّض أهل السنّة على الشيعة أو العكس. ومواجهة هكذا إعلام عدائي يمكن تحقيقها من خلال الدرس الذي علّمنا إيّاه الإمام زين العابدين والأئمة ﷺ، وهو النظر في تقديم المصلحة العامة أولاً على المصالح الشخصية.

ومن جملة ما يُنقل في صدد إثارة الفتنة وكيفية القضاء عليها، أنه كان في زمن الإمام السَّجَّاد عليه السلام أناس يجهرون بالولاء لحكم بني أمية، وكان غرضهم إثارة الخلافات بين أتباع أهل البيت عليه السلام ومخالفهم، وهو ما ينشده الحاكم الظالم آنذاك من أجل أن ينشغل الناس بالاحتراب الطائفي، ويصفو له الأمر، فلا يفكر أحد بمعارضته أو مناوئته، وبذلك يُشيد دعائم حكمه، وكان بعض هؤلاء الناس يدخل على الإمام السَّجَّاد عليه السلام، ويثير عنده أسئلة عقدية تتعلق بخلافة الأول والثاني، أو يطرحون بعض المسائل الخلافية، كأن يسأله أحدهم عن منزلة الشيخين عند رسول الله ﷺ، وكان الغرض من ذلك إثارة النزاعات والخلافات الطائفية لتحريك المسلمين فيما بينهم.

لذلك كان الإمام عليه السلام يعمل حكمته في الجواب على مثل هذه المسائل؛ تغليباً لمصلحة المسلمين العامة؛ لأنه يعي مثل هذه المحاولات الخبيثة التي تُثير الفتنة الطائفية، فيحاول الإمام عليه السلام إخماد هذه الفتن أولاً، ثم الكشف عن زيغ وزيف هؤلاء في ما بعد.

لم يكن الإمام السَّجَّاد عليه السلام ليفسح المجال لأمثال هؤلاء في إثارتهم الريبة، لذا أجاب مَنْ يسأل عن منزلة الشيخين ومقامهما عند رسول الله ﷺ بإشارته إلى قبر رسول الله ﷺ، قائلاً: «منزلتهما منه الساعة»^(١)، أي: إنَّ موضعهما من حيث المكان

(١) المزي، يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ج ٢٠، ص ٣٩٣. والنص فيه هكذا: (وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: ما رأيت هاشمياً أفقه من علي بن الحسين، سمعت علي بن الحسين وهو يُسأل: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله ﷺ؟ فأشار بيده إلى القبر، ثم قال: «منزلتهما منه الساعة»).

والمنزّل والمدفن، دون أن يتعدّى في الإجابة الحقيقيّة الظاهرة، أو يتجاوز الحقّ المفروض، فهما كانا قرييين من رسول الله ﷺ جسدياً كما في قبريهما الآن بالنسبة إلى قبر النبي ﷺ، لكن هل في هذا كرامة لهما^(١)؟

ثمّ يكشف الإمام عليّ عن أقنعة مثيري هذه الفتنة ويفضحهم، حيث قال لهم: «قوموا عني، لا قرب الله دوركم؛ فإنكم مستترون بالإسلام ولستم من أهله»^(٢).

فقد وصف الإمام السجّاد عليّ الذين يُثيرون الفتن الطائفية والأحقاد بين الطوائف الإسلامية بأنهم مستترون بالإسلام وليسوا من أهل الإسلام.

(١) الجلال، محمّد رضا، جهاد الإمام السجّاد: ص ١٠٣.

(٢) الجلال، محمّد رضا، جهاد الإمام السجّاد: ص ١٠٥. والمزي، يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ج ٢٠، ص ٣٩٤-٣٩٥، وفيه أنّ الرواية هكذا: «... عن محمّد بن عليّ بن الحسين، عن أبيه، قال: قدم المدينة قوم من أهل العراق، فجلسوا إليّ فذكروا أبا بكر وعمر، فمسّوا منهما، ثم ابتروا في عثمان ابتراكاً، فقلت لهم: أخبروني أنتم من المهاجرين الأولين الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؟ [الحشر: آية ٨]. قالوا: لسنا منهم. قلت: وأنتم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؟ [الحشر: آية ٩]، قالوا: لسنا منهم. قال لهم: أمّا أنتم فقد تبرأتم من الفريقين أن تكونوا منهم. وأنا أشهد أنّكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. [الحشر: آية ١٠]. قوموا عني لا قرب الله دوركم؛ فإنكم مستترون بالإسلام، ولستم من أهله».

جملة من الإرشادات التربوية الواردة عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام

حوت الصحيفة السَّجَّادية المباركة وغيرها من النصوص الماثورة عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام من البرامج التربوية الإصلاحية التي تنفع الفرد والمجتمع الشيء الكثير؛ لما فيها من المناجاة والأدعية التي تميّزت عباراتها بشحن الإنسان بالطاقة الروحية لمواجهة المحن والابتلاءات، ومداومة الاتصال بالله سبحانه وتعالى.

وما أحوجنا - ونحن نعيش هذه الظروف الصعبة في وقتنا الحاضر المليء بالمصاعب والمشاكل - إلى أن نتعهد هذه الصحيفة المباركة وتلك النصوص الشريفة لأجل الارتشاف من تلك الطاقة الروحية التي تمدّ الإنسان بالصمود، وتُبَعِّده عن الانشغال بالدنيا وملذّاتها، لذلك فنحن بحاجة إلى التجرد عن عالم المادّة والانقطاع إلى الله تعالى وتقوية الرابطة والاتّصال به، والوثوق برحمته ونصره ووعدته، وأنّه سوف يكشف هذه الغمّة عن هذه الأمّة.

ولكي نحظى بذلك العطاء الروحي والدعم المعنوي علينا أن نستعين بما ورد عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام من برامج تربوية وإرشادات أخلاقية، ونستمدّ من أدعيته ومناجاته ما يُعيننا على الصبر على البلاء، والتحليّ بالفضائل والتخلّي عن الرذائل، ومجاهدة الشيطان من أجل بلوغ الهدف. ومن تلك الإرشادات:

١. صرف الوقت في طلب العلم

إنّ من جملة التوجيهات التربوية الواردة عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام ما يتعلّق بتعليم الإنسان كيفية صرف وقته وأين يضع جهده؛ فإنّه عليه السلام يُشير إلى أنّ على الإنسان أن يقضي وقته ويصرف جُلّ جهده في نفع نفسه ومجتمعه، وذلك من خلال الاشتغال بطلب العلم؛ فإنّ فيه خدمةً للإنسانية وسموّاً للذات ونفعاً للإنسان في

دينه ودنياه، هذا بالإضافة لما لحامل العلم الحقيقي وطالبه من المكانة السامية والمنزلة العظيمة.

وفي المقام لا بدّ من التوقّف قليلاً للإشارة إلى أمر مهمّ ينبغي التوجّه له والحذر منه، وهو أنّه ليس كلّ مَنْ ادّعى العلم أو لبس لباس العلماء هو منهم؛ فإنّ من الناس مَنْ لا يحمل علماً وإنّما يتظاهر بذلك، وهؤلاء يُبْعَدون الإنسان والمجتمع عن طريق الحقّ والصواب، ويجرّونهم نحو الضلال، وهذا ما نشاهده اليوم في بعض التيّارات الضالّة التي تحاول أن تُفسد في الأرض، وتبعد المجتمع عن السير في الخطّ الإسلاميّ الأصيل، كما في مَنْ يدّعي الآن الاتّصال بالإمام المهديّ عليه السلام، أو مَنْ يدّعي أنّه مرسل من قبله، أو مَنْ يدّعي أنّه وصيّ، أو من يدّعي أنّه هو الإمام.

لذا علينا الحذر من هؤلاء الذين يدّعون تلك المقامات الروحيّة والدينيّة، والابتعاد عنهم وعدم الاقتراب منهم أو الانخراط معهم؛ لأنّهم يدّعون أنّهم يحملون علماً، وهم ليسوا بعلماء، ويدّعون شيئاً ليس هم فيه، ولا هو لهم.

فلا بدّ أن نلتمس الحقيقة ونستضيء بنور أهل العمل والحكمة الحقيقيّين؛ لكي نسير على الطريق الصواب والجادة التي توصل إلى السعادة وحُسن العاقبة.

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في المقام: «إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال أنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهلُ المستخفُّ بحقّ أهل العلم، التاركُ للاقتداء بهم. وأنّ أحبّ عبيدي إليّ التقيُّ الطالب للشواب الجزيل، اللازمُ للعلماء، التابعُ للعلماء، القابلُ عن الحكماء»^(١).

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٥٣، ح ٥٠. وبداية الحديث: «... عن أبي حمزة، عن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال: لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج، إنّ الله تبارك...».

ويقول عليه السلام حينما يلاقي بعض طلبة العلم: «مرحباً بكم، أنتم ودائع العلم، ويؤشك إذا أنتم صغار قوم إن تكونوا كبار آخرين»^(١).

لا فرق في طلب العلوم سواء أكانت العلوم الدينية أم الدنيوية الإنسانية الأخرى، فطالب الأوَّل يكون في المستقبل عالماً أو مبلغاً، وطالب الثانية يكون طبيباً وفيزيائياً ومهندساً وقانونياً وغير ذلك من المهن التي تخدم المجتمع؛ فإن لكل منها وظائف ومسؤوليات تقدِّم للمجتمع ما ينتفع به إذا أحكم صاحبها التصرف، فربما يكون طالب العلم صغيراً اليوم، لكنّه في المستقبل يؤشك أن يكون كبير أقوام آخرين يهديهم ويتنفعون به.

٢. رفقة الصلحاء

إنَّ من التوصيات الأخلاقية والتربوية الصادرة عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام والتي لا بدَّ منها في تحصين النفس من الضلال والوقوع في الانحراف العقائدي، أو الانزلاق في مزالق الدنيا والشيطان، هو اختيار الشخص الذي ينبغي ملازمته ومرافقته وجعله أخاً؛ وذلك لغرض كسب ما هو مفيد من المعرفة والابتعاد عن الضلال، فإنّه تارة يكون الرفيق جهةً تحمل الهداية وتتمتع بالمعرفة ونور العلم، وأخرى لا تحمل من ذلك شيئاً، وإنَّما هي جهة ضلال وغواية.

من هنا يوجّه الإمام عليه السلام في رسالته التربوية خطابه للفرد المؤمن بأنّه ليس

(١) القمي، عباس، الأنوار البهية: ص ١١٨. وبداية الحديث: «عن الباقر عليه السلام، قال: كان أبي زين

العابدين عليه السلام إذا نظر إلى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، وقال: مرحباً بكم...».

للإنسان الجلوس مع مَنْ يشاء، أو أن يختار لرفقته مَنْ تهواه عواطفه، وإنَّما هناك ضوابط للصحبة والرفقة وضعها القرآن الكريم، أهمُّها صحبة مَنْ إذا رافقه الإنسان جلب له الصلاح في الدنيا والآخرة فقد روي عنه عليه السلام أنه كان يقول لبنيه: «جالسوا أهل الدين والمعرفة، فإن لم تقدروا عليهم فالوحدة أنس وأسلم، فإن أبيتم إلا مجالسة الناس فجالسوا أهل المروآت؛ فإنَّهم لا يرفثون في مجالسهم»^(١).

يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

مَنْ هم الذين يخوضون في آيات الله تعالى؟ هل هم الكفار فقط؟ كلا، إنَّ كلَّ إنسان يسير نحو الباطل وينحرف عن جادة الصواب والحق، سواء كان كافراً أم مسلماً هو مَنْ يخوض في آيات الله تعالى، بل حتى المتستر باتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام وكان قد جانب الحق هو من الذين يخوضون في آيات الله سبحانه.

لذا فإنَّ هذا مقوم للإنسان في سبيل تحديد ما يسلك من طريق، فهو إمَّا أن يسلك طريق الهداية باختياره الصحبة والجهة الصالحة، وإمَّا أن يسلك طريق الضلالة عند تركه العنان لعواطفه وميوله النفسانية لمرافقة جهة الانحراف والابتعاد عن الحق.

٣- صون اللسان

اللسان هو آفة الإنسان فيما لو نطق بغير الحق، أو قال ما لا يُرضي الله سبحانه وتعالى، لذا يوجّه الإمام السجّاد عليه السلام في رسالته التربويّة بأن يحفظ الإنسان لسانه

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي): ج ٢، ص ٧٨٨، ح ٩٥٤.

(٢) الأنعام: آية ٦٨.

ويصونه عن الخطأ في القول، فلا يتكلّم بما يشاء؛ لأنّ في ذلك الكثير من الباطل أو مخالفةً لأحكام الله تعالى، فلا يُطلق الإنسان لسانه العنان في القول؛ فإنّ في ذلك إسرافاً منهياً عنه، حيث يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١).

ومن جملة ما ورد عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام في هذا الصدد قوله: «... وحقّ اللسان إكرامه عن الخنا، وتعويده الخير، وترك الفضول التي لا فائدة لها، والبرّ بالناس، وحسن القول فيهم»^(٢).

لذا فعلى الإنسان قبل النطق أن يزن كلامه، فإذا كان خيراً يتكلّم؛ فإنّ الغنيمة في قول الخير، وإذا كان فيه سوء أو ضرر على المتكلّم، أو على الآخرين من أبناء المجتمع، سواء في ذلك الضرر الدنيوي أم الأخروي، فليصمت وليسكت؛ فإنّ في السكوت السلامة من الضرر والآفات الكثيرة.

يقول رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت عن سوء فسلم»^(٣).

٤- صون السمع

يتعرّض الإنسان في يومه الذي يقضيه لسماع الكثير من الكلام، وذلك عن

(١) الإسراء: آية ٣٦.

(٢) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١٣٢، ح ١، الباب ١٣، باب جملة ممّا ينبغي القيام به من الحقوق الواجبة والمندوبة، والحديث طويل جداً أدرج منه موضع الشاهد.

(٣) ابن شعبة الحرّاني، محمّد بن الحسن، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٤٣.

طريق مجالسة الأصدقاء، أو الاستماع إلى المذيع والتلفاز وأجهزة الاتصالات الحديثة المحمولة، فالصوت المسموع هو إمّا صوت حقّ، وإمّا صوت باطل وضلال. لذا ليس للإنسان أن يترك لنفسه سماع ما يشاء وإن كان باطلاً؛ فإنّ الآية الشريفة تقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)؛ إذ الإنسان مسؤول عن سماعه كما هو مسؤول عن بصره ومحاسب على ذلك. فإذا أراد الإنسان الاستماع فليتمتع بسماع صوت الحقّ من القول دون غيره من الأصوات. ومن جملة ما ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا المعنى، قوله عليه السلام: «وَحَقُّ السَّمْعِ تَنْزِيهِهِ عَنْ سَمَاعِ الْغَيْبَةِ، وَسَمَاعِ مَا لَا يَحِلُّ سَمَاعُهُ»^(٢).

٥. الاستغفار والتوبة

إنّ هذا المقوم التربوي المهمّ يؤكّد عليه الإمام السجّاد عليه السلام في كثير من أدعيته ومناجياته؛ لما فيه من القرب من الله تعالى والابتعاد عن الرذائل ومساوئ الأخلاق، وكذلك لما في الاستغفار من الآثار الدنيويّة قبل الآثار الأخرويّة، فالاستغفار والتوبة والندم على ما فرط الإنسان في أعماله وأقواله في الدنيا في حقوق الله تعالى وحقوق العباد، من جملة الآداب الإسلاميّة التي تجعل العبد قريباً من ربّه سبحانه وتعالى.

فكان من بلاغته وفصاحته في طلب التوبة ما ورد في الصحيفة السجّاديّة من دعائه عليه السلام في التوبة وطلبها، ومنه النصوص الآتية: «اللهم يا مَنْ لا يصفه نعمتُ الواصفين، ويا مَنْ لا يُجاوزه رجاء الراجين، ويا مَنْ لا يضيع لديه أجر المحسنين...

(١) الإسراء: آية ٣٦.

(٢) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١٣٢، ح ١، الباب ١٣، باب جملة ممّا ينبغي القيام به من الحقوق الواجبة والمندوبة، والحديث طويل جداً أدرج منه موضع الشاهد.

اللهم إني أتوب إليك في مقامي هذا من كبائر ذنوبي وصغائرهما، وبواطن سيئاتي وظواهرهما، وسوالف زلاتي وحوادثها، توبةً من لا يُحدث نفسه بمعصيةٍ، ولا يُضمِرُ أن يعود في خطيئة»^(١).

يُشير الإمام زين العابدين (عليه السلام) إلى بعض مضامين المقومات التربوية المتقدمة في بعض فقرات رسالته إلى أصحابه، وهذا لا يعني أنها قد اختصت بهم، وإنما علينا - نحن أتباع أهل البيت (عليهم السلام) - اتباع مضامينها أيضاً، لذا نختم هذه الخطبة بذكر بعض فقرات هذه الرسالة.

يقول الإمام السَّجَّاد (عليه السلام): «... فقدّموا أمر الله وطاعة من أوجب الله طاعته بين يدي الأمور كلّها، ولا تقدّموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت من زهرة الدنيا بين يدي الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم.

واعلموا أنّكم عبيد الله ونحن معكم، يحكم علينا وعليكم سيّد حاكم غداً، وهو موقفكم ومسائلكم، فأعدّوا الجواب قبل الوقوف والمساءلة والعرض على ربّ العالمين، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه.

واعلموا أنّ الله لا يصدّق يومئذ كاذباً ولا يكذب صادقاً، ولا يردّ عذر مستحقّ، ولا يعذر غير معذور، له الحجة على خلقه بالرسول والأوصياء بعد الرسل، فاتّقوا الله - عباد الله - واستقبلوا في إصلاح أنفسكم، وطاعة الله وطاعة من تولّونه فيها، لعلّ نادماً قد ندم في ما فرط بالأمس في جنب الله، وضيّع من حقوق الله، واستغفروا الله وتوبوا إليه، فإنّه يقبل التوبة، ويعفو عن السيئة، ويعلم ما تفعلون.

(١) الصحيفة السَّجَّادية: ص ١٤١-١٤٢. وهو دعاء طويل نقلنا منه بعض الفقرات.

وإياكم وصحبة العاصين، ومعونة الظالمين، ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم، وتباعدوا من ساحتهم، واعلموا أنه من خالف أولياء الله ودان بغير دين الله واستبدَّ بأمره دون أمر ولي الله كان في نار تلتهب، تأكل أبداناً قد غابت عنها أرواحها، وغلبت عليها شقوقتها، فهم موتى لا يجدون حرَّ النار، ولو كانوا أحياءً لوجدوا مضض حرَّ النار.

واعتبروا يا أولي الأبصار، واحمدوا الله على ما هداكم، واعلموا أنكم لا تخرجون من قدرة الله إلى غير قدرته، وسيرى الله عملكم ورسوله ثم إليه تُحشرون، فانفعوا بالعِظة، وتأدّبوا بآداب الصالحين»^(١).
والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ١٦ - ١٧.

الخطبة السادسة والستون
نفحات من توجيهات الإمام السجاد عليه السلام الأخلاقية
القسم الثاني

بتاريخ: ١٦ / ٣ / ٢٠٠٧ م

﴿دعاء الإمام السجاد عليه السلام في الاستعاذة من المكاره وسيئ الأخلاق﴾
﴿وقفة عند جملة من الخصال الأخلاقية الواردة في الدعاء﴾
له أولاً: الحرص

✽ الحرص الممدوح والحرص المذموم

✽ بعض آثار الحرص المذموم

✽ علاج الحرص المذموم

له ثانياً: الغضب وآثاره

له ثالثاً: الحسد وعواقبه

له رابعاً: الصبر وأقسامه

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا عَرَفْنَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ، وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَدَلَّنَا عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ لَهُ فِي تَوْحِيدِهِ، وَجَنَّبَنَا مِنَ الْإِلْحَادِ وَالشَّكِّ فِي أَمْرِهِ. حَمْدًا نَعْمُرُ بِهِ فِي مَنْ حَمْدِهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إِلَى رِضَاهُ وَعَفْوِهِ. حَمْدًا يُضِيءُ لَنَا بِهِ ظُلُمَاتِ الْبَرْزَخِ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْنَا بِهِ سَبِيلَ الْمُبْعَثِ، وَيُثَرِّفُ بِهِ مَنَازِلَنَا عِنْدَ مَوَاقِفِ الْأَشْهَادِ، يَوْمَ: ﴿تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١)، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢)، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾^(٣)^(٤).

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

إخواني المؤمنين وأخواتي المؤمنات، سلامٌ عليكم بما واليتم آل الرسول ﷺ وجاورتم ابن بنت الرسول ﷺ ورحمةٌ منه وبركات. أوصيكم - ونفسي الأمانة بالسوء - بتقوى الله تعالى وإطاعة أوامره والاجتناب عن نواهيه، والتخلُّق بمكارم الأخلاق ومحمود الصفات، وتجنب مذام الأفعال والصفات السيئة.

(١) غافر: آية ١٧.

(٢) البقرة: آية ٢٨١.

(٣) الدخان: آية ٤١.

(٤) الصحيفة السجادية: ص ٣٠.

دعاء الإمام السجاد عليه السلام في الاستعاذة من المكاره وسيئ الأخلاق

لكل إنسان هدف في الحياة، لكن الهدف الأسمى هو بلوغ السعادة والكمال، ثم السعادة الدائمة في الحياة الآخرة، ولأجل أن يصل الإنسان لهذا الهدف لا بد أن يعرف أولاً الأخلاق المحمودة، ويطلب من الله تعالى، ويستعين به للتصاف بها، وفي الوقت نفسه لا بد أن يعرف الأخلاق المذمومة، ويلجأ إلى الله تعالى ويستعيذ به من أجل اجتنابها.

من هنا ركز الإمام السجاد عليه السلام في مقاطع دعائه في مكارم الأخلاق الوارد في (الصحيفة السجادية)^(١) على تعريف الأمة الإسلامية بتفاصيل مكارم الأخلاق، وما هو الممدوح منها، وبيان مذام الصفات وما هو السيئ من الأفعال، لذا نراه - سلام الله تعالى عليه - قد اتخذ من الدعاء وسيلة لنشر المعارف الإلهية والعقائد الحقة، وبيان الآداب الإسلامية. وقد تضمنت تلك الأدعية أمرين:

الأول: تعريف الإنسان المؤمن بهذه الأخلاق والصفات.

الثاني: تلقيه كيفية الدعاء حتى يستمدّ العون من الله تعالى في التحلي بمكارم الأخلاق واجتناب مذام الصفات، فالإنسان مخلوق ضعيف، ربما لا يستطيع أن يصل إلى تلك المرتبة من التحلي بمكارم الأخلاق واجتناب مذام الصفات، لذا فهو بحاجة إلى المدد والعون الإلهيين لكي يتخلق بالأولى ويجتنب الثانية.

ومن هنا لا بد أن تحصل عنده المعرفة الكافية بماهية الصفات المذمومة؛ لكي يكون على بصيرة منها فيجتنبها.

ومن أجل ذلك يبدأ الإمام السجاد عليه السلام بتلقي المؤمنين كيفية الاستعاذة بالله تعالى من

(١) دعاء (مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال) هو الدعاء العشرون من الصحيفة السجادية، مقسم إلى ثلاثين مقطعاً، أوله: «اللهم صل على محمد وآله، وبلغ بإياني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل البقين، وانتبه بنيتي إلى أحسن النيات...». الصحيفة السجادية: ص ٩٢.

هذه الصفات الذميمة، من خلال تعليمه الطريقة الصحيحة والصياغة المطلوبة في الدعاء؛ لأنَّ الإنسان يُريد أن يلجأ إلى الله تعالى بهذا الدعاء، فلا بدَّ أن تكون صياغته وكيفيته مقبولةً عند الله تعالى؛ لكي تحصل الاستجابة منه تعالى، وذلك حال مَنْ يطلب حاجةً أو شيئاً أو يتبغي أمراً من مسؤول كبير في الدولة - مثلاً - فإنه يلجأ إلى إنسان متعلّم يصوغ له ذلك الطلب؛ لكي يضمن قبوله واستجابة طلبه.

من هذا المنطلق يسطّر الإمام السَّجَّاد عليه السلام من جملة أدعيته الواردة في الصحيفة السَّجَّادية دعاءه في الاستعاذة من المكاره وسيِّ الأَخلاق ومذامِّ الأفعال، قائلاً فيه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَيْجَانِ الْحَرَصِ، وَسَوْرَةِ الْغَضَبِ، وَعَلَبَةِ الْحَسَدِ، وَضَعْفِ الصَّبْرِ، وَقَلَّةِ الْقَنَاعَةِ، وَشَكَاةِ الْخُلُقِ، وَإِلْحَاحِ الشَّهْوَةِ، وَمَلَكَةِ الْحَمِيَّةِ، وَمَتَابَعَةِ الْهَوَى، وَتُخَالَفَةِ الْهَدَى، وَسِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَتَعَاطِي الْكُلْفَةِ، وَإِثَارِ الْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْمَآثِمِ، وَاسْتِصْغَارِ الْمَعْصِيَةِ، وَاسْتِكْبَارِ الطَّاعَةِ، وَمَبَاهَاةِ الْكَثَرِينَ، وَالْإِزْرَاءِ بِالْمَقْلِينَ، وَسُوءِ الْوَلَايَةِ لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِينَا، وَتَرْكِ الشُّكْرِ لِمَنْ اصْطَنَعَ الْعَارِفَةَ عِنْدَنَا، أَوْ أَنْ نَعْضُدَ ظَالِماً، أَوْ نَخْذُلَ مُلْهُوفاً، أَوْ نُرُومَ مَا لَيْسَ لَنَا بِحَقٍّ، أَوْ نَقُولَ فِي الْعِلْمِ بغيرِ عِلْمٍ. وَنَعُوذُ بِكَ أَنْ نَنْطَوِي عَلَى غَشٍّ أَحَدٍ، وَأَنْ نُعْجِبَ بِأَعْمَالِنَا، وَنَمُدَّ فِي آمَالِنَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سُوءِ السَّرِيرَةِ، وَاحْتِقَارِ الصَّغِيرَةِ، وَأَنْ يَسْتَحُوذَ عَلَيْنَا الشَّيْطَانُ، أَوْ يَنْكَبِنَا الزَّمَانُ، أَوْ يَتَهَضَّمَنَا السُّلْطَانُ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ تَنَاوُلِ الْإِسْرَافِ، وَمِنْ فَقْدَانِ الْكَفَافِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَهَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنْ الْفَقْرِ إِلَى الْأَكْفَاءِ وَمِنْ مَعِيشَةٍ فِي شِدَّةٍ، وَمِيتَةٍ عَلَى غَيْرِ عُدَةٍ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَسْرَةِ الْعَظْمَى، وَالْمُصِيبَةِ الْكَبْرَى، وَأَشَقَى الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْمَآبِ وَحَرَمَانِ الثَّوَابِ، وَحُلُولِ الْعِقَابِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِزَّنِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِرَحْمَتِكَ وَجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(١).

(١) الصحيفة السَّجَّادية: ص ٥٦.

من خلال فقرات هذا الدعاء يستطيع الإنسان أن يعرف الصفات التي يمكن أن تؤدّي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، ويمكن كذلك أن يعرف الصفات التي تؤدّي به إلى التعاسة والشقاء في هذه الحياة الدنيا. والاستعاذة بالله: هي اللجوء إلى الله تعالى والتحصّن بحصنه^(١) وذلك من أجل أن يجنّبه هذه الصفات الذميمة وسيئ الأخلاق.

وقفة عند جملة من الخصال الأخلاقية الواردة في الدعاء

أولاً: الحرص

عرّف علماء الأخلاق الحرص بأنّه: «بذل الوسع في طلب الأمور التي يمكن تحصيلها، وهو أمر إضافي يختلف في استحقاق الحمد والذمّ به بحسب اختلاف المطلوب في الشرف والخسّة»^(٢).

الحرص الممدوح والحرص المذموم

يقسّم العلماء الحرص إلى قسمين:

القسم الأوّل: الحرص الممدوح، وهو اشتداد طلب الإنسان بالتحلّي بمكارم الأخلاق والصفات المحمودة، كالحرص على أداء الوظائف الإلهية، والتفقه في الدين، ومعرفة العقائد الحقّة، وغير ذلك من الأحكام الإسلامية. وهذا النوع من الحرص يؤدّي إلى كمال الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

(١) مجموعة مؤلّفين، المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٣٥.

الاستعاذة لغة: الالتجاء، وقد عاذ به يعوذ: لاذ به، ولجأ إليه، واعتصم به. وعذتُ بفلان واستعذتُ به: أي لجأت إليه. ولا يختلف معناها اصطلاحاً عن المعنى اللغوي. الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ٥، ص ٣٨٠ - عوذ.

(٢) البحراني، ابن ميثم، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين: ص ١٠١.

القسم الثاني: الحرص المذموم، وهو اشتداد الرغبة في طلب الحاجات الدنيوية الزائدة عن الحد الذي يحتاج إليه الإنسان في حياته. وهذا القسم إنّما صار مذموماً؛ لأنّه يؤدّي بالإنسان إلى الآفات السلبية في الدنيا والآخرة.

يتعرّض الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) في دعائه لذكر القسم الثاني، وقد استخدم في الاستعاذة من هذه الصفة المذمومة مفردة (الهيجان)، أي هيجان هذه الصفة عند الإنسان؛ وذلك لأنّ الحرص إذا سيطر على الفرد سوف لن يقف عند حدٍّ معيّن في طلب الأمور الدنيوية. يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث مبيّناً صفة الحرص المذمومة عند الإنسان: «إنّ ما نزل به الوحي من السماء: لو أنّ لابن آدم واديين يسيلان ذهباً وفضةً لابتغى لهما ثالثاً. يابن آدم، إنّما بطنك بحر من البحور، ووادي من الأودية، لا يملأه شيء إلا التراب»^(١).

ومعنى ذلك أنّ طلب الإنسان ورغبته في زيادة الأمور المادّية الدنيوية لا تقف عند حدٍّ معيّن.

إنّ الإنسان يعلم بأنّ الله تعالى قد ضمن له رزقه وقدره عليه، وهو آتية لا محالة. وأمّا ما يطمع به من القدر الزائد فإنّ ذلك سوف يكون وبالاً عليه، يؤدّي به إلى الآفات السيئة.

بعض آثار الحرص المذموم

إنّ من جملة الآثار التي تترتب على صفة الحرص المذمومة صرف الوقت

(١) الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٤١٨، ح ٥٩١٢.

وضياعه، وتوظيف الطاقة والجهود في تحصيل الأمور الدنيوية التي لا نهاية ولا حد لها، فنرى الإنسان الحريص يكون دائماً مشغولاً في طلب تلك الحاجات، فلا يترك لنفسه وقتاً لإنجاز المهام الكبيرة الأخرى المتعلقة بطلب السعادة والكمال له في الآخرة.

هذا بالإضافة إلى أنه ربّما يواجهه - وهو في حال طلب تلك الأمور الدنيوية - شيء من الإذلال وفقدان المنزلة عند عموم الناس فضلاً عن أشرافهم. وهذا ما يُشير إليه الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بقوله: «الحرص ينقص قدر الرجل، ولا يزيد في رزقه»^(١).

نعم، الإسلام يحرص على أن يكون المسلم متمتعاً بشخصية مهابة محترمة لها قدرها ومنزلتها، لكنّ السعي وراء الأمور الدنيوية والحرص عليها يحطّ من قدره، وهو في الوقت نفسه لا يزيد من رزقه؛ إذ الرزق مكتوب ومقدّر عند الله تعالى.

علاج الحرص المذموم

إنّ معرفة ما في القناعة من عزّ الاستغناء هي من جملة العلاجات التي يُعالج بها الإنسان عند إصابته بالحرص المذموم، وكذلك فهم الإنسان لما في جمع المال من الخطر، وهذا إنّما يتمّ معرفته من خلال النظر إلى مَنْ هو دونه في الأمور الدنيوية والمادية، لا إلى مَنْ هو فوقه، وهذا ما يؤكّده الحديث عن أبي ذر الغفاري (رضوان الله عليه)، يقول: «أوصاني جبري عليه السلام: أن أنظر إلى مَنْ هو دوني، لا إلى مَنْ هو فوقني في الدنيا»^(٢).

(١) النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ٦٢، باب كراهة الحرص على الدنيا، ح ١٣٥١١.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٣٤٥. والرواية فيه: «... عن عبد الله الصامت، عن أبي ذرّ

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١).

إذاً الطريقة المثلى للتخلّص من هذه الصفة الذميمة، وتحصيل الصفات الممدوحة هي اكتساب القناعة التي هي كنز لا يفنى^(٢)، وذلك بأن ينظر الإنسان المبتلى بهذا المرض إلى مَنْ هو دونه خطأً في هذه الدنيا، فلا ينظر إلى مَنْ رزقه الله رزقاً أكثر منه؛ لأنّ مثل هذه النظرة يكون أثرها سلبياً لا إيجابياً؛ لأنّها تولّد عند الإنسان الحسد والبغض والحقد، ويصاحب كلّ ذلك الهمّ والغمّ أيضاً.

فالنظرة الصحيحة هي النظرة إلى مَنْ هو دون الإنسان خطأً، كما لو مرض الإنسان - مثلاً - فليُنظر إلى مَنْ هو أشدّ منه مرضاً، وإذا افتقر فليُنظر إلى مَنْ هو أكثر منه فقراً، وهكذا في سائر الابتلاءات الدنيويّة يجب أن يكون النظر فيها إلى مَنْ هو دون الإنسان ممّن أُبتلي بها؛ لأنّ هذه النظرة إذا ما تحقّقت سوف يقنع الإنسان بما قسم الله تعالى له.



رحمة الله عليه، قال: أوصاني حبيبي رسول الله ﷺ: أن أنظر إلى مَنْ هو دوني، لا إلى مَنْ هو فوقني في الدنيا، وأوصاني بحبّ المساكين والدينو منهم، وأوصاني أن أقول الحقّ وإن كان مرّاً، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن استكثر من قول: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم؛ فإنّها من كنوز الجنّة.

(١) طه: آية ١٣١.

(٢) إشارة إلى قول الرسول ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى». الفَتَّال النيسابوري، محمّد بن الحسن، روضة الواعظين: ص ٤٥٦.

وبعبارة أخرى: إنّ نظر الإنسان إلى مَنْ هو فوقه في الدنيا يجلب له المتاعب؛ لأنّه يجعله يدور في حلقة من الهمّ والغمّ، فيعيش ليلاً ونهاراً في حالة مضطربة مرتبكة يفكر فيها دوماً بالآخرين، ولماذا صار الآخرون أحسن منه حالاً في هذه الحياة الدنيا، فيفكر بأنّ فلاناً يتمتع بصحة جيدة فهو أفضل منه حالاً، أو أنّ فلاناً يمتلك المال الكثير فهو أغنى منه، وهكذا يبقى الإنسان في تفكير دائم يجلب له المتاعب والأذى.

ثانياً: الغضب وأثاره

يستعيد الإمام السجّاد عليه السلام في جملة من جُمل دعائه من «سُورَةُ الغضب»^(١). لا شك أنّ الغضب صفة أودعها الله تعالى في الإنسان، وكما أنّ الحرص تارةً يوصف بالذمّ وأخرى بالمدح - كما مرّ - كذلك هو الغضب، فتارةً يكون ممدوحاً ومحموداً، وأخرى مذموماً.

أمّا الحالة الأولى - الغضب الممدوح - فتصدق إذا كان في الغضب مصلحة، فعندها يتّصف بالممدوح، كما لو كان من أجل الحميّة على الدين، والانتصار للحقّ، والدفاع عن العِرض، وغير ذلك من المصالح الدنيويّة والأخرويّة. وأمّا الحالة الثانية - الغضب المذموم - فإنّها تصدق في الموارد التي لا يليق بالإنسان إذا كان مؤمناً وعاقلاً وحكيماً أن يغضب لأجلها.

لذا يُعلّمنا الإمام السجّاد عليه السلام ويلقّننا - من خلال هذا الدعاء المبارك - كيفيّة اللجوء إلى الله تعالى الذي هو الحصن الحصين عند تعرّض أحدنا لصفة الغضب

(١) السُّورَةُ: وثوب مع علوّ، ويُستعمل في الغضب وفي الشراب، يقال: سَوَرَةُ الغضب وسَوَرَةُ

الشراب. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٤٣٣.

المذمومة؛ وذلك لترتب الآثار السيئة على هذه الآفة الخطيرة؛ لأنَّ الإنسان معرّض في حياته إلى المرور بمواقف وحالات تسبّب له انفعالات نفسية ربّما تخرجه عن صوابه في الفعل أو القول. فإذا امتلك الإنسان غضبه وأحكم التصرف في تلك الحال، يكون قد كسب محمود الغضب وممدوحه، وأمّا إذا ترك لنفسه العنان وبدأت أهواؤه وشهواته تنور فلا يملك السيطرة على غضبه، عندها يُسبّب له هذا الأمر الكثير من الآفات السيئة، فربّما يتلفظ ألفاظاً فيها سباب وشتم وهتك لأعراض الناس أو إفشاء لأسرارهم، وهذا من أخطر الآفات السيئة؛ إذ الندم بعدها لا يصلح ما كان قد أفسده بلسانه، ولا يجبر ما كان قد هدمه؛ لأنَّ الكلام لا يرجع إلى ما صدر عنه، وعليه ربّما يبقى الإنسان نادماً على ما صدر عنه من كلام سنين كثيرة.

ولعلّ من الآثار المترتبة على ذلك أن يتعمّق الحقد البغيض في المجتمع، ويبقى محبوساً في النفوس والقلوب، ويتوارثه الأبناء عن الآباء، وتحصل نتيجة ذلك الخلافات والصراعات والعداوة بين أوسر المجتمع، حتى تصل الحالة أحياناً إلى القتل وسفك الدماء.

إنّ هذا كلّه تسببه حالة غضب واحدة لا يستطيع الإنسان عندها السيطرة على انفعالاته الشخصية، لذا ورد في بعض الأحاديث الشريفة عن المعصومين (عليهم السلام) بأنَّ الإنسان إذا أرد الكلام في أية حالة من حالاته، فضلاً عن حالة الغضب، عليه أن يعرض كلامه أولاً على مصفى العقل، أي يعرضه على ميزان العقل وميزان الشرّ، فإن وجد فيه المنفعة والمصلحة، وكان خالياً من الآثار السلبية، حينئذٍ تفوّه ونطق به، وهذه الحالة تحتاج إلى التروّي قبل البدء بالكلام؛ تحسباً من عواقبه الدنيوية

والأخروية. لهذا يستعين الإمام السجّاد عليه السلام بالله تعالى، ويستعيذ به من اشتداد حالة الغضب عنده حتى لا تصل به إلى النتائج غير المحمودة.

ومن جملة ما ورد في الغضب وأهميّة ملكة الحلم وكظم الغيظ من الأحاديث الشريفة ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من جرعة يجرعها عبدٌ أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من جرعة غيظ يردها في قلبه، فردّها بصبر، أو ردّها بحلم»^(١).

وورد عن رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا»^(٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِيَّاكَ وَالْغَضَبَ، فَأَوَّلُهُ جَنُونٌ، وَآخِرُهُ نَدَمٌ»^(٣). ولعلّ من أنجح العلاجات التي يُعالج الإنسان فيها غضبه - بعد الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم - هو ترك مجلسه الذي هو فيه، فتفادياً لوقوع الآثار السلبية من غضب الإنسان وهو في مكان ما عليه أن يغادر المجلس. وكذلك من علاجات حالات الغضب الجلوس إذا كان قائماً، والاضطجاع إذا جالساً، والوضوء أو الغُسل بالماء البارد، ومسّ يد الرحم إذا كان مغضوباً عليه؛ فإنّه من مهدّئات الغضب^(٤).

ثالثاً: الحسد وعواقبه

يقول الإمام السجّاد عليه السلام في دعائه: «وغلبة الحسد».

(١) النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ٩، ص ١١، باب استحباب كظم الغيظ.

(٢) ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): ج ١، ص ٤١٤.

(٣) البروجردي، حسين بن علي، جامع أحاديث الشيعة: ج ١٣، ص ٤٦٦، باب ما ورد في ذمّ الغضب لغير الله.

(٤) الصدر، مهدي، أخلاق أهل البيت عليه السلام: ص ٣٥.

الحسد هو الآخر من الصفات المذمومة التي يتعوّذ منها الإمام السَّجَّاد (عليه السلام)؛ لأنّه من أسوأ الانحرافات الأخلاقية أثراً، فالحسود لا ينفك عن الهمّ والغمّ والعناد، ساخطاً على قضاء الله سبحانه في رعايته عبيده؛ وذلك أنّه يعترض على ما قسمه الله تعالى من أرزاق العباد بينهم، سواء في المال أم العلم أم الجاه أم في الأمور الأخرى، فالحاسد حينما يتمنّى زوال هذه النعمة أو هذا الرزق فهو في الواقع يكون معترضاً على قضاء الله تعالى وقدره وقسمته بين العباد، ونتيجة ذلك أن يسخط الله تعالى عليه بسبب اعتراضه.

على أنّ هذا الشيء لا يُغيّر من الرزق المقسوم الذي قسمه الله تعالى وقدره لعباده، وإنّما هو يجلب البلاء، فيسلك بالحاسد طريقاً صعبةً تؤدّي به ربّما إلى القتل أحياناً لشدة حسده، كما في قصّة قابيل وهابيل^(١)، بل ربّما يؤدّي الحسد بالإنسان إلى الهلاك، كما في أولئك الذين حسدوا أهل البيت (عليهم السلام)؛ لأنّ الله تعالى اجتباهم وبوّأهم المقام العظيم الرفيع، وهو مقام الإمامة الإلهية، فالذين حسدوهم على ذلك دفعهم حسدهم إلى الوقوع في الضلال والهلاك؛ لأنّه أبعدهم عن اتّباع أهل البيت (عليهم السلام) والاقتداء بهم والإيمان بإمامتهم، فأوقعهم في الضلال، والهلاك.

(١) ورد في (تفسير العياشي): «عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال: لما قرّب ابنا آدم القربان، فُتقبل من أحدهما، ولم يُتقبل من الآخر. قال (عليه السلام): تقبل من هابيل، ولم يُتقبل من قابيل. أدخله من ذلك حسد شديد، وبغى على هابيل، ولم يزل يرصده، ويتبع خلوته، حتى ظفر به متنحياً من آدم، فوثب عليه وقتله، فكان من قصّتها ما قد أنبأ الله في كتابه ممّا كان بينهما من المحاورّة قبل أن يقتله...».

العيّاشي، محمّد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١، ص ٣٠٦، ح ٧٧.

وهذا بالتأكيد من آثار الحسد؛ فإن من جملة الآثار ما يهلك الإنسان أو يجعله يعيش الهم والغم والتفكير بما قسمه الله تعالى لعباده من أنواع الرزق. من هذا المنطلق يتعوذ الإمام السجّاد عليه السلام من هذا الحسد، وهو في المقام الحسد الذي يرتّب صاحبه عليه الآثار، ولذلك يُعبّر عنه بقوله: «وغلبة الحسد»، أي: يكون الإنسان مغلوباً لهذا الحسد، فيتحكّم بأقواله وأفعاله. ولخطورة داء الحسد وضرره الجسيم على دنيا الإنسان وآخرته، ورد النهي عنه في روايات كثيرة، ومن ذلك ما روي الإمام عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ لموسى بن عمران: يا ابن عمران، لا تحسّدنّ الناس على ما آتيهم من فضلي، ولا تمدّنّ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك؛ فإنّ الحاسد ساخطٌ لنعمي، صاّدٌ لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومَن يكُ كذلك فلستُ منه، وليس مِنّي»^(١).

رابعاً: الصبر وأقسامه

يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «وضعف الصبر». إنّ من جملة الصفات التي يذكرها الإمام عليه السلام، والتي يجب اللجوء فيها إلى الله تعالى والاستعانة به لأجل دفعها هو ضعف الصبر؛ إذ الصبر هو مفتاح الفرج^(٢)، بمعنى أنّ الفرج مرّتّب على الصبر في الشدائد والمصائب، وهو الباب الذي يمكن

(١) المجلسي، محمد تقي، روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ج ١٢، ص ١١٥.

(٢) أدرج ابن أبي الحديد المعتزلي عبارة: «الصبر مفتاح الفرج» من الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٣٠٧. وعدّها القاضي التنوخي من الأمثال السائرة. القاضي التنوخي، المحسن بن علي، الفرج بعد الشدة: ج ١، ص ٣٧.

من خلاله الوصول إلى تحقيق النصر والأمان المتوخَّاة، فإذا كان الصبر ضعيفاً لا يمكن من خلاله الوصول إلى ذلك.

والصبر يُقسَّم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: الصبر على المصيبة أو البلاء؛ إذ قد يُصاب الإنسان بفقد عزيز مثلاً، أو يُبتلى بمرض، أو غير ذلك من ابتلاءات الدنيا، وهذا ممَّا يحتاج إلى الصبر لتجاوز هذه المحنة التي أُصيب بها، وذلك بأن يكون راضياً بقضاء الله وقدره الذي كتبه له، فلا يجزعنَّ من ذلك، وإنَّما يصبر حتى يفرِّج الله تعالى مصيبته.

القسم الثاني: الصبر على الطاعة؛ فإنَّ طاعة الله تعالى تحتاج مقداراً من الصبر، وذلك من أجل أدائها وامتثالها؛ لما فيها من المشقَّة والعناء، فإذا أراد الإنسان ديمومة هذه الطاعة وبقائها وطلب التوفيق في استمرارها لا بدَّ له من التزام الصبر على ذلك؛ فإنَّه الطريق لتحقيق هذه الطاعة.

القسم الثالث: الصبر عن المعصية؛ فإنَّ الإنسان معرَّض في حياته اليومية في هذه الدنيا إلى مغريات كثيرة وأنواع عديدة من المحرِّمات، فربَّما تواجهه شهوة أو لذة محرَّمة، أو يقدم على معاملة تجارية محرَّمة، أو يخوض في حديث محرَّم، وغير ذلك من المحرِّمات الكثيرة، وربَّما تكون طبيعة الإنسان توافقة إلى كسب مثل هذه الأمور مع أنَّها محرَّمة عليه، ويُعدَّ ارتكابها معصيةً، لذلك يحتاج الإنسان في العزوف عنها وتركها إلى التحمُّل والصبر والصمود.

إنَّ لهذا الصبر أجراً عند الله تعالى، تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، والأجر هو الثواب الجزيل والأجر العظيم الذي أعدَّه الله تعالى

(١) الزمر: آية ١٠.

للسابرين، وهو الوصول إلى تحقيق الغاية والظفر بالكمال في الدنيا والسعادة في الآخرة.

ومن أجل بعث النفس وتحريكها نحو الصبر على هذه الأقسام الثلاثة من الصبر، نذكر حديثاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى، يقول عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى متهى العرش»^(١).

وما أحوجنا في هذه المرحلة التي نمرّ بها إلى التحلي بالصبر؛ فإنّ الكثير من أبنائنا وعوائل مجتمعتنا يتعرّضون إلى القتل والتهجير والتشريد، وهذا نوع من البلاء والامتحان الذي يحتاج منّا أن نواجهه بالصبر والثبات، وطرد الجزع من نفوسنا؛ لأنّه لا ينفعنا شيئاً في إنهاء مثل هذا البلاء.

نسأل الله تعالى أن يُعيننا على الاجتناب عن مذام الصفات ومكروه الأفعال، وأن يوفّقنا - وجميع المسلمين - للصبر على ما نمرّ به من محن وابتلاءات، وأن ينصرنا على أعدائنا، إنّهُ سميع مجيب.
والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٩١.

الخطبة السابعة والستون

وحدة الأمة الإسلامية مصدر قوة المسلمين

بتاريخ: ٣٠ / ٣ / ٢٠٠٧ م

◀ مقدمة البحث

◀ مفهوم الوحدة الإسلامية وعوامل تحقيقها

◀ أسس الوحدة الإسلامية

❧ الأساس الأول: الموقف الواحد

❧ الأساس الثاني: الحرية في الفكر والرأي

❧ الأساس الثالث: مراعاة الحقوق العامة

❧ الأساس الرابع: رابطة الأخوة الإسلامية

❧ الأساس الخامس: لغة الحوار

❧ الأساس السادس: الحكم على أساس الظاهر

❧ الأساس السابع: التعايش السلمي

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأول بلا أول كان قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده، الذي قصرت
عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين. ابتدع بقدرته الخلق
ابتداعاً، واخترعهم على مشيئته اختراعاً. ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل
محبه، لا يملكون تأخيراً عما قدمهم إليه، ولا يستطيعون تقدماً إلى ما آخرهم عنه^(١).
والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيّدنا أبي القاسم محمد وآل
بيته الطيبين الطاهرين.

أوصيكم - إخواني وأخواتي - ونفسي الغارقة بالذنوب والآثام بتقوى الله
تعالى، والاعتصام بحبله المتين، والتمسك بعروته الوثقى التي لا انفصام لها،
والابتعاد عن التنازع والشقاق والخلاف.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).
وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُضْلَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٣).

مقدمة البحث

تواجه الأمة الإسلامية - ولا سيّما شعبنا العراقي المظلوم - في الظروف الراهنة

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٢٨.

(٢) آل عمران: آية ١٠٣.

(٣) الأنفال: آية ٤٦.

الكثير من التحديات والمشاكل والأزمات التي تهدد كيانها العقائدي والسياسي والثقافي والاجتماعي، لذا لا بدّ من الرجوع إلى الأسس القويمة والأركان الوثيقة التي يعتمدها القرآن الكريم من أجل تحقيق النصر والتغلب على كلّ هذه الأزمات. هناك عوامل أساسية مهمة يسعى لتحقيقها كلّ مسلم غيور من أبناء الأمة الإسلامية، وهي تتلخّص في ثلاثة عوامل:

الأول: الحفاظ على قوّة الكيان الإسلامي، سواء كان كياناً عقائدياً أم سياسياً أم ثقافياً أم اجتماعياً.

الثاني: تحقيق الاستقلالية والإرادة الحرّة في اتّخاذ القرار السياسي والفكري والثقافي والاقتصادي.

الثالث: حفظ عزّة الأمة الإسلامية وكرامتها ومنعتها وسؤدها. ولا بدّ في تحقيق هذه العوامل أن نعتمد الأسس التي ذكرها القرآن الكريم، والتي بيّنت الآيتان اللتان ذكرناهما في مطلع الكلام أساسين مهمّين منها: الأساس الأول: الحرص على تحقيق الوحدة الإسلامية. الأساس الثاني: الابتعاد عن الاختلاف والتنازع والشقاق الذي يدخل الوهن والضعف في صفوف الأمة الإسلامية.

مفهوم الوحدة الإسلامية وعوامل تحقيقها

بعد هذه المقدمة أودّ بيان بعض الأمور المهمة المتعلقة بالآيتين القرآنتين: الأمر الأول: بيان مقومات القوّة والمنعة في الأمة الإسلامية إنّ دراسة الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تكشف عن توفّر الكثير من عوامل النصر والقوّة والمنعة في المجتمع والكيان الإسلامي، ومن تلك العوامل: أولاً: سلامة العقيدة والفكر؛ فإنّ الاعتقاد بوحدانية الله تعالى، والإيمان بخاتم الأنبياء وبالكتاب الواحد، وكذلك الإيمان بيوم القيامة، وغيرها من العقائد، يُشكّل عاملاً مهمّاً من عوامل تحقيق النصر على الأعداء.

ثانياً: الغنى الفكري؛ فإن ما يحمله أبناء الأمة الإسلامية من الفكر الإسلامي كفيل في مواجهة الأزمات والمشاكل المتجددة في كل عصر.

ثالثاً: الغنى الروحي الذي هو عامل التوكل على الله؛ فلا شك في أن المسلمين يعتمدون في تحقيق نصرهم على الإيمان بالله تعالى والثقة به، والثقة بتحقيق وعده في نصرهم على الأعداء.

رابعاً: توفر الإمكانيات البشرية والمادية الهائلة، والموقع الاستراتيجي المهم الذي تتمتع به البلدان الإسلامية، وغير ذلك، كلها تعدّ من عوامل انتصار الأمة الإسلامية على أعدائها.

ولكن كل هذه العوامل لا تؤدّي الفائدة والغرض منها إن لم تكن هناك وحدة في صفوف هذه الأمة الإسلامية، وهذا ما تؤكّد عليه الآيات القرآنية، بل إن لم تتحقّق الوحدة الإسلامية سيتلاشى تأثير هذه العوامل، وتهدر هذه الطاقات والإمكانيات والغنى الفكري والعقائدي والروحي، بل ربّما توظّف هذه العوامل في إضعاف الأمة الإسلامية.

ومن هنا تتضح ضرورة تحقيق هذه الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية.

الأمر الثاني: بيان المقصود من وحدة الأمة الإسلامية

من المعلوم أنّ الأمة الإسلامية مكوّنة من كيانات مختلفة في مذاهبها، وفي آرائها السياسيّة، وفي اجتهاداتها وآرائها الفقهيّة، فهل المراد من تحقيق الوحدة الإسلامية هو إلغاء هذه الاختلافات العقائديّة والسياسيّة والاجتهاديّة، بحيث

تكون هناك عقيدة واحدة، واتّجاه سياسي واحد، واجتهاد واحد، ورأي واحد؟

من المؤكّد أنّه ليس المقصود هو هذا الأمر؛ فإنّه من غير الممكن إلغاء

الاختلافات العقائدية، أو إنهاء الاجتهادات المختلفة بين المذاهب، أو القضاء على الآراء السياسية المتباينة وتحجيمها؛ فإنّ التعدّد في الأمة الإسلامية يرفض ذلك؛ لأنّه من الطبيعي أن يتمسك كلّ اتجاه سياسي، أو مذهب ديني برأيه وعقيدته، وبالتالي لا بدّ من حصول اختلاف في الرؤى السياسية والاستنباطات الفقهيّة. وإنّنا المقصود من ذلك أمران:

أولاً: توظيف القواسم المشتركة الكثيرة بين كيانات الأمة الإسلامية المتعدّدة في تحقيق أهداف هذه الأمة، ومن بينها الغرض الأساسي، وهو الوقوف بوجه الأعداء حتى تحقيق النصر؛ فإنّ هذه القواسم المشتركة في العقائد والأفكار والإمكانات الماديّة يجب أن توظّف في خدمة الأمة الإسلامية وضدّ أعدائها.

ثانياً: عدم توظيف الاختلافات الحاصلة بين أبناء الأمة الإسلامية - نتيجة التعدّد - في إضعافها، وخاصّة اختلافات الرؤى المذهبيّة والسياسيّة.

ربّما يقول بعضنا: إنّ كلّ جهة أو كيان له رأي خاصّ به ويعتقد بصحّته سواء كان عقائديّاً أم سياسيّاً أم غير ذلك، فكيف توجّه هذه الاختلافات؟

والجواب على ذلك: إنّ الذي ينبغي العمل به هو عدم توظيف هذه الاختلافات في إضعاف كيانات الأمة الإسلامية وأبنائها؛ فإنّه يمكن أن يعمل كلّ كيان بما يراه صحيحاً في رأيه وعقيدته، لكن شريطة ألاّ يُستغل من قبل أعداء الإسلام ويُستخدم في إضعاف كيان إسلامي آخر.

وبعبارة أخرى: لا بأس بحصول الاختلافات والتمسك بالآراء، لكن ليس على حساب إضعاف جهة أو كيان إسلامي آخر؛ كي لا يتربّص الأعداء بهذا الكيان الضعيف ثم يتمكّن العدو من القضاء عليه.

هذا هو المقصود من تحقيق الوحدة الإسلامية، وهذان الأمران يمكن تحقيقهما بالاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهّرة.

أسس تحقيق الوحدة الإسلامية

بعد أن اتضح المقصود من الوحدة الإسلامية، نتعرض لذكر الأسس التي يمكن من خلالها تحقيق هذه الوحدة، ونخصّ بالكلام وحدة المجتمع العراقي الذي يعيش الظروف الصعبة المليئة بالأزمات والمخاطر والتحديات، ولا سيّما وحدة أتباع مذهب أهل البيت (عليه السلام)؛ فإنّ هناك مجموعة أسس وركائز لا بدّ من توفرها حتى تتحقّق هذه الوحدة.

الأساس الأول: الموقف الواحد

يجب على جميع الكيانات السياسيّة والمكوّنات الاجتماعيّة اعتماد موقف واحد تجاه أعداء الدين والإسلام الحقيقيّين، سواء كانوا أعداءً في السياسة، أم العقيدة، أم في أفكارهم الإلحاديّة والمادّيّة الخارجة عن القيم الإسلاميّة.

نعم، قد تكون هناك اعتبارات سياسيّة لبعض الكيانات الإسلاميّة ولا يمكن تحقيق الموقف الواحد الذي يُواجه به الأعداء، لكن - كما مرّ معنا قبل قليل - يجب ألاّ يُوظّف أيّ كيان إسلامي ضدّ كيان إسلامي آخر، سواء في العقيدة، أم الفكر، أم السياسة، أم الاقتصاد، أم غير ذلك؛ فإنّ تفويت الفرصة على الأعداء يُعتبر مساهمة في تحقيق الوحدة بين صفوف الأمة الإسلاميّة.

الأساس الثاني: الحرّيّة في الفكر والرأي

لقد أكّد الإسلام على أساس مهمّ في حياة الشعوب، وهو الحرّيّة في الفكر والرأي، لذا يجب أن يُعتمد هذا المبدأ في الخلافات المذهبيّة، فلا يُصار إلى إلغاء الآخر وإقصائه وتهميشه وترك مبدأ الحرّيّة الذي نادى به الإسلام، فتطبيق هذا المبدأ الإسلامي يؤسّس للوحدة الإسلاميّة.

الأساس الثالث: مراعاة الحقوق العامة

على القيادة أو الحكومة مراعاة الحقوق الإنسانية العامة وبسطها لجميع أبناء المذاهب الإسلامية، في الفكر والرأي والسياسة وممارسة العبادة والشعائر الدينية والحقوق المدنية، فلا يجوز حرمان أتباع مذهب معين من ممارسة شعائره العبادية، أو الإدلاء برأيه السياسي، أو فكره وثقافته، الأمر الذي يؤدي إلى قوة مذهب معين، على حساب المذهب أو المذاهب الأخرى. فمراعاة الحقوق أساس مهم في تحقيق الوحدة والقوة والمنعة للأمة الإسلامية.

هذا من جانب، ومن جانب آخر على القيادة والحكومة التعامل مع جميع مكونات الأمة الإسلامية بأسلوب رحيم ولين، أي: عليها ممارسة العطف الأبوي مع أبناء المجتمع، ومعاملتهم بالسوية، والحكم بينهم بالعدل والقسط والمساواة وعدم الانحياز لجهة دون أخرى، أو تقديم كيان على آخر.

الأساس الرابع: الإخوة الإسلامية

يجب طرح مبدأ الإخوة الإسلامية كرابطة مقدسة بين جميع أبناء الأمة الإسلامية، ومراعاة استحقاقات هذه الرابطة ومستلزماتها وتقديمها على استحقاقات الروابط الأخرى، كرابطة القبليّة والقومية وغيرهما؛ وذلك تطبيقاً لآيات الله تعالى، إذ يقول في محكم كتابه - مؤكداً على قدسية هذه الرابطة وجعلها فوق مستوى الروابط الأخرى -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

(١) الحجرات: آية ١٠.

(٢) التوبة: آية ٧١.

نعم، لا أحد يُنكر وجود الروابط العشائرية والقومية وغيرها بين صفوف المجتمع، لكنّ الأساس القرآني يُميّز رابطة الإخوة الإيمانية، ويجعلها من أقدس الروابط، ويُعطيها مستحقّات لا بدّ من رعايتها وتقديمها، يقول تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، فإنّ الذين نصرّوه وحققوا معية الإيمان والولاء لله تعالى، تجمعهم رابطة الرحمة والتآلف والتعايش السلمي، وهذا ما يدعو إلى نبذ الخلافات، ويوحد بين أبناء الأمة، ويجعلهم إخواناً متساوين في الحقوق والواجبات.

هذا المبدأ من الأسس المهمة التي لا بدّ من اعتمادها في تحقيق الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية؛ لأنّ رابطة الولاية بين المؤمنين هي التي تجمعهم، وتجعل كلمتهم واحدة وقوية بوجه الأعداء.

الأساس الخامس: لغة الحوار

إنّ كلّاً من الدعوة للحكمة والموعظة الحسنة، والاعتناد أولاً على لغة الحوار والتفاهم في فضّ الخلافات والمنازعات، ثمّ إلقاء الحجّة واتباع الدليل والبرهان في حال تفاقم الأمور وصعوبتها، كلّ ذلك يوجد الأرضية الصالحة للتفكير والتدبّر والابتعاد عن الجرح والطعن والافتراء وتشويه سمعة الآخرين واتّهامهم باطلاً.

إنّ الابتعاد عن الاتّهامات والافتراءات وإثارة الشبهات حول الأبرياء، وتحريّ الدليل، واتباع البرهان والحجّة ممّا أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ

(١) الفتح: آية ٢٩.

ءَامِنُوا أَجْتَنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٢﴾. فإن مضمون هاتين الآيتين يقضي بالتحري والفتح والتحقيق قبل إصدار الأحكام؛ فلعل بعضهم يتسرع وينسب بعض الأمور الباطلة والشبهات إلى مذهب معين وهو براء مما نسب إليه، وبالتالي يكون ذلك أساساً لزرع الفتنة والضعينة بين أبناء الأمة الإسلامية. إذاً من أسس تحقيق الوحدة الإسلامية بين أبناء المجتمع الإسلامي اعتماد الدليل والحجة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

الأساس السادس: الحكم على أساس الظاهر

أسس القرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ مبدأ مهماً جداً يحفظ للناس أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم الأخرى، وهو مبدأ الحكم على الناس بالظاهر، والظاهر هو الإسلام، تقول الآية القرآنية المباركة مشيرةً إلى ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣﴾.

يقول النبي الأكرم ﷺ في خطبة له بعد أن قضى مناسك منى في حجة الوداع: «... فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... ألا هل بلغت؟» ﴿٤﴾.

إن مضموني الآية الكريمة ونص الرسول ﷺ يؤسسان للتعايش السلمي

(١) الحجرات: آية ١٢.

(٢) الإسراء: آية ٣٦.

(٣) النساء: آية ٩٤.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٧، ص ٢٧٣.

المبني على تحقيق القدسيّة للحياة الكريمة، واحترام الحقوق والأعراض، وبالتالي استقرار الأمن، وهو من الدعائم التي تكفل تحقيق الوحدة الإسلامية في المجتمع الإسلامي.

لقد تكفّلت الشريعة الإسلامية - من خلال هذا المبدأ - لأبناء الأمة على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم معالجة الاختلافات الحاصلة بينهم، وبالتالي - إذا ما عُوّجت هذه الاختلافات وحُلّت بالطريقة الصحيحة - يُحفظُ للأمة وأبنائها وحدتها التي تُحقّق لها القوة والمنعة والعزة.

إنّ مبدأ الحكم على أساس الظاهر والتعامل مع جميع أبناء الأمة على هذا الأساس ممّا يؤكّد عليه الرسول ﷺ مرّةً أُخرى بوضوح؛ وذلك في قوله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ حَقَّنَ مَالَهُ وَدَمَهُ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١)، فإنّ جميع أبناء الأمة، على الرغم من اختلافهم في الآراء الاجتهادية، والرؤى السياسية والعقائدية، يشهدون الشهادتين، فليس من الصواب الحكم على جهة أو طائفة أو مكوّن أو مذهب بأنّه على الكفر أو الخلاف أو الارتداد؛ فإنّ هذه الأحكام الخطيرة تُخالف ما أسّس له القرآن الكريم والرسول ﷺ من الحكم على الظاهر، ولذا فإنّ ممّا يؤسف له أنّ الكثيرين ممّن يعدّون أنفسهم من المسلمين ركنوا هذا المبدأ جانباً، وحكموا على الآخرين بأحكام أدّت إلى سفك الدماء الطاهرة، وحصول التنافر بين صفوف الأمة الإسلامية. وممّا تقدّم ذكره في بيان لهذا المبدأ يجدر بنا أن يكون موقفنا سليماً أمام الله تعالى،

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ٩٦.

وهو لا يكون كذلك إلا إذا كنّا قد أطعنا القرآن الكريم والنبى الأكرم ﷺ، وحفظنا لهذه الأمة وحدتها وعزّتها ومنعتها وكرامتها من خلال تطبيق هذا المبدأ الكريم.

الأساس السابع: التعايش السلمى

يؤكد المعصومون عليه السلام على الحرص في بذر عوامل التعايش السلمى والأخوي بين جميع المسلمين، المبني على الاحترام والتقدير بين أبناء المجتمع على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم ونحلهم، والحثّ على نشر روح الأخوة الإسلامية، والابتعاد عن كلّ ما يساعد في زرع الإحن والفتن والأحقاد وبثّ روح الخلاف والتنازع بينهم، وهذا - التعايش الاجتماعى السلمى - ما تؤكّد عليه الكثير من روايات أهل البيت عليه السلام. وفي المقام نذكر حديثاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يُشير إلى هذا المعنى، ويؤكد عليه، وهذا الحديث وإن كان موجّهاً إلى شيعة خاصّة، لكنّ المقصود منه عامّة المسلمين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، فأهل البيت عليه السلام هم عدل القرآن الكريم الذين أوصى النبي ﷺ المسلمين كافّة باتباعهم، واعتبر أنّ التمسك بهم وبالقرآن الكريم يكفل الهداية للجميع، ويضمن سلامة مسيرة المؤمنين في طريق الهداية الإلهية؛ كما يدلّ على ذلك النصّ الوارد عن الرسول ﷺ والذي اتفق المسلمون على صحّته، وهو حديث الثقلين الذي يقول ﷺ فيه: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإتّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الخوض»^(١).

فقد أوضح النبي ﷺ أنّ مرجعية أهل البيت عليه السلام عامّة لكلّ المسلمين، لكنّا خاطب الإمام الصادق عليه السلام الشيعة خاصّة - في هذا الحديث -؛ لأنّ الشيعة يعتقدون

(١) أنظر: المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد: ج ١، ص ٢٣٣. الخصيبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ١٨. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج ٥، ص ١٥٤. المتقي الهندي، عليّ بن عبد الملك، كنز العمال: ج ١، ص ١٨٧.

بقيادته ومرجعيتّه في جميع مناحي الحياة. فقد روى الشيخ الكليني رحمته الله في (الكافي) عن الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً زيداً الشحام: «اقرأ على من ترى أنّه يُطيعني منهم، ويأخذ بقولي، السلام. وأوصيكم بتقوى الله عزّ وجلّ، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحُسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله. أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً؛ فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيطة».

ثم بعد ذلك يأتي التوجيه المهمّ الذي أسّس الإمام الصادق عليه السلام من خلاله لمبدأ التعايش الاجتماعي السلمي بين أبناء المذاهب الإسلامية، هذا التعايش المبني على روح الأخوة والاحترام المتبادل والتواصل بين الجميع، من خلال هذه الكلمات الأخلاقية الاجتماعية التي وجهها إلى جميع المسلمين: «صلوا عشائركم، واشهدوا جنازهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم؛ فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدّى الأمانة، وحسّن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك، ويدخل عليّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر. وإذا كان على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر».

إنّ نتيجة تطبيق ما يذكره الإمام الصادق عليه السلام من مفاهيم تربوية واجتماعية تخدم أبناء المجتمع الإسلامي وتوحدهم، هي دخول السرور والفرح على قلوب أهل البيت عليهم السلام.

ومن بعد ذلك يبدأ الإمام عليه السلام ببيان مواصفات الموالين الحقيقيين لأئمة أهل البيت عليهم السلام: «فوالله، لحدثني أبي عليه السلام أنّ الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام، فيكون زينها، آدامها للأمانة، وأفضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم

وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: مَنْ مثل فلان؟ إِنَّه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث»^(١).

ما أحوجنا نحن المسلمين في الوقت الحاضر وفي هذه الظروف إلى تطبيق هذه المفاهيم في حياتنا الاجتماعية، ولا سيّما في بلدنا العراق الذي يُريد أعداؤه وأعداء الإسلام أن يُفَرِّقوا بين أبناء هذا الشعب، ويثيروا الفتن بين طوائفه، ليقعواهم في حرب طائفية، وكلّ ذلك من أجل إضعاف الشيعة وغيرهم من المسلمين في جميع البلدان الإسلامية.

لذا فإنّ مبدأ التعايش الاجتماعي السلمي بين أبناء المجتمع المسلم هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن لها أن تُنْجِي أبناء الأمة من الحروب الداخلية الطائفية، وتوحد كلمتهم وصفوفهم، وتقوّي شوكتهم في مواجهة الأعداء.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للاقتداء بسيرة أهل البيت عليهم السلام، وأن يحفظ لهذه الأمة قوّتها وعزّتها وكرامتها ومنعتها، ونسأل الله تعالى أن يكشف هذه الغمّة عن هذه الأمة، إِنَّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٣٦.

الخطبة الثامنة والستون

من صفات المتقين

القسم الثالث

بتاريخ: ١٣ / ٤ / ٢٠٠٧ م

﴿ تزين المتقي بالعلم والحلم والتواضع

﴿ مزج القول بالفعل

﴿ قرب الأمل

﴿ خشوع القلب

﴿ قناعة النفس

﴿ عدم الإكثار من الطعام

﴿ حصانة الدين

﴿ عفة البطن والفرج

﴿ كظم الغيظ

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِكُلِّ مَا حَمَدَهُ بِهِ أَدْنَى مَلَائِكَتِهِ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمُ خَلْقَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَرْضَى حَامِدِيهِ لَدَيْهِ. حَمْدًا يَفْضُلُ سَائِرَ الْحَمْدِ، كَفَضْلِ رَبَّنَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ. ثُمَّ لَهُ الْحَمْدُ مَكَانَ كُلِّ نِعْمَةٍ لَهُ عَلَيْنَا وَعَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ الْمَاضِينَ وَالْبَاقِينَ، عَدَدَ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَمَكَانَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً أَبَدًا سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١).

والصلاة والسلام على أفضل خلقه سيّد المرسلين، وآل بيته الطيّبين الطاهرين.

إخواني المؤمنين أخواتي المؤمنات، أُحْيِيكُمْ بِتَحِيَّةِ الْوَلَاءِ لآل بيت الرسول ﷺ، وَبِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ فَأَقُولُ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِهَا وَالْيَتَمَّ آلُ الرَّسُولِ ﷺ وَجَاوَرْتُمْ قَبْرَ ابْنِ بِنْتِ الرَّسُولِ ﷺ وَرَحْمَةً مِنْهُ وَبَرَكَاتٍ.

أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهَا السَّبِيلُ إِلَى النِّجَاةِ وَالْكَمَالِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالطَّرِيقُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ. تَعَرَّضْنَا فِي خُطْبَتَيْنِ سَابِقَتَيْنِ^(٢) إِلَى بَيَانِ بَعْضِ الْأَوْصَافِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَمِيرُ

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٣٢.

(٢) وهما: الخطبة (السابعة والخمسون) والخطبة (الثامنة والخمسون) من الجزء الثاني من هذا

الكتاب. وخطبة أمير المؤمنين عليه السلام موضوع البحث كالآتي: «روي أنّ صاحباً لأمر المؤمنين عليه السلام

المؤمنين عليه السلام في خطبته حينما طلب منه همام أن يُبين له أوصاف المتّقين، وها نحن في هذه الخطبة نتعرّض لذكر قسم آخر منها، عسى أن يكون ذلك تذكراً وموعظةً وداعياً لنا جميعاً للتحلّي بها؛ لأنّها السبيل إلى النجاة والسعادة والكمال في الدنيا والآخرة، وهو أعظم الأهداف التي يتبغي الإنسان أن يصل إليها.

تزئین المتقي بالعلم والحلم والتواضع

قال أمير المؤمنين عليه السلام في بيان أوصاف أخرى للمتّقين: «يمزج الحلم بالعلم...». لا شك في أنّ طلب العلم من القربات والأعمال التي حثّ الشارع الشريف عليها، وهو وسيلة يمكن من خلالها معرفة الله تعالى ونيل رضوانه. لكنّ هذا العلم يمكن أن ينقلب إلى وبال على الإنسان، أو يكون سبباً لشقاوته وهلاكه بدلاً من أن يكون سبيلاً لتحصيل الكمال والسعادة، وذلك في حال اقترانه ببعض الصفات الذميمة، واقتقاده لجملة من الصفات الحسنة.



يقال له همام - كان رجلاً عابداً - فقال له: يا أمير المؤمنين، صِف لي المتّقين كما أنّي أنظر إليهم، فتناقل عليه السلام عن جوابه، ثم قال: يا همام، اتق الله وأحسن، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. فلم يقنع همام بهذا القول، حتّى عزّم عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلّى الله عليه وآله، ثم قال: أمّا بعد، فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم... فالتّقون فيها هم أهل الفضائل... في علامة أحدهم... يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله قليلاً زلّهُ، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميّنة شهوته، مكظوماً غيظه...». [البحراني، ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ٤١٢]، وجمل المقطع الأخير الذي أوردها هي ما يتطرّق سماحة الشيخ الكربلائي - دامت بركاته - إلى شرحها وبيانها.

لذلك يُنبّه الأئمة عليهم السلام على أنّ طلب العلم لا بدّ أن يُصاحبه مجموعة من الصفات التي تُزِين العلم، وقد ذكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام منها هنا صفة الحلم. وفي بعض روايات أهل البيت عليهم السلام يذكر الإمام الصادق عليه السلام بالإضافة لصفة الحلم صفتي التواضع والوقار، فقد ورد في (الكافي) عن معاوية بن وهب، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تُعلّموا العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقّكم»^(١).

إنّ كلّ إنسان الذي يطلب التزوّد بالعلوم والمعارف العقائديّة والفقهية والأخلاقيّة وغيرها، يُمكن تسميته بـ: (طالب علم). وليس شرطاً أن يكون طالب العلم هو مَنْ لبس العمّة أو الزيّ المتعارف في الوقت الحاضر. نعم، لا بدّ وأن يتزيّن مع طلب العلم بصفة الحلم، كما أشار الأئمة عليهم السلام؛ لأنّه من خلال هذه الصفة الكريمة يمكنه معايشة الناس والتعامل مع المجتمع وفق الأخلاق الإسلامية الكريمة، فهي تكسبه صدرّاً واسعاً رحباً يجعله يصفح عن الآخرين ويعفو عنهم، ويتحمّل إساءاتهم وأذاهم، بحيث لا يتصرّف معهم تصرّفاً مشيناً وبالتالي يُحسب بأن هذا التصرف صدر عن طالب العلم، فربّما نجد حامل علم لكنّه مع ذلك يتصرّف مع الناس والمجتمع تصرّفاً آخر لا ينمّ عن الحلم ورحابة الصدر، فهذه التصرفات غير الحليمة تجعل من علمه وبالاً وشيناً عليه.

لذا يوصي الأئمة عليهم السلام طلاب العلوم بالتزيّن بصفة الحلم، وكذلك بصفة

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦، باب صفة العلماء، ح ١.

الوقار والتواضع، فإنَّهما من صفات السمو بالذات والنفس، وخاصَّة إذا صاحبا العلم، فلا يتكبر العالم على الآخرين ممَّن يُغذِّيهم بالعلوم أو يبيِّث علمه إليهم. وليس المقصود من كلام الإمام الصادق عليه السلام في حديثه طَلاب العلوم الدنيَّة فقط، بل يُمكن تعميم الحديث ليشمل كلَّ إنسان يُعلِّم الآخرين أو يتعلَّم منهم العلوم الدنيويَّة النافعة، سواء في مجال الطبِّ، أم الفيزياء، أم الكيمياء، أم غيرها من المجالات العلميَّة والتربويَّة.

فسواء كان الإنسان متعلِّماً يطلب العلوم، أم معلِّماً لها يبيِّث علمه إلى غيره، لا بدَّ وأنَّ يتحلَّى بصفة التواضع والوقار، وألاَّ يتكبر أو يتجبر أو يدخله العُجب، بحيث يرى من نفسه أنَّه الأُوحد في هذا الفنِّ، أو أنَّ غيره لا يتمكَّن من تحصيل علومه؛ فإنَّ هذا تصوُّر يُؤدِّي به إلى سوء العاقبة، وهو خلاف السبيل لتحقيق السعادة والكمال بطلب العلم.

مزج القول بالفعل

يقول الإمام علي عليه السلام في بيانه لصفة مهمَّة من صفات المتقين: «والقول بالعمل...». أي: إنَّ المتقي هو ممَّن يمزج قوله بعمله، أو يجعل فعله تطبيقاً لقوله، فهو صادق في القول بدليل ما يفعله.

إنَّ الكثير من الناس ممَّن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، والكثير منهم ممَّن يدعو إلى فعل الخيرات والقربات والطاعات، لكنَّهم لا يمزجون هذه الدعوة بالعمل الذي يكشف عن صدق النية فيها، فلا تُصدَّق أفعالهم دعوتهم.

إنَّ الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحتاج أولاً إلى مراقبة الداعي نفسه حينما يأمر الآخرين بالمعروف، فهل هو يأتي بالمعروف ويُطبِّقه؟

فهل الإنسان الذي يدعو غيره إلى التحلِّي بالأخلاق الفاضلة والتزيُّن بمكارم

الأخلاق، وحُسن المعاشرة، قد تحلّى هو بهذه الأخلاق، وتزَيّن بها، وطبّق ما دعا إليه غيره من حُسن المعاشرة وغيرها؟!!

إنّ من صفات المتقين حقّاً أنّهم إذا أمروا بمعروف ونهوا عن منكر، بدأوا بأنفسهم أولاً وراقبوها قبل الآخرين، فمزجوا قولهم الداعي إلى الحقّ بعملهم وفعلهم، وانتهوا هم أولاً عن المنكر والمحرّمات، ولم يرتكبوا المعاصي والذنوب قبل أن ينهوا غيرهم عنها.

إنّ من جملة التطبيقات العمليّة لمزج القول بالعمل في الحياة الاجتماعيّة المهمّة اليوم هي الالتزام بالوعد والوفاء به، وذلك في كلّ مجال من مجالات الحياة، ومهما كانت صفة صاحب الوعد ومستواه العلمي ومنصبه الإداري أو الحكومي؛ فإنّ أيّ إنسان مهما كانت درجته الوظيفيّة أو الاجتماعيّة، إذا قطع على نفسه وعداً أمام الناس فعليه الوفاء به؛ فإنّ عدم الوفاء بالوعد صفة ممقوتة عند الله تعالى، وهو خلاف ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام من أنّ المتقي يتّصف بصفة مزج القول بالعمل. وممّا يؤسف له أنّ هذه الظاهرة العمليّة الاجتماعيّة المهمّة ربما تكون مفقودة في

مجتمعنا اليوم؛ إذ ما أكثر الوعود التي لم يف بها أصحابها!

ولقد أشار القرآن الكريم في آياته إلى هذا المعنى، موبّخاً من يدعو الآخرين إلى الاتّصاف بأمور أو صفاتٍ ما وهو لا يتّصف بها أو لا يطبّقها، قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

إنّ من يدعو غيره، أو يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، أو من يعدّ الآخرين

بوعده، ثم لا يمزج دعواه بما أمر أو نهى، ولا يفي بوعدده، يكون في معرض سخط الله ومقتته.

قرب الأمل

يقول أمير المؤمنين عليه السلام مبرزاً صفةً أخرى من صفات المتقين: «تراه قريباً أمله، قليلاً زلله...».

إنَّ قرب الأمل معناه استذكار الآخرة وتصوّر قرب الموت والارتحال من الدنيا؛ لأنَّ عمر الإنسان ومدة بقائه في هذه الحياة الدنيا كلّها بيد الله، لا يعلمها أحد؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يحدّد يوم وفاته أو يعلم به، أو يضمن بقاءه في الدنيا لسنوات أو أيام أو ساعات أو لحظات، لذا تصوّر أمير المؤمنين عليه السلام حال الإنسان المتقي بأنّه قريب الأمل، أي يشعر المتقي بأنّ نفسه قريبة من الموت، ربّما يموت بعد ساعات أو دقائق، فيفارق الحياة وينتقل إلى القبر.

وعلى العكس من هذا طول الأمل وبُعدّه، الذي يفكّر به الكثير من الناس؛ فإنَّ شريحةً كبيرةً من المؤمنين عندها رجاء في أن تعيش سنين طويلةً في هذه الحياة الدنيا، فهم يذكرون الآخرة ولكن لا يشعرون بأنّ الموت قريب منهم، متناسين الآثار السلبية لطول الأمل في هذه الحياة التي حدّرت منها النصوص الدينية، ومن ذلك ما يوضّحه الحديث الشريف الوارد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الذي يحذّر فيه أبناء الأُمّة الإسلامية من طول الأمل، يقول عليه السلام: «ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خلّتان: اتّباع الهوى، وطول الأمل. أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة»^(١).

فخوف أمير المؤمنين عليه السلام على أبناء الأُمّة من هاتين الخلّتين؛ لما لهما من النتائج السلبية الخطيرة على الإنسان؛ فإنّ اتّباع الهوى هو ميل نفس الإنسان إلى الشهوات،

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٥٨، ح ٢١.

وبالتالي انحرافها عن حدود الشريعة. وكذا طول الأمل الذي يدعو الإنسان إلى أن يصرف عنان الهمّة إلى البقاء في الدنيا والتفكير في زخارفها وزيفها وكيفية تحصيل ذلك، ونتيجته الاندفاع نحو الدنيا، وانعدام الرغبة، واضمحلال الهمّة نحو العمل الصالح والطاعة لله تعالى والتقرب إليه؛ وذلك لأنّ زخارف الدنيا لا تتأتّى إلا بالاندفاع نحو المعصية والانشغال بحطام الدنيا، وهذا ما يُنسي الإنسان الموت فلا يرى نفسه قريباً منه.

نعم، ذكر الموت وقرب الأمل يُعطي للإنسان حافزاً قوياً ويدفع بهمة نحو الإتيان بالطاعات والقربات والأعمال الصالحة والإحسان للناس، فتراه يبتعد بنفسه عن المعصية ويتنفّر منها، مشتغلاً بما يقربه إلى الله تعالى.

ومما يؤيّد هذا المعنى أيضاً ما يروى عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»^(١). وحبّ الدنيا هو تعبير آخر عن حبّ طول الأمل؛ فإنّ كلّ خطيئة أو إثم يكون مفتاحه حبّ الدنيا.

خشوع القلب

من صفات المتقين خشوع القلب، يقول الإمام عليه السلام مستكملاً صفات المتقين: «خاشعاً قلبه...».

إنّ حالة التذلّل والخشوع والرغبة والتواضع لله تعالى وللناس من أهمّ الصفات الممدوحة في الأخلاق الإسلامية، وتحقيق على المتقي الاتّصاف بها، وذلك

(١) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٢٥.

من خلال تطلّعه على عظمة الله تعالى وعظيم قدرته وعجيب صنّعه في مخلوقاته، فيخشع قلبه لله تعالى، ويتبع ذلك خشوع جميع الجوارح له تعالى.

قناعة النفس

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «قناعة نفسه...».

إنّ القناعة هي الغنى الحقيقي بما أعطى المولى جلّ وعلا؛ فإنّ مَنْ كانت نفسه قانعةً بما قسمه الله تعالى له، وراضيةً بما أعطاه، فهو الغني بقلبه، والمستغني عن الغير بربه.

وليست القناعة مقصورةً على ما يرزقه الله تعالى للإنسان من المال، وإنّما القناعة هي الرضا بكلّ شيء يُقدّره الله تعالى للمؤمن؛ من المال والذريّة والصحة والابتلاء، فتراه قانعاً بكلّ ما كتبه الله له في هذه الحياة؛ فإنّ المؤمن لو قُتِرَ عليه في رزقه وماله تراه قانعاً بذلك القليل، ولو حُرِمَ الذريّة والأولاد فهو قانع بذلك؛ لمصلحة يراها الله تعالى له، ولو سُلبت عافيته ولم يرزق الصحة فهو قانع بما قدّر الله له من أن يتلي بالمرض، ولو أصابته مصيبة أو بلاء أو محنة فهو كذلك قانع بكلّ ما يمرّ به من مشقة وعناء. وإنّما تقنع نفس المؤمن بجميع ذلك؛ لأنّه يرى أنّ الدنيا سرعان ما تزول، وكلّ شيء سوف يزول معها، ويحتسب جميع ذلك بعين الله؛ طلباً لعظيم ثوابه وجزيل أجره.

إنّ الكثير من الناس يطلبون المال وبأية وسيلة، فبعضهم يسعى صارفاً جلّ وقته في كيفة كسبه الثروة والحصول على المال الكثير، ولكنّ - للأسف - الجميع غافلون عن أنّ للمال ضريبةً هم ملزمون بدفعها، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة؛ فإنّ للمال مستحقّات يجب تأديتها، فإذا تقاعس الإنسان عن أدائها أو استكثر هذه الضريبة وامتنع عن إعطائها، فإنّ عاقبة ذلك أن يكون جمعه لهذا المال الكثير وبالاً عليه في الآخرة؛ لأنّ محكمة العدل الإلهي يوم القيامة تحاسبه على طريقة جمعه للمال وكيفية إنفاقه له.

لذا يُنبّه المعصومون عليهم السلام في بعض الأحاديث على هذا المعنى، فعن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: «مَنْ لم يقنعه من الرزق إِلَّا الكثير، لم يكفه من العمل إِلَّا الكثير. وَمَنْ كفاه من الرزق القليل، فَإِنَّه يكفيه من العمل القليل»^(١).

إِنَّ في هذا الحديث إشارتين مهمتين:

أولهما: إدراك الإنسان بأن الله تعالى قادرٌ على رزقه وإعطائه المال الكثير، لكنه في الوقت نفسه يجب أن يدرك أن ذلك يستتبعه حساب على مقدار العمل الذي عمله بهذا المال الكثير؛ لأن هذا المال له حقوق وواجبات يجب أن تُصرف وتُنفق في مواضعها؛ فإن وفرة المال وكثرته تفرض عليه الزكاة والأخماس، فيجب إنفاقها في مصارفها الشرعية الصحيحة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يجب على مَنْ يرى الوفرة في رزقه وماله أن يلتفت إلى نفسه ويجنبها الوقوع في المحرمات؛ لأن كثرة المال تُغري الإنسان، فتؤدي به إلى البطر والتكبر والطغيان والإسراف، لهذا فهو يُحاسب على كل ذلك.

وعلى العكس من ذلك مَنْ اكتفى بالرزق القليل؛ فإن حسابه أخف من حساب صاحب المال الكثير. وبمعنى آخر: إن ضريبته أقل وأخف من ضريبة الأول؛ إذ تسقط عنه بعض المستحقّات التي كانت على صاحب المال الوفير.

ثانيتهما: لا يفهم من ذلك أن الإنسان يجب ألا يبحث عن المال أو لا يسعى في طلبه؛ فإن هذا فهم خاطئ، فلعل السعي وراء المال يكون وسيلةً للتقرب إلى الله تعالى، وذلك إذا أدّى الإنسان ما عليه من حقوق في أمواله. هذا بالإضافة إلى سعيه

(١) المجلسي، محمد تقي، روضة المتقين: ج ١٢، ص ٨١.

في عمل الخير ونشر البرّ في صفوف أبناء المجتمع الإسلامي، فيكون المال وسيلةً لتحقيق المزيد من القربة والطاعة لله تعالى.

عدم الإكثار من الطعام

يقول الإمام عليّ عليه السلام مبيّناً صفةً أخرى من صفات المتّقين: «منزوراً أكله». إنّ عدم الإكثار من الطعام من المسائل الصحيّة المفيدة للبدن والذهن، وفي المقام يُشير الإمام عليه السلام إلى هذه المسألة جاعلاً إيّاها صفةً من صفات المتّقين، حيث المتّق لا يتناول الطعام الكثير، وإنّما يكتفي بالقليل منه؛ وذلك لأسباب وآثار إيجابيّة؛ فإنّ المؤمن يُدرك أنّ التقليل من الطعام فيه الكثير من الجوانب الإيجابيّة التي تُغذي العقل والروح، بالإضافة إلى سلامة البدن. فمن آثاره الإيجابيّة هي رقة القلب وصفاء الذهن ونفاذ البصيرة؛ ذلك أنّ المتّقين يتمتّعون ببصيرة ينفذون من خلالها إلى معرفة الحقّ وتمييزه عن الباطل^(١). ومنها أيضاً: الاستعداد الروحي والنفسي لمناجاة الله تعالى؛ فإنّ المتّقين يجدون لذة عظيمة لا يشوبها شيء أثناء عبادتهم ودعائهم ومناجاتهم الله تعالى، الأمر الذي يقرّبهم إلى الباري جلّ وعلا أكثر من غيرهم^(٢).

(١) روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب؛ فإنّ القلوب تموت كالزروع إذا كثر عليها الماء». وقال عليه السلام: «لا تشبعوا؛ فتطفئ نور المعرفة من قلوبكم». المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٣، ص ٣٣١.

(٢) جاء عن رسول الله ﷺ ما يدلّ على هذا المعنى في قوله: «إنّ ربي عزّ وجلّ عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكّة ذهباً. فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأُثني عليك». التراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج ٢، ص ٤٦.

ومنها: الاستعداد لقبول الموعظة والذكرى من غيرهم؛ وذلك بسبب رقة قلوبهم؛ فإن رقيق القلب سريع التأثر بالموعظة والإرشاد والنصح، على العكس من القلوب غير الرقيقة؛ فإن فيها صدوداً عن الحق وتقبل النصائح^(١).
هذا بالإضافة إلى أن من تحلى بهذه الصفة تراه خفيفاً لا يكلف إخوانه المؤمنين شيئاً إذا ما دُعي إلى وجبة طعام، فهو سهل المؤونة لا يُحمل الآخرين فوق طاقتهم، وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى ذلك بقوله: «شَرَّ الإخوان مَنْ تُكَلِّفُ لَهُ»^(٢).
نعم، كل هذه الآثار الإيجابية مكتسبة من عدم الإكثار من الطعام، أمّا ملء المعدة والتخمة والإكثار من الطعام فإنه يطرد هذه الآثار الإيجابية، ويُبعد الإنسان منها.

حصانة الدين

يُشير الإمام علي عليه السلام في قوله: «حريزاً دِينَهُ» إلى خصلة مهمة جداً يجب على المؤمن التحلي بها لكي يُعدّ من المتقين، وهي حصانة الدين؛ فإن درع المؤمن وحصنه هو دينه، فيجب أن يكون دينه محرزاً ومحصناً لا يتأثر بأيّة فكرة أو عقيدة غير العقائد والأفكار الحقّة.

هناك الكثير من الشبهات والبدع والشكوك والأفكار المنحرفة والعقائد الفاسدة في كل عصر وزمان ومكان، لكنّ المتقي من الناس هو مَنْ أحرز دينه وحصّنه من كلّ

(١) وقد عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام في بعض أحاديثه أنّه متمرد، قال عليه السلام: «... أو متمرد كأنّ بأذنه عن

سمع المواعظ وقرأ». نهج البلاغة، (تحقيق: صبحي صالح): ص ١٨٧.

(٢) نهج البلاغة، (تحقيق: محمد عبده): ج ٤، ص ١١٠، رقم ٤٧٩.

تلك الأمور المخالفة للدين، فلا يعتريه شيء منها مهما انتشرت وتفشّت في الأوساط العلمية أو الاجتماعية.

وفي المقام علينا التنبيه على أمر مهم جداً؛ وذلك لما يتطلبه الظرف الحالي؛ إذ يشوب فكرنا ومعتقداتنا اليوم شبهات وانحرافات يروج لها أعداء الدين، لذا على المؤمن الواعي أن يكون متأنياً حذراً خوفاً من الوقوع في هذه المتاهات الضلالة.

ربما يتعرض الإنسان إلى مثل هذه الأفكار ويؤثر بعضها في عواطفه وميوله وأهوائه وشهواته، فيميل إلى مبدأ معين أو فكرة أو معتقد غير حق، وذلك من عدم التأني والفحص عن حقيقة هذه الشبهات والأفكار، الأمر الذي يؤدي به إلى فقدان دينه؛ فإن العقيدة والدين ليسا كصفقة تجارية يخسرهما الإنسان تكون قابلةً للتعويض مستقبلاً، كلاً فإن ذلك يؤدي به إلى سوء العاقبة وخسران الآخرة.

والطريقة الصحيحة التي يرسمها الإسلام للتخلص من هذه الأفكار المنحرفة والشبهات الضلالة هي الرجوع إلى أهل العلم الحقيقيين، لا إلى الذين يدعون العلم وهم لا يحملون منه شيئاً، كما نشاهد في وقتنا الحاضر من يدعي كونه ذا مقام علمي وروحي، لكنه في الحقيقة فاقد لهذا المقام والادعاء، لذا تشير الروايات إلى هذا الأمر المهم عند تعرض المؤمن إلى الشبهات؛ وهو أن عليه التجنب عن الاسترسال^(١) في أمور الدين^(٢)؛ فإن سرعة الاسترسال عشرة لا تُقال^(٣).

(١) «الاسترسال: الطمأنينة والاستيناس إلى الغير والثقة فيما يحدثه. وأصل الاسترسال: السكون والنبات». أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٢٣٩. حاشية المحقق.

(٢) روي عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المضمون: «قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه، قبل أن تقع فيه فتندم». ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ٣٠٤.

(٣) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٣١٤، رقم ٦٠٦، وفيه: «لا تثقن كلّ الثقة بأخيك؛ فإن سرعة الاسترسال لا تُقال». وروي عن الإمام علي عليه السلام:

من هنا يُبين أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الإنسان المتقي هو الذي يمتلك الروح والحصن الذي يحفظ من خلاله دينه وعقيدته الحقّة؛ لكونه متأنياً وحذراً في تعامله مع هذه الأفكار الضالّة والمنحرفة.

عفة البطن والفرج

لقد أودع الله تعالى في الإنسان مجموعة شهوات يسدّها حاجته؛ إذ بدونها لا يتمكن من الوصول إلى الهدف والمصالح التي خلق من أجلها، والتي أرادها الله تعالى منه، ولعلّ أبرز هذه الشهوات شهوة البطن وشهوة الفرج، وهاتان الشهوتان تحمّلان الكثير من المخاطر والمحاذير إذا ما أُطلق لهما العنان وسارتا من دون قانون. لذا عمد الإسلام إلى تقنين مسألة إشباع هاتين الشهوتين وفق قانون شرعي وعقلي من خلال جعله الوسائل الشرعيّة المحلّلة لهما.

من هنا يؤكّد الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام على تلك الطرق المحلّلة وذلك القانون الذي يُنظّم إشباع الرغبات والشهوات طبقاً لتلك الوسائل، ومن جملة ذلك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله في حديثه عن ذلك: «ثلاث أخافهن على أمتي من بعدي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج»^(١).

إنّ شهوتي البطن والفرج من المسائل الخطيرة على الإنسان، لذا يتخوّف الرسول صلى الله عليه وآله على أُمّته منهما، فحرّيّ بالإنسان المؤمن المتقي أن يضع لنفسه ميزاناً



«من أكثر الاسترسال ندم، من أقل الاسترسال سلم». التميمي الآمدي، عبد الواحد بن محمّد،

تصنيف غرر الحكم ودُرر الكلم: ص ٤٨٢.

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٨٠، ح ٦.

ومعياراً لهما، لكي يكون عفيفاً في شهوة بطنه وفرجه؛ فإنَّ العِفَّةَ في الواقع تُعتبر عبادةً، بل هي في بعض الأحاديث أفضل العبادة عند الله تعالى، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «ما من عبادة أفضل من عِفَّةِ بطن وفرج»^(١).

وعليه؛ فلا يُفهم من قول الإمام عليه السلام: «مَيْتَةُ شَهْوَتِهِ» أَنَّ الْمُتَّقِيَ مَيْتُ الشَّهْوَةِ، وإنَّما الْمُتَّقِيَ هو مَنْ يستطيع أَنْ يُلَبِّيَ رَغْبَاتِهِ، وَأَنْ يُشْبِعَ شَهْوَاتِهِ طبقاً للقانون الشرعي المحلَّل لها، والذي رسمه الدين الحنيف.

كظم الغيظ

لا شكَّ في أَنَّ من جملة القوى المودعة في الإنسان لتحقيق مصالحه وأهدافه - بالإضافة إلى القوَّة الشهويَّة المتقدِّمة - هي القوَّة الغضبيَّة، ويُشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام ضمن صفات الْمُتَّقِينَ بقوله: «مَكْظُوماً غِيْظُهُ».

وكما أَنَّ القوَّة الشهويَّة يجب أن تسير وفق قانون شرعي وعقلي ينظِّمها كي لا تجرف الإنسان إلى الهلاك، كذلك هي القوَّة الغضبيَّة بحاجة إلى هذا القانون الشرعي والعقلي؛ لأنَّ الغضب آفةٌ إذا لم يستطع الإنسان التمكنَّ منه والسيطرة عليه فسوف يقوده إلى الهلاك، فإنَّ فرصة الشيطان للتمكنَّ من الإنسان تتحقَّق عند الغضب، فيجعل من تصرفاته أثناء غضبه تصرِّفات شيطانيَّة تجعله محلَّ غضب الله سبحانه وتعالى.

إنَّ الحياة الاجتماعيَّة مليئةٌ بالحوادث والفرص الشيطانيَّة، فالغيبة، والنميمة، وقول الزور، وفعل المنكر، كلُّ هذه الأمور تولِّد الكثير من المشاكل إذا ما أراد الإنسان مواجهتها، فربَّما يمرُّ بموقف يجعله يتصرَّف تصرِّفاً خارجاً عمَّا هو المعتاد

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٨٠، ح ٧.

منه، فلا يتمالك غضبه، ولا يكظم غيظه، فيدع لسانه وجوارحه خاضعة لهذه القوة الغضبية دون أن يملك تنظيمها أو الحد منها، الأمر الذي يؤدي إلى تصرفات شيطانية مضرّة بالمجتمع ومخلّة بالحياة الاجتماعية، فيحصل على إثر ذلك القتل العمد دون مبرّر سوى لحظة فورة الغضب، ويدخل الإنسان النار بسبب ذلك، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾^(١)؛ فإن من جملة الآثار السلبية للغضب دخول جهنم كما أشارت الآية؛ فهو يُسبّب في قتل المؤمنين، وجزاء ذلك دخول النار.

لذا أكّدت الأحاديث الشريفة الواردة عن المعصومين عليهم السلام على هذه الآثار السلبية؛ لأن الغضب يُفسد الإيمان، وإذا فسد إيمان الإنسان ساءت عاقبته. يُشبه الحديث الشريف الإيمان بالعتل؛ فإن العسل على الرغم من كثرة فوائده للإنسان لكنّه يفسد بمخالطة الخلّ له، فكيف أنّ العسل يفسد إذا خالطه الخلّ كذلك هو الإيمان يفسد إذا خالطه الغضب على الرغم ممّا يترتب عليه من فوائد دنيوية وأخروية، فيقول الحديث الشريف عن الرسول صلّى الله عليه وآله: «الغضب يُفسد الإيمان كما يُفسد الخلّ العسل»^(٢).

ويُبين أئمة أهل البيت عليهم السلام مساوئ الغضب وآثاره السلبية على الإنسان في أحاديث كثيرة، كلّ ذلك لكي يمتلك الإنسان غضبه، وألا يمتلكه الشيطان، فيقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ هذا الغضب جمرّة من الشيطان تُوقد في قلب ابن آدم»^(٣).

(١) النساء: آية ٩٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣٠٢، باب الغضب، ح ١.

(٣) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٣٦١.

ويقول عليه السلام في حديث آخر: «أَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنَ الْغَضَبِ؟! إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ فَيَقْتُلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَيَقْذِفُ الْمُحَصَّنَةَ»^(١).

وفي حديث ثالث يقول أبو عبد الله عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شر»^(٢).

وفي قبال صفة الغضب الذميمة التي تعتري الإنسان هناك صفة حسنة وممدوحة، وهي كظم الغيظ، التي لها الكثير من الآثار الإيجابية، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ كَظَمَ غَيْظًا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِزًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣).

نعم، كظم الغيظ من صفات المتقين الممدوحة جداً في القرآن الكريم، يقول الله تعالى فيها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الضَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ^(٥).

ذكرت الآيتان مقاماً سامياً للمتقين فيه السعادة الدائمة، وهي المغفرة والفوز بالجنة، وإنما ينال المتقون هذا المقام الرفيع باتصافهم بكظم الغيظ.

أمّا كَيْفِيَّةُ اتِّصَافِ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَرْوِضِ النَّفْسِ وَكَبْحِ فُورَةِ الْغَضَبِ، وَامْتِلَاكِ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَ الْغَضَبِ، بِإِخْضَاعِ مَا يَصْدُرُ مِنْ سُلُوكٍ أَوْ قَوْلٍ نَتِيجَةَ رَدَّةِ الْفِعْلِ لِسُلْطَانِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، فَيَبَادِرُ إِلَى الْعَفْوِ عَنِ الْمَسِيءِ بَدَلًا عَنْ مَهَاجَمَتِهِ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ بَدَلًا عَنْ عَقُوبَتِهِ.

هناك مَنْ يَشْعُرُ بِأَنَّ الْحِلْمَ أَوْ كَظْمَ الْغَيْظِ يُعَدُّ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ وَفَقْدَانِ الْكِرَامَةِ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَعْفُو أَوْ يَصْفَحُ أَوْ يَحْلِمُ عَنِ الْآخَرِينَ يُصْبِحُ مَهَانًا فِي

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٢٧٤، ح ٢٥.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص ٧.

(٣) الطبرسي، علي، مشكاة الأنوار: ص ٣٨١، ح ١١٢٥٣.

(٤) آل عمران: آية ١٣٣-١٣٤.

المجتمع، وهذا تصوّر خاطئ؛ فإنّ العزّة والكرامة والرفعة والسؤدد، والذلّ والمهانة، كلّها بيد الله تعالى.

وفي حديث آخر يُبين الإمام السجّاد عليه السلام عن جدّه رسول الله ﷺ الآثار الكبيرة والمنزلة العظيمة للحليم الذي يكظم غيظه، يقول عليه السلام: «من أحبّ السبيل إلى الله عزّ وجلّ جرعتان: جرعة غيظ يردّها بحلم، وجرعة مصيبة يردّها بصبر»^(١).

نعم، كظم الغيظ سبيل إلى الله تعالى، بل هو من أحبّ السبيل إليه تعالى؛ فإنّ تجرّع هذه الجرعة الصعبة وتحملها وغيّض النظر عن الإساءات التي تصدر تجاه الإنسان، يؤدّي إلى أن يفيض الله عزّ وجلّ على الإنسان العزّة في الدنيا والآخرة، على العكس ممّا يصوّره بعضهم من المهانة والذلّة.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للتحلّي بهذه الصفات، وأن يجعلنا من المؤمنين المتّقين، إنّّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٤١١-٤١٢، ح ٢٧.

الخطبة التاسعة والستون

من صفات المتقين

القسم الرابع

بتاريخ: ٢٠ / ٤ / ٢٠٠٧ م

﴿ صفات المتقين في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ﴾

﴿ ذكر الله تعالى ﴾

﴿ مراتب ذكر الله عز وجل ﴾

﴿ مثالان من الواقع لذكر الله تعالى ﴾

﴿ ثلاث خصال هنّ خير أخلاق الدنيا والآخرة ﴾

﴿ الخصلة الأولى: العفو عن الإساءة ﴾

﴿ الخصلة الثانية: بذل العطاء لمن حرمه منه ﴾

﴿ الخصلة الثالثة: صلة القاطع ﴾

﴿ أهل الفضل ﴾

﴿ دفع شبهة ﴾

﴿ ضبط النفس ﴾

﴿ الصبر في الشدة والشكر في الرخاء ﴾

﴿ قصّة وعبرة ﴾

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَارَ لَنَا مُحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأَجْرَى عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَجَعَلَ لَنَا الْفَضِيلَةَ بِالْمُلْكَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ خَلْقِيَّتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ، وَصَائِرُهُ إِلَى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ»^(١).

اللهم صل على محمد وآله الطيبين الطاهرين، صلاةً دائمةً ناميةً لا انقطاع لأبدِها، ولا منتهى لأمدِها.

إخواني المؤمنين، أخواني المؤمنات، أُحييكم بتحية الإسلام والجنان قائلاً لكم: سلامٌ من الله عليكم جميعاً ورحمةٌ منه وبركات. وأوصيكم بالتحلي بالتقوى والتخلق بصفات المتقين؛ فإنّها السبيل للنجاة، والسعادة في الدنيا والآخرة.

صفات المتقين في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام

سبق وأن تعرّضنا في خطب سابقة^(٢) إلى بعض صفات المتقين التي ذكرها

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

(٢) وذلك في الخطبتين رقم (٥٧)، و(٥٨) من الجزء الثاني، والخطبة السابقة، وفي هذه الخطبة يشرح سماحة الشيخ (دامت بركاته) بعض صفات المتقين الأخرى الواردة في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه لهمّام، والنصوص التي يتعرّض سماحته لذكرها وشرحها هي:

«... إن كان في الغافلين كُتِبَ في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يُكْتَبْ من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويُعْطَى مَنْ حَرَمَهُ، ويصل مَنْ قَطَعَهُ، بعيداً فحشُهُ، لَيْتاً قَوْلُهُ، غائباً منكُره، حاضراً

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لهمام، وفي هذه الخطبة نستعرض بعض الصفات الأخرى التي وردت في كلامه عليه السلام.

ذكر الله تعالى

يقول سيّد الموحّدين عليه السلام في وصف المتّقين: «... إن كان في الغافلين كُتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يُكتب من الغافلين».

إنّ من طبيعة الإنسان التأثير بالأجواء التي تُحيط به، وربّما تكون الأجواء السائدة في المجتمع هي الغفلة عن ذكر الله تعالى، وهنا يُشير الإمام عليه السلام إلى حال الإنسان المتّقّي وسط هذه الأجواء، فيقول: إذا كان المتّقّي بين الغافلين، فإنّه على الرغم من كون المجتمع تسوده الغفلة عن ذكر الله تعالى، إلّا أنّ المتّقّي يُكتب في الذاكرين، أي: يكون، وهو في تلك الأجواء، ذاكرًا لله عزّ وجلّ.

مراتب ذكر الله عزّ وجلّ

ومن المعلوم أنّ للذكر مراتب، منها:

مرتبة الذكر باللسان، وهذه المرتبة تتحقّق بتلاوة القرآن الكريم وقراءة الأدعية، أو ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته.

ومنها: مرتبة الذكر بالقلب، وهذه المرتبة أهمّ من سابقتها، وتُسمّى بمرتبة الذكر القلبي، وهي تفكّر وتذكّر، أمّا التفكّر فمن قبيل التفكّر في دلائل التوحيد والنبوة والإمامة والعدل، وفي الدنيا وفنائها، والآخرة. وأمّا التذكّر فمن قبيل تذكّر



معروفه، مقبلاً خيرُهُ، مدبراً شرّه، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور...».

[البحراني، ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٤١٢].

نِعَمَ اللهُ تعالى ومثوباته وعقوباته، واستحضار ذلك في جميع الأزمنة والأوقات^(١).

(١) ورد في كتاب (بحار الأنوار): «واعلم أنّ الذكر ثلاثة أنواع: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، والأوّل يحصل بتلاوة القرآن والأدعية، وذكر أسماء الله وصفاته سبحانه، ودلائل التوحيد والنبوة والإمامة والعدل والمعاد، والمواظب والنصائح، وذكر صفات الأئمة عليهم السلام وفضائلهم ومنافيتهم؛ فإنّه روي عنهم: «إذا ذكرنا ذكر الله، وإذا ذكر أعداؤنا ذكر الشيطان». [الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٦٨].

وبالجملة: كلّ ما يصير سبباً لذكره تعالى حتّى المسائل الفقهيّة والأخبار المأثورة عنهم عليهم السلام. والثاني نوعان: أحدهما: التفكّر في دلائل جميع ما ذكر، وتذكرها وتذكر نعم الله وآلائه، والتفكّر في فناء الدنيا وترجيح الآخرة عليها، وأمثال ذلك ممّا مرّ في باب التفكّر. والثاني: تذكر عقوبات الآخرة ومثوباتها عند عروض شيء أمر الله به أو نهى عنه، فيصير سبباً لارتكاب الأوامر والارتداع عن النواهي.

وقالوا: الثالث من الأقسام الثلاثة [أي: تذكر العقوبات والمثوبات] أفضل من الأوّلين، ومن العامّة من فضّل الأوّل على الثالث؛ مستنداً بأنّ في الأوّل زيادة عمل الجوارح، وزيادة العمل تقتضي زيادة الأجر. والحقّ أنّ الأوّل إذا انضمّ إلى أحد الآخرين كان المجموع أفضل من كلّ منهما بانفراده، إلّا إذا كان الذكر القلبي بدون الذكر اللّساني أكمل في الإخلاص وسائر الجهات، فيمكن أن يكون بهذه الجهة أفضل من المجموع.

وأما الذكر اللّساني بدون الذكر القلبي كما هو الشائع عند أكثر الخلق أنّهم يذكرون الله باللسان على سبيل العادة مع غفلتهم عنه، وشغل قلبهم بما يُلهي عن الله، فهذا الذكر لو كان له ثواب لكانت له درجة نازلة من الثواب، ولا ريب أنّ الذكر القلبي فقط أفضل منه». المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٣٢.

وربما تكمن حقيقة الذكر الإلهي في المرتبة الثانية؛ باستحضار الوجود الإلهي المقدس وتلك الحقيقة الإلهية العظيمة، فقد يروم الإنسان على الإقدام على معصية، كعمل محرّم أو قول محرّم، لكنّه حينما يستحضر في نفسه وقلبه جزاء تلك المحرّمات وعقوباتها فينزجر عن ارتكابها. وقد يروم الإقدام على طاعة الله تعالى وتحول دون ذلك المعوّقات؛ فإنّ مجرد استحضاره للوجود الإلهي المقدس بجميع صفاته في لحظات تلك الطاعة تُعدّ هذه اللحظات طاعة لله تعالى.

وهذا - بطبيعة الحال - لا يعني التقليل من قيمة المرتبة الأولى في الذكر؛ فإنّ كثرة ذكر الله تعالى - بكثرة الصلاة والصيام وتلاوة القرآن والدعاء والزيارات وغيرها من الأذكار اللسانية - هي أيضاً طاعة يُثاب عليها الإنسان ويُؤجر. ولذا فإنّ الأكمل أن يجمع الإنسان بين المرتبتين، فيضمّ الذكر اللساني إلى الذكر القلبي، فيكون المجموع أفضل من كلّ منهما منفرداً.

فقد روي عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «مَنْ أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن، ومَنْ عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته»^(١)، مشيراً إلى أنّ الابتعاد عن المعاصي هو في الواقع استحضار للوجود الإلهي المقدس في أعماق القلب والروح، وهو الذكر الحقيقي على الرغم من قلّة الصلاة والصيام وتلاوة القرآن الكريم، وذلك على عكس المعصية التي هي نسيان الله تعالى وإن كثرت الصلاة والصيام وتلاوة القرآن من صاحبها.

مثالان من الواقع لذكر الله تعالى

ولأجل تقريب هذا المعنى إلى الأذهان وبيان المقصود منه نحاول ضرب الأمثلة العملية من خلال ما يمرّ به أبناء مجتمعنا:

(١) المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، الاختصاص: ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

قد يكون عمل بعضنا هو الكسب والتجارة في السوق، وفي أثناء عمله قد تمرّ عليه ساعات من الغفلة عن ذكر الله تعالى، وقد يكون منشغلاً بذكر الله بلسانه فقط، وهي مرتبة من مراتب الذكر، لكنّ هناك مرتبة أعمق من مرتبة الذكر اللّساني، وهي مرتبة الذكر القلبي، فيما أنّ الكاسب أو التاجر يعمل في السوق، وينجز الكثير من المعاملات مع الناس، فربّما يتعرّض للوقوع في معاملات محرّمة، أو إلى قول الكذب، أو إلى الحلف والقسم كذباً من أجل تمرير معاملته، أو الحصول على ربح أو مكسب معيّن، أو ربّما يلجأ إلى الغشّ أحياناً. وهنا إذا لم يستحضر الإنسان الرقابة الإلهيّة في قلبه فإنّه يقع في الحرام.

أمّا المتقي من الناس الذي يمتنّ الكسب والتجارة في السوق، فإذا استحضر في قلبه تلك الرقابة الإلهيّة، وصدق في معاملته، وابتعد عن الكذب والغشّ فيها، ورفض المعاملات المحرّمة، فإنّه يُعدّ من الذاكرين لله تعالى وإن كان الوسط الذي يعيش فيه تسوده الغفلة عن ذكر الله عزّ وجلّ.

نعم، الإنسان المتقي يستحضر في قلبه بأنّ هناك - في الآخرة - كتاباً وحساباً وعقاباً على كلّ معاملة تجاريّة يجريها مع الآخرين في هذه الحياة الدنيا إذا كانت مبنيّة على الخداع والغشّ، لذلك يُحصّن نفسه من الوقوع في هذه المعاملات المحرّمة، وذلك من خلال مراقبة لسانه حين إقدامه على إيقاع معاملة ما، وكذلك مراقبة فعله فيها، فلا يلجأ في معاملاته إلى غشّ الآخرين وخداعهم، أو الكذب أو الاحتيال عليهم من أجل ربح دنيوي زهيد. فإذا استحضر الإنسان المتقي هذه الأمور في قلبه عدّ من الذاكرين لله تعالى؛ فإنّ هذا الاستحضار القلبي هو ذكر الله تعالى حقيقةً، وهو أعلى مرتبة من الذكر اللّساني.

وللأسف الشديد ما نراه في السوق اليوم أنّ الكثير ممّن يمتهن الكسب والتجارة لا يراعي هذه الأمور، فنراه يقول الكذب ويلجأ إلى الغش والاحتيال وإجراء المعاملات المحرّمة من أجل حطام الدنيا الزائل، ناسياً ذكر الله تعالى ورقابته وحسابه يوم القيامة.

ومثال عملي آخر من الواقع الذي نعيشه، وهو الموظّف الحكومي الذي يحضر في مقرّ عمله، أو دائرته الحكومية، فإنّ هناك قوانين وضوابط حكوميّة وأخلاقيّة تفرضها الدائرة على الموظّفين يجب تطبيقها والالتزام بها من الناحية الشرعيّة والأخلاقيّة، فإذا كان الزملاء الموظّفون في مكان عمل واحد لا يلتزمون بهذه الضوابط والقوانين، ولا يُبالون في تطبيقها ويحتالون عليها من أجل كسب بضعة دنائير أخرى زائدة على مرتّبهم الشهري، فإنّ المتّقي الذي يكون ذاكرًا لله تعالى من بينهم وملتزمًا بما تفرضه تلك الدائرة، لا يُعدّ من تلك المجموعة الغافلة، وإنّما يُعدّ من الذاكرين لله تعالى؛ وذلك لاستشعاره واستحضاره في قلبه مخافة الله تعالى يوم القيامة؛ لأنّه يستشعر بأنّ هناك إلهاً رقيباً عليه يُسجّل عليه كلّ أعماله وحركاته وسكناته داخل مكان عمله وخارجه.

ومن هذين المثالين العمليّين ننطلق لنلفت النظر إلى أمر مهمّ يجب الانتباه إليه، وهو أنّ الإنسان المتّقي عادةً ما يكون عالي الهمة، يقود نفسه بإرادته واختياره، ولا ينقاد بإرادة الآخرين، فليست أفعاله وأقواله وسلوكيّاته تبعاً لغيره، وإنّما هي نابعة وصادرة من صميم اختياره؛ لكونه قوي النفس يقود غيره ولا يقوده الغير، فلا تخضع إرادته إلى الوسط الذي يعيش فيه، وإنّما يجعل اختياراته وإرادته كلّها خاضعةً للضوابط والقوانين الشرعيّة التي أرادها الله تعالى، فلا يتأثر سلباً بالظروف الاجتماعيّة التي تُحيّطه، ولا يخضع لأيّة فكرة سلبية يفرضها عليه الآخرون من أبناء مجتمعه، وإنّما هو الذي يتحكّم بسلوكه وأفعاله وأقواله.

وإذا كان كذلك فإنّ الله تعالى سوف يزيد في حسناته وثوابه وأجره؛ وذلك

لأنّه يكون ذاكرًا لله تعالى بقلبه ولسانه وأفعاله، وإن كان الناس المحيطون به هم من الغافلين.

وهناك تشبيه جميل للرسول الأعظم ﷺ للإنسان المتقي في الوسط الغافل بالمحارب في معركة وسط مجموعة من المحاربين الذين يفرون منها وهو صامد فيها، يقول النبي ﷺ في وصيّة لأبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه: «يا أبا ذر، الذاكر في الغافلين كالمقاتل في الفارين في سبيل الله تعالى»^(١).

فلا شكّ بأنّ الصامد في المعركة وسط أجواء الهزيمة يضاعف الله أجره؛ لتحمله تلك الأجواء وعدم تأثره بها، فكذلك الذاكر لله تعالى وسط مجموعة من الغافلين فإنّ الله تعالى يزيد أجره.

ويخصّ النبي ﷺ في حديث آخر الذاكر لله تعالى في السوق، وبين غفلة الناس وانشغالهم بأمور الدنيا، بزيادة الأجر والثواب، حيث يستحضر الذاكر حقيقة الوجود الإلهي المقدّس بعظمته وجبروته وكبريائه، وما يستتبع ذلك في الحياة الآخرة من الحساب والثواب والعقاب، وهو في تلك الأجواء التي تكون في العادة بعيدة عن ذكر الله تعالى. يقول النبي ﷺ: «مَنْ ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس وشغلهم بما هم فيه، كتب الله له ألف حسنة، ويغفر الله له يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر»^(٢).

(١) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٧، ص ١٦٥، باب استحباب ذكر الله في الغافلين، ح ٣.

(٢) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٧، ص ١٦٦، باب استحباب ذكر الله في السوق، ح ١.

وهناك سؤال يطرح نفسه، وهو: لا إشكال في أن الإنسان المتقي إذا كان وسط مجموعة من الغافلين، فسوف يكتب من الذاكرين، لكن إذا كان وسط مجموعة من الذاكرين فمن باب أولى يكون منهم، فلماذا يقول الإمام عليه السلام: «لم يكتب من الغافلين»؟

وجواب هذا السؤال يكمن في التمييز بين حالتين من الذكر اللساني: الحالة الأولى هي: الذكر باللسان الخالص لوجه الله تعالى، ويراد منه التقرب إلى الباري عز وجل قربة خالصة. والحالة الثانية هي: الذكر باللسان - والتي تشمل جميع الأذكار اللسانية التي ذكرناها آنفاً من تلاوة القرآن الكريم، والدعاء والزيارة، والتسبيح والتهليل، و... - لكن لا يراد بها وجه الله تعالى خالصاً، وإنما إرادة يشوبها حصول المنزلة والتعظيم في قلوب الناس.

والحالة الثانية تصدق على مجموعة من الذاكرين باللسان، لكنهم غير المتقين؛ لأن ذكرهم ليس له انعكاس على صفاتهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم مع أبناء مجتمعهم. بينما المتقي هو مصداق الحالة الأولى؛ فإن ذكر المتقي لله تعالى ينعكس على قلبه وجوارحه، فلا تصدر عنه أقوال وأفعال وسلوكيات تنافي الأحكام الإسلامية؛ فإن المتقي هذا حاله دوماً، وهذا الذكر يزيده تقرباً إلى الله تعالى ورفعة في أخلاقه وعشرته مع الآخرين، لذلك يذكر الإمام عليه السلام هذه الجملة: «لم يكتب من الغافلين»^(١).

(١) قال صاحب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) في بيان هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام: «لعدم غفلته عن الذكر؛ لأنه مع عدم غفلته عنه مع كونه بين الغافلين كما عرفت آنفاً، فعدم غفلته عنه إذا كان في الذاكرين بطريق أولى. ويجوز أن يراد به معنى آخر، وهو الإشارة إلى كون ذكره على وجه الخصوص والقربة، وعدم كتبه من الغافلين لأجل ذلك، وأما غيره فربما يكتب

ثلاث خصال هن خير أخلاق الدنيا والآخرة

يقول ﷺ: «يعفو عمن ظلمه، ويُعطي من حرمه، ويصل من قطعه».

ذكر الإمام ﷺ في هذا المقطع ثلاث صفات أخلاقية هي في قمة سلم الأخلاق الإسلامية، وهي: العفو، والعطاء، والصلة. فمن صفات المتقي الحقيقي العفو عمن ظلمه، وإعطاء من حرمه، وصلة من قطعه. ولقد وردت أحاديث كثيرة عن أهل البيت ﷺ تُشير إلى هذه الصفات الأخلاقية الثلاث، وهي من أكمل الصفات الأخلاقية، وكذلك كما يقول الحديث الشريف: «خير أخلاق الدنيا والآخرة» كما سوف يأتي.

نعم، هناك الكثير من الصفات الأخلاقية الحسنة، لكنّها ذات مراتب متفاوتة، وهذه الصفات الثلاث تقع في أعلى المراتب وأكملها، وإنّما عبّر عنها الحديث الشريف بأنّها خير أخلاق الدنيا؛ لأنّها تنبع من ملكات حميدة، وهي: ملكة الشجاعة، وملكة السخاء، وملكة الحلم والعفو.

ونحاول في المقام أن نوضح معاني هذه الأخلاق الفاضلة، وكيف أنّها تنبع من تلك الملكات.

الخصلة الأولى: العفو عن الإساءة

للإساءة أنواع وأشكال متعدّدة، فتارةً يُساء لأحدنا بالظلم، وأخرى بالنميمة



من الغافلين، وإن كان ذاكرًا؛ لعدم كون ذكره من وجه الإخلاص، بل بقصد الرياء... الهاشمي الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١٤٧.

عليه، وثالثةً باغتيابه، وهكذا. وهذا الأمر بطبيعة الحال يؤدي الإنسان نفسياً وجسدياً؛ إذ ربّما يشعر بعضنا بانتهاك كرامته من تلك الإساءة، أو فقدان شخصيته الاجتماعية، الأمر الذي يؤدي إلى التفكير السلبي بالتشفي والانتقام والمعاملة بالمثل. لكن نرى بعض الناس إذا تعرّض لمثل هذه الإساءات وطلب منه المسيء الصّفح والعفو تدخلت في نفسه ملكة الشجاعة وقوة النفس، فتسيطر على القوة الانتقامية عنده، فتجعله يمتلك قراراً شجاعاً وجريئاً يستطيع من خلاله أن يكبح جماح نفسه التي تميل إلى الانتقام والمواجهة بالمثل، فيصدر قراره بالعفو والصّفح عمّن أساء إليه، وكأنّ الطرف الآخر لم يصدر منه أيّ ظلم أو إساءة.

وهذه في الحقيقة ملكة نفسانية - وهي ملكة الشجاعة - تجعل من الإنسان أن يصدر قراراً شجاعاً يقتل فيه كلّ ما جال في خاطره من التفكير السلبي تجاه من أساء إليه، وفي الوقت نفسه ينبع هذا الأمر من سخاء المؤمن المتّقي؛ إذ لكونه يمتلك ملكة السخاء جاد على الظالم بالصّفح، وأكرم المسيء بالعفو. وهو بذلك يحمل ملكة الحلم، فحلم عن الظلم والإهانة، وكظم غيظه عن الآخرين.

الخصلة الثانية: بذل العطاء لمن حرمه منه

ربّما يمرّ الإنسان بظروف معيشية قاسية وصعبة تجعله بأمرّ الحاجة إلى من يمدّ له يد العون والمساعدة، ويوجد هناك من هو قادر على العطاء وإيصال المعونة له، لكنّه يمنع هذا العطاء ويترك مساعدته. وإذا ما أصبح الإنسان المحتاج في يوم من الأيام يمتلك القدرة على مثل هذا العطاء - سواء المادي أم المعنوي - ويكون الطرف الآخر في موقف الاحتياج، فهنا تتدخل تلك الملكات والسجايا التي تتوفر في الإنسان المتّقي، فلا يقابل الحرمان بمثله، ولا يحرم من حرمه، وإنّما يُعطيه، وهذا الأمر أيضاً يحتاج إلى شجاعة النفس وسخائها.

الخصلة الثالثة: صلة القاطع

إنَّ من جملة الأخلاق الفاضلة التي تنبع من الشجاعة والسخاء والحلم هي صلة القاطع، ولا سيَّما إذا كان رحماً؛ فإنَّ المتقين هم الذين يزورون مَنْ قطعهم من الأرحام وغيرهم، ولا يحفون الناس وإن قطعوهم، وهذا هو النُّبل والكرم والشجاعة. نعم، لأجل هذا ورد في الحديث النبوي الشريف أنَّ هذه الصفات هي خير أخلاق الدنيا والآخرة، قال ﷺ في خطبة له: «ألا أخبركم بخير أخلاق الدنيا والآخرة: العفو عمَّن ظلمك، وتصل مَنْ قطعك، والإحسان إلى مَنْ أساء إليك، وإعطاء مَنْ حرمك»^(١).

أهل الفضل

يذكر الإمام السَّجَّاد (عليه السلام) في حديث له حول أهل الفضل - وهم مَنْ اتَّصفوا بصفات المتقين التي ذكرناها - ويصوِّر كيفيَّة دخولهم الجنة يوم القيامة، حيث يقف الناس ينتظرون حسابهم ونتيجة أعمالهم، لتصدر بحقهم قرارات الفوز أو الخسران، وقلوبهم جميعاً ترتجف خوفاً من نتائج أعمالهم، في هذه الأجواء المليئة بالخوف والرعب والقلق، ينادي الملائكة: أين أهل الفضل؟ وهم الذين اتَّصفوا بكرم الأخلاق ونبلها، والذين امتازوا بهذه الصفات الثلاث، فيُنادونهم لدخول الجنة بغير حساب.

يقول الحديث الشريف: «إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأولين

(١) الفيض الكاشاني، الملا محمَّد محسن بن مرتضى، الوافي: ج ٤، ص ٤٣٧، ح ٢٢٨٠.

والآخرين في صعيد واحد، ثم ينادي منادٍ: أين أهل الفضل؟ فيقوم عنق من الناس، فتلقاهم الملائكة، فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنّا نصل من قطعنا، ونُعطي من حرمنّا، ونعفو عمّن ظلمنا. قال: فيقال لهم: صدقتم، ادخلوا الجنة»^(١).
فقد صار هؤلاء الثلّة من الناس من أهل الفضل لا تصافهم بهذه الصفات الثلاث التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام، والتي هي من صفات المتّقين، وهي خير أخلاق الدنيا والآخرة.

دفع شبهة

ربّما يتصوّر بعض بأنّ التحلّي بهذه الصفات والسجاياء الخلقية النبيلة يؤدّي إلى أن يجعل الإنسان نفسه في موقع الذلّ والمهانة والضعف، وهذا تصوّر خاطئ؛ فإنّ العزّة بيد الله تعالى يمنحها من يشاء من عباده، وكذلك الذلّ يضربه على من يشاء من عباده، وقد جعل الله تعالى لتحصيل العزّة أسباباً من ضمنها هذه الصفات الثلاث، وهذا ما يكشفه صريح الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «ثلاث لا يزيد الله بهن المرء إلّا عزّاً: الصفح عمّن ظلمه، وعطاء من حرمه، والصلة لمن قطعه»^(٢).

ضبط النفس

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر جملة من صفات المتّقين أيضاً: «بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكروه حاضرّاً معروفه، مُقبلاً خيرُهُ مُدبراً شرّه، في الزلازل وقور».

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٠٧ - ١٠٨، ح ٤.

(٢) الحرّ العاملي، محمد بن الحسين، وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ١٧٣، باب استحباب العفو عن الظالم

وصلة القاطع، ح ٤.

تعترى الإنسان في حياته الكثير من الحوادث، فربما يمرّ بحوادث عظيمة وشديدة تضطرب معها نفسه، فتراه منهاراً لا يمتلك السيطرة على نفسه، فتشتدّ به حالة الغضب، الأمر الذي يُسبّب في صدور بعض التصرفات غير الحكيمة منه.

بينما إذا ما تحلّى الإنسان بالتقوى فإنّه حينما يمرّ بمثل هذه الأحداث يتمكّن من امتلاك زمام نفسه والسيطرة على جوارحه، فتراه رابط الجأش، ثابتاً عند الشدائد، يفرض سيطرته التامة على قواه النفسية وقدراته الحسية وسلوكه وتصرفاته وأقواله، فيتصرف بحكمة وعقل، حتّى يتغلّب على تلك الحوادث ويحتازها بسلام.

وهذا ما يُشير إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) ذاكراً هذه الصفات النبيلة في المتقي؛ فإنّه بعيدٌ عن المنكر وحاضر في المعروف، مقبلاً خيرَه على الناس، ومدبرٌ شرّه عنهم، تراه في الزلازل ثابتاً وقوراً لا تهزّه الحوادث، وإنّما يتصرّف معها بحكمة ووعي تامين.

الصبر في الشدة والشكر في الرخاء

يقول (عليه السلام) أيضاً: «في المكاره صبور، وفي الرخاء شكور»

لا شكّ في أنّ حياة الإنسان مليئة بالأحداث، تكون تارة حلوة عذبة، وأخرى منغصة، فهي لا تخلو من إحدى حالتين: حالة المصاعب والمتاعب والابتلاءات والمحن والمعوقات المعيشية المختلفة الأنواع والمتفاوتة الأشكال، وحالة الرخاء والنعيم واليسر في المعيشة والأُمور الدنيوية الأخرى.

يُبيّن الإمام (عليه السلام) أنّ حال المتقي في الأولى هو الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، والتسليم لأمر الله تعالى في كلّ الأحوال. وفي الثانية الشكر لله تعالى على منّه ونعمه.

وفي المقام لا بدّ من الإشارة إلى أمر مهمّ يعيشه أبناء الشعب العراقي في هذه الظروف العصيبة التي يمرّ بها هذا البلد الجريح المظلوم، المملوء بالمحن والابتلاءات الكثيرة، وسوف نُشير إلى مجموعة من الأحاديث الشريفة المهمة في هذا المقام.

أمام هذه المصاعب والابتلاءات إمّا أن يكون الإنسان صبوراً أو جزوعاً، وواضح أنّ الجزع لا يردّ قضاء الله الحتمي، ولا يُخفّف من المصاعب، ولا يردّ شيئاً من الابتلاءات والمشكلات المحيطة بالإنسان، وإنّما على العكس من ذلك، فهو يخسر الثواب العظيم؛ لأنّه لم يصبر على بلواه، وذلك باعتراضه على قضاء الله وقدره.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الابتلاءات والمحن مهما طالّت سنينها فإنّ لها أمداً وحدّاً تزول عند بلوغه، فإذا ما سلّم الإنسان بقضاء الله تعالى وقدره، ورضي به، وصبر على تلك المحن، فإنّه سوف يعيش في راحة؛ لعلمه بأنّ كلّ محنة لها أجل وسوف تنتهي بحلول أجلها، وبذلك سوف ينال الأجر العظيم في الآخرة. أمّا في حال جزعه فإنّه يعيش الوهم والهَمّ؛ لعدم تسليمه بقضاء الله وقدره بأنّ لهذه المحنة أجل تزول بحلوله، فيتصوّر سرعة زوالها، لكنّه بعد لم يحنّ أجل ذلك، فيغتمّ لهذا الأمر، فيخسر بذلك الثواب العظيم الذي جعله الله تعالى للصابرين.

لذلك يقول الحديث الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإنّك إن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور»^(١).

إنّ في هذا الحديث إشارة إلى أنّ المقادير الإلهية جارية - بما فيها المحن

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٩٢، ح ٩٢.

والابتلاءات - بقضاء الله وقدره، ولا يملك الإنسان أن يدفع أو يرّد عنه هذه الابتلاءات والامتحانات؛ لأنّها بيد الله تعالى، وهو سبحانه وحده الذي يستطيع أن يردها بقدرته سواء صبرنا عليها أم جزعنا، لكنّ الفرق بين الحالتين هو الأجر والثواب في الأولى؛ للتسليم بقضاء الله وقدره والصبر على ذلك، والحرمان من الأجر، بل وتحصيل الإثم في حالة الجزع، غير أنّ ذلك لا يؤثّر في وقوع هذه الامتحانات وجريانها إلى أن تنتهي مدّتها، وينقضي أجلها بقضاء الله وقدره.

قصة وعبرة

وفي المقام نذكر قصّة شاهداً على التسليم بقضاء الله وقدره، وهو نموذج من المرأة الصالحة، حرّى بأن يُقتدى به، ملخصها: إنّ هناك امرأةً مسلمةً في ريعان شبابها، تتّصف بالأخلاق النبيلة، وهي ذات حُسن وجمال، قد ابتلاها الله تعالى بزواج سيّئ الأخلاق، ذميم الخلقة وكبير السنّ، لكنّها قابلت كلّ ذلك الابتلاء بالصبر والشكر؛ إيماناً منها بقضاء الله وقدره.

يُذكر أنّ الأصمعي - وهو وزير المأمون العباسي - كان ذاهباً في رحلة للصيد في وقت قائف حارّ، وقد أضاع قافلته في أثناء المسير، وكان ضامناً، فوجد في الصحراء خيمةً، فقال في نفسه: التجئ إلى هذه الخيمة عسى أن أجد فيها ماءً أروي منه ضمّي. فلمّا قرب من الخيمة شاهد فيها امرأةً شابةً جميلةً، فلمّا رآته رحّبت به وأدخلته الخيمة، فجلس هو في جانب من الخيمة، وجلست المرأة في جانب آخر منها عفةً منها وحياءً.

فقال لها: ناوليني شيئاً من الماء أشربه فأروي عطشي. يقول: فتغيّر لونها، وقالت: ليس عندي إذن من زوجي أن أعطيك الماء.

لكنّها قالت له: امتلك شيئاً من اللبن هو غذائي، فناولته اللبن وشرب منه.
يقول الأصمعي: بينا نحن كذلك وإذا بسوادٍ قادم نحو الخيمة، فإذا به زوجها، وكان دميم المنظر، وسيئ الخلق، لكنّها قامت واستقبلته، وحملت بيدها قليلاً من الماء، فساعدته أولاً على النزول من ظهر دابّته، ثم غسلت يديه ورجليه وأدخلته الخيمة باحترام، لكنّه كان يتعامل معها بخشونة وسوء خلق.

يقول الأصمعي: لقد نفرت من سوء خلق الرجل، فتركت مكاني وخرجت من الخيمة وجلست خارجها تحت أشعة الشمس، مفضّلاً البقاء خارجاً، لكنّ المرأة رافقتني عند الخروج، فقلت لها: أنتِ شابةٌ جميلة، لماذا تتعلّقين بهذا الرجل الكبير وهو بهذه الحال؟!

فأجابت بعد أن بان عليها الامتعاض، وقد شحب لون وجهها؛ وذلك لأنّها شعرت بأنّه يحرّضها على زوجها، فقالت: أظنّك على قدر كافٍ من الحكمة والعلم والمعرفة بالأحكام الشرعيّة، فكيف تريد أن تمّحي محبّة زوجي من قلبي؟!

أتدري لماذا أفعل هذا مع زوجي؟ لأنّي سمعت الحديث الوارد عن النبي ﷺ: «الإيمان نصفان، نصفه في الصبر، ونصف في الشكر»^(١).

إنّ تحمّلي يصل بي إلى درجات الصبر، ولذا يجب عليّ شكر الباري على هذه النعمة؛ فإنّ نعمة الصبر تحتاج إلى الشكر^(٢).

ويظهر من هذه القصّة أنّ المرأة كانت مطيعةً لزوجها، وهذه إشارة واضحة على أنّها على درايةٍ بالحكم الشرعي الذي يأمر بإطاعة الزوج، وكان قد تغيّر لونها

(١) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن عليّ، تحف العقول: ص ٤٨.

(٢) أنظر: المظاهري، حسين، الأخلاق البيّتيّة، ص ١٩٤-١٩٨.

خجلاً من ذلك؛ لأنها أرادت أن تحسن ضيافة الرجل، لكنّها في الوقت نفسه لم تحرز رضا زوجها بإعطائه الماء؛ وذلك لعلّه من باب أنّ الماء كان عزيزاً آنذاك؛ لأنّهم في صحراء وفي فصل الصيف، وعادةً ما يكون فيه الماء قليلاً، والناس بحاجةٍ إليه.

هذا بالإضافة إلى أنّه كان يُفترض بذلك الرجل العجوز أن يشكر الله تعالى أن رزقه بمثل هذه الزوجة الصالحة التي كانت على مستوى من الوعي، فكانت تحرص على تطبيق معنى الحديث الشريف، وكانت تقول: أنا أشكر الله؛ لأنّه منحني حظاً من النعم، فقد منحني الجمال والشباب والخلق الحسن، فأنا أشكر الله تعالى على ذلك.

ولم يكن هذا الشكر مجرد ذكر باللسان، وإنّما هي قد ترجمته بأفعالها من خلال انسجامها مع هذا الزوج وطاعته؛ رضاً بقضاء الله وقدره، كلّ ذلك من أجل أن يكتمل إيمانها؛ لأنها أدركت معنى الحديث بأنّ الإيثار نصفان: نصف في الصبر، ونصف في الشكر. فهي تشكر الله تعالى على هذه النعم، وفي الوقت نفسه تصبر على ما قدّر الله تعالى لها. وهي إنّما صبرت على سوء خلق زوجها؛ لأنها كانت مدركةً بأنّ الدنيا في زوال، وسوف تنتهي هذه المرارة التي تعيشها مع زوجها، وأنّ هناك نعيماً دائماً جزاءً لهذا الصبر.

قد يتصوّر بعضهم بأنّ الجنّة لا يدخلها إلّا من كثرت صلاته أو صيامه ودعاؤه وتلاوته للقرآن الكريم فقط، كلاً؛ فإنّ هناك مجموعة أمور أخرى تكون سبباً في سعادته في الآخرة ودخوله الجنّة، منها الصبر، والشكر على النعم.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للتّصاف بهذه الصفات، وأن يرزقنا التخلّق بأخلاق أهل البيت (عليهم السلام)، أنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة السبعون
من صفات المتقين
القسم الخامس

بتاريخ: ٢٠٠٧ / ٥ / ٤ م

◀ مراعاة الموازين الشرعيّة في إصدار الأحكام والقرارات

◀ حفظ الأمانة

◀ استحضار المؤمن ما ذكر به

◀ المنايزة بالألقاب

◀ حفظ الجوار

◀ عدم الشّاعة بنزول المصيبة

◀ فضيلة الصمت

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله «مَحْمُداً يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُرْسَلُونَ﴾»^(١)...،
مَحْمُداً نُعْتَقُ بِهِ مِنْ أَلِيمِ نَارِ اللَّهِ إِلَى كَرِيمِ جِوَارِ اللَّهِ»^(٢).

والصلاة والسلام على أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين، معادن
الحكمة وينايع العلم ومصابيح الدجى.

إخوتي وأخواني السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أوصيكم عباد الله ونفسي - الأمانة بالسوء - بتقوى الله تعالى، والسير على
نهجه القويم، والاعتصام بحبله المتين، والتذكر دائماً بالأوصاف التي ذكرها إمام
الموحدين وسيّد المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لهّام في الخطبة المشهورة
عنه، المعروفة بخطبة المتّقين، التي ذكرنا في بعض الخطب السابقة مجموعةً منها^(٣)،

(١) المطففين: آية ٢٠ - ٢١.

(٢) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

(٣) وهما الخطبتان: السابعة والخمسون والثامنة والخمسون من الجزء الثاني من هذا الكتاب،
والخطبتان: الثامنة والستون والتاسعة والستون من هذا الجزء، واللّتان عنوانهما بعنوان: (من
صفات المتّقين) القسم الثالث والقسم الرابع. والنصوص التي يعرض ساحة الشيخ (دامت
بركاته) شرحها من خطبة الإمام عليه السلام هي:

«لا يحيف على مَنْ يبغيض، ولا يَأْتُم في مَنْ يُحِبُّ، يعترف بالحقّ قبل أن يُشهد عليه، لا يُضَيِّع ما
استُحْفِظ ولا ينسى ما ذُكِّر، ولا يُنابِز بالألقاب ولا يُضارّ بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا

ونذكر في المقام شيئاً آخر منها.

مراعاة الموازين الشرعية في إصدار الأحكام والقرارات

يقول أمير المؤمنين عليه السلام ذاكراً بعض تلك الأوصاف: «لا يحيف على من يبغض، ولا يَأْتُم في من يُحِبُّ».

إنَّ الناس من ناحية إصدار الأحكام على صنفين:

الصنف الأول: الذين تتحكّم بهم مشاعر الحبّ والمودة أو مشاعر البغض، فيصدرون الأحكام على أساس هذه المشاعر، وليس على أساس الموازين والمعايير الشرعية والعقلية.

الصنف الثاني: الذين تتحكّم في قراراتهم وأحكامهم الموازين الشرعية والعقلية دون مشاعر الحبّ والبغض.

وهذا الصنف الأخير هو الذي يُشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرة من خطبته الشريفة، وهم المجموعة من الناس الذين لا يسمحون للمشاعر والعواطف أن تتحكّم في إصدار قراراتهم، بل المعيار عندهم في إصدار الأحكام هو الشرع والعقل، وهذه من جملة صفات المتّقين.

قد يكون الإنسان قاضياً، أو يحتلّ منصباً في السلطة من شأنه إصدار الأحكام على الآخرين، سواء في عزلهم، أم تعيينهم، أم تحديد مقدار أجورهم. أو يكون الإنسان مديراً في مؤسسة أو مدرسة، أو يرأس مجموعة أو فريق عمل، فإنّ مثل هذا الإنسان - المسؤول - إذا أوكل إصدار الأحكام المتعلقة بالآخرين الذين يرأسهم إلى



يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمّه صمته». البحراني، ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٤١٢.

مشاعره وما يحمله من عواطف تجاههم، فسوف لا تكون هذه أحكام حق، وإنما تكون مجحفة بحقهم؛ وذلك أنّ هذه المشاعر ربّما تكون مشاعر عداو وبغض لإنسان أو جهة أو فئة، فيصدر بحقهم؛ ما لا يرضيهم، أو ما ليس هو حقهم.

وأما إذا كانت مشاعر ودّ وحبّ وتقدير، فكذلك سوف تصدر - تلك المشاعر - أحكاماً لا يستحقونها وإن لم يكن فيها إجحاف بحقهم؛ فإنّ هذا كلّه مخالف لأحكام الله تعالى؛ لأنّها ليست طبق الموازين الشرعيّة.

إنّ المتصدّي للمسؤوليّة إذا صدرت منه هذه الأحكام لا على أساس المعايير الشرعيّة لا يُعدّ متقيّاً؛ وذلك لأنّ المتقي من الناس إذا ما أوكلت له مهمّة، أو إذا ما تبوّأ منصباً يرأس من خلاله الآخرين، لا يُحكّم المشاعر تجاههم، وإنّما ينظر في إصدار القرار إلى الموازين الشرعيّة، فيصدر على الآخرين ما يستحقّونه من قرارات وأحكام من دون أن تكون لمشاعر الحبّ والودّ أو البغض والكره دخالة في ذلك.

نعم، المتقي من الناس لا يترك لمشاعره أن تدفعه أو تؤثر عليه، فيصدر أحكاماً خلاف الضوابط الشرعيّة، وإنّما يترك المشاعر جانباً ويجعل نصب عينيه الميزان الشرعي والعقلي هو الذي يتحكّم بالقرارات المتعلقة بالآخرين.

حفظ الأمانة

يقول الإمام عليّ عليه السلام في إطلاقه صفة أخرى من صفات المتقين: «لا يضيع ما استحفّظ»، يُشير عليه السلام في هذا المقطع من خطبته إلى حفظ الأمانة، وهي كلّ ما افترضه الله على العباد، كالصلاة والزكاة والصيام، وأداء الدين، والودائع.

والأمانة خلق ثابت في النفس، وقد وردت الآيات الكثيرة، والأحاديث الشريفة المشيرة إلى أنّ هناك أمانات أودعها الله تعالى عند الإنسان، وأنّها مستحفظة عنده.

فليست الأمانة مختصةً بالأُمور الماليَّة أو العينيَّة فقط، وإنَّما الطاعات والعبادات هي كذلك أمانة في عنق الإنسان.

ومن جملة الأمانات التي جعلها الله تعالى في عنق الإنسان هي الفرائض، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾^(٢).

وقال في موضع ثالث: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٣).

فالمتقي من الناس هو الذي لا يُضيع تلك الأمانات، وإنَّما يلتزم بأدائها والحفاظ عليها، وهي الفرائض، فهي من جملة ما استُحفظ عليه الإنسان.

لقد حدّد الله تعالى لهذه الفرائض أوقاتاً معيَّنة، وجعل لها شرائط وسنناً على الإنسان أن يلتزم بها ويُطبّقها ويؤدّيها في أوقاتها، والمتقي تراه يحافظ على جميع ذلك، ويلتزم بكلّ ما ورد فيها من ضوابط وأحكام.

وأما ما يخصّ الوديعة، فقد قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٤).

إنّ ودائع الناس سواء كانت عينيَّة أم معنويَّة كالأسرار، يكون حفظها واجباً؛ إذ السرّ أمانة كباقي الأمانات المستحفظة عند الإنسان، فالمتقي لا يفشي سرّاً، ولا يخون ما أُدع عنده من ودائع ماليَّة وغيرها.

(١) الأنفال: آية ٢٧.

(٢) البقرة: آية ٢٣٨.

(٣) المؤمنون: آية ٩.

(٤) النساء: آية ٥٨.

استحضار المؤمن ما ذكر به

ثم يقول الإمام عليه السلام في وصف المتقي: «ولا ينسى ما ذكر به». إن آيات القرآن الكريم تذكر تجارب الأمم السابقة؛ وذلك لكي يعتبر بها الإنسان في حياته إذا ما جعلها نصب عينيه وفي ذاكرته؛ لأنها إنما تُعطيه دروساً أخلاقيةً يستفيد منها في حياته اليومية؛ فإنَّ التجارب التي عاشتها الأمم السابقة على مرَّ العصور مليئة بالحوادث التي إذا ما قارنها الإنسان بما يعيشه اليوم يتعظ منها، لذلك يجب على المؤمن أن يجعلها دائماً في ذاكرته.

وكذا تتعرض الآيات أيضاً إلى ذكر وبيان الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية التي تنظم حياة الإنسان في الدنيا.

لذلك يصف الإمام عليه السلام المتقي في هذه الجملة بأنه لا ينسى ما ذكر به، أي: إنه يستحضر ويعي كل تلك الآيات التي تشرح له أحوال تلك الأمم السابقة وتجاربهم، وفي الوقت نفسه تضع بين يديه الأحكام والمفاهيم الإسلامية والأخلاقية التي ينتفع بها في الدنيا والآخرة.

المنابذة بالألقاب

من جملة أوصاف المتقين التي يُشير إليها أمير المؤمنين عليه السلام عدم المنابرة بالألقاب، فيقول: «ولا يُنازب بالألقاب». وفي ذلك إشارة إلى الآية القرآنية الشريفة التي تنهى عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾^(١).

والسرّ في ذلك كون المنابرة بالألقاب مستلزمة لإثارة الفتن والتباغض بين الناس، الأمر الذي يُسبب الفرقة والمضادة بينهم، وهو خلاف المفاهيم الإسلامية.

(١) الحجرات: آية ١١.

ومعنى المنازرة بالألقاب ألا يذكر الشخص أخاه المؤمن بشيء من الألقاب التي يكرهاها؛ فإن من جملة المخاطبات السائدة بين أفراد المجتمع أن ينادي بعضهم صديقه أو أخاه أو زميله بألقاب مكروهة وغير محبوبة، فإن الآية المتقدمة تقول: ﴿يُبْسِ الْأَسْمَ الْفُسُوقُ﴾.

من هنا كان لا بد من التحفظ في اختيار الألفاظ المحبوبة أثناء المناذرة، فإذا أراد الإنسان أن ينادي شخصاً آخر فليناده باللقب الذي يحبه، فإن مثل هذه المناذرة تزرع المحبة والمودة والاحترام بين أبناء المجتمع، وتوجد العلاقات المتينة، والأواصر القوية بينهم، على العكس من المناذرة بالألقاب المكروهة التي لا تحصد إلا العداوة والبغضاء والتشتت، وتمزق الأواصر بين أبناء المجتمعات، مع أن الإسلام يؤكد دائماً على الحفاظ على الجو الإيماني داخل المجتمع من أجل إبقائه متحداً قوياً يعضد بعضه بعضاً.

حفظ الجوار

يذكر الإمام علي عليه السلام جملةً يطلق فيها صفةً أخرى من صفات المتقين، قائلاً: «ولا يضارّ بالجار»، وهي مزية اجتماعية مهمة، تُعدّ من جملة الأخلاق الفاضلة التي أكد عليها الإسلام لأجل الألفة والاتحاد في الدين.

هناك مقوّمان لسلوك الإنسان يستحقّ الإنسان عليهما المجازاة، وينال بهما الثواب الجزيل، وأحدهما مكمل للآخر، وهما:

الأول: المقوّم العبادي، ويتلخّص في طاعة الله سبحانه وتعالى وتأدية فرائضه.

الثاني: المقوّم الأخلاقي، ويتلخّص بالتمسك بالقيم الاجتماعية والأخلاقية والتربوية.

إن من جملة المعايير الخاطئة عند بعضهم أنّه يتصوّر بأنّ الإنسان إذا ما التزم بالمقوّم الأوّل فقط، وأكثر من الصلاة والصيام، وأعطى الصدقات، وأدّى كلّ الأعمال العبادية الواجبة والمستحبة، عندها يفوز بالجنة. لكنّه قد غفل عن المقوّم الثاني، فإنّه

بالإضافة إلى تأدية الواجبات يجب أن تراعى القيم الأخلاقية والاجتماعية، فإنّ معيار النجاة والفوز بالجنة هو الالتزام بكلا الأمرين.

ومن جملة مفردات المقوم الثاني حفظ الجوار، لذا يُشير الإمام عليه السلام إلى هذه المفردة المهمة بقوله: «ولا يضارّ بالجار»، وهي صفة يتّصف بها المتقون، فلا يصدر عنهم شيءٌ يضرّ جيرانهم أو يؤذيهم، بل العكس من ذلك هو الحالة المطلوبة، وهي حالة نفع الجار وصنع الخيرات والمعروف له.

إنّ الفوز بالجنة لا يُنال مع فقدان مثل هذه القيم الأخلاقية والاجتماعية المهمة في نظر المشرّع الإسلامي.

من هنا يجب أن نلفت النظر إلى أنّ الإكثار من أداء العبادات - كالصلاة والصيام والدعاء والصدقة والزيارة وغيرها من الأعمال العبادية - وإن كان حسناً، إلّا أنّه إذا لم تُصاحب هذه الأعمال القيم الأخلاقية، والتي تتحقّق بترك الغيبة والبهتان والافتراء على الآخرين، وأذية الجار باللسان وغيره، وغير ذلك من السجايا الأخلاقية، فإنّ الفوز بالجنة يُصبح بعيد المنال.

ومن جملة ما ورد في هذا الشأن أنّه ذُكرت إحدى النساء يوماً عند النبي صلّى الله عليه وآله، فوصفت عنده بالصيام والقيام والتصدّق الكثير، لكنّها كانت تؤذي جارها بلسانها، وقد تصوّر بعضهم بأنّها توفّرت فيها المواصفات الإيمانية التي تستحقّ أن تدخلها الجنة، لكنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال فيها: «لا خير فيها، هي من أهل النار»^(١).

(١) النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ٨، ص ٤٢٣، ح ١٣، باب وجوب كفّ الأذى عن الجار. والحدّث فيه هكذا: «وقالوا لرسول الله صلّى الله عليه وآله: فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل، وتتصدّق،

والسبب في زوال قيمة تلك العبادات التي كانت حريصةً على أدائها، هو فقدانها للمقوم الأخلاقي الذي ذكرناه؛ فإن هذه العبادات لم تنفعها لتزكية نفسها ولسانها عن إيذاء جيرانها، فاستحققت بذلك دخول النار.

إن ما ذكره رسول الله ﷺ فيها نتيجة إيذاء الجار، وهناك نتائج أخرى ذكرها ﷺ في أحاديثه الشريفة الكثيرة، منها ما ورد عن الإمام عليّ عليه السلام عن رسول الله ﷺ في حديث المناهي: «مَنْ آذَى جَارَهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ، وَمَنْ ضَيَّعَ حَقَّ جَارِهِ فَلَيْسَ مِنَّا».

ثم ينتقل الرسول ﷺ في بيان مصير مؤذي الجار ومضيّع حقه إلى الوصية بالجار، فقال: «وما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١).

يُبيّن الرسول ﷺ في المقطع الأخير من الحديث الشريف أهميّة الحفاظ على حقوق الجوار، وعدم صدور ما يُسبّب في إيذائهم؛ فإنّه لا يزال يوصي بالجار حتى ظنّ المسلمون بأنّه من الأرحام، بحيث إنّ النبيّ ﷺ من شدّة تأكيد جبرئيل على الوصية به ظنّ أنّه سيورثه، ومعنى ذلك أنّه يُجعل من طبقات الإرث، وهذه الطبقات هي أرحام المورث أو أهل بيته، وهذا يكشف عن قرب الجار من صاحب الدار وأنّه كأهله.

عدم الشماتة بنزول المصيبة

يقول عليّ عليه السلام في بيان وصف آخر للمتّقين: «لا يشمت بالمصائب».

المتّق الحقيقى هو مَنْ إذا رأى مصيبةً قد حلّت أو نزلت بأحد من أهل مجتمعه لا



وتؤذي جاراها بلسانها. قال: لا خير فيها، هي من أهل النار. قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصوم شهر رمضان، ولا تؤذي جاراها. فقال رسول الله ﷺ: هي من أهل الجنة».

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ١٢٧، ح ٥، باب وجوب كفّ الأذى عن الجار.

يفرح بها، ولا يشمت بمن حلت به؛ وذلك لأنّ في الشماتة بالمؤمن كسراً لقلبه ونفسيته، وإدخالاً للحزن والهَمّ والغَمّ عليه، وهو خلاف الآداب الإسلامية والتربية الإيمانية التي علّمها رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين للناس.

هذا مضافاً إلى أنّ المصائب النازلة بالناس إنّما هي بقضاء الله وقدره، وهذا القضاء يجري على الجميع، فلا يتصور الشامت أنّها إن نزلت بغيره فلا تنزل به؛ فإنّه في معرض أن تُصيبه مثلما أصابت غيره، فهو في يوم من الأيام ربّما تحلّ به مصيبة مماثلة؛ بسبب شماتته بغيره، فلا يفرح بمصيبة نزلت بآخرين^(١).

فضيلة الصمت

يقول الإمام عليّ عليه السلام ذاكراً للصمت من جملة صفات المتقين: «وإن صمت لم يغمه صمته».

الصمت فضيلة وخصلة محمودة وخلق عظيم، قليل من يتحلّى به. ويمكن تقسيم الناس بحسب صمتهم وكثرة كلامهم إلى قسمين:

القسم الأوّل: من يجعل الباعث على كلامه هو ما يقتضيه الميزان الشرعي، وما

(١) وهذا المعنى وردت فيه الأحاديث الشريفة عن المعصومين عليه السلام، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: «لا تبدي الشماتة لأخيك، فیرحمه الله ویصیرها بك». الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٢٦٦، ح ١، باب تحريم إظهار الشماتة بالمؤمن.

وقال عليه السلام أيضاً: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يُفتتن». الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، هداية الأئمة إلى أحكام الأئمة: ج ١، ص ٣٢٩، ح ٢١٠.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم أهل البلاء فاحمدوا الله ولا تسمعوهم؛ فإنّ ذلك يحزنهم». الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٩٨، ح ٢٣.

تُملِّيه عليه الضوابط والمعايير العقلية، وهذا نجده في المؤمنين من الناس؛ فإنَّ المؤمن إذا أراد أن يتكلَّم في قضية ما يعرض كلامه على الميزان الشرعي والمعيَّار العقلي قبل النطق به، وطريقة عرضه على تلك الموازين أن يتدبَّر فيه، فهل ينفع الآخرين أو يضرُّهم؟ هل أنَّ كلامه يدخله في عنوان محرَّم كالغيبة والنميمة والبهتان والافتراء والطعن على الآخرين؟ هل هو خوض في الباطل المحرَّم؟ فإنَّ وجد أنَّ ما يُريد التحدُّث به يدخل تحت أحد هذه العناوين المحرَّمة غير المسموح بها شرعاً، فلا يخوض فيها، وإنَّما يسكت ولا يتحدَّث.

القسم الثاني: الثرثار من الناس، وهو الكثير الكلام، فلا يبالي بما يصدر عنه من كلام وإن كان مخالفاً للمعايير الشرعية، وهذا يدخل في عناوين محرَّمة تؤدِّي إلى هلاكه في الدنيا والآخرة؛ لأنَّه لا يعرض كلامه على ما تقتضيه الآداب الشرعية والإسلامية أثناء الحديث.

يضاف إلى ما تقدَّم من توضيح حال المتَّقِي من الناس أثناء الصمت، فإنَّه إنَّ أمسك عن الكلام لا يغتم لصمته ولا يحزن؛ لأنَّ صمته وفق المعايير والموازين الشرعية والعقلية؛ إذ هو بمقتضى عقله وكماله يضع كلاً من الصمت والكلام في موضعه اللائق به، فلا يتكلَّم في مقام يقتضي منه الصمت، وكذا العكس فإنَّه لا يصمت في مقام يقتضي منه الكلام، لكنَّه في الحالة الثانية لا يتحدَّث إلَّا بحدود الموازين الشرعية.

وإنَّما لا يغتم إذا أمسك عن الكلام إذ لا موجب لاغتهامه؛ لأنَّه إنَّما امتنع عن ذلك في المقام المناسب للصمت والإمساك.

وبعبارة أخرى: إنَّ الذي يغتم بالصمت هو الذي تعود لسانه على الهذر والهذيان وفضول الكلام، واعتاد على الخوض في كلِّ شيء حتى في ما لا يعنيه. أمَّا أهل التقوى فلعلَّهم بما في الصمت من الثمرات الدنيوية والأخروية، وبما في كثرة الكلام من المفاسد والآفات الكثيرة، والتي يدخل بعضها في العناوين المحرَّمة شرعاً، وربَّما تُسبَّب

إيذاء الآخرين وهتكهم، اعتادوا على الصمت والسكوت، وألا يزيدوا في كلامهم، وإنما يكون كلامهم على قدر الحاجة فقط.

من هنا وردت الأحاديث الكثيرة التي تُشير إلى هذا المعنى، فمنها ما يُشير إلى مراحل الكلام عند المؤمن والمنافق، فقد ورد في بعضها: «إنَّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنَّ قلب المنافق من وراء لسانه»^(١)، فيجعل قلبه كالمصْفى لهذا الكلام، فلا ينطق اللسان بكلام إلا بعد عرضه على القلب، فإن وجد فيه خيراً نطق به، وإن لم يجد فيه النفع رَدّه إلى موقعه وسلم من آفاته. بخلاف المنافق؛ فإنّه إن أراد أن يتكلّم لا يُمرّر كلامه على ذلك المصْفى والغربال، وإنما يطلق الكلام دون أن يعي ما فيه من خير أو شرّ.

ويُشير حديث آخر عنهم عليهم السلام إلى الفضل من الكلام، إذ كما للمال فضل فإنّ للكلام فضل أيضاً، لكنّ فرقاً بينهما؛ فإنّ الأوّل يُحبّ الإنفاق دون الثاني؛ فإنّ فضل المال من شأنه أن يُنفَق في سبيل الله، وهناك من الآداب والسنن في طريقة هذا الإنفاق. بينما فضل الكلام يجب ألا يُنفَق، وإنما يُمسك، لذا يقول النبي صلى الله عليه وآله: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله»^(٢).

(١) مغنّية، محمّد جواد، في ظلال نهج البلاغة: ج ٢، ص ٥٣٢. والحديث من مقطع للإمام علي عليه السلام في اللّسان والاستقامة، قال: «... واجعلوا اللّسان واحداً، وليخزن الرجل لسانه؛ فإنّ هذا اللّسان جموح بصاحبه، والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه؛ لأنّ المؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تدبّره في نفسه؛ فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واره، وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه».

(٢) النراقي، ملا محمّد مهدي، جامع السعادات: ج ٢، ص ١٤٥.

ومن جملة ما ورد في مدح الصمت وذم الكلام أن جعل الصمت في حديث شريف عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام من علامات الفقه، وهذا معناه أن الإنسان الواعي والفاهم الذي تفهم الدين وأحكامه، يصمت في الموضع الذي يليق فيه الصمت، ولا يتكلم إلا في الموضع الذي يليق فيه الكلام، قال عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنما الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير»^(١).

نعم، هناك مواقف تتطلب أن يجهر بها الإنسان بالحق، فيكون الصمت فيها خلافاً للموازين الشرعية، كما هو الأمر في بيان الأحكام والتكاليف الشرعية والمفاهيم الإسلامية، وكما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تحقق الشروط المتعلقة بذلك. لذا يتحتم على الإنسان إذا ما واجهه موقف معين أن يتأمل في الموازين الشرعية، فإذا كان المقام يقتضي الكلام فليتكلم بالمقدار الذي ينفع؛ بحيث يحصل من كلامه الغرض، وإذا كان المقام يقتضي الصمت والإمساك عن الكلام فالأنسب والأحسن هو السكوت طبقاً لما تقتضيه الموازين الشرعية؛ خوفاً من صدور الكلام السيئ الذي لا ينفع المقام.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للتحلي بهذه الصفات، وأن نسير على هذا النهج، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١١٣، ح ١.

الخطبة الحادية والسبعون

مجاهدة أهل الباطل

بتاريخ: ١٨ / ٥ / ٢٠٠٧ م

◀ الحكمة في تأخير النيل من الظالم

◀ التقاعس عن نصره الحق

❧ النقطة الأولى: الإبطاء في نصره الحق

❧ النقطة الثانية: ترك الاستماع لكلام القائد

❧ النقطة الثالثة: سوء حال أهل الحق

❧ النقطة الرابعة: انخفاض قيمة الفرد بخذلانه الحق

◀ الفقهاء قادة الأمة

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد، وآل بيته الطيّبين الطاهرين.

الحمد لله الناصر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجوّد يده، نحمده في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه^(١).

والصلاة والسلام على مَنْ أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، وبشوابه مبشّراً، وبعبابه محذّراً، أبي القاسم محمّد، وعلى آله مصابيح الدجى، وأئمة الهدى، وعلى أصحابه الغرّ الميامين.

إخواني وأخواتي، سلام من الله عليكم جميعاً ورحمة منه وبركات...
أوصيكم - ونفسي الغارقة بالذنوب - بتقوى الله تعالى، والسير على صراطه القويم، والتمسك بحبله المتين، والاجتماع على كلمة الحقّ ونصرة أهل الدين والرشد.

نتعرّض في هذه الخطبة لمقاطع مهمّة من خطبة أمير الموحّدين وسيّد المتّقين، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، التي خطب بها أصحابه يحثّهم على جهاد أهل الباطل^(٢).

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليّ عليه السلام: ج ١، ص ١٩٣.

(٢) ونصّ خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عليّ بن أبي طالب عليه السلام كتالي:

وقبل الدخول في تفاصيل وشرح مقاطع هذه الخطبة المباركة نذكر - تمهيداً - شيئاً مما يُشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام فيها.

يُبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة الآثار الخطيرة التي تنزل بالأمة لو أنّ أهل الحقّ وأصحابه لم يجتمعوا على نصره قائلهم، وفي المقابل توحدت كلمة أهل الباطل واجتمعوا على نصره قيادتهم، حيث يتسلط الظالمون والطواغيت على مقدّرات الأمة الإسلامية.



«ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وبموضع الشجا من مساع ريقه. أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، أشهود كغياب وعبيد كأرباب؟! أتلو عليكم الحُكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتفرّقون عنها، وأحكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرّقين أيادي سبّا ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوةً وترجعون إليّ عشيةً كظهر الحنية، عجز المقوم وأعزل المقوم.

أيّها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم. المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يُطيعونه، لوددتُ - والله - أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ منّي عشرةً منكم وأعطاني رجلاً منهم...

انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يُخرجوكم من هدى، ولن يُعيدوكم في ردى، فإن كبّدوا فالبدّوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا...». نهج البلاغة، (تحقيق صبحي الصالح): ص ١٤٢-١٤٣.

إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام يعمد إلى توبيخ أولئك القوم الذين تقاعسوا عن نصرته، وخذلوه في معركة الحقِّ مع الباطل، وفي الوقت نفسه يُبيِّن المواصفات التي كانت يتَّصف بها أهل الباطل وهم على الباطل، وكان يجب أن تتوفَّر مثل هذه الصفات عند أهل الحقِّ. كما أنَّه عليه السلام - أشار إلى المواصفات التي كانت على أرض الواقع عند أهل الحقِّ، والتي كانت من الصفات التي تليق بأهل الباطل.

إنَّ واحداً من الأسباب التي تدعو إلى التعرُّض إلى هذه الخطبة ما نشاهده اليوم من ملامح الصراع في الساحة العراقيَّة، حيث تشبه هذه الصراعات في بعض ملامحها ملامح ذلك الصراع الذي حدث في زمن قيادة أمير المؤمنين عليه السلام، لذا فإنَّ هذه الخطبة بمثابة تحذير ليس في الظرف الذي عاشه أمير المؤمنين عليه السلام فقط، وإنَّما لجميع الظروف التي عاشها ويعيشها أتباع الحقِّ، وذلك حرصاً على أن تكون كلمتهم موحَّدة في المسارعة إلى نصرته قيادتهم التي تسير على النهج الحقِّ.

هذا بالإضافة إلى ما يجب عليهم من التحلِّي بالصفات التي من خلالها تستطيع قيادتهم أن تأخذ بأيديهم إلى النصر والغلبة والعزَّة، فيفوتوا الفرصة على الأعداء من أهل الباطل في أن تكون الغلبة لهم.

الحكمة في تأخير النيل من الظالم

قال أمير المؤمنين عليه السلام بن أبي طالب عليه السلام: «ولئن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وبموضع الشجاء من مساعٍ ريقه...».

ربَّما تطول فترة الصراع بين الحقِّ والباطل، وتستمرَّ مدَّة من الزمن، يحصل معها الضعف والوهن في صفوف أهل الحقِّ بتطرُّق الشكِّ والريبة إليهم - في منتصف الطريق وقبله أو بعده - بأنَّ الطريق الذي يتبعونه ويسرون عليه ليس بصائب، بل ربَّما

يعتري بعضهم بأنّ مخالفهم الذين هم على الباطل يصبحون أتباع الحقّ وأصحابه، وذلك بسبب تأخير النيل من الظالم ونزول العقوبة به من قبل الله تعالى.

لهذا المعنى المتقدّم يُشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الشريفة، مؤكّداً على أصحابه بأنّ التأخير في الاقتصاص والنيل من الظالم لا يعني أنّ أتباع الباطل هم من طلاب الحقّ وأصحابه، وإنّما هذا التأخير له سبب، وهو اختبار المؤمنين أصحاب الحقّ وامتحانهم، وهل أنّهم سوف يقفون مع الحقّ إلى نهاية الطريق وينصرونه ضدّ الباطل وإن طالّت المدّة وبُعِدَت الشقّة؟ وهل يقدمون التضحيات ويصمدون ويستقيمون على الطريق الحقّ؟

تُشير بعض الآيات القرآنيّة الشريفة التي تتطرّق لذكر الأمم السالفة وتجاربها بأنّ الله تعالى قادر على أخذ الظالمين وسحقهم، إلّا أنّه تعالى يعتمد على تأخير عقوبته لأجل كلمة ما، مع أنّ أهل الباطل باقون على باطلهم وزيفهم، كلّ ذلك ليكتشف حجم استعداد المؤمنين وأصحاب الحقّ للصمود والتضحية ومواصلة الطريق؛ فإنّه إذا ما تحقّق هذا الصمود والثبات على الحقّ ونصرته يتحقّق الأخذ من الظالم، يقول تعالى:

﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْنَدِرٌ^(١)﴾.

أمّا إذا لم يستمرّ أهل الحقّ في مواصلة النصرة له، وخذلوا القيادة الدينيّة الحقّة في منتصف المسيرة المطالبة بالقضاء على الباطل وأهله، حينئذٍ يتغلّب أهل الباطل الظالمون المستكبرون على رقاب المسلمين حتى يُذيقوهم الظلم والهوان، كما حصل بعد خذلان القوم أمير المؤمنين عليه السلام في أيام خلافته، فتسلّط معاوية ومن بعده حكام بني أميّة على رقاب أبناء الأمّة الإسلاميّة ومقدّراتها.

ثم يُشير الإمام عليّ عليه السلام - في هذا المقطع - إلى أنّ الله تعالى قادر على تحجيم الظالم وإيقافه، مشبّهاً قدرة الله على ذلك بأنّه أقرب إلى الظالم من موضع الشجا - وهو ما يعترض الحلق من العظم وغيره^(١) - فالله تعالى قادر على أن يوقف مساع ريق الظالم؛ أي: يجعله لا يتمكّن من بلع ريقه، وذلك في لحظة واحدة هي أقلّ ممّا نتصوّر، بمعنى أنّ الله تعالى بإمكانه القضاء على الظالم، لكنّه ابتلى به الأمة لحكمة يكشف الناس من خلالها مقدار تضحياتهم أو استعدادهم للتضحية في سبيل نصره الحقّ، والصبر والاستقامة على ذلك، يقول تعالى في الآية الشريفة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لَيُجْزَى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢).

فلكي يطّلع الناس على نتيجة الظلم والاستكبار والعتو وممارسة الجرائم، يورد الله تعالى هذه الآية المباركة، موضحاً فيها ذلك المصير المساوي الذي ينتظر الظلمة وأعوانهم، الأمر الذي يدفع بالمؤمنين نحو مواصلة طريق الصمود في مقارعتهم حتى يتحقّق النصر للمؤمنين.

التقاعس عن نصره الحقّ

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أما والذي نفسي بيده، ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم...».

(١) الشجا: ما اعترض في حلق الإنسان والدابة من عظم أو عود أو غيرهما. ابن منظور، محمّد بن

مكرم، لسان العرب: ج ١٤، ص ٤٤٢ - شجا.

(٢) آل عمران: آية ١٧٨.

يبدأ الإمام عليه السلام بتوبيخ أصحابه حينما رأى أنهم قد تقاعسوا عن نصرته ولم يخرجوا للجهاد في سبيل الله تعالى ونصرة الحق والدفاع عن دولته، الدولة الإسلامية الحقّة، مشيراً لهم بأن أعداءه من أصحاب الباطل سوف يظهرون عليهم إذا ما استمرّوا في تقاعسهم عن نصرته، ليس لأن الدولة والظهور والغلبة لهم، أو أنهم أصحاب الحق، وإنما لأسباب قد كمنت فيكم.

اعتري أنصار الإمام عليه السلام - الذين يتبعون القيادة الحقّة ودولة أمير المؤمنين عليه السلام - صفات تُقابلها في الوقت نفسه صفات أخرى اعترت القوم الذين يتبعون القيادة الباطلة المناوئة لدولة أمير المؤمنين عليه السلام، وكان الإمام عليه السلام ينظر إلى تلك الصفات بأنها السبب في غلبة أهل الباطل على أهل الحق، لذا يبدأ باستعراض بعض هذه الصفات، موضّحاً مدى تمسّك أصحاب الباطل بقيادتهم الباطلة، وخذلان أهل الحق قيادتهم الحقّة.

ويمكن استعراض تلك الصفات خلال مجموعة نقاط:

النقطة الأولى: الإبطاء في نصرته الحقّ

يقول الإمام عليه السلام: «...ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقّي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي». أشار المقطع الشريف من هذه الخطبة إلى مسألة مهمّة في تغلب وظهور أهل الباطل على أصحاب الحق، وهي الإسراع والإبطاء في النصرته، فأهل الباطل يُسرعون في نصرته صاحبهم، بينما أهل الحق يتباطؤون في نصرته الحقّ وصاحبه على الرغم من أنهم مع الحق، فإنّه إذا ما حصل وتحقّق هذا الشيء يغلب أهل الباطل أهل الحق ويتسلّطون عليهم.

ومن المؤكّد أنّ الإمام عليه السلام يذكر هذه الصفات لأجل أن يسمعوها ويعوها؛

لأنّها بمثابة توجيهات وإرشادات وأوامر يجب اتباعها وطاعتها والالتزام بها؛ لأنّها تمثّل رؤية القيادة الحقّة، فضلاً عن أن يكون لهم رؤية مخالفة لها.

ثم من بعد اتّباع الأوامر والالتزام بها تأتي مرحلة الإسراع في الطاعة والتنفيذ لكلّ التوجيهات والإرشادات التي تتضمنّها تلك الأوامر الصادرة عن القيادة الحقّة، لا الإبطاء والمطالة في تنفيذها أو إجرائها.

وشيء آخر مهمّ أيضاً يُضاف إلى ذلك، وهو الاندفاع النابع من بلوغ الهمة العالية في ذات الإنسان نحو تطبيق تلك الأوامر.

نعم، إذا ما توقّرت هذه الأمور الثلاثة سوف تكون الغلبة والنصرة لأصحاب الحقّ، أمّا إذا لم تتوقّر فإنّه سوف يحصل العكس من ذلك، فيتغلّب أهل الباطل بسبب وحدة كلمتهم ومواقفهم في نصرته قيادتهم والرؤى النابعة عنها رغم كونها على الباطل، فإنّه إذا ما تحقّقت هذه المعايير في جهة من الجهتين سوف تنتصر على الأخرى.

فمن خلال ما ذكر في بيان هذه النقطة يمكن تلخيص ثلاثة أمور يحتاجها أهل الحقّ لكي يتحقّق النصر لهم، ولا يتغلّب أو يظهر عليهم أهل الباطل، وهي:

الأمر الأوّل: أن تكون رؤاهم وأفكارهم ومواقفهم تجاه الأمور المهمة التي تمرّ بها الأمة متطابقة مع الرؤى والمواقف التي تصفها القيادة الدينيّة الحقّة، تاركين جانباً المواقف النابعة من الأهواء والعواطف أو الأسباب الأخرى.

الأمر الثاني: طاعة التوجيهات والإرشادات والقرارات التي تصدرها القيادة الحقّة، والإسراع في الانقياد إليها وتنفيذها.

الأمر الثالث: الهمة العالية في الاندفاع إلى النصر.

النقطة الثانية: ترك الاستماع لكلام القائد

يقول عليه السلام: «استفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرّاً وجهراً فلم تستجيبوا، ونصحتُ لكم فلم تقبلوا، أشهود كغيّاب وعبيد كأرباب؟!». في هذه النقطة - والنقاط التي تتلوها - يُبين الإمام عليه السلام سياسته مع قومه، والتي كانت سياسةً واضحةً تطرح المفاهيم الحقّة، وتستعمل أسلوب النصيحة والحكمة.

تُشير هذه النقطة إلى مسألة مهمّة في اتّباع الرعيّة قائدها، وهي ضرورة تطابق آراء الرعيّة مع رؤية القيادة - كما قلنا سابقاً - لأنّ الأخيرة هي الرؤية الدينيّة الصحيحة؛ فإنّه إذا ما تمسّك الإنسان برؤيته التي تُملئها عليه أهواؤه وشهواته سوف ينحرف عن الحقّ بسبب ذلك، والنتيجة تفرّق وتمزّق وتشتّت الأهواء والآراء والأفكار؛ لأجل إشباع الطموحات والأهواء، وبالتالي تفرّق كلمة أهل الحقّ فلا ينصرونه، ولا يكون عندهم انبعاث أو همّة أو دافع لمجاهدة أهل الباطل.

من هنا يذكر الإمام أصحابه بأنّه قد دعاهم إلى الجهاد، لكنّهم ثاقلوا وتقاعسوا عنه وعن نصرته والمجاهدة معه، وقد حثّهم على ذلك مراراً وتكراراً، لكنّهم لم يسمعوا، فصار يوبّخهم؛ إذ هم شاهدون وحاضرون معه، يسمعون ما يقوله لهم من استنفار للجهاد ودعوة لنصرة الحقّ، ومع كلّ ذلك لم يستجيبوا له، ولم يقبلوا منه النصائح والإرشادات والتوجيهات، مع أنّ الحاضر الشاهد السامع أولى بالاستفادة من غيره، فكان حالهم - كما يصفه الإمام عليه السلام - كحال الإنسان الغائب الذي لم يسمع، فغابت عقولهم عن اتّباع الإرشادات.

ثم يعبر الإمام عليه السلام بتعبير آخر، يقول: «وعبيد كأرباب»؛ فإنّ مقتضى العبوديّة إطاعة الرعيّة لأوامر وتوجيهات الراعي والقائد، فاللازم أن يسمعوا له وينقادوا إليه، لكنّهم جعلوا أنفسهم كالأرباب والسادات والشرفاء من القوم، يتّبعون رؤية

أنفسهم، مستقّلين في اتّخاذ القرار الذي يُناسب أهواءهم؛ فبدلاً من أن يُطيعوا أمر الإمام القائد، أصبح كلّ واحد منهم يرى رأيه ويتبع فكره وهواه، الأمر الذي جعلهم متقاعسين متثاقلين عن النصرة.

يقول عليه السلام: «أتلو عليكم الحِكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها، وأحثّكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرّقين أيادي سباً^(١) ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أفومكم غدوةً وترجعون إليّ عشيّةً كظهر الحنيّة، عجزَ المقوم وأعضل المقوم».

فقد اتّخذ عليه السلام مع الرعيّة سياسة الوعظ والإرشاد والنصح وقول الحِكم البالغة في هذا الجانب، وهي سياسة الحكيم الورع، على العكس من سياسة المستكبرين الذين يتّبعون في حمل أتباعهم على طاعتهم والانقياد إليهم سياسة السوط والسجن والقتل وغير ذلك من السياسات الإرهابيّة.

لقد اتّبع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سياسة الإسلام في الإدارة حتى في الكلام؛ بأن

(١) أيادي سباً: مثلاً يُضرب للمتفرّقين، وأصله قوله تعالى عن أهل سبأ: ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾

[سبأ: آية ١٩]. وسبأ بالهمزة - وزان حَيْل، يُصرف ولا يُصرف، وهو بلدة بليّس، ولقب ابن يشجب بن يعرب بن قحطان اسمه عبد شمس. والأأيادي جمع الأيدي، وهو جمع اليد. قال الرضي: وهو كناية عن الأبناء والأسرة؛ لأنّهم في التقويّ والبطش بمنزلة الأيدي. يقال: ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ... أي: ذهبوا متفرّقين.

والحنيّة - وزان غنيّة - القوس، والجمع حني وحنايا، والمقوم الأوّل على زنة الفاعل، والثاني على زنة المفعول. [الهاشمي الخوئي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ٧، ص ١٢٣ - ١٢٤].

تكلّم معهم بكلام بليغ حكيم، ووعظهم وقدم لهم النصّح والإرشاد، ولازم ذلك أن يستمع العاقل إليه، وأن يستجيب دعوته وسياسته، وينطلق مع الإمام في جهاده.

النقطة الثالثة : سوء حال أهل الحقّ

يقول عليه السلام: «أيّها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم. المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه».

بعد أن وبّخ الإمام عليه السلام المخاطبين من أصحابه على تقاعسهم عن نصره الحقّ وأهله، ونصح لهم ووعظهم، عطف عنان الكلام على ذكر بعض المواصفات التي هي لأهل الحقّ المتّبعين القيادة الحقّة، وشيء من صفات أهل الباطل الذين يتّبعون القيادة الباطلة، مخاطباً الفئة الأولى - الحقّة - بذكر معاييبهم؛ تنفيراً لهم عنها، بأنّ أبدانهم شاهدة، لكنّ عقولهم غائبة، بمعنى عدم قيامهم بما تقتضيه عقولهم من الأمور التي يتحتّم عليهم فعلها، وهي النصر له وللدين الحقّ، وكذا ما هم عليه من اختلاف الآراء والرؤيّة العقلية لكلّ منهم، الأمر الذي سبّب أن أثبت لهم أمراؤهم؛ لسوء الحال التي هم عليها، وعدم انتظام أمرهم.

إنّ الإمام عليه السلام كان يمثّل القيادة الحقّة التي هي امتداد للقيادة القرآنيّة المحمّديّة، لكنّه عليه السلام قد أثبت بأنّ هذه الفئة من الناس؛ فإنّهم قد ذهب بهم آراؤهم إلى تشتّت كلمتهم، وعدم الإسراع والاستجابة لأوامر قيادتهم وتوجيهاتها لهم، فخالطهم الفتور وضعف الهمة، فلم يهّبوا إلى نصره الحقّ، وإذا ما بلغ الأمر هذا الحدّ فإنّ القيادة الدينيّة لا تستطيع أن تتخذ قراراً بصالح الأمة الإسلاميّة، الأمر الذي نتج عنه اشتداد قوّة أهل الباطل وتغلّبهم وظهورهم على الدولة الحقّة.

لقد أشار عليه السلام في هذا المقطع إلى اتّصافهم برذيلة مخالفة الأمر مع كون أميرهم

مطيعاً لله تعالى، وإلى اتّصاف أهل الشام بصفة الطاعة مع كون أميرهم عاصياً لله تعالى، وجعل ذلك مقايسةً بينهم؛ ليظهر الفرق فتدركهم الغيرة.

النقطة الرابعة: انخفاض قيمة الفرد بخذلانه الحق

يقول عليه السلام: «لوددتُ - والله - أن معاوية صارَني بكم صرفَ الدينار بالدرهم، فأخذ منّي عشرةً منكم وأعطاني رجلاً منهم...».

يهدف عليه السلام في هذا المقطع من خطابه إلى الزيادة في توبيخهم وتحقيرهم والتقليل من أحجامهم، بتفضيل عدوّهم عليهم في البأس والنجدة؛ فإنّه وعلى الرغم من كون مَنْ فيهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، الذين وصفهم القرآن الكريم وقيّم مواقفهم سابقاً في سرعة الاستجابة لأوامر الرسول صلى الله عليه وآله، والخروج معه في الجهاد بهمة عالية ومثابرة وإيثار في تقديم التضحيات في صراع أهل الشرك والكفر بقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاحِبُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾^(١)، إلّا أنّ الأمر قد انعكس مع الإمام عليه السلام، فكان القوم الذين معه على الحقّ قد فقدوا ذلك الصبر، وتقاعسوا عن النصرة، الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتمنّى أن يُبادل عشرة من أتباعه - الذين هم من أتباع الحقّ - بواحد من أصحاب معاوية الذين هم من أتباع الباطل، وذلك لارتفاع قيمة أهل الباطل آنذاك بسبب انصياعهم لأمر قيادتهم وتمسّكهم بها.

لقد جعل الإمام عليه السلام أهل الشام بمنزلة الذهب، وجعل أصحابه بمنزلة الفضة، ورجّح واحداً منهم على عشرة من أصحابه، حيث ودّ مبادلتهم به، وقد

(١) الأنفال: آية ٦٥.

أكّد على ذلك بالقسم؛ وذلك لأنّ أهل الحقّ تفرّقت كلمتهم وتحاذلوا عن نصره قيادتهم الدينيّة الحقّة، فصار الواحد من الفئة الباطلة يعادل عشرة مراتب من فئة أهل الحقّ؛ إذ الاستجابة للأوامر والتوجيهات الصادرة عن القيادة وإن كانت على باطل لكنّها تزيد في الاندفاع نحو التضحية، الأمر الذي يُساعد القيادة على التقدّم بهم نحو الهدف المنشود.

الفقهاء قادة الأُمّة

يقول ﷺ: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يُخرجوكم من هدىّ، ولن يُعيدوكم في ردّى، فإن كبّدوا فالبُدّوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا...».

يعمد ﷺ في كلامه مع قومه بعد التوبخ وذكر العيوب إلى إيجاد الحلّ للخروج من الأزمة التي هم فيها، كما أنّه طريق الخلاص في كلّ العصور والأزمنة التي يمرّ بها الناس بعد عصره ﷺ، فإنّه إذا ما أراد أيّ قوم في كلّ زمان أن تحقّق لهم الغلبة والنجاة أن يلزموا طريق أهل البيت ﷺ، فقد نبّه الإمام ﷺ على وجوب طاعته وملازمة الطيّبين من أولاده الأئمّة المعصومين ﷺ من بعده.

إنّ المسألة المهمّة والحساسة في المقام هي الانصياع لأوامر أهل البيت ﷺ في النهوض إلى الجهاد حيثما أمروا، فإنّ رؤيتهم في ذلك هي الرؤية الصحيحة الحقّة. فاللازم هو الاتجاه إلى جهتهم وطريقهم واتباع أثرهم والافتداء بهم وإن كان لكلّ واحد من الرعيّة نظرتة ورؤيته الخاصّة به، كالقعود وعدم النهوض مثلاً؛ وذلك لامتلاك الأئمّة ﷺ الرؤية الإلهيّة التي ينظرون من خلالها إلى الظروف وإمكانيّات الأُمّة، ثم يحدّدون أمر القيام بالجهاد أو عدمه.

وفي هذا المقطع الشريف من كلامه ﷺ إشارة واضحة إلى حديث الثقلين الصادر - بالتواتر - عن رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي

أهل بيتي. إن تمسكتكم بهما لن تضلّوا أبداً^(١). فإنّ الأئمة عليهم السلام لهم منهج خاصّ تحدّد ظروف الزمان والمكان في النهوض بالجهاد أو القعود.

وقد يسأل سائل: لقد كان أتباع الأئمة عليهم السلام في وقتهم وحضورهم يرجعون إليهم ويتلقّون منهم مباشرة، لكن في الزمان الحاضر بعد رحيل الأئمة عليهم السلام وغياب الإمام الحجة المنتظر عليه السلام إمام الزمان، كيف يتلقّى الناس تعاليمهم مع غياب شخص القائد عنهم؟

والجواب: من المسلّم به أنّ الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام لم يترك الرعيّة في حيرة من أمرهم، وإنّما حدّد لهم أن يرجعوا إلى الفقهاء العدول من أبناء الأئمة، فقال في هذا الشأن محدّداً وظيفه رعيّته في حال غيابه عنهم: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا؛ فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله»^(٢).

إنّ المقصود من رواية الحديث هم الفقهاء العدول الذين تتوفّر فيهم صفات الفُتيا، فهم ليسوا من الذين يدّعون الفقاهاة وهي ليست متوفّرة فيهم، وإنّما أهل الفقه وقيادة الأئمة الدينيّة الصحيحة التابعة لمنهج أهل البيت عليهم السلام. هؤلاء الفقهاء هم الذين يجب اتّباعهم؛ لأنّهم حجّة على أبناء الأئمة، والإمام الغائب هو حجّة الله تعالى عليهم؛ فإنّ الرسائل العمليّة للفقهاء هي التي توضّح الأحكام وتبيّن الوظيفة العمليّة للمكلّفين، فينبغي علينا مراعاة ذلك والالتزام به.

(١) النوري، ميرزا حسين، مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٣٧٤.

(٢) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ١٤٠، باب وجوب الرجوع في القضاء

والفتوى إلى رواة الحديث، ح ٩.

من هنا نشير إلى أنّه في كلّ وقت وظرف يكون فيه صراع بين الحقّ والباطل، لا بدّ أن تكون عند المسلم - ولا سيّما الموالي لأهل البيت عليه السلام - رؤية متطابقة مع رؤية القيادة الدينيّة الحقّة، فإذا تحقّقت المطابقة وجب الإسراع والمبادرة والاستجابة لأوامر القيادة وتوجيهاتها وإرشاداتها. وفي الوقت نفسه يُفترض أن تستقرّ في نفوسنا الهمة العالِيّة والاندفاع في تطبيق هذه الأوامر. أما إذا انعكس الأمر - لا سمح الله - كما هي الحال مع أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد رجوعه من معركة النهروان ودعوته القوم للخروج لجهاد أهل الباطل وتقاّعهم وخذلانهم له وعدم نصرته؛ بسبب اختلافهم في الرؤى والأفكار، فلا يتحقّق النصر، وحينها يتسلّط أهل الباطل على دولة الحقّ في الأرض.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لأن نكون مثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، والمخلصين من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الذين استجابوا لنصرته وانقادوا لأمره، وأن يجنّب شعبنا المظلوم المآسي، ويعجّل فرج إمام زماننا، إنّه سميع مجيب. والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثانية والسبعون

تسبيح الزهراء عليها السلام حبوة الرسول إليها

بتاريخ: ١ / ٦ / ٢٠٠٧ م

◀ التسبيح من الركائز الإسلامية المهمة

◀ تسبيح الزهراء عليها السلام

◀ فضل تسبيح الزهراء عليها السلام في مرويات أهل البيت عليهم السلام

◀ المضامين التي يحملها التسبيح

❧ النقطة الأولى: الابتداء بلفظ الجلالة (الله) والانتهاؤه به

❧ النقطة الثانية: تطبيق مضمون التسبيح

❧ النقطة الثالثة: الإخلاص لله تعالى سبب نشوء البركة

❧ النقطة الرابعة: عطاء تسبيح الزهراء عليها السلام العقائدي

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاطر السموات والأرضين، مودع الأسرار العليّة في الدرّة البهيّة فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين. والصلاة والسلام على أبيها سيّد الأنام والمرسلين، حبيب الله وخاتم النبيّين محمّد الأمين، وعلى بعلمها سيّد الأوصياء وإمام المتّقين، أمير المؤمنين أبي الحسن والحسين عليهما السلام، وعلى أولادهما أعلام الهدى وسفن النجاة، بدءاً بالمجتبى الحسن عليه السلام وختماً بالمنتظر الحجة بن الحسن عليه السلام. واللعن الدائم على ظالمهم وغاصبي حقوقهم والراضين بظلمهم من الأوّلين والآخرين، من بدء الخلق إلى قيام يوم العدل والدين.

أوصيكم - عباد الله، ونفسي الأمانة بالسوء - بتقوى الله تعالى، والاهتداء بهدي عباده المتّجيين من آل بيت المصطفى صلّى الله عليه وآله، والسير على نهجهم القويم. سلام من الله عليكم جميعاً ورحمة منه وبركات.

قال الله تعالى في محكم كتابه وفصل خطابه وواضح بيانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^(١).

التسبيح من الركائز الإسلامية المهمّة

إنّ من جملة الركائز الإسلامية التي أكّد عليها القرآن الكريم في عشرات من

(١) الإسراء: آية ٤٤.

الآيات الشريفة^(١) هي شعيرة التسبيح؛ وذلك لأهمية التسبيح في حياة الإنسان المؤمن، والأمة الإسلامية.

وفي المقام - وقبل الخوض في ذكر أهمية التسبيح - نستعرض بعض الأمور التي تنبعث منها أهمية التسبيح.

الأمر الأول: إن التسبيح تعبير صادق من الإنسان عن نظرتة الكاملة،

(١) من جملة الآيات الشريفة التي ورد فيها ذكر التسبيح ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾. الأعراف: آية ٢٠٦.

٢- قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾. الرعد: آية ١٣.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ. الأنبياء: آية ١٩ - ٢٠.

٤- قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾... الأنبياء: آية ٧٩.

٥- قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ سُبْحَانَ اللَّهِ، فِيهَا يَالْعُدُو وَالْأَصَالِ﴾ النور: آية ٣٦.

٦- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدْعٍ صَلَاتُهُ، وَيُسَبِّحُهُ﴾. النور: آية ٤١.

٧- قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَلَكُ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾. الزمر: آية ٧٥.

٨- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾. فصلت: آية ٣٨.

٩- قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الحشر: آية ٢٤.

١٠- قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الجمعة: آية ١.

الواعية، الحكيمة، العاقلة، والفطرية اتجاه الكون وخالقه، كما سيتضح ذلك من خلال بعض فقرات هذه الخطبة.

الأمر الثاني: إن هذا الذكر يرسخ الإيمان في قلب الإنسان ويعمقه فيه، حتى يكون هو نقطة انطلاق أفعال الإنسان مخلصاً بها لله تعالى.

الأمر الثالث: إن التسبيح يشعر الإنسان بأبعاد الوجود الإلهي، الذي يمثل الكمال المطلق، وحينئذ يشعر الإنسان بالرقابة الإلهية وبأن مبدأه ومعاده إلى الله تعالى.

الأمر الرابع: إن التسبيح يضيف حالة من النورية على قلب الإنسان المؤمن حينما يتفاعل مع الأبعاد العقائدية والتربوية التي يتضمنها التسبيح، كما سنبين ذلك لاحقاً.

تسبيح الزهراء عليها السلام

إن تسبيح السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هو حبة مباركة حباه رسول الله صلى الله عليه وآله ابنته وبضعته الزهراء عليها السلام وخصها به، حتى عرف هذا التسبيح باسمها سلام الله عليها، فصار يعرف ويسمى تسبيح الزهراء عليها السلام.

وهو ذكر وورد مهم يقرأه الشيعة يومياً عدة مرات عقيب كل صلاة؛ لما له من المرتبة العالية بالنسبة إلى الأذكار والأعمال المستحبة الأخرى.

وفي المقام نستعرض مبدأ التسبيح ومنشأه من خلال الرواية التي نقلها الشيخ الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه)، قال: (وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لرجل من بني سعد: «ألا أحدثك عني وعن فاطمة الزهراء عليها السلام؟ أنها كانت عندي، فاستقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرّحى حتى مجّلت^(١) يداها،

(١) المجّل: أثر العمل في الكفّ، يُعالج بها الإنسان الشيء حتى يغلظ جلدها. مجّل: مجّلت يده -

وَكَسَحَتْ^(١) الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابَهَا، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقَدْرِ حَتَّى دَكَنْتَ^(٢) ثِيَابَهَا، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضَرٌّ شَدِيدٌ، فَقُلْتُ لَهَا: لَوْ أَتَيْتَ أَبَاكَ فَسَأَلْتَهُ خَادِمًا يَكْفِيكَ حَرًّا مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ. قَالَ [رَسُولُ اللَّهِ ﷺ]: أَفَلَا أُعَلِّمُكُمَا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنَ الْخَادِمِ؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَنَاكُمْ فَكَبَّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً^(٣)، وَأَحْمَدَا



بِالْكُسْرِ - وَمَجَلَّتْ وَتَمَجَّلَتْ... نَفَطَتْ مِنَ الْعَمَلِ، فَمَرَنْتَ وَصَلَبْتَ وَثَخَنْتَ جِلْدَهَا وَتَعَجَّرَ وَظَهَرَ فِيهَا مَا يَشْبَهُ الْبَشَرَ مِنَ الْعَمَلِ بِالْأَشْيَاءِ الصَّلْبَةِ الْخَشَنَةِ.

وَفِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ: أَتَمَّا شَكَتْ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَجَلَّ يَدَيْهَا مِنَ الطَّحْنِ. ابْنُ مَنْظُورٍ، مُحَمَّدُ بْنُ مَكْرَمٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: ج ١١، ص ٦١٦.

(١) فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَسَحَتْ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابَهَا. أَي: كَنَسَتْهُ، مِنْ قَوْلِهِمْ كَسَحَتْ الْبَيْتَ كَسَحًا - مِنْ بَابِ نَفَعٍ - كَنَسَتْهُ. وَقَدْ يُسْتَعَارُ الْكَسْحُ لَتَنْقِيَةِ الْبَثْرِ وَالنَّهْرِ وَغَيْرِهِ، فَيُقَالُ: كَسَحْتُهُ، أَي: نَقَيْتُهُ.

وَالْكَسَاحَةُ - بِالضَّمِّ - مِثْلُ الْكَنَاسَةِ، وَهِيَ مَا يُكْنَسُ. وَالْمَكْسَحَةُ - بِكَسْرِ الْمِيمِ - مَا يُكْنَسُ بِهِ مِنَ الْآلَةِ. الطَّرِيحِيُّ، فَخْرُ الدِّينِ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ: ج ٢، ص ٤٠٦، مَادَّةُ (كَسَحَ).

(٢) فِي حَدِيثِ فَاطِمَةَ: (أَتَمَّا أَوْقَدَتْ الْقَدْرَ حَتَّى دَكَنْتَ ثِيَابَهَا): دَكَنَ الثَّوْبَ إِذَا اتَّسَخَ وَاغْبَرَّ لَوْنُهُ، يَدَكُنْ دَكْنًا. ابْنُ الْأَثِيرِ، الْمُبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدٍ، النَّهْيَاةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ: ج ٢، ص ١٢٨، مَادَّةُ (دَكَنَ).

وَفِي الْحَدِيثِ: أَوْقَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقَدْرَ حَتَّى دَكَنْتَ ثِيَابَهَا، أَي: اغْبَرَّتْ. يُقَالُ: دَكَنَ الثَّوْبَ دَكْنًا - مِنْ بَابِ تَعَبٍ - مَالَ إِلَى الْغَبَرَةِ، وَهُوَ بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ، وَمِنْهُ ثَوْبٌ أَدَكَنَ. الطَّرِيحِيُّ، فَخْرُ الدِّينِ، مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ: ج ٦، ص ٢٤٧، مَادَّةُ (دَكَنَ).

(٣) الْمَشْهُورُ فِي تَسْبِيحِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقْدِيمَ التَّحْمِيدِ عَلَى التَّسْبِيحِ، وَتَدَلُّ عَلَيْهِ جُمْلَةٌ مِنَ الرِّوَايَاتِ. قَالَ الْعَلَّامَةُ الْحَلِّيُّ رحمته: «الْمَشْهُورُ فِي تَسْبِيحِ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقْدِيمَ التَّكْبِيرِ، ثُمَّ التَّحْمِيدِ، ثُمَّ التَّسْبِيحِ، ذَكَرَهُ



ثلاثاً وثلاثين تحميدةً. فأخرجت فاطمة عليها السلام رأسها وقالت: رضيتُ عن الله وعن رسوله، رضيتُ عن الله وعن رسوله»^(١).

لقد بيّنت الرواية أعلاه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حبا ابنته الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام مغنماً ومكسباً أخروبياً هو أهمّ من المكسب الدنيوي الذي كانت تسأله من أبيها، لذا أثرت عليها السلام هذا التسبيح على ذلك المطلب الدنيوي، وتحملت من العناء والكدح في سبيل الحصول على هذا المكسب الأخروي.



الشيخ في النهاية والمبسوط، والمفيد في المقنعة، وسلار، وابن البرّاج، وابن إدريس. وقال علي بن بابويه: وسبّح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام، وهو أربعٌ وثلاثون تكبيرة، وثلاثٌ وثلاثون تسبيحة، وثلاثٌ وثلاثون تحميدة. وهو يُشعر بتقديم التسبيح على التحميد، وكذا قال ابنه أبو جعفر، وابن الجنيد، والشيخ في الاقتصاد.

لنا: ما رواه محمد بن عذافر قال: دخلتُ مع أبي عليّ عبد الله عليه السلام، فسأله عن تسبيح فاطمة عليها السلام؟ فقال: الله أكبر، حتّى أحصى أربعاً وثلاثين مرّة، ثمّ قال: الحمد لله، حتّى بلغ سبعاً وستين، ثمّ قال: سبحان الله، حتّى بلغ مائة يُحصىها بيده جملةً واحدةً. وعن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام قال تبدأ بالتكبير أربعاً وثلاثين، ثمّ التحميد ثلاثاً وثلاثين، ثمّ التسبيح ثلاثاً وثلاثين.

احتجّوا بما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال لرجلٍ من بني سعد: ألا أحدثك عني وعن فاطمة عليها السلام؟ إنّها كانت عندي فاستقت... إلخ. والجواب: ليس في الحديث تصريحٌ بتقديم التسبيح على التحميد، أفصى ما في الباب أنّه قدّمه في الذكر، وذلك لا يدلّ على الترتيب، والعطف بالواو لا يدلّ عليه». الحليّ، الحسن بن يوسف بن المطهر، مختلف الشيعة: ج ٢، ص ١٨٣.

(١) الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٣٢٠-٣٢٢، ح ٩٤٧.

إن هذه الرواية تُبين إيمان الزهراء عليها السلام، وهي في الوقت نفسه تُبين أهمية هذا الذكر (تسبيح الزهراء)، وكذلك تُشير في مقطع منها إلى أحد عناصر الكمال الذي اتّصفت به الصديقة الطاهرة عليها السلام، وهو قيامها بمهامها الأسرية في بيتها على أحسن وجه وأكمل، حتى صنعت بذلك أسرةً متكاملةً يشهد لها التاريخ، فيجب على كلّ مؤمنة الاقتداء بها؛ لكي تصنع أسرةً إيمانيةً تخدم المجتمع الإسلامي.

فضل تسبيح الزهراء عليها السلام في مرويّات أهل البيت عليهم السلام

أكّدت جملة وفيرة من روايات أهل البيت عليهم السلام على أهمية هذا الذكر وفضله، وما يحتلّه من المرتبة السامية بين الأذكار الأخرى. ومن تلك المرويّات:

١- عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «ما عبّد الله بشيء من التمجيد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السلام، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام»^(١).

٢- وعنه عليه السلام أيضاً، قال: «مَنْ سَبَّح تسبيح الزهراء عليها السلام ثم استغفر غفر له، وهي مئة باللسان وألف في الميزان، وتطرد الشيطان، وترضي الرحمن»^(٢).

٣- وفي كتاب (الأسرار الفاطمية) عند ذكره لتسبيح الزهراء عليها السلام، قال: هذه الآثار والفوائد إنّها أخذناها واستفدناها من خلال عدد كبير من الأحاديث الماثورة عن لسان أهل البيت عليهم السلام، ومنها: مَنْ قرأ هذا التسبيح عند النوم بات وله ألف حسنة، وعند قيامه من نومه - الذي قرأ فيه التسبيح - له ألف حسنة^(٣).

النوم هو عبارة عن مغادرة الدنيا، لذا يُستحسن للإنسان عند شعوره بأنّه يريد

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٦٤، ح ٥٦.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، ثواب الأعمال: ص ١٦٣.

(٣) المسعودي، محمد فاضل، الأسرار الفاطمية: ص ٣٠٩.

المغادرة أن يتذكر مضامين ومعاني هذا التسبيح؛ إذ لعل الإنسان لا يستيقظ من نومه، فيكون - والحال هذه - آخر ما تذكره هو ذكر الله تعالى. وكذلك عند اليقظة من النوم وبداية يوم جديد في الحياة؛ فإن ذلك يُعتبر حياةً جديدةً للإنسان، فيجعلها مبدوءةً بذكر الله عند قراءته هذا التسبيح.

نعم، يتحقق الحصول على ألف حسنة قبل النوم، وألف حسنة أخرى عند اليقظة من النوم بقراءة هذا التسبيح، شريطة أن يكون الذكر الثاني قد سبقه الأول.

٤- وفيه أيضاً: إنه مَنْ سَبَّحَ هذا التسبيح في دبر الصلاة المكتوبة من قبل أن يبسط رجله أوجب الله له الجنة. وفي رواية: غفر له ^(١).

٥- عن أبي هارون المكفوف، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «يا أبا هارون، إننا نأمر صبياننا بتسبيح فاطمة عليها السلام كما نأمرهم بالصلاة، فالزّمة فإنّه لم يلزمه عبدٌ فشقي» ^(٢).

يوضح الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث مقام تسبيح الزهراء عليها السلام عند الله تعالى، حيث كان الإمام عليه السلام يأمر به صبيانهم كما كان يأمرهم بالصلاة المفروضة، ومن خلال ذلك يكشف عظم هذا التسبيح وأهميته؛ فإنّه عليه السلام يقرن الأمر به بالأمر بالصلاة المفروضة.

وفي الحديث مطلب مهم جداً يتضمّنه هذا التسبيح، فقد ذكر الإمام في ذيل الحديث أنّ العبد إذا لزم هذا التسبيح لا يشقى؛ فإنّه إن أراد الإنسان دفع الشقاء والتعاسة عن نفسه في الدنيا والآخرة فيلزم هذا التسبيح.

(١) المسعودي، محمد فاضل، الأسرار الفاطمية: ص ٣٠٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٣، ص ٣٤٣، ح ١٣.

نعم، إنّ ثمرات قراءة هذا التسبيح طرد الشقاء والتعاسة عن الإنسان والوصول إلى السعادة، لكنّ الأمر المهمّ في ذلك هل أنّ مجرد ذكر فقرات هذا التسبيح باللسان يحقّق هذه الثمرة الكبيرة، أم إنّ هناك معاني وقوانين روحية وتربوية وأخلاقية - وربّما جهادية - لا بدّ أن تُصاحب هذه الأذكار حتى يصل الإنسان إلى النتيجة التي من أجلها بلغ هذا التسبيح هذه المرتبة العظيمة؟

المضامين التي يحملها التسبيح

هناك مجموعة نقاط - نستفيد بعضها من التسبيح نفسه - تحمل مضامين عقائدية وتربوية وأخلاقية وجاهدية، يجب أن نتوصّل إليها ونكتسبها حتى نبلغ المرتبة التي يحثّ التسبيح على بلوغها:

النقطة الأولى: الابتداء بلفظ الجلالة (الله) والانتهاؤه

لو نظر الإنسان إلى هذا التسبيح نظرة واعية وحكيمة سوف يلاحظ أنّ طرفي التسبيح - أي: مبدؤه ومنتهاه - هو لفظ الجلالة (الله)، حيث يبدأ بجملة: (الله أكبر)، وينتهي بجملة: (سبحان الله)^(١). ولفظ الجلالة (الله) يُعبّر عن الوجود الإلهي بجميع أبعاده، وفي ذلك إichاء للمؤمن في ترتيب أثر هذا التسبيح بعد ترسيخ معانيه في الأرواح والقلوب والأعمال الصادرة عن الإنسان في مسيرة حياته.

وفي ذلك إشارة للإنسان بأنّ مبدأه من الله تعالى ومنتهاه كذلك إلى الله جلّ وعلا، وإذا كان كذلك فلا بدّ أن يكون كلّ نشاط أو فعل أو حركة أو أيّ شيء ينطلق منه الإنسان ويسير فيه في حياته هو من الله تعالى وإليه، لذا فليتملّل الإنسان في ذلك جيداً، ويجعل الله نصب عينه في أيّ شيء يصدر عنه؛ لأنّه لله تعالى، فإنّ

(١) على ما هو المشهور في ترتيب التسبيح، كما تقدّم.

وجود الإنسان - بمشاعره وعواطفه - وعبادته وجميع نشاطاته الدنيوية كلها سوف تعود إلى الله، حيث هو تعالى الساحة الإلهية المطلقة التي يجتمع فيها العطاء والبركة والخير ومنتهى الأعمال.

فإذا عمل الإنسان هذا التسبيح ومارسه واستشعر واستحضر معاني فصوله الثلاثة بما تشتمل عليه من الذكر ولفظ الجلالة، سوف يرتقي بحالته الإيمانية من درجة إلى أخرى عالية؛ وذلك لأنّ هذا الذكر هو منهج عقائديّ تربويّ أكّد عليه أهل البيت عليهم السلام في كثير من الأحاديث كما تقدّم.

النقطة الثانية: تطبيق مضمون التسبيح

إنّ هذا التسبيح ليس له حدود في عطائه، فهو عالي المضمون، كثير العطاء والمنافع، حتى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول لابنته الزهراء حين حباها بهذا التسبيح: «يا فاطمة، أعطيتك ما هو خير لك من خادم ومن الدنيا بما فيها»^(١).

لذلك جهدت الزهراء عليها السلام على أن تطبّق مضمون هذا التسبيح - بعد أن أخذت درساً تربوياً عن أبيها - الذي هو التضحية والفداء والفناء من أجل الحقّ، ومن أجل أن يحيا الإنسان بطمأنينة وأمن، فانطلقت بعدها إلى قبر الحمزة سيّد الشهداء عليه السلام وصنعت من ترابه حبّات مسبحة لها^(٢)؛ لأجل أن يمتزج هذا الذكر بمعاني ومضامين سامية عند الإنسان والمجتمع الإسلامي، وهي مضامين العطاء

(١) النوري، حسين، مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ٣٥، باب تأكّد استحباب التعقيب بتسبيح

الزهراء عليها السلام، ح ٥.

(٢) المسعودي، محمد فاضل، الأسرار الفاطمية: ص ٢٩٩.

والإيثار والتضحية والفداء والشهادة واتخاذ الموقف الشجاع في الدفاع عن الحق، والوقوف في وجه الباطل، فقد مزجت بين الذكر الذي يجري على اللسان، وبين هذه المضامين التي جسدها الشهيد لكي تتصوّر بعطر الشهادة ومعانيها.

إنّ في فعل الزهراء عليها السلام هذا درساً للمجتمع الإسلامي في كيفية صناعة القوة والعزة والمنعة؛ فإنّ المجتمع لا يكون عزيزاً وقوياً ومنيعاً يستطيع الوقوف ضدّ الظالم والمتكبر والطاغي إلا أن يمزج الشعيرة الإسلامية التي فيها الذكر والتسبيح بمعاني التضحية والفداء والإيثار؛ فإنّ مواقف الشجاعة في نصرته الحق تحتاج إلى المزاجية بين الأذكار اللسانية واستحضار المعاني الجهادية المتمثلة بالفداء والتضحية والإيثار.

وهذا ما نلاحظه في السجود على التربة الحسينية في الصلاة؛ حيث يمكن أن نفهم منه أنّ الصلاة لا تقوم إلاّ بدماء الشهداء؛ فإنّ الأسرار التي ينطوي عليها السجود على تربة قبر الإمام الحسين عليه السلام هو إعطاء شعيرة الصلاة - والتي هي أهمّ عبادة - بُعداً جهادياً وتربوياً، وهو حمل روح التضحية والفداء والإيثار في نفس المصلّي وروحه، فحينما يتطلّب الموقف أن يقف الإنسان مع الحقّ ويضحّي بنفسه من أجل نصرته الحقّ، يندفع الإنسان نحو ذلك دون تردّد، وهذا الاندفاع نابع من امتزاج الذكر مع معاني التضحية في سبيل الله تعالى.

النقطة الثالثة: الإخلاص لله تعالى سبب نشوء البركة

عندما يقترن العمل - وإن كان صغيراً - بالصدق وصفاء النفس وطهارة القلب والإخلاص لله تعالى، سوف تحلّ فيه البركة، وتعمّ فائدته في الدنيا والآخرة، ومن ذلك هو تسبيح الزهراء عليها السلام؛ فإنّ بركته هي انتشاره بين شيعة أهل البيت عليهم السلام حتى أصبحت ألسنتهم تلهج به على مدى قرون من الزمن؛ فإنّ الملايين من المسلمين يلهجون بذكر الله تعالى من خلال ذكرهم هذا التسبيح، والسبب في ذلك

هو الإخلاص لله تعالى والصفاء الروحي والقلبي والنفسي عند السيِّدة الزهراء عليها السلام التي هي سبب منشأ هذا التسبيح ومركز انطلاقه وانتشاره.

النقطة الرابعة: عطاء تسبيح الزهراء عليها السلام العقائدي

إنَّ من جملة الأمور المهمَّة التي ينبغي الالتفات إليها في هذا التسبيح هو عطاؤه العقائدي والتربوي؛ فإنَّه يحمل في فصوله الثلاثة المنهاج العقائدي الإسلامي بكلِّ أبعاده.

ولا بأس في المقام من إجراء استعراض سريع لمعاني فصول هذا التسبيح:

الفصل الأول: جملة: (الله أكبر)

يحمل هذا الفصل من التسبيح معنى الكبرياء لله تعالى في كلِّ شيء؛ فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - له القوَّة العظوى في الأرض والسماء، فمهما بلغت القوى العسكريَّة في العالم بما فيها من وسائل متطوِّرة وحديثة، وتباهت في طغيانها وجبروتها، فإنَّ عظمة الله تعالى أكبر، وقوَّة الله تعالى تسحق كلَّ المستكبرين والطواغيت والظالمين. إنَّ قوَّة الله هي أكبر من قوى الطبيعة القاهرة للإنسان، وهي أكبر من كلِّ مرض يُصيب الإنسان، وأكبر من كلِّ خوف يعتريه، فهي القوَّة المطلقة التي لا تُحدَّ ولا تُقاس.

الفصل الثاني: جملة: (الحمد لله)

يُشير هذا الفصل من التسبيح الشريف إلى معاني عقائديَّة وتربويَّة أُخرى، وهي كلُّها تصبُّ في مصبِّ واحد مؤداه أنَّ الله تعالى وحده هو المنعم على البشريَّة جمعاء والكون أجمع.

نعم، ربّما يكون الإنسان أحياناً واسطةً في إيصال النعمة إلى غيره أو نقلها من مكان إلى آخر، سواء كانت ماديّة أم معنويّة، لكنّ مصدر هذه النعمة هو الله تعالى، وبالتالي فلا يستحقّ الشكر والإجلال والتعظيم إلا الله وحده تعالى ذكره.

الفصل الثالث: جملة: (سبحان الله)

المعنى العقائدي الذي يحمله هذا الفصل هو تنزيه الباري جلّ وعلا عن كلّ عيب أو نقص أو قبح؛ لكونه هو الخالق الذي يستحقّ العبادة وحده، وهو المنعم وحده لا يشاركه في خلقه أحد، فهو ذات إلهيّة مقدّسة كاملة بنحو مطلق تستحقّ التنزيه.

إنّ هذه المعاني والمضامين العقائديّة والتربويّة والأخلاقيّة والجهاديّة إذا عاشها المؤمن بروحه وقلبه إن صاحبت الذكر الذي يتضمّنّه تسييح الزهراء الذي يتلفّظه الإنسان، سوف يؤثر هذا الذكر أثره في حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره في الآخرة؛ لأنّ هذا الذكر سيكون من أعلا الأذكار مرتبةً.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسبّحين الذاكرين له على نحو الدوام، إنّه سميع مجيب.

سلام عليك أيّها الصديقة الطاهرة، وعلى أبيك المصطفى، وعلى ذريّتك الطاهرين.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثالثة والسبعون

المضامين الوعظية

في رسالة الإمام العسكري عليه السلام إلى أحد أصحابه

بتاريخ: ١٥ / ٦ / ٢٠٠٧ م

﴿ رسالة الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى أحد أصحابه

﴿ مضامين الرسالة

﴿ المضمون الأول: الرقة والرحمة

﴿ المضمون الثاني: الغبطة

﴿ المضمون الثالث: أسباب الفجوة بين الإمام عليه السلام وشيعته

﴿ المضمون الرابع: التأكيد على اتباع الحق

﴿ المضمون الخامس: نعمة الفرائض

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد وعلى آل بيته الطيّبين الطاهرين.

والحمد لله على ما عرّفنا من نفسه، وألهمنا من شكره، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيّته، ودلّنا عليه من الإخلاص له في توحيده، وجنّبنا من الإلحاد والشكّ في أمره، حمداً يرتفع منّا إلى أعلى عليّين في كتاب مرقوم ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١).

والصلاة والسلام على من اختارهم هداةً لعباده، وحُججاً على خلقه، لا سيّما خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين أبي القاسم محمّد وآله الميامين النجباء.

أوصيكم عباد الله - ونفسي المثقلة بالذنوب والخطايا - بتقوى الله تعالى، والسير على صراطه المستقيم، والتمسك بعروته الوثقى، والاعتصام بحبله المتين.

رسالة الإمام الحسن العسكري إلى أحد أصحابه

نودّ في هذه الخطبة أن نستعرض رسالةً أرسلها الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى أحد أصحابه والخواصّ من شيعته ووكلائه، وهو إسحاق بن إسماعيل النيسابوري^(٣)، إذ قد تضمّنت الكثير من التوجيهات والإرشادات والنصائح في

(١) المطفّفين: آية ٢٠ - ٢١.

(٢) الصحيفة السجّادية: ص ١٨.

(٣) إسحاق بن إسماعيل النيسابوري، ذكره الشيخ في رجاله في أصحاب العسكري عليه السلام، وقال: ثقة.

تلك الظروف العصيبة التي كان يمرّ بها شيعة أهل البيت عليهم السلام إبّان قيادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، والتي مهّد خلالها لإمامة صاحب العصر والزمان، كما كان فيها تمهيد عليه السلام للغيبتين الصغرى والكبرى معاً^(١).



وفي منهج المقال: إسحاق هذا من ثقات كانت ترد عليهم التوقيعات من قبل المنصوبين للسفارة. وفي لسان الميزان: ذكره الطوسي في رجال الشيعة، روى عنه عليّ بن مهران. أنظر: الأمين العاملي، محسن، أعيان الشيعة: ج ٣، ص ٢٦٤.

(١) الرسالة هي عبارة عن كتاب أرسله الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى إسحاق بن إسماعيل النيسابوري، وفي المقام نستعرض بعضاً من مقاطعه: حكى بعض الثقات بنيسابور: أنّه خرج لإسحاق بن إسماعيل من أبي محمد عليه السلام توقيع: «يا إسحاق بن إسماعيل، سترنا الله وإياك بستره، وتولّاك في جميع أمورك بصنعه، قد فهمت كتابك يرحمك الله، ونحن بحمد الله ونعمته أهل بيت نرقّ على موالينا، ونسرّ بتتابع إحسان الله إليهم وفضله لديهم، ونعتدّ بكلّ نعمة ينعمها الله عزّ وجلّ عليهم.

فأتمّ الله عليكم بالحقّ ومن كان مثلك ممّن قد رحمه وبصره بصيرتك، ونزع عن الباطل، ولم يعمّ في طغيانه نعيمه. فإنّ تمام النعمة دخولك الجنة، وليس من نعمة - وإنّ جلّ أمرها وعظم خطرها - إلّا والحمد لله تقدّست أسماؤه عليها مؤدّى شكرها.

وأنا أقول: الحمد لله مثل ما حمد الله به حامد إلى أبد الأبد، بما ممّن به عليك من نعمة، ونجّاك من الهلكة، وسهّل سبيلك على العقبة. وأيم الله، إنّها لعقبة كؤود، شديد أمرها، صعب مسلكها، عظيم بلاؤها، طويل عذابها، قديم في الزبر الأولى ذكرها.

ولقد كانت منكم أمور في أيّام الماضي عليه السلام إلى أن مضى لسبيله صلّى الله على روحه، وفي أيّامي هذه، كنتم بها غير محمودي الشأن ولا مسدّدي التوفيق.

واعلم يقيناً يا إسحاق أنّ من خرج من هذه الحياة الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، إنّها بابن إسماعيل ليس تعمى الأبصار لكن تعمى القلوب التي في الصدور، وذلك قول الله عزّ





وجلّ في محكم كتابه للظالم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾. [طه: آية ١٢٥] قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتُكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾. [طه: آية ١٢٦].

وأية آية - يا إسحاق - أعظم من حجة الله عزّ وجلّ على خلقه، وأمينه في بلاده، وشاهده على عباده، من بعد ما سلف من آبائه الأولين من النبيين وآبائه الآخرين من الوصيين عليهم أجمعين رحمة الله وبركاته؟!

فأين يُتاه بكم؟! وأين تذهبون كالأنعام على وجوهكم؟ عن الحقّ تصدقون، وبالباطل تؤمنون، وبنعمة الله تكفرون، أو تكذبون، ممّن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم ومن غيركم إلّا خزي في الحياة الدنيا الفانية، وطول عذاب الآخرة الباقية، وذلك - والله - الخزي العظيم.

إنّ الله بفضله ومنّه لمّا فرض عليكم الفرائض لم يفرض عليكم لحاجة منه إليكم، بل برحمة منه لا إله إلّا هو عليكم؛ ليميّز الخبيث من الطيّب، وليبتلي ما في صدوركم، وليمحّص ما في قلوبكم، ولتسابقون إلى رحمته، وتتفاضل منازلكم في جنته.

ففرض عليكم الحجّ والعمرة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والولاية، وكفاهم لكم باباً، لتفتحوا أبواب الفرائض، ومفتاحاً إلى سبيله، ولولا محمد عليه السلام والأوصياء من بعده، لكنتم حيارى كالبهائم، لا تعرفون فرضاً من الفرائض، وهل يُدخل قرية إلّا من بابها؟

فلما منّ عليكم بإقامة الأولياء بعد نبيّه، قال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه السلام: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. [المائدة: آية ٣].

وفرض عليكم لأوليائه حقوقاً أمركم بأدائها إليهم، ليحلّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم ومآكلكم ومشاربكم، ومعرفتكم بذلك النماء والبركة والثروة، وليعلم من يطيعه



ولا بأس قبل ذلك أن نتوجّه بالعزاء إلى سيّدنا أبي القاسم محمد وأهل بيته الطيّين الطاهرين، ولا سيّما بقية الله الأعظم وحيّته الكبرى الإمام المهدي عليه السلام على الفجيعة التي حلّت بشيعته ومواليه عندما طالت الأيدي الآثمة المجرمة مرّة أخرى المرقّد المطهر للإمامين العسكريين عليهما السلام ^(١).

يقول الإمام عليه السلام في كتابه إلى إسحاق النيسابوري: «سترنا الله وإياك بستره، وتولّاك في جميع أمورك بصنعه...».

يبدأ الإمام عليه السلام رسالته هذه بالدعاء لهذا الرجل - إسحاق بن إسماعيل النيسابوري - الذي هو من خواصّه ووكلائه، وكما هي عادة الإمام عليه السلام يدعو للخواصّ من شيعته، بل دعاؤه عامّ لجميع شيعته ومواليه، وبالتالي فإنّ هذا الدعاء يعبر عمّا يحسّ به الأئمة عليهم السلام والإمام صاحب العصر والزمان أرواحنا له الفداء بما يمرّ به شيعة أهل البيت ومواليهم، وخاصّة في ظلّ الظروف العصيبة، ولذلك يتوجّهون في كثير من الأحيان بالدعاء لهم.

مضامين الرسالة

المضمون الأوّل: الرقّة والرحمة

يقول الإمام عليه السلام: «قد فهمتُ كتابك يرحمك الله، ونحن بحمد الله ونعمته أهل بيت نرقّ على موالينا».



منكم بالغيب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾. [الشورى: الآية ٢٣].

الطوسي، محمّد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال: ج ٢، ص ٨٤٤-٨٤٥.

(١) ألقيت هذه الخطبة بعد يومين من تجدد الاعتداء على مرقّد الإمامين العسكريين عليهما السلام في سامراء، حيثُ تناولت الأيدي التكفيرية الآثمة على الحضرة المباركة مرّة أخرى، وقامت بتفجير مئذنتي المرقّد الشريف بتاريخ: ١٣/٦/٢٠٠٧م المصادف: ٢٧/جمادى الأولى/١٤٢٨هـ.

يُبين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة صفةً أخلاقيةً مهمةً تُعدّ من الأخلاق السامية القرآنية التي يتمتع بها أهل البيت عليه السلام، وهي الرقة والرحمة والرافة على مواليهم وشيعتهم ومحبيهم.

وفي هذا إشارة وتنبية إلى الشيعة والموالين لأهل البيت عليه السلام بأن يتصفوا بهذه الصفة النبيلة؛ فإنّ الرحمة والعفو والتكافل والإحسان والرقة فيما بينهم، والشعور الطيب المتبادل بينهم، هي من أبرز السمات التي تكشف عن انتمائهم لأهل البيت عليه السلام، ولا سيما في الظروف العصيبة التي يتعرّض لها شيعة أهل البيت عليه السلام، والتي تمرّ عليهم فيها المحن والمصائب والابتلاءات؛ فإنّ ذلك يُجتمِع عليهم أن يتكافلوا ويتكاتفوا ويتراحوا ويتعاطفوا فيما بينهم.

يتعرّض الكثير من أتباع أهل البيت عليه السلام في هذه الأيام إلى ظروف صعبة وقاسية، من القتل والذبح أحياناً، والتشريد وهدم البيوت وإحراقها أخرى، والاعتداء على الحرمات والمقدّسات ثالثة، الأمر الذي يتطلّب منهم إظهار التمسك وصدق الولاء لأهل البيت عليه السلام، وهذا لا يكون إلّا بقلوب صافية متّصفة بالرحمة والرقة والعفو والإحسان؛ فإنّ هذا يكشف عن انتهاجهم لنهج أهل البيت عليه السلام أولاً، وعن الرحمة والعطف والتكافل فيما بينهم ثانياً.

لكن - ومع شديد الأسف - نرى في قبال ذلك بأنّ الكثيرين يتّصفون بالقسوة والوحشية والغضاظة تجاه أولئك الذين يتعرّضون لمثل هذه الظروف القاسية والعسيرة، مستغلين هذه الظروف للانتفاع الدنيوي، ومن أجل الحصول على المزيد من الأموال وغيرها من حطام الدنيا، فتراهم لا يقفون ذلك الموقف الإيماني الولائي.

نعم، هناك الكثير من الأسر التي هُجرت أو هاجرت أو شُردت من مدنها واضطرت إلى ترك منازلها ودورها ومحالها وقراها، وربما ترك الكثير منهم ضحايا في مدنها ممن هم أعزاء عليهم، أو مما يملكون من الأموال والنفقات، فما هو الموقف المطلوب تجاه هؤلاء في هذه الظروف والحالات؟ فهل نستقبل مثل هؤلاء المظلومين المشردين برفع الأسعار والإيجارات من أجل الحصول على المال الكثير؟ هل نحاول استغلال مثل هذه الظروف الصعبة من أجل الانتفاع الدنيوي؟ إذا ما حاولنا أن نصنع مثل هذا الصنيع المشين فهو يُعتبر خسارةً لنا؛ لأنّه لا يكشف عن صدق ولائنا واتباعنا لأهل البيت عليه السلام وأخلاقهم وانتهاج نهجهم من جهة، ويسبب في إطالة الوقوف والمحاسبة بين يدي الله تعالى يوم القيامة من جهة أخرى؛ وذلك لخلوّ قلوبنا من الرحمة والمحبة والعطف والإحسان فيما بيننا.

المضمون الثاني: الغبطة

قال عليه السلام: «ونحن بحمد الله ونعمته أهل بيت، نرقّ على موالينا، ونسرّ بتتابع إحسان الله إليهم وفضله لديهم، ونعتدّ بكلّ نعمة ينعمها الله عزّ وجلّ عليهم...».

يُشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى صفة أخلاقية حسنة يجب على الإنسان المؤمن التحلّي بها، وهي الغبطة، التي هي عكس الحسد^(١)، فحينما يرى المؤمن أخاه المؤمن الآخر قد أنعم الله تعالى عليه بالنعم الدنيوية، فليغبطه ولا يحسده، بمعنى أن

(١) «الحَسَدُ: إرادة زوال نعمة المحسود إليه، وكراهة النعمة التي هو فيها، وإرادة أن تصير تلك النعمة بعينها له. وقد يكون تمّني زوال نعمة الغير حَسَدًا وإن لم يطمع الحاسد في تحوّل تلك النعمة إليه... وأمّا الغبطة فهي أن يُراد مثل النعمة التي فيها الغير... ولا يكره كونها له، فهذا غير مذموم، والحسد مذموم». الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير مجمع البيان: ج ١، ص ٣٤٥.

يسأل الله تعالى أن يُنعم عليه بمثلها، لا أن يتمنى زوالها عنه؛ فإنّ الحسد - الذي هو تمنى زوال نعمة الآخرين - له من الآثار السيئة في الحياة الدنيا قبل الآخرة. إنّ الموقف الحقيقي من المؤمن الصادق أن يُسرّ إذا رأى إحسان الله وفضله قد شمل إخوانه المؤمنين، لذلك يقول الإمام العسكري عليه السلام بأنّ الفرح والسرور يدخلان على قلوبنا حينما نرى أنّ الله تعالى قد أنعم وأحسن إلى شيعتنا ومواليها، لذا حرّينا بنا نحن شيعة أهل البيت عليه السلام الاقتداء بهم، والتحلي بأخلاقهم، فنفرح ويدخلنا السرور إذا ما رأينا الله قد أنعم على عباده بنعم مختلفة.

المضمون الثالث: أسباب الفجوة بين الإمام وشيعته

قال عليه السلام: «ولقد كانت منكم أمور في أيام الماضي عليه السلام إلى أن مضى لسبيله صلى الله على روحه، وفي أيامي هذه، كنتم بها غير محمودي الشأن ولا مسددي التوفيق. واعلم يقيناً - يا إسحاق - أنّ من خرج من هذه الحياة أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، إنّها يابن إسماعيل ليس تعمى الأبصار لكن تعمى القلوب التي في الصدور، وذلك قول الله عزّ وجلّ في محكم كتابه للظالم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾^(١)؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾^(٢)».

هناك معاناة وآلام كثيرة كانت تمرّ على الإمام وشيعته؛ وذلك بسبب حصول الفجوة بينه عليه السلام وبينهم، وهذه الفجوة أسباب متعدّدة يتوجّب على الشيعة والموالين لأهل البيت عليه السلام مراجعة أنفسهم من أجل معرفتها.

(١) طه: آية ١٢٥.

(٢) طه: آية ١٢٦.

إنَّ هذه الفجوة ليست منحصرةً بعصر غيبة الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام، وإنَّما كانت تحصل أيضاً بين الأئمة الماضين الحاضرين مع شيعتهم وبين أتباعهم وشيعتهم، فعلى الرغم من تمكّن الناس من الوصول إلى الإمام المعصوم عليه السلام الحاضر بين ظهرانيهم، إلّا أنّ الإمام - آنذاك - كان يتألم؛ لشعوره بالفجوة بينه وبينهم.

لقد أشار الإمام عليه السلام إلى أمور كانت للشيعة مع أبيه الإمام الهادي عليه السلام الذي عبّر عنه بـ (الماضي)؛ فإنّه كان يبتّ لوعته وألمه لما كان يراه من مواليه آنذاك. وكذلك الأمر في أيام الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فقد عبّر عن تلك الأمور بأنّهم كانوا في تلك الأيام وفي أيامه غير محمودي الشأن، ولا مسدّدي التوفيق، وهذا يكشف عن حصول الفجوة بين الشيعة والإمام عليه السلام وتألمه لذلك.

أمّا الأسباب التي أدّت إلى حصول مثل هذه الفجوات فمن جملتها اندساس الدجالين ومن يدّعي المقامات الدينية السامية والعالية، وما هم في الحقيقة إلّا قادة ضلال وأتباع هوى.

إنّ ممّا يؤسّف له أنّ أمثال هؤلاء الذين يدّعون تلك المقامات تكون لهم أصوات عالية مسموعة وعند الشيعة أنفسهم أيضاً.

نعم، لو راقب الشيعة أنفسهم وحذروا واحتاطوا من هؤلاء الذين يدّعون مقامات ليست متوفرة فيهم، ولا هم أهل لها، ورجعوا إلى القائد الحقيقي وسألوه لعرفوا أنّ هؤلاء مجرد أبواق، وهم على غير هدى، وأنّهم على عمى، وأنّ استمرارهم على هذه الطريقة سوف يُحشرون يوم القيامة في حالة العمى.

إنّ الآية الشريفة: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)

ليست محصورةً بالكافرين وأهل الضلال، وإنَّما ربَّما تشمل جميع مَنْ يسمع صوت القيادات الضالَّة والمنحرفة، والتي تدَّعي ما ليس لها من المشعوذين والدجالين، ويتَّبِع هذه الأصوات، فإنَّه سيكون في هذه الحياة الدنيا أعمى، وسيُبعث ويُحشر في الحياة الآخرة وهو أعمى كذلك.

لذا يتألَّم الإمام عليه السلام لذلك؛ إذ يرى أن بإمكان شيعته الوصول إليه والأخذ عنه والسؤال منه عن هؤلاء المشعوذين والدجالين، لكنَّهم لم يفعلوا ذلك تاركين بينهم وبينه عليه السلام فجوةً، متبعين أصحاب الهوى والحريصين على الدنيا بسبب ضلالهم.

وكذلك من جملة الأسباب التي تحصل بسببها الفجوة بين الشيعة وإمامهم أنَّ أعداء الإسلام، وأعداء أهل البيت عليهم السلام يحاولون - بشتَّى الطرق والوسائل - أن يرسلوا عملاءهم ورجلهم في كلِّ وقت وزمان من أجل أن يُفرِّقوا بين صفوف الشيعة ويُضعفوا كلمتهم، وبالتالي إضعافهم وإبعادهم عن أئمَّتهم.

وهذا من الأسباب الخطيرة التي تمزِّق صفوف الشيعة؛ وذلك لعلَّه وعي بعض موالي أهل البيت عليهم السلام وعدم امتلاكهم البصيرة القلبية التي تميِّزها بين صوت الحقِّ وصوت الباطل. وهذا بالتأكيد من الأمور التي تؤلم الإمام عليه السلام؛ إذ يرى أنَّ أتباعه ومواليه تجرِّفهم جرَّافات الضلال والضياع؛ بسبب قلَّة الوعي والإدراك.

إنَّ الحلَّ الوحيد للخروج من هذه الحالة الضلالية هو البحث عن القيادة الحقَّة والرجوع إليها والاستجابة لتوجيهاتها وإرشاداتها؛ فإنَّ الإنسان إذا ما أحكم التمسَّك بالقيادة الحقَّة وانصاع لأوامرها وطبَّقها؛ فإنَّه لا يضلُّ عن طريق الحقِّ أبداً.

وهنا ربَّما يسأل بعض الناس قائلاً: إذا كان الإمام عليه السلام غائباً - كما هو الحال في

عصرنا - كيف يكون الاتصال به والرجوع إليه؟ فإنَّ الفجوة لا بدَّ أن تكون حاصلةً حال غيابه.

وجواب هذا التساؤل هو أنَّ هناك مَنْ ينوب عن الإمام عليه السلام حال غيابه، والنائب هو المرجعية الدينية التي قنَّها المشرع الإسلامي وبينها الأئمة عليهم السلام، فإنَّ الشيعي يتمكَّن من الرجوع إلى المرجع والاتصال به والأخذ عنه، وبهذا تزول الفجوة بينه وبين الإمام عليه السلام بعد معرفته الأوامر والتوجيهات من المرجعية الدينية.

المضمون الرابع: التأكيد على اتباع الحق

يقول عليه السلام: «وَأَيَّةُ آيَةٍ - يَا إِسْحَاقُ - أَعْظَمُ مِنْ حُجَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَمِينِهِ فِي بَلَادِهِ، وَشَاهِدِهِ عَلَى عِبَادِهِ، مِنْ بَعْدِ مَا سَلَفَ مِنْ آبَائِهِ الْأَوَّلِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَآبَائِهِ الْآخَرِينَ؟!...».

يتابع الإمام عليه السلام في التأكيد على الرجوع إلى الحقِّ واتباعه، مشيراً إلى أنَّه هناك الكثير من الآيات التي تدلُّ على وجود الخالق وتوحيده؛ فإنَّ فيها من الدلالات الواضحة التي تهدي الإنسان إلى الصراط القويم.

ربَّما يضلُّ بعضهم عن هذا الطريق وإن كان موالياً لأهل البيت عليهم السلام، لذا جاءت الآيات الواضحة تهدي إلى الصراط من كان ذا بصيرة واعية وقلب يهتدي، مستعرضاً عليه السلام الحجة العظيمة على الخلق، وهو الأمين في البلاد والشاهد على العباد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن قبله آباؤه من النبيين وآباؤه الآخرين من غيرهم.

المضمون الخامس: نعمة الفرائض

يقول عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرَضْ عَلَيْكُمْ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْكُمْ، بَلْ بَرَحِمَةً مِنْهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْكُمْ؛ لِيَمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلِيَبْتَلِيَ مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيَمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ... ففرض عليكم الحجَّ والعمرة،

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والولاية، وكفاهم لكم باباً، لتفتحوا أبواب الفرائض، ومفتاحاً إلى سبيله، ولولا محمد عليه السلام والأوصياء من بعده، لكنتم حيارى كالبهائم، لا تعرفون فرضاً من الفرائض، وهل يدخل قرية إلا من بابها؟ فلما منّ عليكم بإمامة الأولياء بعد نبيّه، قال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه السلام: ﴿أَيُّومَ أَكَمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١). وفرض عليكم لأوليائه حقوقاً أمركم بأدائها إليهم، ليحلّ لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم وماكلكم ومشاربكم....».

بالإضافة إلى النعمة التي منّ الله تعالى بها على عباده بوجود الحجّة على خلقه، هي نعمة فرض الفرائض، وذلك ليس لحاجته سبحانه وتعالى إليها، وإنّما فرضها بالإضافة إلى وجود الحجّة؛ لكي يميّز الخبيث من الطيّب، فمن يهتدي بوجود الحجّة فهو الطيّب، ومن لم يهتد فهو الخبيث، ومن التزم بما فرضه الله تعالى من الأحكام والسنن فهو الطيّب أيضاً، ومن لم يلتزم فهو الخبيث.

إذا سنّة الابتلاء بالحجّة والفرائض هي سنة امتحان الناس وتمييزهم؛ ليعرف الطيّب منهم وليعرف الخبيث.

لذا يُشير الإمام عليه السلام إلى الحقوق المائيّة والواجبات التي فرضها الله تعالى، وأوجب الالتزام بها وبإدائها، وذلك من أجل تحقيق أغراض وأهداف اجتماعيّة تكفل للمجتمع الاتحاد والعيش الرغيد، فإذا التزم المكلف بأداء الحقوق الشرعيّة وما فرضه الله تعالى عليه تجاه الله عزّ وجلّ، وتجاه الآخرين من أبناء جنسه، تتوفّر

حالة التوازن والتكافل الاجتماعي؛ إذ يكفل المجتمع بعضه بعضاً، الأمر الذي يجعل لهذا التكافل آثاراً اجتماعية واقتصادية تصبّ لصالح المجتمع المسلم، فينعم الفقير واليتيم وغيرهما من المعوزين من أبناء المجتمع برزقه، حتى تنقرض حالة الفاقة في المجتمع.

إنّ من جملة الآثار الإيجابية للالتزام بالفرائض وأدائها حصول حالة من التوازن وقوّة الأواصر والتماسك بين أبناء المجتمع، الأمر الذي يؤدّي بالنتيجة الإيجابية في كافّة المجالات والمستويات الاجتماعية، فتحصل حالة الإعمار والنموّ الفكري والديني والعقائدي.

لقد تكفل مذهب أهل البيت عليه السلام الحفاظ على تطبيق هذه الأحكام والفرائض التي هي سبب من أسباب نشوء وبروز الحالات الإيجابية المحبّبة في المجتمع الإسلامي، وقد حفظت المرجعية الدينية هذا المذهب في عصر الغيبة، وذلك من خلال بثّها للأحكام الإلهية وإصدارها الفتاوى الشرعية التي يجب على المكلفين الموالين لأهل البيت عليه السلام تطبيقها وأداؤها؛ لكي تحصل من خلال فعلها النتيجة المطلوبة.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً للمسير على نهج آل البيت عليه السلام، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الرابعة والسبعون أهداف إحياء شعيرة عاشوراء

بتاريخ: ١٨ / ١ / ٢٠٠٨ م

﴿ من أهداف الملحمة الحسينية

ﷺ الأمر الأول: الانشداد إلى مبادئ وقيم مذهب أهل البيت ﷺ

ﷺ الأمر الثاني: خلوص النية لله تعالى

ﷺ الأمر الثالث: إبراز قيم الثورة

ﷺ الأمر الرابع: الشعور بالمسؤولية

ﷺ الأمر الخامس: وحدة الأمة

ﷺ الأمر السادس: الصلاة أول وقتها

ﷺ الأمر السابع: جهاد النفس

ﷺ الأمر الثامن: حسن المعاشرة

مقدمة الخطبة^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لحمده، ووفقنا لمواصلة طريق الأنبياء والمرسلين، وبصرنا معالم الهداية بأن جعل لنا أئمةً فدوا أنفسهم قرايين على طريق الحق. والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين. السلام على شهيد الشهداء، السلام على من بكته ملائكة السماء، السلام على المغسل بدم الجراح، السلام على الشيب الخضيب، السلام على الحسين، وعلى علي بن الحسين، وعلى أولاد الحسين، وعلى أصحاب الحسين عليهم السلام. أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأمارة بالسوء - بتقوى الله تعالى، والبصيرة في أمور دينكم ودنياكم، وانتهاج طريق الحق والدفاع عنه.

من أهداف الملحمة الحسينية

نعيش هذه الأيام ذكرى ملحمة الشهادة والفداء والتضحية، ذكرى استشهاد الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام وأولاده وصحبه الكرام، ذكرى أيام عاشوراء الحسين عليه السلام، ونحن نعيش ذكرى هذه الأيام أودّ أن أبين بعض التوصيات والتوجيهات التي تحمل مضامين ليست موجهة لشيعه أهل البيت عليهم السلام فقط، وإنما لجميع الأحرار والمستضعفين والمظلومين، والذين يريدون عيشة حياة العزّ والحرية والكرامة وإن كان شيعه أهل البيت عليهم السلام معنيين أكثر من غيرهم في تطبيق هذه

(١) صادف أن وقعت هذه الخطبة المباركة في التاسع من شهر محرم الحرام لعام ١٤٢٩ هـ.

التوصيات والتوجيهات؛ وذلك حفاظاً على مبادئ الثورة الحسينية والنهج الحسيني.

فهل يمكننا أن نخطّ لأنفسنا طريق الحسين عليه السلام ونسير فيه ونحن لم نرافق الإمام الحسين عليه السلام في رحلة الشهادة والتضحية؟ كيف يمكننا أن نكون حسيين حقاً؟ وكيف يمكننا أن نكون صادقين في محبتنا وولائنا للحسين عليه السلام، وفي أدائنا للشعائر الحسينية؟

يمكن لنا ذلك من خلال التزامنا بالتوجيهات والإرشادات التي تضمّنتها ملحمة عاشوراء، والتي أشار إليها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وآل بيته الأطهار عليهم السلام.

إنّ النقطة المهمة في إحياء المراسم والشعائر الحسينية هي إدراك ووعي ما تحمله هذه الشعائر من أهداف نبيلة سامية أراد الأئمة عليهم السلام تحقيقها في صفوف المجتمع الشيعي، بالإضافة إلى مواساتهم أهل البيت عليهم السلام في أحزانهم ومصائبهم وفجائعهم، لذلك عمدوا عليهم السلام إلى ذكر التوصيات والتوجيهات من خلال بثّ الأحاديث الشريفة في هذه المضامين.

ويمكن لنا تمثيل ذلك بشهر رمضان المبارك، فكما أنّه يُعتبر شهر التغذية الروحية، وجهاد النفس الذي لا بدّ للإنسان فيه من أن يجعل لنفسه محطّتين يقف عندهما يُحاسب نفسه فيهما؛ محطة أولى في بداية شهر رمضان الذي يبتدأ منها الرحلة الروحية في رحاب ضيافة الله تعالى، بمعاهدة نفسه على الالتزام بما يفرضه عليه هذا الشهر الكريم من فرائض إلهية. ومحطة ثانية تكون نهاية ذلك الشهر الكريم، يُحاسب الإنسان الصائم فيها نفسه بأنّه استطاع أن يخطو ويتقدّم في طريق الإيمان والهداية وجهاد النفس، أم أنّه قد أخفق بالمضامين التربوية والأخلاقية التي تطهّر نفسه في شهر رمضان المبارك.

كذلك هي الحال في شهر محرّم الحرام، شهر الشعائر الحسينيّة، وموسم التضحية والشهادة والدم؛ إذ لا بدّ من معاهدة النفس في بداية هذا الشهر على الالتزام بالقيم والمبادئ التي أرادها أهل البيت عليهم السلام والإمام الحسين عليه السلام في ثورته ضدّ الظلم والطغيان وكذلك في آخر أيام إحياء هذه الشعائر، بأن نحاسب أنفسنا فيها، بعد أن كنّا قد راقبناها خلال هذه الفترة، فهل ما حصل منّا كان التزاماً وتطبيقاً لما تحمله تلك الشعائر من مضامين وأهداف نبيلة مستوحاة من الثورة الحسينيّة، أم إننا لم نتقدّم خطوةً في تحقيق وتطبيق تلك الأهداف؟ وفي المقام نذكر شيئاً من تلك المضامين والأهداف السامية التي تحملها الشعائر الحسينيّة، وذلك في مجموعة أمور:

الأمر الأول: الانشداد إلى مبادئ مذهب أهل البيت عليهم السلام

إنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام وتضحيته بنفسه وأولاده وأصحابه لم يكن إلّا من أجل المبادئ الإصلاحية التي أعلنها في ثورته، والتي أراد من خلالها أن يُحيي الإسلام؛ لا أنّ خروجه كان لأجل أن يُقتل هو ومن معه فحسب، وإنما بذل نفسه وضحّى بعياله وأهل بيته من أجل بلوغ الغاية والهدف.

ومن أجل هذا كان لزاماً علينا نحن أتباع الإمام الحسين عليه السلام أن يتطابق أداؤنا للشعائر الحسينية، وإقامة المجالس والمواكب الحسينيّة، مع تلك المضامين السامية وارتباطها بها، المضامين التي أعلنها الإمام الحسين عليه السلام في ثورته، وهي دعوة الإصلاح والالتزام بمبادئ الدين الحنيف، ففي الوقت الذي نُحيي فيه مراسم عاشوراء، يكون من الواجب علينا أن نحافظ على ما يخدم المجتمع الإسلامي في كافّة مرافق الحياة، في الأسواق والمراكز العامّة والدوائر الحكوميّة والمدارس

والجامعات والمرافئ الحيويّة، بإقامة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا وُجدَ معروف لا يُعمل به يؤمّر بالعمل به حتى يتحقّق، وإذا رُوي المنكر لا يُنهي عنه نُهي عنه حتى يُترك.

ويدخل تحت هذا الجانب الكثير من الأمور الخدميّة والإسلاميّة والاجتماعيّة التي يجب مراعاتها تزامناً مع مراعاة إقامة المراسم الحسينيّة، وذلك لكي تُحقّق الأهداف والغايات التي خرج الإمام الحسين عليه السلام من أجلها، فإذا كانت معالم الدين ليست ظاهرة في الوسط الإسلامي الذي نحن فيه، فنسعى من أجل إحياء هذه المعالم وإظهارها. وإذا كان الحقّ متروكاً لا يُدافع عنه ولا يُنتصر له، نسعى لنصرته وخذلان الباطل؛ لكيلا يستشري في مجتمعنا. وكذلك الحال في الفساد؛ فإنّه يجب الوقوف بوجه المفسد وإيقافه؛ لكيلا يعبث في الأرض فساداً.

والأمر المهمّ كذلك هو إقامة حدود الله وفرائضه، فيجب الأمر بإقامة الفرائض وتأديتها في أوقاتها، وكذلك تمكين تطبيق حدود الله في أرضه.

ومن جملة الأمثلة في هذا الأمر هو ما نُشاهده في جامعاتنا اليوم؛ فإنّ في الوقت الذي يُمارس فيه الأساتذة والطلّاب إقامة وأداء المراسم، وإظهار الحزن بمصاب أهل البيت عليهم السلام، عليهم في الوقت نفسه أن يحافظوا على مبادئ النهضة الحسينيّة التي يحيون مراسمها وقيمون شعائرها، وذلك بممارستهم مهمّتهم ووظيفتهم أوّلاً بكونهم أساتذة وطلّاباً يُدرسون ويدرسون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثانياً؛ فإنّ في ذلك دعوة إلى الإصلاح والالتزام بمبادئ الدين الحنيف.

إذاً لا بدّ أن تكون المبادئ التي خرج من أجلها الإمام الحسين عليه السلام وفجر ثورته العظيمة، وسفك في سبيل إحيائها دمه وضخّى بأهل بيته وأصحابه حيّة في المجتمع، تتجدّد وتكرّر كلّ يوم؛ لكي تكون مصداقاً من مصاديق ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فكما نُحيي ذكره ونهضته يتحقّق إحياء مبادئه وغاياته.

الأمر الثاني: خلوص النية لله تعالى

إنَّ كلّ حركة قام بها الإمام الحسين عليه السلام، وكلّ خطوة خطاها في طريق الثورة، كان قاصداً منها وجه الله تعالى، فكانت ثورته - بما تحمل من مبادئ وقيم أخلاقية وغيرها - خالصةً لله تعالى. وهذا الأمر يجب أن يراعى من قبل أتباعه عليهم السلام الذين يُقيمون المجالس ويُحيون ذكراه بالتزامن مع أداء الشعائر؛ فإنّه في كلّ فعل أو حركة يقول بها مؤدّو هذه الشعائر يجب أن تكون النية فيها وجه الله تعالى.

إنَّ إظهار التفجّع وتعظيم المصاب لسيد الشهداء عليه السلام يجب أن يكون بعيداً عن التفاخر والتباهي والتسابق، الذي يستلزم الخلاف في نهاية الأمر، فلتكن إقامتنا للمواكب ومجالس العزاء خالصةً لله تعالى، يُراد منها تحقيق الأهداف النبيلة والأغراض السامية التي قصدها صاحب المصاب الإمام الحسين عليه السلام سيد الثورة. أمّا إذا خرجت عن هذا الإطار - لا سمح الله - فتكون من عمل الشيطان، الذي هو عدوّ الإنسان والإنسانية؛ فإنّ الشيطان يُلقي في نفس المؤمن حبّ التباهي والظهور والتفاخر؛ بإبراز نفسه من خلال إقامته لهذا المجلس الكبير، أو من خلال إنشائه لهذا الموكب الكبير، فيُخرج بذلك نيّته عن حدود الإخلاص لله في هذا العمل.

الأمر الثالث: إبراز قيم الثورة

إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام تحمل من القيم الشيء الكثير في كافة المجالات، ففيها القيم الفكرية والأخلاقية والعقائدية والعاطفية وغيرها، وإنّما تبرز هذه القيم وتظهر للناس من خلال شهر محرّم الحرام الذي تُقام فيه المجالس والمآتم التي تُذكر فيها نهضة الإمام الحسين عليه السلام وما تحويها من مفاهيم، وكلّ ذلك من أجل شدّ الناس

وجذبهم لمذهب أهل البيت عليه السلام ونهجهم القويم. فلا بدّ من إبراز تلك القيم والمفاهيم السامية، وعرض تلك الحوادث والوقائع التي حصلت في معركة الطفّ، ليكشف من خلال ذلك سمو الخلق وعلوّ الهمم، وتبرز كلّ مكارم الأخلاق التي جسّدتها المعركة.

إنّ معركة الطفّ التاريخية هي مدرسة كبيرة علّمت الأجيال مجموعة فنون وعلوم تربويّة، وهي تراث ضخم ليس لشيعّة أهل البيت عليه السلام فقط، وإنّما لجميع المسلمين والأحرار والمظلومين وطالبي الحرّيّة والمستضعفين، فلكي تكون هذه الثورة مثلاً يقتدي به الجميع، لا بدّ من إبرازها وإظهارها للناس بالشأن الذي يليق بها.

الأمر الرابع: الشعور بالمسؤوليّة

إنّ تحرّك الإمام الحسين عليه السلام وخروجه بأولاده وأصحابه وأهل بيته، إنّما كان انطلاقاً من الشعور بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقه تجاه الدين والوطن والشعب، لذا لا بدّ أن يكون موسم عاشوراء محفّزاً للمؤمنين في كافّة الأوطان والشعوب الإسلاميّة للشعور بالمسؤوليّة تجاه أوطانهم وشعوبهم، وأن يملؤوا المساحات الفارغة في كافّة الميادين، سواء في الميدان السياسي، أم الإعلامي، أم الثقافي، أم التربوي، أم الاقتصادي، أم الجهادي، أم الاجتماعي، أم غيرها، وألا يتركوا هذه المساحات خاليةً يتربّص بها غير المؤمنين ليملؤها ويفرضوا سيطرتهم عليها، فلا ندع فرصةً للأعداء أن يظهروا علينا ويسلبونا حقوقنا مرّة أخرى، وإنّما لا بدّ لنا من السعي وبذل الجهد وتفعيل جميع الطاقات من أجل الحفاظ على حقوقنا، وإرجاع حقوق كلّ المظلومين والمستضعفين والمضطهدين في البلدان الإسلاميّة، كما أراد الإمام الحسين عليه السلام ذلك في ثورته.

الأمر الخامس: وحدة الأمة

إنّ منهج أهل البيت عليه السلام جميعاً هو حفظ وحدة الأمة الإسلامية، فقد تعامل أئمة أهل البيت عليهم السلام مع جميع أبناء الأمة بمستوى واحد حتى مع مَنْ خالفهم، غرضهم من ذلك هو الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، لذا يجب أن يكون واحد من أهداف إقامتنا لهذه المراسم وإحيائنا لهذه الشعائر هو حفظ الوحدة بين المسلمين، وتوحيد كلمتهم وتماسك صفوفهم، وهذا إنّما يحصل بالابتعاد عن كلّ ما يُثير الأحقاد والضغائن، وبذو الخطابات التحريضية والطائفية.

إنّ هذا الكلام ليس موجّهاً لأبناء الطائفة الشيعية فقط، وإنّما هو يشمل كلّ أبناء الأمة الإسلامية بجمع طوائفها، إذ يجب على جميع المسلمين التعامل بروح الوحدة وتصفية القلوب من شوائب الطائفية والفرقة؛ كي لا تنكسر شوكة المسلمين أمام أعدائهم، وتبقى لهم هيبتهم وعزّتهم ومنعتهم.

الأمر السادس: الصلاة أوّل الوقت

وقعة الطفّ مدرسة التاريخ والأجيال؛ إذ المتأمل في أحداث ووقائع يوم عاشوراء وملحمة الطفّ يراها دروساً في فنون شتى، ومن جملة ما فيها الحفاظ على الصلاة في أوّل وقتها؛ فإنّه مع شدّة ضراوة حربها واصطكاك الأسلّة والسيوف، والتحام القتال والانشغال بأجواء المعركة، تُقام فيها الصلاة جماعةً في معسكر الحقّ بإمامة الإمام الحسين عليه السلام، وذلك عندما اقترب وقت الزوال خاطب أبو ثمامة الصائدي^(١) الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: «نفسى لك الفداء، إيّ أرى أنّ هؤلاء قد

(١) أبو ثمامة الصائدي أو الصيدأوي: اسمه عمر بن عبد الله، تابعي من فرسان العرب ووجه الشيعة، كان من وجهاء الكوفة، ورجلاً عارفاً شجاعاً، كان هو الذي يقبض الأموال أيام مسلم

اقتربوا منك، لا والله، لا تُقتل حتى أُقتل دونك، وأحب أن ألقى الله ربّي وقد صليت هذه الصلاة. فرفع الإمام الحسين عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين^(١).

وفي هذه الأيام - بل في كلّ يوم - ونحن نؤدّي هذه المراسم يتحمّ علينا أن نجعل سيرة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حيّة في واقعنا اليومي، فأينما كنّا - في المسجد، أو الموكب، أو الدائرة الحكوميّة، أو الجامعة، أو المدرسة - وحن وقت الصلاة علينا التوجّه إلى الله تعالى بأدائها دون الانشغال بأمور أخرى تُنسينا ذكر الله تعالى والابتعاد عن الصلاة في أوّل وقتها.

الصلاة عمود الدين، وهي من المبادئ المهمّة التي ثار الإمام الحسين عليه السلام من أجلها ومن أجل غيرها من الفرائض، لذا من الواجب الاهتمام بها وأداؤها، ولا سيّما الصلاة جماعة؛ إذ الكثير من الناس لا يحضرون صلاة الجماعة؛ لانشغالهم بالتنقّل في الأسواق أو غير ذلك من أمور الدنيا، مع أن المساجد والأماكن التي تُقام فيها الصلاة قريبة منهم. فإذا كنّا ندّعي الولاء لأهل البيت عليهم السلام ولإمام الحسين عليه السلام فلماذا لا نُظهر ذلك الولاء والافتداء بحضورنا لأداء الصلاة التي ضحّى الحسين عليه السلام من أجلها؟ وليكن حضوراً فاعلاً ومتميّزاً يكشف عن صدق ولائنا وانتمائنا لأهل البيت عليهم السلام.



بن عقيل في الكوفة ويشترى السلاح، عقد له مسلم على ريع تميم وهمدان حين بدأ تحرّكه القصير الأجل ضدّ عبيد الله بن زياد في الكوفة. القمي، عباس، الكنى والألقاب: ج ١، ص ٣٤. شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين: ص ١٠٤.

(١) الأمين العاملي، محسن، لواعج الأشجان: ص ١٥٥. وابن الأثير، عليّ بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٤، ص ٧٠.

إِنَّ مِمَّا يُذْهِلُ الْعُقُولَ فِي وَقْعَةِ الطِّفِّ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الدَّامِيَةِ؛ حَيْثُ تَسَاقُطُ النِّبَالُ كَالْمَطَرِ عَلَى مَعْسُكَرِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَادِمَةً مِنْ مَعْسُكَرِ الشَّرِّ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ، مَوْقِفٌ لَزْهِيرِ بْنِ لَقِينٍ^(١)، وَسَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَنْفِيِّ^(٢)، وَقَفَا فِيهِ يَدْفَعَانِ

(١) زهير بن القين البجلي: شخصيّة بارزة في المجتمع الكوفي، ويبدو أنّه كان كبير السنّ، ينقل بعض المؤرخين أنّه كان عثمانيّاً وأصبح بعد الاجتماع بالإمام الحسين علويّاً حسيّنيّاً؛ إذ انضمّ إلى الحسين عليه السلام في الطريق من مكّة إلى العراق بعد أن كان كارهاً للقائه. جعله الحسين عليه السلام على ميمنة أصحابه، وخطب في جيش ابن زياد قبيل المعركة.

وقال ابن شهر آشوب: جعله الحسين عليه السلام يوم الطّفّ على الميمنة، وحبيب بن مظاهر على الميسرة، وأعطى رايته العباس بن علي عليه السلام... ثم برز زهير بن القين فقتل مئةً وعشرين رجلاً. وقال المجلسي: وقد سلّم عليه في الزيارة الرجبية، وكذلك في الزيارة التي خرجت من الناحية المقدّسة، وفيها: السلام على زهير بن القين البجلي القائل للحسين عليه السلام وقد أذن له في الانصراف: لا والله، لا يكون ذلك أبداً، أترك ابن رسول الله ﷺ أسيراً في يد الأعداء وأنجو أنا؟! لا أراي الله ذلك اليوم.

أنظر: شمس الدين، محمّد مهدي، أنصار الحسين: ص ٨٨. العسكري، مرتضى، معالم المدرستين: ج ٣، ص ٣١٩. الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ج ٨، ص ٣٠٦.

(٢) سعيد بن عبد الله الحنفي: من أفاضل شهداء الطّفّ، وهو الذي جعل نفسه وقايةً لمولانا الحسين صلوات الله عليه يوم عاشوراء حين الصلاة رضوان الله تعالى عليه.

وذكر أنّه لما كان يوم عاشوراء قال الحسين عليه السلام لزهير بن القين وسعيد بن عبد الله الحنفي: «تقدما أمامي حتى أصلي الظهر». فتقدما أمامه في نحو من نصف أصحابه حتى صلى بهم صلاة الخوف. وروي أنّ سعيد بن عبد الله الحنفي تقدّم أمام الحسين عليه السلام فاستهدف لهم يرمونه بالنبل، كلّما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً قام بين يديه، فما زال يرمي به حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: «اللهم

عن الإمام الحسين عليه السلام وهو يصلي، حتى أن سعيد بن عبد الله تقدم أمام الحسين عليه السلام يقيه بنفسه حتى أثنى بالجراح وسقط على الأرض.

وموقف آخر لعمر بن قرظة الأنصاري^(١) عندما خاطب إمامه بخطاب فيه



العنهم لعن عاد وثمود، اللهم أبلغ نبيك عني السلام، وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح، فإني أردت بذلك نصرة ذرية نبيك. ثم مات رضي الله عنه، فوجد به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح.

أنظر: الأمين العاملي، محسن، أعيان الشيعة: ج ٧، ص ٢٤١. النازي الشاهرودي، علي، مستدركات علم رجال الحديث: ج ٤، ص ٦٨.

وفي (المزار) للمشهدي: (السلام على سعيد بن عبد الله الحنفي القائل للحسين وقد أذن له في الانصراف: لا والله، لا نخليك حتى يعلم الله أننا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك. والله، لو أعلم أنني أقتل ثم أحرق ثم أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي موتة أو قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً. فقد لقيت حمامك وواسيت إمامك، ولقيت من الله الكرامة في دار المقامة، حشرنا الله معكم في المستشهدين، وورقنا مرافقتكم في أعلى عليين). المشهدي، محمد جعفر، المزار: ص ٤٩٢، زيارة الشهداء رضوان الله عليهم في يوم عاشوراء.

(١) عمرو بن قرظة الأنصاري: هو عمرو بن كعب بن عمرو بن عائذ بن زيد مناة بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي الكوفي... أما عمرو فجاء إلى أبي عبد الله الحسين عليه السلام أيام المهادنة في نزوله بربلاء قبل المانعة، وكان الحسين عليه السلام يرسله إلى عمر بن سعد في المحاورة التي دارت بينهما قبل إرسال شمر بن ذي الجوشن، فيأتيه الجواب حتى كان القطع بينهما بوصول شمر. السماوي، مهدي، إحصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ص ١٥٥.

وفي (اللهوف) لابن طاووس: فخرج عمرو بن قرظة الأنصاري فاستأذن الحسين عليه السلام فأذن له،



الشعور بالتقصير في نصرته، مع أنّه ضحّى بنفسه من أجله قائلاً: يا بن رسول الله، أوفيت؟

وهنا نسأل أنفسنا: ماذا قدّمنا للإمام الحسين عليه السلام ولمبادئه التي ثار من أجلها؛ هل ضحّينا بأنفسنا وبأرواحنا كأصحابه يوم الطفّ؟ أليس حري بنا أن يوبّخ أحدنا نفسه معاتباً لها؛ لتقصيرها مع إمامها الحسين؟ هل ما قدّمناه للإمام الحسين عليه السلام يعادل ما قدّمه الحنفي المضحّي أمامه وهو يقيه بنفسه؟ هل إحيائنا لعاشوراء يُعتبر وفاءً منا للحسين عليه السلام على الرغم من أنّ أحد أصحابه يسقط شهيداً أمامه سائلاً عن وفائه له؟

الأمر السابع: جهاد النفس

جهاد النفس هو الجهاد الأكبر، وجهاد العدو هو الجهاد الأصغر، والجهاد الأكبر من جملة الصفات الأخلاقية التي أكّد عليها أهل البيت عليهم السلام، ومعناها تطهير النفس والقلب من مذام الصفات ورذائلها، والتحليّ بمكارم الأخلاق، ولهذا كان جهاد النفس مقدّماً على جهاد العدو بالسلاح؛ لأنّ الأهداف التي تنشدها الشريعة الإسلامية لا تتحقّق إلّا إذا كان المجاهدون قد طهّروا أنفسهم وتحلّوا بصفات



فقاتل قتال المشتاقين إلى الجزاء، وبالغ في خدمة سلطان السماء، حتى قُتل جمعاً كثيراً من حزب ابن زياد، وجمع بين سداد وجهاد، وكان لا يأتي الحسين عليه السلام سهم إلّا اتّقاه بيده، ولا سيف إلّا تلقّاه بمهجته، فلم يكن يصل إلى الحسين عليه السلام سوء، حتى أُثنخ بالجراح، فالتفت إلى الحسين عليه السلام وقال: يا بن رسول الله، أوفيت؟ فقال: «نعم، أنت أمامي في الجنة، فأقِرّ رسول الله عنّي السلام، وأعلمه أنّي في الأثر»، فقاتل حتى قُتل رضوان الله عليه. ابن طاووس، عليّ بن موسى، اللهوف في قتل الطفوف: ص ٦٤.

الفضيلة والخلق العظيم، ولذا خاطب النبي ﷺ أصحابه عند رجوعهم من إحدى الغزوات الجهادية بأنكم قد قضيتم الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر^(١). من هنا كان معسكر الإمام الحسين عليه السلام يضم مجموعة من المجاهدين قد جاهدوا الجهاد الأكبر، فكانت نفوسهم وأرواحهم وقلوبهم نقيّة طاهرة لا يعرفون سوى مكارم الأخلاق، خالية من الرذيلة، حتى توشّحوا بوشاح الشهادة بين يدي الإمام عليه السلام.

فيتحتم علينا نحن الذين نحيي ذكرى شهادتهم بإقامة المآتم وإحياء الشعائر، أن نتخلّق بأخلاقهم؛ لنكون من المجاهدين حقاً.

الأمر الثامن: حسن المعاشرة

إنّ واحداً من الأسباب المؤدية إلى تأخر الشعوب وتخلّفها هو عدم احترام النظام وتطبيق القانون اللذين يكفلان للفرد المعيشة الحرّة، وهذا المبدأ يشترك فيه جميع أبناء الشعب وإن اختلفت مذاهبهم وقومياتهم وأفكارهم؛ لأنّهم جميعاً يشتركون في الوطن وفي الإنسانية، فأبناء الوطن إمّا أن يشتركوا مع بعضهم في المذهب، فهم إخوان فيه، وإمّا أن يشتركوا معاً في القومية فهم إخوان فيها، وإمّا أن يشتركوا معاً في الوطن.

لذا جاء التأكيد على مبدأ حُسن المعاشرة بين أبناء الوطن الواحد، وهو تعبير

(١) عن موسى بن جعفر، عن آبائه عليه السلام، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ بعث سريّة، فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. ثم قال ﷺ: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه». المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٦٥. وأنظر: الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، ج ١٥، ص ٦٢، الحديث ١٤٧٠٦.

آخر عن الاحترام للحقوق والأعراض. يقول الإمام الصادق عليه السلام مؤكداً على هذا الأمر في حديث له: «... ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عزّ وجلّ رحماء بينكم. متراحمين مغتَمِّين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله»^(١).

وفي المقام نغتنم هذه الفرصة لكي يُطلق من هذا المكان توصيةٌ للإخوة المغتربين، الذين يعيشون في بلاد الغرب، بعيدين عن أوطانهم وأهليهم، سواء كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام، أم من غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، نقول لهم: أنتم رسل الإسلام إلى تلك الديار، أنتم رسل أهل البيت عليهم السلام - إذا كانوا من أتباعهم - إلى تلك الديار، فلا تقصّروا بالالتزام بالقيم والمبادئ السامية التي كان أهل البيت عليهم السلام يؤكّدون عليها.

إنّ أيام المحرم هي مناسبة مهمّة لنشر هذه القيم والمبادئ في أرجاء المعمورة؛ لأنّ المآثم ومجالس العزاء تُقام في أقصى بقاع الأرض؛ فإنّ المؤمنين من أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام المنتشرين في جميع البلدان الإسلامية وغيرها يعيشون هذه الفجعة في هذه الأيام، وبالتالي على هؤلاء المؤمنين أن ينظروا في سلوكهم وتعاملهم؛ إذ يتوجّب عليهم أن يعكسوا الصورة الناصعة للإسلام والأخلاق الإسلامية الرفيعة حتى مع مواطني تلك البلاد وإن كانوا مخالفين في العقيدة والمذهب، أو لا يدينون بدين، أن يتعاملوا معهم بحسن المعاشرة واحترام القوانين والنظم.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٧٤، ح ١٥.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا للسير على نهج أبي عبد الله عليه السلام، وأن يختم لنا
بالشهادة والتضحية في سبيل مبادئ الإسلام ونهضته، وأن يكون أهل البيت عليهم السلام
شفعاءً لنا، إنه سميع مجيب.
والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الخامسة والسبعون
دعوى المهديّة المزيّفة في عصر الغيبة

بتاريخ: ١ / ٢ / ٢٠٠٨ م

﴿ امتحان الأمة بدعوى المهديّة المزيّفة

﴿ إرشادات وتوجيهات أهل البيت عليهم السلام

﴿ الأمر الأوّل: المعرفة الحقيقيّة بشخصيّة الإمام المنتظر

﴿ الأمر الثاني: الاطمئنان من عواقب الأمور

﴿ الأمر الثالث: الاتّعاظ بالدعوى الباطلة على مرّ التاريخ

﴿ الأمر الرابع: الابتعاد عن ظاهرة التوقيت

﴿ الأمر الخامس: معنى الانتظار الحقيقي

﴿ الأمر السادس: المرجعيّة الدينيّة الحقيقيّة

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي ختم لنا بالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبعلي وأولاده المعصومين أوصياء من بعده، وهدانا للتمسك بولايتهم. ثم جعل لنا إماماً حفظه بالغيبة، يُضيء لنا الظلمات في بحار الفتن والشبهات، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت جوراً وظلماً.

والصلاة والسلام على مَنْ بُعث رحمةً للعالمين أبي القاسم محمد ﷺ، وعلى آله مصابيح الدجى وينايع الحكمة الطيبين الطاهرين. أوصيكم - إخواني وأخواتي ونفسي المليئة بالغفلة والسهو - بتقوى الله تعالى، والبصيرة في أمور دينكم، والتمسك بما انتهجه لنا صاحب العصر والزمان عليه السلام في هذا الزمن المليء بالفتن والشبهات والدعاوى الباطلة.

امتحان الأمة بدعاوى المهدوية المزيفة

شاءت حكمة الله تعالى أن يجعل اختبارنا في هذا العصر - والعصور التي سبقت - بإمام غائب عن الأبصار، حاضر في البصائر لمن طلب الهدى والحق، وزهد في حطام الدنيا. ثم اشتدّ هذا الامتحان حينما طال أمد غيبة الإمام عليه السلام، وطال الانتظار على محبيه ومنتظري ظهوره الشريف. ثم اشتدّ أكثر حينما كثرت الدعاوى الباطلة والتيارات الفكرية المنحرفة التي تدّعي المهدوية.

ثم اشتدّ أكثر حتى بلغ مبلغاً كثرت فيه المجازر البشعة، واستمرت فيه المصائب والفجائع على أتباع أهل البيت عليهم السلام؛ نتيجة هذه الهجمة الشرسة من القوى التكفيرية المجرمة.

إنّ هذه الدعاوى الباطلة والشبهات إنّما كثرت في هذا الوقت؛ لإدراك أصحاب هذه الأفكار المنحرفة بأنّ العقيدة المهدويّة هي عقيدة مقدّسة في جوهرها ولبّها، وأنّ من يحمل هذه العقيدة والفكرة من الشيعة يعيش حالة العشق واللهفة والأمل للخلاص ممّا يمرّ به من ظلم ومصائب وفساد وانحراف وحرمان، بظهور الرجل المصلح صاحب العصر والزمان عليه السلام، لذا أصبحت النفوس تواقّة لظهوره عليه السلام، وهذا هو السبب الأساسي في بروز وتكثّر مثل هذه الصيحات الباطلة والدعاوى المنحرفة المزيّفة لكسب ودّ عشاق الفكرة المهدويّة وخداعهم؛ للانضمام إلى صفوفهم. وهذا بحدّ ذاته من عظيم الفتن والابتلاءات في هذا الزمان.

من هنا نتساءل: كيف لنا أن نُحصّن أنفسنا من هذه الدعاوى الباطلة كي لا ننزلق في مزالق هذه الشبهات التي تؤدّي إلى الهلاك والخسران؟ وكيف نحمي مذهبنا وديننا ووطننا من شرور هذه الدعاوى التي بدأت بعض القوى المعادية للشعب العراقي خاصّةً، ولمذهب أهل البيت عليهم السلام عموماً تستخدمها لأغراض سياسيّة؟

إنّ النبي صلّى الله عليه وآله وآل بيته الأطهار يعلمون بأنّ البلاء سيشتدّ على محبّي أهل البيت عليهم السلام، وأنّ من جملته هذه الدعاوى الضالّة التي تُسبّب لهم ابتلاءات ومصائب وفجائع؛ وذلك بسبب تكالب الأعداء عليهم؛ لذا بيّنوا لنا من خلال التوجيهات والإرشادات ما لو تمسّكنا بها لأمكن لنا الوصول إلى طريق الهداية والنجاة، وتحصيل رضا الله تعالى والنبيّ الأعظم والأئمة الأطهار.

فلكي نُجيب عن التساؤل المطروح أعلاه، والذي مضمونه كيفيّة الخلاص والتحصّن من هذه المنزلقات والشبهات التي تعصف بنا في هذا الزمان، لا بدّ من بيان تلك التوجيهات والإرشادات التي ذكرها لنا أهل البيت عليهم السلام.

هنا أمران مهمّان، وهما:

الأمر الأول: حصانة أبناء المجتمع جميعاً عقائدياً وسياسياً؛ لكيلا يندعوا بزيف هذه الدعاوى الباطلة المدعومة دعماً سياسياً، وغرضها القضاء على البلد والمجتمع الإسلامي.

الأمر الثاني: حماية المذهب الشيعي من الخطر المحدق به، الذي تشكّله هذه الدعاوى الباطلة، والتي استطاعت أن تُستغل من أطراف متعدّدة لأغراض سياسية راح ضحيتها - وسوف يروح أيضاً - الكثير من المواطنين الأبرياء، ورجال وشخصيات إسلامية وسياسية مهمة.

لذا نعرض جملةً من تلك الإرشادات في المقام، ونناشد جميع الإخوة المؤمنين وجميع الجهات التي يمكن أن يكون لها دور في تفعيل هذه الإرشادات، أن تعمل بها بشكل جادّ، وتأخذ حيّزها عندهم من التطبيق العملي من أجل النجاة بالنفوس والمذهب.

إرشادات وتوجيهات أهل البيت (عليهم السلام)

الأمر الأول: المعرفة الحقيقية بشخصية الإمام المنتظر (عليه السلام)

إنّ واحداً من التوجيهات المهمة التي نأخذها عن أهل البيت (عليهم السلام) في محاربة هذه الفتن الحديثة، والتي تُريد أن تحتاح العالم الإسلامي اليوم بدعاويها الباطلة في مسألة المهدوية، هو المعرفة الواعية والحقيقية بشخصية الإمام المهدي المنتظر (عليه السلام)، وكذلك ملامح عصر ظهوره، وشروط الظهور، وما يتعلّق بذلك من جزئيات وتفاصيل تُحيط بذلك الحدث المهمّ المرتقب.

إنّ من جملة الأمور التي لا ينكرها أحد، هو الاتفاق على أنّ هناك منقذاً ومخلصاً ورجلاً منتظراً يخرج آخر الزمان، فإنّ هذا الأمر شائع ويقرّه الجميع، لكنّ

الاختلاف في هذه المسألة يكمن في تفاصيلها. من هنا كان الاطلاع الإجمالي - على الأقل - ضرورة لأبناء الأمة الإسلامية لمعرفة شخصية الإمام المنتظر عليه السلام بجميع أبعادها وما يُحيطها من تفاصيل كثيرة تخصّ الظهور والأحداث التي تسبقه وكيفيته.

وهذا الأمر يتوقّف على أخذ هذه المعرفة وتلك التفاصيل من مصادرها الموثوقة المعروفة المختصة، إذ قد جرت سيرة العقلاء على أنّ الإنسان إذا أراد أن يتوصّل إلى الحقيقة الصادقة - وليست المبنية على الوهم والخيال - أن يرجع إلى المصادر الموثوقة، وهذه المصادر مختلفة ومتفاوتة من علم أو فنّ إلى آخره، وهي عبارة عن أهل العلم والخبرة في الفنون والعلوم المتنوعة.

ولمزيد من التوضيح نضرب أمثلة على ذلك: إذا أراد أيّ شخص أن يتوصّل إلى معلومة أو مفردة ما في مجال الطبّ، فإنّه يرجع - بلا شكّ - إلى أهل الاختصاص والخبرة في هذا العلم، وذلك لكي يطمئنّ بأنّه قد اكتسب معلومة أو معرفة حقيقية ليس فيها وهم، أو لا يشوبها الشكّ. وهكذا الحال في المجالات العلمية الأخرى كالكيمياء والفيزياء والحياة الاجتماعية والنفسية.

ومن الضروري تطبيق هذه السيرة العقلانية على أخذ المعلومات الفقهية والعقدية للفرد المسلم، كي لا يقع بالخطأ في ما يخصّ أحكامه وعقائده؛ حتى يطمئنّ من سلامة مذهبه ومعتقداته.

من هذا المنطلق لا يرجع الإنسان المسلم إلى نفسه لكي يفهم أو يتوصّل إلى المعرفة الحقيقية المتعلقة بالإمام صاحب العصر والزمان؛ لأنّه ربّما يكون - والحال هذه - ضحيةً للفهم الخاطئ الناتج من الأوهام والتخيّلات والظنون البعيدة عن الحقيقة. وكذلك ليس من الصحيح الرجوع إلى نفسه في تحليل وتفسير الأحاديث والأخبار المتضمنة للتفاصيل التي توضّح شخصية الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام، وما

يتعلّق بظروفه وأحواله، حتى يطبّق الأحداث على مصاديقها الخارجيّة إذا كان ليس أهلاً لهذا التفسير والتحليل. كما أنّه ليس من الصحيح أن يرجع إلى مَنْ يدّعي العلم في هذا المجال وهو ليس من أهله؛ فإنّ هذه المسألة في غاية الأهميّة والخطورة.

لذا يؤكّد أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بأنّه لا بدّ من الرجوع إلى أهل العلم الحقيقيين في هذا المجال، وهم الفقهاء المتّصفون بمواصفات خاصّة؛ فإنّه ليس كلّ مَنْ يدّعي الفقه صار فقيهاً، وسوف يأتي لا حقّاً - في مطاوي الكلام - ما يؤكّد هذا المعنى من الأحاديث الواردة عنهم (عليهم السلام).

الأمر الثاني: الاطمئنان من عواقب الأمور

تجري الأمور الحيّاتيّة والمسائل الاجتماعيّة على قوانين وأحكام عرفيّة يتبعها أغلب الناس، ومن جملة هذه الأعراف التّأني والسؤال حتى الاطمئنان في ما ينوي الإقدام عليه، فمثلاً: إذا أراد الإنسان الدخول مع غيره في تجارة فإنّه يلجأ إلى السؤال عن ذلك الشخص الشريك وأمانته ونزاهته؛ حتى يضمن سلامة صفقته وتجارته.

كما أنّ الذي يُقبل على الزواج يسأل عن كلّ التفاصيل والجزئيّات عن الشريكة التي ينوي الزواج بها. وكذلك الأمر في البنت المقبلة على الزواج أو البنت التي يتقدّم الخاطب لخطبتها. وعادةً ما يكون السؤال عن هذا الأمر لأجل الاطمئنان من سلامة المشروع الذي ينوي الدخول فيه واستمراره؛ ذلك كون هذه المسائل الحيّاتيّة من المسائل المصيريّة الخطيرة في حياة المجتمع، يحاول الإنسان أن يكون منها على حذر؛ حتى يطمئن بأنّ المشروع الذي يقدم عليه لا يُسبّب له خسارة أو أضراراً مستقبلية.

وهذا معناه عدم الإسراع في قبول المشاريع إلّا بعد الاطمئنان من سلامة عواقبها؛ فإنّ العجلة وسرعة التصديق في هذا المجال غير محبّبين؛ لذلك ورد في هذا

الباب عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ سرعة الاسترسال لا تُقال»^(١)، بمعنى أن يكون الإنسان دائماً على حذر من أمره، وألا يُصدّق بكلّ ما يُطرح بسرعة، وإنّما يجب عليه التأمّن في الحكم بالتصديق على كلّ القضايا، وإلا فإنّه بعد وقوع الحدث من الصعب تداركه.

هذا إذا كان في الأمور الحياتية الجارية يومياً، فكيف بالأمر إذا كان متعلّقاً بعقيدة الإنسان ومذهبه وآخرته، فلا بدّ حينئذٍ أن يزيد في حذره ويقف كثيراً عند الشبهات والدعاوى التي لا يُطمأن من صحتها، وهي بلا شكّ من المسائل المهمة في حياة الإنسان.

يؤكد الأئمة عليهم السلام في المواقف التي فيها شبهات على الحذر والتوقّف فيها حتى يُعلم كونها حقّاً فتُتبع، أو هي من الباطل فتُجتنب، لذا يجب أن نكون على حذر شديد في مواطن الفتن، ونتوقّف عندها كثيراً حتى يتّضح لنا حالها من البطلان أو الصحة؛ لأنّ الإنسان إذا سار على طبق ما تُملّيه عليه هذه الدعاوى، وتّضح في ما بعد كونها باطلة؛ فإنّه يكون من الخاسرين والهالكين؛ لأنّ مسيره كان على الباطل. لذا يقول الإمام عليه السلام: «فاحذر الشبهة واشتهاها على لبستها؛ فإنّ الفتنة طالما أغدقت جلايبها، وأعشت الأبصار ظلمتها»^(٢).

(١) أنظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة: ج ٢٠، ص ٣١٤، رقم ٦٠٦، وفيه: «لا تتقن كلّ الثقة بأخيك؛ فإنّ سرعة الاسترسال لا تُقال». وفي (الكافي) ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «لا تتقن بأخيك كلّ الثقة؛ فإنّ سرعة الاسترسال لن تُستقال». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٧٢، ح ٦.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب، رقم ٦٥، من كتاب له عليه السلام إلى معاوية. الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ٢، ص ١٤٠٤.

ليس هناك أيّ وضوح في كثير من الأمور بأنّها حقّ أو باطل، فكثير منها تشبه على الناس؛ للظلمة والغشاوة اللّتين عليها ما لم تكن واضحةً جليّةً، ومن هذا القبيل هذه الشبهات التي تُطرح في الوقت الحاضر، ومنها دعوات المهدويّة؛ فإنّها من الفتن الباطلة التي تُعمي الأبصار وتغشيها.

وهنا يأتي الدور الإعلامي المزيف الذي يصوّر الأمور وكأنّها هي الحقّ ويجب أن تُتبع ويُلتزم بها، لكنّها بعد مدّة من الزمن يتّضح حالها أنّها كانت دعوى باطلةً، أنّها شبهة الغرض منها إثارة الفتنة؛ لذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث له آخر محذراً من ذلك: «إنّ الفتن إذا أقبلتْ شَبّهت، وإذا أدبرت نَبّهت، يُنكرن مقبلات ويُعرَفن مدبرات»^(١).

يُشير الحديث الشريف إلى أنّ الفتنة أوّل أمرها غير واضحة، يكتنفها اللبس والغموض، فلا يمكن معرفة حالها أو تمييز كونها حقّاً أو باطلاً، الأمر الذي يمكن أن ينزلق فيه الكثيرون في الباطل، لكنّها فيما بعد تُوقّض الناس من غفلتهم التي كانوا فيها، فهي حين تُدبر ينتبه الناس من غفلتهم ونومهم، ويعرفون أنّهم كانوا على الباطل، لكنّ هذا بعد فوات الأوان.

إذاً الموقف الصحيح هو الحذر والتأني وعدم الإسراع في قبول الأمور حتى يتّضح حالها، فالتوقّف عند الشبهة هو طريق النجاة والخلاص في ما لو تبيّن بعدُ أنّ الدعوى كانت على الباطل.

ولا يفوتنا في المقام أن نُشير إلى شيء مهمّ في هذا الموضوع، وهو أنّه إذا امتلك الإنسان بصيرةً ووعياً يساعده على الثبّت من الأمور واتباع الحقّ منها واجتناب

(١) نهج البلاغة: ج ١، ص ١٨٣.

باطلها، فلا يجعل هذه المعرفة مقتصرةً على نفسه، وإنَّما يُستحسن به نقله هذه البصيرة إلى أبناء مجتمعه الذين يُخاف عليهم من الضلال والانزلاق في الشبهات والمهاوي التي لا يُحمد عقباها، ويكونون بذلك قد خسروا الدنيا والآخرة. نعم، هكذا علَّمنا الأئمة عليهم السلام في التعامل مع الأحداث والأمور الحياتية العامة، يقول الحديث الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام والذي يُقسَّم فيه الناس إلى ثلاث فئات: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهمج رعا عتباع كلِّ ناعق ويميلون مع كلِّ ريح»^(١).

ومعنى ذلك إذا سمع أحدنا شيئاً من الدعاوى، وخاصةً الدعاوى المتعلقة بالجانب العقائدي والفكري، ألا ننزلق معها وننقع معها ونميل مع كلِّ ريح تأتي من الشرق أو الغرب، فإنَّ هذا ليس بصحيح؛ إذ اتَّباع كلِّ صيحة من الأمور الخاطئة، وإنَّما علينا الحذر من أجل النجاة، وذلك بأن نكون من القسم الثاني، وهم المتعلِّمون؛ حتى ننجو، ولا نكون من الصنف الثالث.

الأمر الثالث: الاتِّعاظ بالباطلة على مرِّ التاريخ

إنَّ من جملة الأمور التي يجب ملاحظتها والتوجُّه إليها في الخلاص من فتن الدعاوى الباطلة قراءة التاريخ؛ فإنَّه على مرِّ الزمن تناوبت في التاريخ الإسلامي أحداث وحركات وصيحات ودعاوى كثيرة، وكان بعضها في بداية الأمر تزيين للكثير من الناس حسن نواياها وصدقها لكي يتَّبعوها، لكنَّها في ما بعد تظهر حقيقتها، فبعضها بمرور الزمن تنكشف بأنَّ حقيقتها الإلحاد والكفر، وبعضها تدعو إلى الانحراف الأخلاقي والمفاسد.

(١) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٣٥.

لذا يجب التوجّه والالتفات لكلّ حركة او دعوى تنطلق في هذا الزمن وإن كانت تدّعي أنّها تابعة لأهل البيت عليه السلام، والتي منها ما يصدر الآن من مجموعات يدّعون الاتصال بالإمام الحجة عليه السلام، أو ما يدّعي من نيابته أو كونهم مرسلين من قبله، لكنّ منهجهم الأساسي معتمد على العنف والقتل والإرهاب وتخويف الناس الأبرياء.

وربّما يدّعي بعضهم ما هو أكثر فساداً من ذلك، وهي الدعوى إلى قتل العلماء وتصفييتهم؛ لأنّهم يشكّلون عقبة أمام ظهور الإمام الحجة عليه السلام. إذاً أصحاب هذه الدعاوى الباطلة المنحرفة لو لم يجدوا أذنّاً تسمع كلامهم وصيحاتهم، وأناساً يتّبعون قولهم، وأنصاراً وأتباعاً ينشرون نشاطاتهم لما استطاعوا بث هذه العقائد والأفكار الباطلة بين صفوف أبناء المجتمع، لذا علينا الحدّ من هذه الظاهرة وتوعية الناس كي لا يتّبعونهم؛ فإنّ في اتّباعهم نتائج فادحة في أرواح الأبرياء من الناس، بالإضافة إلى خسران الآخرة. لذا فإنّ دراسة التاريخ والتعمّق في الحركات التي سبقت عصرنا أمر مهمّ؛ للتأكّد من بطلان هذه الدعاوى؛ لكيلا نقع في التيه، وبالتالي نخسر أبناءنا وديننا وآخرتنا.

الأمر الرابع: الابتعاد عن ظاهرة التوقيت

من جملة ما أوصى به الأئمة عليهم السلام في مسألة التخلّص من دعاوى الفتن والزيف، هو الابتعاد عن ظاهرة التوقيت وعدم تصديقها، وهي الدعاوى التي تُحدّد وقت ظهور الإمام الحجة عليه السلام، الأمر الذي يمارسه - وللأسف الشديد - بعض من له شأن عند الناس، وهذا ربّما يؤدّي بصورة غير مباشرة إلى اعتقاد السدّج والبسطاء من الناس بذلك الوقت المحدّد الذي أخبروا به، مع أنّ

الأئمة عليهم السلام قد نهوا عن ظاهرة التوقيت^(١) وكذبوا الوقّاتين، فقد ورد عن الإمام الجواد عليه السلام في حديث له يُجيب عن سؤال أحدهم بأنّه لماذا سُمّي الإمام صاحب العصر والزمان بالمنتظر؟ قال: «لأنّ له غيبةً يكثُر أيامها، ويطول أمدّها، فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ بذكره الجاهلون، ويكذب فيها الوقّاتون، ويهلك فيها المستعجلون، وينجو فيها المسلمون»^(٢).

(١) معنى التوقيت والتأقيت بأن يُجعل للشيء وقت يختصّ به، وهو بيان مقدار المدّة. [ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمّد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ٥، ص ٢١٢].
والمقصود هو الاعتماد على التقسيم المعترف به للأوقات، كالساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنين، وهذا منهى بالنسبة إلى وقت خروج الإمام وظهوره، وكما جاء في سياق عبارات الأئمة عليهم السلام كما في الحديث الوارد عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألت عن القائم (عج)؟ فقال: «كذب الوقّاتون، إنّ أهل بيت لا نوّقت». [الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦٨، ح ٣]. وما عن الفضل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: «كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون، كذب الوقّاتون...». [الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦٨].

(٢) الصدوق، محمّد بن عليّ، كمال وتمام النعمة: ص ٣٧٨، الباب ٣٦، ح ٣، والحديث فيه كاملاً هكذا: حدّثنا عبد الواحد بن محمّد العبدوس العطار رضي الله عنه، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بن قتيبة النيسابوري، قال: حدّثنا حمدان بن سليمان، قال: حدّثنا الصقر بن أبي دلف، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ الرضا عليه السلام يقول: إنّ الإمام بعدي ابني عليّ، أمره أمري، وقوله قولي، وطاعته طاعتي. والإمام بعده ابنه الحسن، أمره أمر أبيه، وقوله قول أبيه، وطاعته طاعة أبيه، ثم سكت. فقلت له: يا ابن رسول الله، فمن الإمام بعد الحسن؟ فبكى عليه السلام بكاءً شديداً، ثم قال: إنّ من بعد الحسن ابنه القائم بالحقّ المنتظر. فقلت له: يا ابن رسول الله، لم سُمّي القائم؟ قال: لأنّه يقوم بعد موت ذكره، وارتداد أكثر القائلين بإمامته. فقلت له: ولم سُمّي المنتظر؟ قال: لأنّ

إنَّ مسألة وقت ظهور الإمام عليه السلام لا يعلمها إلا الله تعالى وحده، أمّا أنَّ ذلك الظهور متى يتحقّق وكـم يحتاج من الوقت؟ أو الفترة الزمنية المتبقية لظهوره عليه السلام، فإنَّ هذا لا يمكن العلم به، ولا يمكن لأحد أن يحدّده بشهر - مثلاً - أو سنة أو أكثر أو أقلّ من ذلك.

نعم، وظيفتنا العملية في هذا الوقت الذي ننتظر فيه ذلك الظهور المبارك هو الاستعداد والتهيؤ في كلّ وقت لاستقبال هذا الظهور، لذا فعلينا مجاهدة النفس وترويضها على الاستعداد للتضحية في حال ظهر الإمام عليه السلام؛ وذلك بالتحلّي بمكارم الأخلاق التي دعا إليها أهل البيت عليهم السلام والالتزام بتطبيق الأحكام الشرعية الإسلامية، والدعوة الحقيقية بالقول والفعل والسلوك للتمسك بأوامر أهل البيت عليهم السلام والالتزام بها.

وبما أنَّ بعض أصحاب هذه الحركات والأفكار المزيفة الباطلة التي تدّعي أنَّ لها صلةً بالإمام الحجة عليه السلام يمتلك وسائل إعلاميةً وظيفتها خداع الناس وتضليلها، لذا يجب توعية الناس كي لا تنطلي عليهم الإشاعات التي تطلقها هذه الحركات.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربّما تمتلك القوى المعادية للإمام عليه السلام - وهم كثيرون - كذلك وسائل إعلام كبيرة تروّج لأُمور غير حقيقية وكاذبة تنسبها إلى الإمام عليه السلام، الأمر الذي ربّما يُسبّب في وقوف بعضهم ضده. وهذا عليه شواهد كثيرة عبر التاريخ، منها ما جرى في ثورة الإمام الحسين عليه السلام؛ فإنَّ الكثير من الناس ممّن كانوا على خطّ الإمام ومن الذين أرادوا نصرته نراهم قد وقفوا ضده وأصبحوا



له غيبةٌ يكثر أيامها، ويطول أمدّها فينتظر خروجه المخلصون، وينكره المرتابون، ويستهزئ بذكره الجاحدون، ويكذّب فيها الوقّاتون، ويهلك فيها المستعجلون، وينجو فيها المسلمون.

على نهج يزيد بن معاوية؛ لأنهم قد ضلّوا بوسائل الإعلام والدعاية والكذب والافتراء التي فعلها الخطّ الأموي^(١). أمّا بعضهم ممّن هم ضعاف النفوس والذين يتعلّقون بحبّ الدنيا التي اغرتهم، فقد جانبوا الحقّ ولم يقفوا معه؛ لأنّ هذا الأمر - كما ذكرنا - يحتاج إلى استعداد للتضحية وترويض النفس لنصرة الحقّ.

(١) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: ما فعله ابن زياد في الكوفة عندما حاصره مسلم بن عقيل عليه السلام في قصر الإمارة، من إفشاء إشاعات الكذب والتضليل بين الناس، فقد أمر ممّن حوله أن يُعلموا الناس بوصول جيش من الشام ويخوّفهم ويخدّلوهم عن مسلم بن عقيل، فقد جاء في (بحار الأنوار) ما نصّه: ... فقال كثير بن شهاب: أصلح الله الأمير، معك في القصر ناس كثير من أشرف الناس ومن شرطك وأهل بيتك ومواليك، فاخرج بنا إليهم، فأبى عبيد الله وعقد لشبث بن ربعي لواءً وأخرجه. وأقام الناس مع ابن عقيل يكثرون حتى المساء، وأمرهم شديد، فبعث عبيد الله إلى الأشراف فجمعهم ثم أشرّفوا على الناس، فمّنوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجند من الشام إليهم. وتكلّم كثير بن شهاب حتى كادت الشمس أن تجب، فقال: أيّها الناس ألحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشرّ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل؛ فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الله الأمير عهداً لئن تمتمت على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم، أن يجرم ذريّتكم العطاء، ويفرّق مقاتليكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جنت أيديها. وتكلّم الأشراف بنحو ذلك.

فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرّقون، وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها فتقول: انصرف، الناس يكفونك، ويحيي الرجل إلى ابنه أو أخيه ويقول: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشرّ؟ انصرف. فيذهب به فينصرف، فما زالوا يتفرّقون حتى أمسى ابن عقيل وصلى المغرب وما معه إلّا ثلاثون نفساً في المسجد. المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

من هنا يرسم لنا الأئمة طريقاً ومنهجاً، وهو الرجوع إلى أهل العلم والمعرفة الحقيقيين للسؤال منهم مما يدور في الساحة من أحداث كما تقدّم؛ فإنّه من خلال ذلك يمكننا معرفة حقيقة الدعوى فتتبعها، أو نبتعد عنها، ونعظ الناس ونرشدهم في الابتعاد عنها أيضاً.

أمّا في ما يخصّ مسألة مجهوليّة وقت ظهور الإمام صاحب العصر والزمان؛ فإنّ فيها حكمة إلهيّة كبيرة، فإنّه لو حدّد وقت الظهور في زمن معيّن كأن يكون في السنة الفلانيّة التي تبعد خمس سنوات أخرى، فإنّ الإنسان يفكر في نفسه بأنّ هذا التوقيت بعيد، فلا يستعدّ ولا يتهيأ لنصرة الإمام عليه السلام من الآن إلى ذلك الوقت. أمّا إذا بقي الوقت مجهولاً فإنّ المؤمن يحتمل ظهوره في كلّ وقت، فتراه دائماً مستعدّاً لهذا الحدث وهذه النصرة؛ لكي يكون مقبولاً عند الإمام عليه السلام الحجة عليه السلام، ويُحسب من جنوده وجيوشه.

الأمر الخامس: معنى الانتظار الحقيقي

وهناك أمرٌ آخر مهمّ جدّاً يجب فهمه، وهو الانتظار الحقيقي لظهور الإمام عليه السلام؛ إذ الكثير من الناس يفهم معنى الانتظار أو يفسّره بالمعنى الساذج البسيط، وهو مجرّد انتظار مرور الوقت، وربّما تعدّى بعضهم إلى أكثر من ذلك بتركه الواجبات والتكاليف الشرعيّة بحجّة إشاعة الفساد من أجل ظهور الإمام عليه السلام. وهذا بالتأكيد فهم خاطئ جدّاً، إذ الناس مكلفون بأداء الواجبات والأحكام الشرعيّة سواء ظهر الإمام في وقتهم أم لا.

من هنا يجب فهم معنى الانتظار الحقيقي، وهذا الأمر يوضّحه الأئمة عليهم السلام من خلال ما ورد عنهم في هذا الشأن، فعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «... مَنْ سرّه أن يكون من أصحاب القائم فلينتظر، وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق

وهو منتظر، فإن مات وقام القائم بعد، كان له من الأجر مثل أجر مَنْ أدركه، فجدّوا وانتظروا هنيئاً لكم أيتها العصابة المرحومة»^(١).

إنّ جميع المؤمنين يتمنّون ويتوقّون ويتشوّقون إلى أن يكونوا من جُند الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام ومن أصحابه، لكنّ هذا التمني لا بدّ أن يكون مصحوباً بأفعال وسلوك معيّنة في زمن الانتظار، وهذا السلوك ما يُشير إليه الحديث المتقدّم عن الإمام الصادق عليه السلام، الذي أوضح فيه حقيقة الانتظار ومنهجه، وهو العمل بالورع ومحاسن الأخلاق؛ فإنّ الإمام يفسّر الانتظار لا بقضاء الوقت فقط، وإنّما بالورع عن محارم الله والالتزام بأحكام الله تعالى؛ بفعل الواجبات وترك المحرّمات، والسير على نهج أهل البيت عليهم السلام في محاسن الأخلاق وتطهير النفس من مذامّ الصفات ورذائل الأخلاق، فإذا استطاع الإنسان أن يطبّق جميع هذه السلوكيّات ووصل إلى هذه المرحلة يكون من المنتظرين الحقيقيّين، ويكون من أصحاب الإمام الحجة عليه السلام.

وهنا ربّما يسأل سائل قائلاً: إذا عمل الإنسان بهذا المعنى الحقيقي للانتظار لكن وافاه الأجل قبل ظهور الإمام عليه السلام، أي: يرحل عن الدنيا قبل ساعة ظهور الإمام، فكيف يُكتب من جُنده وأصحابه؛ فإنّ شوقه وتمنّيه لظهور إمام عصره لا فائدة فيه؟

وجواب ذلك ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام في الحديث المتقدّم بقوله: «فإن مات وقام القائم بعد كان له من الأجر مثل أجر مَنْ أدركه»؛ فإنّه قد شارك جند الإمام وصار من المنتظرين الحقيقيّين، فيكون من أصحاب الإمام عليه السلام وإن كانت حياته قد انقضت في زمن لم يظهر فيه الإمام بعد.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥٢، ص ١٤٠.

الأمر السادس: المرجعية الدينية الحقيقية

بالإضافة إلى مسألة ادعاء المهدوية هناك مسألة هي الأخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي أنّ هناك دعاوى كثيرة من أشخاص كثيرين يدعون مقامات دينية عالية، وهم ليسوا أهلاً لها، فيُضلّون أنفسهم ويُضلّون غيرهم بذلك، فإنّه من دون شك أنّ أبناء الأمة يحتاجون إلى مقام المرجع الديني لأخذ أحكامهم وتكاليفهم منه، إذ هو الركن والجهة الموثوقة التي يُطمأن لها في أمور الدين لتفريغ الذمة من عهدة الأحكام، فعندما تكثر الدعاوى في هذا الباب يُحار المسلم في الرجوع إلى ذلك المقام.

وبما أنّ هذا المقام هو من المقامات الدينية والنيابية عن الإمام عليه السلام، فلا بدّ من الثبّت عند الرجوع إلى هذه الجهة، لذا يوجّه أهل البيت عليهم السلام هذا الأمر، ويرسمون الطريق لأبناء الأمة حتى يحكموا التصرف في الرجوع لأخذ أحكامهم.

ومن جملة ما ورد عنهم في ذلك ما اشتهر عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في كلّ شيء يتعلّق بأمر الدين، وهو حديث طويل يُبيّن فيه الإمام عليه السلام الأحكام والضوابط العامة حتى في الأمور السياسية المرتبطة بدعاوى الباطل، كلّ ذلك زيادةً للبصيرة والوعي. وقد ورد فيه ما يخصّ المقام - أعني المرجعية الدينية النائية عن الإمام عليه السلام -: بقوله عليه السلام: «فأما مَنْ كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإما مَنْ ركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة العامة، فلا تقبلوا منّا عنه شيئاً، ولا كرامة»^(١).

(١) الطبرسي، أحمد بن عليّ، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٦٤.

فقد أوضح الإمام عليه السلام في هذا القطع الضابطة الأساسية في تقليد العوام لرجل الدين، أي: المرجع الديني الحائز على شرائط التقليد؛ فإنه ليس كل من ادعى هذا المقام يهرع إليه الناس ليقفدوه، وإنما هناك مجموعة من الأحكام والضوابط يجب توافرها في من يدعي هذا المقام، وهي ملكات وصفات أجملها الإمام الحسن العسكري عليه السلام في هذه الجمل القصيرة، ومنها أن يكون بعيداً عن حب الدنيا بمخالفته هواه وإطاعته مولاه، فليس للعوام من الناس أن يتبعوا من يدعي ذلك لكنه في حقيقته يبحث عن الدنيا وأموالها ومقاماتها، ويلهث من أجل الحصول على ذلك، فهو - والحال هذه - يُعتبر مخالفاً لهذه الشروط.

ثم يضيف عليه السلام كلاماً مهماً يُبين فيه حال بعض أصحاب هذه الدعاوى الباطلة، وهو مقطع مهم جداً ينطبق على الواقع المعاصر، فيجب التوجه إليه جيداً، يقول عليه السلام: «وآخرين يتعمدون الكذب علينا ليجروا من عرض الدنيا ما هو زادهم إلى نار جهنم، ومنهم قوم نصاب لا يقدرّون على القدح فينا، يتعلمون بعض علومنا الصحيحة فيتوجهون به عند شيعتنا، وينتقصون بنا عند نصابنا، ثم يضيفون إليه أضعافه وأضعاف أضعافه من الأكاذيب علينا التي نحن برآء منها، فيقبله المستسلمون من شيعتنا على أنه من علومنا، فضلّوا وأضلّوا، وهم أضّرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه، فإنهم يسلبونهم الأموال، وهؤلاء علماء السوء الناصبون المتشبهون بأنهم لنا موالون، ولأعدائنا معادون، يدخلون الشكّ والشبهة على ضعفاء شيعتنا»^(١).

إنّ هذه الدعاوى الباطلة كثيراً ما تُستغل من أعداء أهل البيت عليهم السلام لأغراض

(١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص ٢٦٤.

سياسية أحياناً، وعقائدية أحياناً أخرى، غرضها تفتيت وتمزيق المذهب الشيعي التابع لأهل البيت عليه السلام، وذلك من خلال إلقاء الشبهات بوضعهم الأحاديث الباطلة المحرفة أو الموضوعة والمكذوبة التي تحمل في باطنها الدعاوى الباطلة، لذا يحذّر الإمام العسكري عليه السلام من هؤلاء الأعداء؛ خوفاً أن تنطوي أكاذيبهم على الضعفاء من الشيعة.

إنّ ممّا لا شكّ فيه تاريخياً العمل الإجرامي الشنيع الذي صنعه يزيد بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه قد أضّرّ بمذهب أهل البيت عليه السلام، فلقد عمد جيش الطاغوي يزيد على محاصرة الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه حتى قتلهم أبشع قتلة، وسبى عائلته وحملها يطاف بها البلاد، وهو حدث عظيم لا زال خالداً ذكره حتى هذه اللحظة، من هنا يؤكّد الإمام العسكري عليه السلام على أنّ أصحاب هذه الدعاوى هم أضّرّ على ضعفاء الشيعة من جيش يزيد وما صنعه بالحسين بن عليّ وأصحابه، فإنّ كان ذلك الجيش الوحشي يسلب الأرواح والأموال، فإنّ علماء السوء هؤلاء الناصبين المتشبهين بأنّهم موالون لأهل البيت عليه السلام يدخلون الشكّ والشبهة على الشيعة، وهو خطر عظيم، وضرر كبير يُحيط بهذا المذهب.

من هنا نطلق صيحتنا مع إمامنا الحسن العسكري عليه السلام وتأكيداً على توجيهاته وإرشاداته لننبّه جميع المسلمين على أن يكونوا على يقظة وحذر من المخاطر المحيطة بهم القريبة منهم، وليستعدوا للوقوف بوجهها كي لا يقعوا في الباطل.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأنّ نتمسك بمنهج أهل البيت عليه السلام، ويبعد عنّا هذه الفتن والدعاوى المزيفة الباطلة، وأنّ يمنّ على جميع المسلمين في بلدانهم بالهداية والتوفيق، إنّّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة السادسة والسبعون
الحث على العمل الصالح

بتاريخ: ٢٩ / ٢ / ٢٠٠٨م

- ﴿ الوعي عند سماع الحكمة ﴾
- ﴿ الاستجابة لدعوة الرشاد ﴾
- ﴿ النجاة بعد الهداية ﴾
- ﴿ الاعتقاد بمراقبة الله تعالى لعباده ﴾
- ﴿ الأعمال الخالصة لله تعالى ﴾
- ﴿ ادّخار الأعمال الصالحة ﴾
- ﴿ الصبر وسيلة النجاة ﴾

مقدمة الخطبة^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عزيمة وأزل. اللهم لك الحمد أن وفقتنا في الدخول في ولاية أهل البيت عليهم السلام والسير على نهجهم واقتفاء آثارهم وإحياء أمرهم، والصلاة والسلام على البشير النذير، خير من بشر وأنذر، أبي القاسم محمد، وعلى أهل البيت العصمة والحكمة آل بيت المصطفى عليهم السلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله تعالى واجتناب معاصيه.

ورد في خطبة لأمر المؤمنين عليهم السلام مفادها الحث والترغيب والاتّصاف بمجموعة من الصفات والأعمال الصالحة، التي تجعل الإنسان في نجاة وخلاص من الضلال والهواية، وتوصله إلى رضا الله تعالى.

نذكر في المقام نص هذه الخطبة، وشرحاً لبعض هذه الصفات والأعمال الصالحة الواردة فيها.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم الله امرأً سمع حكماً فوعى، ودعى إلى رشاد فدنا، وأخذ بحُجْزَةِ هَادٍ فنجا. راقب ربّه وخاف ذنبه، قدّم خالصاً وعمل صالحاً، اكتسب

(١) صادف أن وقعت هذه الخطبة بتاريخ: ٢١/ صفر/ ١٤٢٩ هـ؛ أي: بعد يوم من زيارة أربعينية

الإمام الحسين عليه السلام.

مذخوراً واجتنب محذوراً، رمى غرضاً وأحرز عوضاً، كابرَ هواه وكذبَ مُناه، جعلَ الصبرَ مَطِيَّةَ نجاته والتقوى عُدَّةَ وفاته، ركبَ الطريقةَ الغراء ولزمَ المحجَّةَ البيضاء، اغتنمَ المهلَ وبادرَ الأجلَ وتزوَّدَ من العمل»^(١).

الوعي عند سماع الحكمة

قال أمير المؤمنين عليه السلام مبيِّناً أوَّل هذه الصفات: «رحم الله امرأً سمع حكماً فوعى».

يستعرض الإمام في هذه الفقرة من خطبته مسألة الوعي التي هي من جملة المسائل المهمة في ترتب الأعمال الصالحة عليها؛ فإنَّ وعي الكلام أو وعي الأفعال له أثره الفاعل في الأعمال الصالحة، لذا لا يقصد الإمام بالحكم هنا الأحكام الشرعية، وإنما المقصود هو كل كلمة علمية وعملية؛ فإنه عليه السلام يُنبِّه بأنَّ سماع الحكمة لا بدَّ أن يكون عن وعي، أو سماع الموعظة والنصح والإرشاد لا بدَّ أن يكون عن وعي وتفهم، لا مجرد سماع بدون أن يعي مضمون الخطاب أو الفعل.

إنَّ الغرض من هذا الوعي هو إمكان تطبيق هذه الأحكام؛ لأنَّ الإنسان في معرض الابتلاء بها؛ إذ العمل طبق هذه الأحكام هو الركيزة الأساسية؛ فإنَّ مجرد السماع دون الحفظ والوعي لا ينتهي إلى العمل المطلوب، وإذا لم ينتهِ إلى ذلك فإنَّ كلَّ ذلك يُعتبر تضييعاً وهدراً للوقت، وتجاهلاً بما يسمع وبما يرى.

من هنا يؤكِّد الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى على مواليه من خلال قوله لأحد أصحابه، وهو المعلّى بن خنيس^(٢)، عندما سأل الإمام عليه السلام عن حقوق المسلم على أخيه

(١) نهج البلاغة، (تحقيق: صبحي صالح): ص ١٠٣، الخطبة رقم ٧٦.

(٢) المعلّى بن خنيس: أبو عبد الله، كوفي، مولى بني أسد، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ووكلائه.

المسلم؛ فإنه عليه السلام قبل أن يُبين له تلك الحقوق - والتي هي كبيرة - نبّهه على أمر مهمّ، قائلاً له: «يا معلّى، إنّي عليك شفيق، أخاف أن تضيع ولا تحفظ، وتعلم ولا تعمل»^(١).

يوصي الإمام الصادق عليه السلام صاحبه بالتدبّر وفهم هذه الحقوق وحفظها، إذ بدون



ذكره علماء الرجال وأحصوا له مجموعة روايات. كان عمله بيع الأقمشة. قُتل سنة (١٣١ هـ) بأمر داود بن علي الوالي على المدينة في حكومة بني العباس. أنظر: الخوئي، أبو القاسم، معجم رجال الحديث، ج ١٩، ص ٢٥٩. وانظر أيضاً: النجاشي، أبو العباس أحمد بن عليّ، رجال النجاشي: ص ٤١٧. الطوسي، محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال: ج ٢، ص ٦٧٥.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٦٩، ح ٢. والراوندي، قطب الدين أبو الحسن سعيد بن عبد الله، الدعوات (سلوة الحزين): ص ٢٢٦، ونصّ الحديث فيه: «وعن المعلّى بن خنيس، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: ما حقّ المؤمن على المؤمن؟ فقال: «إنّي عليك شفيق، أخاف أن تعلم ولا تعمل، وتضيع ولا تحفظ». قال: قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال عليه السلام: «للمؤمن على المؤمن سبع حقوق واجبات ليس منها حقّ إلا واجب على أخيه، إن ضيّع منها حقّاً أخرج من ولاية الله، ويترك طاعته ولم يكن له فيها نصيب: أيسر حقّ منها أن تُحبّ له ما تحبّ لنفسك، وأن تكره له ما تكره لنفسك. والثاني: أن تُعينه بنفسك، ومالك، ولسانك، ويدك، ورجلك. والثالث: أن تتبع رضاه، وتجتنب سخطه، وتطيع أمره. والرابع: أن تكون عينه ودليّله ومرآته. والخامس: ألا تشبع ويحجوع، وتروي ويظمأ، وتلبس ويعرى. والسادس: إن كان لك خادم وليس له خادم، ولك امرأة تقوم عليك، وليس له امرأة تقوم عليه، أن تبعث خادمك يغسل ثيابه ويصنع طعامه، ويمهّد فراشه. والسابع: أن تبرّ قسمه، وتعود مريضه، وتشهد جنازته، وإن كانت له حاجة فبادر إليها مبادرةً، ولا تكلفه أن يسألك. فإذا فعلت ذلك وصلت بولايتك ولايته وولايته بولايتك».

الفهم لا يمكن للإنسان أن يصل إلى التطبيق الصحيح؛ فإنّ هناك ملازمةً بين الحفظ والفهم والتدبر وبين التطبيق، إذ ربّما ينسى الإنسان ما حفظه إذا ترك تطبيقه. إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الموعظة يحثّ على العمل الصالح من خلال ذكره هذه الصفات التي أولها استلزام تفهّم هذه الموعظة ووعيتها وحفظها من أجل تطبيقها، ويؤكد هذا المعنى في كلام آخر، يقول عليه السلام فيه: «رحم الله عبداً سمع حكماً فوعى»^(١).

الاستجابة لدعوة الرشاد

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ودّعي إلى رشاد فدنا». الصفة الثانية التي يذكرها أمير المؤمنين عليه السلام المقرّبة من الأعمال الصالحة هي الاستجابة والدنو والقرب من الدعوة إلى الرشاد؛ فإنّ الداعين إلى الرشاد هم الهداة الذين يدعون إلى تطبيق أحكام الله تعالى، وهو معنى الرشاد والهداية، فالمبلّغ أو الهادي الذي يوضح أحكام الله تعالى ويبيّن حلاله وحرامه للناس، ومعالم الدين والأخلاق الإسلامية، هو داعٍ إلى الرشاد وهادٍ إليه، وكلّما يدنو الإنسان منه أو يتقرّب إليه باستجابة دعوته والالتزام بها صار قريباً من الهداية والرشاد. من هنا يُشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّ الالتزام بتوجيهات تلك الدعوة الهداية إلى الرشاد يستتبعها نزول الرحمة الإلهية، فكلّما دنا الإنسان واقترب من هذه الدعوة باستجابته لها، وطبّق تعليماتها وأحكامها، أصبح قريباً من رحمة الله تعالى، وهي النجاة. لذلك يقول عليه السلام في الفقرة اللاحقة: «وأخذ بحُجْزَةِ هَادٍ فَنَجَا».

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٥١. ونصّ الحديث: «مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ قَرِبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدُ، وَمَنْ كَانَ مِنْ قُوَّةِ الدُّنْيَا لَا يَشِيعُ لَمْ يَكْفِهِ مِنْهَا مَا يَجْمَعُ. وَمَنْ سَعَى لِلدُّنْيَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا أَتَتْهُ، إِنَّهَا الدُّنْيَا ظَلٌّ مَمْدُودٌ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ حَكْمًا فَوَعَى...».

النجاة بعد الهداية

يردّف أمير المؤمنين عليه السلام فقراته الحاتّة على الأعمال الصالحة بعضها مع بعض؛ وذلك لأنّ كلاً منها مكّمة للأخرى من الناحية المعنويّة والعملية، فهو يُشير إلى النجاة بعد الهداية حين يتقرّب الإنسان ويدنو ويتمسّك بدعوة الرشاد، قائلاً: «وأخذ بحُجْزَةِ هادٍ فنجا».

والحُجْزَةُ معناها موضع أو معقد شدّ الإزار من الوسط، وقد أخذ بحُجْزَتِهِ يعني: التجأ إليه واستعان به^(١). والمراد هنا التمسّك بالهداية التي يدعو إليها الهادي داعي الحقّ، أي الاعتصام بهذه الهداية باللجوء إلى تعليمات وتوجيهات الهادي، والنتيجة هي النجاة.

الكثير من الناس يجهلون الأحكام الدينيّة وغيرها من الأمور الدنيويّة والحياتيّة، ومن المعلوم أنّ الجهالة بطبيعة الحال تؤديّ إلى الضلال، ونتيجة الضلالة الهلاك أو العذاب، على العكس من العلم، فإنّه يؤديّ إلى الهداية، ومعنى الهداية النجاة، لذلك يُشير أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى المهمّ، بأنّ مَنْ تمسّك بالمعلّم

(١) أصل الحُجْزَةُ: موضع شدّ الإزار، ثم قيل للإزار حُجْزَةٌ للمجاورة. واحتجز الرجل بالإزار إذا شدّه على وسطه، فاستعار للاعتصام والالتجاء والتمسّك بالشيء والتعلّق به. ابن الأثير، المبارك بن محمّد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ١، ص ٣٤٤.

والحُجْز - بفتح الحاء - المنع. والحُجْزَةُ - بضمّها - معقد الإزار وموضع النكّة، والمراد بها هنا (الاعتصام. يقال: أخذ بحُجْزَتِهِ إذا اعتصم به والتجأ إليه. مغنية، محمّد جواد، في ظلال نهج البلاغة: ج ٢، ص ٣٦٥).

الهادي الذي يُرشد إلى الطريق المستقيم؛ فإنّ نتيجته النجاة، على العكس ممّن لم يتمسّك بالهداية؛ فإنّ مصيره الضلالة والهلاك والعذاب الأليم.

والأمر المهمّ في هذه المسألة هو تحديد هويّة الهادي، لذا يعتمد شُراح (نهج البلاغة) - هذا الكتاب المتضمّن لكلمات أمير المؤمنين عليه السلام - بتفسيره بالأئمّة عليهم السلام، معتمدين في ذلك على تفسير الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١)؛ فإنّه قد ورد في تفسيرها وبيانها قول الرسول صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «أنا المنذر وأنت الهادي يا علي»^(٢).

(١) الرعد: آية ٧.

(٢) جاء في كتاب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) في هذا المعنى ما نصّه: «الثالث قوله: «وأخذ بحجزة هادٍ فنجّا» أي: اعتصم به والتجأ إليه واستهدى به، فهده من الضلالة وأنقذه من الجهالة، فاهتدى ونجا من الهلكة وأمن من العقوبة. والهادي في كلامه وإن كان مطلقاً إلّا أنّ الأظهر عندي أنّ المراد به الأئمّة الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون، فيكون المراد بالأخذ بحجزتهم المتمسّكين بحبل الولاية والمقتبسين من أنوارها.

ويدلّ على ما استظهرته ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ بطرق كثيرة: أنّ الهادي هو أمير المؤمنين وولده المعصومون سلام الله عليهم أجمعين.

فمنها: ما في غاية المرام من تفسير العياشي، عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين: «فيما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أنا المنذر وأنت الهادي يا عليّ، فمنّا الهادي والنجاة والسعادة إلى يوم القيامة».

ومنه أيضاً عن بُريدة، عن معاوية، عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أنا المنذر، وفي كلّ زمان إمام منّا يهديهم إلى ما جاء به نبي الله، والهداة من بعده عليّ، ثم الأوصياء من بعده واحد بعد واحد. والله، ما ذهب منّا وما زالت فينا إلى الساعة،

عندما يكون الإمام المعصوم عليه السلام - الهادي - حاضراً بين ظهراني الناس فيمكنهم الرجوع إليه والسؤال منه واتباعه وأخذ الأحكام عنه، لكن الأمر الأهم من ذلك هو فترة غيبة الإمام المعصوم عليه السلام الهادي عن الناس، فهل أن الله تعالى في هذه الفترة يترك أمر خلقه وعباده بدون هادي يرجع إليه ويؤخذ منه؟

والجواب: إن الله تعالى بلطفه بعباده لا يتركهم بدون هادي، فإنه وإن كان الإمام غائباً عن عيون الناس في زمن الغيبة ولا يمكن الوصول إليه، لكنه قد أوكل الأمر لنوابه من الفقهاء الذين اكتملت فيهم الشروط والضوابط النيابية التي ذكرها الأئمة في أحاديثهم^(١)، فهؤلاء العلماء الحقيقيون هم الذين يهدون أبناء الأمة، فيجب الرجوع إليهم واتباعهم، وهم الذين يمثلون مقام الإمام الغائب عليه السلام، ففي مثل هذا الزمان يرجع الناس إلى مقام المرجعية المتوفرة فيها الشرائط والأحكام لأخذ معالم الدين عنها.



رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر، وبعلي يهتدي المهتدون.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة بالغلة حد الاستفاضة يطول الكتاب بذكرها، وقد روى في غاية المرام ثلاثين رواية من طريق العامة والخاصة في ذلك، من أراد الاطلاع فليرجع إليه. الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(١) عن إسحاق بن يعقوب، قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ، فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان عليه السلام: «أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك - إلى أن قال - وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله». الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ٢٧، ص ١٤٠، باب وجوب الرجوع في القضاء والفتوى إلى رواة الحديث، ح ٩.

وهنا يجب على الإنسان مراعاة الفحص والتثبت عند الرجوع إلى الفقيه؛ فإنّ هناك الكثير ممّن يدّعي الفقاهاة والنيابة عن الإمام، مع أنّه ليس أهلاً لذلك وإن كان من أتباع أهل البيت عليه السلام، فإنّ مثل هؤلاء إذا رجع الناس إليهم وهم ليسوا أهلاً لذلك، فإنّهم سوف يهلكون أنفسهم ويهلكون الآخرين باتباعهم لهم؛ لأنّهم لم يصلوا إلى من يمثل الإمام المعصوم التمثيل الحقيقي في نيابته.

الاعتقاد بمراقبة الله تعالى لعباده

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وراقب ربّه، وخاف ذنبه». صفة أخلاقية أخرى في غاية الأهميّة يذكرها أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته التي بحث فيها على الأعمال الصالحة، وهي اعتقاد الإنسان بأنّ الله تعالى يراقب عبده، فالله تعالى مراقب كلّ شيء يصدر عن الإنسان من الأفعال والسلوك والتصرّفات والأقوال، وهو المطلّع على جميع مكنونات وأسرار وخواطر الإنسان من صغيرة أو كبيرة، فهو الرقيب المطلّع على أحوال وأسرار البشر والكون. لذا على الإنسان أن يدرك في كلّ ساعة بأنّ الله يعلم ما في خاطره، الأمر الذي يستدعي أن يُبادر إلى فعل كلّ ما يجول بخاطره من أمر عبادي أو خيري، فيُسارع في إنجازه، وفي الوقت نفسه إذا وجد نفسه تتوق إلى فعل محرّم أو ارتكاب معصية أو ذنب، فعليه أن يردع هذه النفس عن ذلك من خلال تذكيرها بمراقبة الله تعالى لها. وبعبارة أخرى: إذا ما أدرك الإنسان في نفسه مراقبة الله تعالى لكلّ حركاته وسكناته وأقواله وما ينوي فعله أو تركه من الأعمال الصالحة أو السيئة، أو ارتكاب الذنب والمعصية، فعليه أن يُبادر إلى حثّ النفس على فعل الصالح وردعها عن الطالح من الأعمال والأقوال؛ وذلك لكي تكون كلّ أفعاله وأقواله مرضيّة عند الله تعالى؛ لأنّه في مراقبة مستمرة لها.

وهناك من الأحاديث الشريفة الواردة عن الرسول ﷺ تؤكد على هذا المعنى، منها قوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه عز وجل يراك»^(١).

يُشير الحديث إلى أنّ الغفلة الحاصلة عند الإنسان نتيجة نفسه الأمّارة بالسوء وتعلّقها بالدنيا، إذا حجبت عنه رؤية الله تعالى ونسيّ أنّه تعالى يراقبه، فليذكر نفسه بأنّ الله تعالى يراه دائماً، فيتحتّم عليه مراجعة نفسه مخافة العقوبة المترتبة على مراقبة الله تعالى له.

ثم يؤكد هذا المعنى أيضاً الإمام الصادق عليه السلام، فعن إسحاق بن عمار، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا إسحاق، خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنّه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنّه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين عليك»^(٢).

يؤكد الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث - بالإضافة إلى المعنى المتقدم - مطلباً هو الآخر يجب الالتفات إليه ومراعاته، وهو أنّ الكلّ ممّا يعتقد بأنّ الله مطلع على عمله وسلوكه وما يفعله وما يتلفّظ به وما يضمّر في نفسه من قول أو فعل، وأنّه تعالى يرى ذلك، ومع هذه المراقبة كلّها يُقدّم الإنسان على ارتكاب المعصية والذنب والإثم، ويخالف ما يعتقد من أنّ الله تعالى يرى ذلك، فالإنسان في هذه الحالة يجعل الله تعالى من أهون الناظرين إليه؛ لأنّه يعلم بأنّ الله يراه لكنّه لا يعتني بذلك، يتصرّف وكأنّ الله تعالى لا يراه.

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٥٢٥، وصية النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري.

(٢) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٢٢٠، ح ٦، باب وجوب الخوف من الله.

هناك أعراف وتقاليد اجتماعية عامة لا يتجاوزها المرء، ولا يخالفها؛ خوفاً من شخصية اجتماعية كبيرة وإن لم تكن لها عليه سلطة، أو خوفاً من مجموعة من الناس حوله ينظرون إليه ويشعرون بأنه يخالف هذه الأحكام، فلا يرتكب بذلك الأشياء التي تغيظهم أو الأمور التي يبغضونها أو يكرهونها؛ حذراً منهم، ومراعاةً لعدم سقوط شخصيته في المجتمع. لكن - وللأسف الشديد - هو يرتكب المعاصي والذنوب ويعلم بأن الله الذي هو أعلى من الناس وأقوى سلطةً وسطوةً منهم يراه ويعلم بارتكابه بذلك، ومع ذلك يعصيه؛ لذلك يعبر الإمام الصادق عليه السلام بأنه يجعل الله من أهون الناظرين إليه.

وبتعبير آخر: إذا ما جعل الإنسان مخافة الناس في قلبه أشدّ من مخافة الله ونظره إلى سلوكه وأعماله، فإنه بذلك جعل الله من أهون الناظرين إليه؛ إذ الله تعالى هو المطلع على السرائر، وعلى الخفايا والنوايا، وما يضمّره الإنسان في قلبه من فعل أو قول أظهره أو كتمه، فلا ينبغي للإنسان أن يخاف الناس أكثر من مخافة الله تعالى. إنّ هذا الأمر يكشف حقيقة الإنسان إذا كان منافقاً؛ إذ الإنسان إذا أراد أن يتكلّم يعرض كلامه على القلب أولاً قبل أن يتفوّه به، يعرضه على الموازين الشرعية والعقلية، فإن وافق هذه الموازين أطلقه وتحدّث به، وإن خالفها أمسك عن الكلام. لكنّ المنافق لا يراعي ذلك؛ فإنّ لسانه يتقدّم على قلبه، يطلق العنان للكلام دون أن يعرضه على قلبه، أو الموازين الشرعية والعقلية، فيطلق الكلام حتى لو كان فيه سخط لله تعالى ومعصية له، وكأنّ الله تعالى لا يراه.

الأعمال الخالصة لله تعالى

قال الإمام عليه السلام: «قدّم خالصاً وعمل صالحاً».

ينتقل الإمام عليه السلام إلى صفة أخرى مهمّة من الصفات التي تحقّق النجاة، وهي كون الأعمال التي يقدمها العبد خالصةً لله تعالى، لا يشوبها شيء من الرياء أو

إشراك غير الله تعالى بها، وهذا إنَّما يتحقَّق إذا كان الصادر عن الإنسان من أعمال أو أفعال أو أيِّ شيء ماديٍّ أو معنوي لا يطلب أو يبتغي منه منزلةً أو جاهاً أو تقديراً أو احتراماً عند الناس، وإنَّما صنع ذلك قربةً إلى الله وطلباً لأجره وثوابه، فإنَّ فعله هذا يكون خالصاً له تعالى.

إنَّ الواقع الحالي في الحياة اليوميَّة الاجتماعيَّة يحتوي على مصاديق كثيرة لهذا النموذج من الأعمال؛ فإنَّ من جملة ما يلاحظه ويشاهده الناس الآن إنَّ الكثير ممَّن يتعبَّد - مثلاً - ينتظر من الآخرين أن يمتدحوه أو يشنوا عليه، أو يشهدوا له بأداء العمل العبادي الفلاني. والكثير ممَّن يقدم المعونة للفقراء المحتاجين، أو ممَّن يساهم في عمل أو مشروع خيري، يتمنَّى أن يُثنى عليه ويُمدح، بل إنَّ بعضهم ربَّما يتألَّم إذا لم يُذكر بشيء من المدح أو الثناء.

وهناك ممَّن يصل إلى مرحلة تفوق ذلك، فإنَّه ينتظر أن يدوِّن اسمه في لوحة بارزة يشاهدها الناس إذا شارك بمشروع خيري، كأن ساهم في بناء مسجد أو حسينية أو غير ذلك من المشاريع الخيريَّة الأخرى.

إنَّ من يؤدي أعمال الخير ويهدف من خلالها إلى كسب مدح الآخرين وثناءهم لن يكون عمله خالصاً لله تعالى، وسوف يُحبط الله عمله، ويخسر كلَّ شيء يوم القيامة، وإنَّما يقال له: اطلب الأجر والثواب ممَّن قدَّمت لأجله هذا العمل أو تلك العبادة.

لذا يُفسَّر الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث آخر له بعض مصاديق الإخلاص في العمل بما ورد من قوله: «العمل الخالص: الذي لا تُريد أن يحمِّدك عليه أحد إلا الله»^(١).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٦، ح ٤. ونص الحديث: «عن سفيان بن عُيينة،

الأعمال العبادية أو الخيرية لا يطلب الإنسان الثناء والتعظيم والتقدير والاحترام عليها من الآخرين، وإنما يطلب ذلك من الله تعالى؛ فإنَّ الكرم والجلود والعطاء الإلهي الذي يقابل هذه الأعمال لا حدود لها.

والعمل الصالح الذي يُشير إليه الإمام عليه السلام في كلماته هو العمل الذي يأتي به الإنسان وفق ما أمرت به الشريعة الإسلامية؛ فإنَّ الأعمال لها شروط ومقدمات وأجزاء وأركان، ولكي يكون العمل صالحاً لا بدَّ أن يكون مطابقاً لتلك الشروط التي فرضتها الشريعة الإسلامية، سواء كانت له مقدمات أم أجزاء، واجبة كانت أم مستحبة.

ادِّخار الأعمال الصالحة

يقول عليه السلام: «اكتسب مذخوراً، واجتنب محذوراً، رمى غرضاً وأحرز عوضاً». اكتسب هنا بمعنى كَسَب الشيء، أي: الحصول عليه. والغرض: ما يُرمى بالسهم، يقول: رحم الله امرءاً رمى غرضاً، أي: قصد الحق، كمن يرمى غرضاً يقصده، لا من يرمى في عمياء لا يقصد شيئاً بعينه. والعوض المحرز هو الثواب^(١). في المقطع المتقدم إشارة واضحة إلى حاجة الإنسان لما يدَّخره من أعمال صالحة



عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قال: ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم، وإنما الإصابة خشية الله، والنية الصادقة والحسنة. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدَّ من العمل، والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عزَّ وجلَّ، والنية أفضل من العمل، ألا وإنَّ النية هي العمل، ثم تلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾، يعني: على نيته.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ١٧٢ - ١٧٣.

لله تعالى تنفعه يوم الحاجة إليها، وهو يوم القيامة عندما يقدم الإنسان على ربه خالي الوفاض من أي شيء سوى ما قام به من فعل صالح في الدنيا.

إن الكثير من الناس يفكرون في مستقبلهم، فيدخرون لأنفسهم من أموالهم لأيام كبرهم التي يعتقدون أنهم سيكونون بحاجة إليها إذا أعوزوا أو افتقروا، فبعضهم ربما يدخر عقاراً أو أرضاً أو ذهباً أو مالا ليوم يحسب له أنه يكون فقيراً أو محتاجاً فيه، أو يدركه الشيب فلا يُعينه أحد على أمور دنياه غير ماله. هذا مع أن الحياة الدنيا زائلة ولا تعدل شيئاً إذا ما قورنت بالحياة الآخرة الأبدية، فإنه من التفكير السليم أن يفكر الإنسان بادّخار شيء من الأعمال الصالحة لآخרתه؛ لكي تنفعه ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه المال ولا غيره سوى ما كان صالحاً من الأعمال؛ فإن الإنسان إذا كان يفكر بادّخار شيء لهذه الحياة التي لا قيمة لها وهي فانية، فكيف لا يفكر بما يدخره للحياة التي لا نهاية لها، وهي الحياة الحقيقية التي يجب العمل لأجلها؟!

وهذا هو الغرض الذي يرميه الإنسان في دنياه لكي يحرز العوض في الآخرة.

الصبر وسيلة النجاة

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وجعل الصبر مطيةً نجاته».

تقسّم بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام الصبر إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر عند المصيبة.

الثاني: الصبر على الطاعة.

الثالث: الصبر عن المعصية.

يُشير الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى، بأنه من يركب مركب الصبر فهو مركب

النجاة، والمطية هي الدابة التي تُركب أو ما يُركب من الدواب^(١)، فالصبر هنا هو المطية والمركب للنجاة، فإذا صبر الإنسان في هذه المنازل أو المحطات الثلاث نجا. لذلك يذكر الحديث الوارد في تقسيم هذه الأقسام الثلاثة لكل قسم درجة من الثواب والأجر، فعن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر عند الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض. ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تحوم الأرض إلى العرش. ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تحوم الأرض إلى منتهى العرش»^(٢).

إنّ جزء القسم الأوّل ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء إلى الأرض، وهو الصبر عند المصيبة، فلعلّ الإنسان يُبتلى بفقد عزيز أو حبيب، أو فقد مال أو شيء ثمين، لكنّه يُصبر نفسه ويتعزّى بعزاء الله ويكظم غيظه ويخفي جزعه حتى يردّها - المصيبة - بحسن عزائها كما يقول الحديث، فله من الأجر والثواب ما ذكر.

وجزاء القسم الثاني أكبر من الأوّل؛ إذ إنّ أداء الطاعات وامتنائها يحتاج إلى تحمّل؛ لأنّه ذو مشقة وعناء، ولعلّ الكثير من الناس يتكاسلون عن أداء هذه الطاعات، والمقصود بالصبر على الطاعة من يحمل نفسه على أداء هذه الطاعة مهما كان فيها من مصاعب ومشقة؛ فإنّ صلاة الليل - مثلاً - تحتاج إلى أن يتغلّب المصلّي

(١) ابن سيده المرسى، علي بن إسماعيل، المخصص: ج ٢، ق ٢، (السفر السابع)، ص ١٢٠.

(٢) العاملي الشهيد الثاني، علي بن أحمد، مسكن الفؤاد: ص ٥١.

على هواه ويقهر نفسه ويحثّها على القيام من النوم، ويرغبّها لأداء هذه الصلاة التي هي طاعة وعبادة، فيكتب الله للصابر على العبادة - كما يقول الحديث - من الأجر والثواب ستمائة درجة، ما بين واحدة وأخرى كما بين تخوم الأرض إلى العرش.

أمّا القسم الثالث فجزاؤه وأجره أعظم من القسمين السابقين؛ إذ الصبر عن المعصية يحتاج إلى قوّة منيعة تردع الإنسان عن ارتكاب اللذات والشهوات المحرّمة؛ لأنّ الإنسان معرّض في كلّ وقت لمثل هذه المحرّمات، وخاصّة المعاملات المحرّمة التي تغدق عليه الأموال، فلا بدّ أن يجاهد نفسه ليمنعها عن ارتكاب هذه المعاصي واللذات المحرّمة، وهي منزلة عظيمة من الصبر كتب الله للصابر فيها تسعمائة درجة من الأجر والثواب، بين الدرجة والأخرى كما بين تخوم الأرض إلى متهى العرش، وهو الشيء الكثير.

لذلك تقول الآية القرآنيّة الشريفة مؤكّدةً جزاء الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، وذلك كلّ حسب درجته ومنزلته في الصبر.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للاتّصاف بما حثّ به ورعّب فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) للعمل بهذه الصفات والأعمال الحسنة التي هي سبيل النجاة وطريق صالح الأعمال، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الزمر: آية ١٠.

الخطبة السابعة والسبعون

نفحات أخلاقيّة من وصايا الإمام الحسن العسكري عليه السلام

بتاريخ: ١٤ / ٣ / ٢٠٠٨ م

﴿ إحياء أمر أهل البيت عليه السلام ﴾

﴿ وصيّة الإمام الحسن العسكري عليه السلام ﴾

﴿ التقوى والورع ﴾

﴿ الوصول إلى التقوى والورع ﴾

﴿ صدق الحديث وأداء الأمانة ﴾

﴿ القرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة ﴾

﴿ حسن الجوار ﴾

﴿ الوحدة الإسلامية ﴾

﴿ الانتفاء الحقيقي لأهل البيت عليه السلام ﴾

﴿ خاتمة الوصيّة ﴾

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَأَلْهَمَنَا شُكْرَهُ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ لِنَسْلُكَهَا بِمَنْنِهِ إِلَى رِضْوَانِهِ، حَمْدًا يَرْتَفِعُ مِنَّا إِلَى أَعْلَى عَلَيَّيْنِ فِي كِتَابٍ مَرْقُومٍ ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١).
والصلاة والسلام على مَنْ بُعِثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهَادِيًا إِلَى الصِّرَاطِ الْقَوِيمِ، أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الْأَبْرَارِ الْمُخْلِصِينَ، وَأَصْحَابِهِ الْمُتَجَبِّينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ.

إِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ وَدُودٍ وَرَحْمَةٍ مِنْهُ وَبَرَكَاتٍ^(٢).

إحياء أمر أهل البيت عليه السلام

إِنَّ الْقَصْدَ مِنْ إِحْيَاءِ الْمُنَاسَبَاتِ الَّتِي تَخَصُّ ذِكْرَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ إِحْيَاءُ أَمْرِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا أَوْصَاوَاهُمْ بِذَلِكَ وَحَثَّوْا شِيعَتَهُمْ عَلَيْهِ شَدِيدًا، وَأَكَّدُوا عَلَيْهِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا مَا وَرَدَ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «أَحْيُوا أَمْرَنَا، رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا»^(٣).

(١) الصحيفة السجّادية: ص ١٨٦.

(٢) صادف أن أوقع سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي - حفظه الله - هذه الخطبة قبل شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام بيومين، والتي تُصادف في الثاني من شهر ربيع الأول، لذلك جعل موضوع الخطبة ذكر مقطع من مرويات الإمام الحسن العسكري عليه السلام في الأخلاق والآداب الإسلامية.

(٣) الحر العاملي، محمد بن الحسن، هداية الأئمة: ج ٥، ص ١٣٧، ح ٨٦٠.

لكن ما المقصود بهذا المعنى من الإحياء؟ وما هو المعنى الذي يُريده أهل البيت (عليه السلام) حين يؤكدون على إحياء أمرهم في مثل هذه المناسبات؟ فهل مجرد سرد مناقبهم وفضائلهم ومنزلتهم عند الله والاستماع إلى ذكرها هو الإحياء لأمرهم، أم أنّ المقصود من مضمون هذه الأحاديث الإشارة إلى معنى من الإحياء أعمق من ذلك؟

لذا يسأل أحد أصحاب الإمام الرضا - وهو عبد السلام بن صالح الهروي - عن المقصود من إحياء أمر أهل البيت (عليه السلام)؟ فيُجيبه الإمام الرضا بقوله: «يتعلم علومنا ويعلمها الناس»^(١).

إنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ أهل البيت (عليه السلام) هم الوعاء الحقيقي الذي يحمل علوم الشريعة الإسلامية وعلوم القرآن الكريم ويحيوها، وهم الامتداد الحقيقي للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

(١) الصدوق، محمد بن عليّ، عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ج ١، ص ٢٧٥. حدّثنا عبد الواحد بن محمد بن عبدوس النيسابوري العطّار (رحمته الله)، قال: حدّثنا عليّ بن محمد بن قتيبة النيسابوري، عن حمدان بن سليمان، عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت أبا الحسن عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا». فقلت له: وكيف يُحيي أمركم؟ قال: «يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لا تبعونا». قال: قلت: يابن رسول الله، فقد رُوي لنا عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: «مَنْ تعلّم علماً لِيُباري به السفهاء، أو يُباهي العلماء، أو لِيُقبل بوجوه الناس إليه فهو في النار». فقال (عليه السلام): «صدق جدّي (عليه السلام). أفتدري مَنْ السفهاء؟». فقلت: لا يابن رسول الله. قال (عليه السلام): «هم قصاص مخالفينا. أو تدري مَنْ العلماء؟». فقلت: لا يابن رسول الله. فقال: «هم علماء آل محمد (عليه السلام) الذين فرض الله طاعتهم وأوجب مودّتهم». ثم قال: «أو تدري ما معنى قوله: أو لِيُقبل بوجوه الناس إليه؟». فقلت: لا. فقال (عليه السلام): «يعني و[الله] بذلك ادّعاء الإمامة بغير حقّها، ومَنْ فعل ذلك فهو في النار».

وَمَنْ يَمَثْلُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُنْشِرُ شَرِيعَتَهُ وَأَحْكَامَهُ، وَهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يُعْتَبِرُونَ الْقُدُوةَ السَّامِيَةَ وَالْحُسْنَةَ لِلْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَقَدْ جَسَّدُوهَا بِأَعْلَى مَرَاتِبِهَا. لَذَا عَلَيْنَا الْاِقْتِدَاءَ بِهِمْ فَتَتَعَلَّمْ عُلُومَهُمْ وَمَا يَسْتَتْبِعُهَا مِنْ أُمُورِ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّطْبِيقِ؛ لِكَيْ نَجْعَلَهَا مِنْهَجًا عَامًّا فِي الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ.

إِذَا مَعْنَى الْإِحْيَاءِ الْحَقِيقِيِّ هُوَ الْاِقْتِدَاءُ بِسِيرَتِهِمْ وَتَعَلُّمِ عُلُومِهِمْ وَتَطْبِيقِهَا وَتَعْلِيمِهَا شِيعَتَهُمْ، وَكَذَا السَّيْرُ عَلَى هَدْيِهِمْ وَالتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِمْ.

وَصِيَّةُ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام

مِنْ هُنَا جَعَلَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ الْعَسْكَرِيُّ عليه السلام مِنْ جَمَلَةِ الْمَهَامِّ الَّتِي أَوْلَاهَا عَنَانِيَّتُهُ وَاهْتِمَامُهُ وَرِعَايَتُهُ الشَّدِيدَةَ، هُوَ تَرْبِيَةِ شِيعَتِهِ وَاتِّبَاعَهُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ فِي الْإِسْلَامِ، مِنْ خِلَالِ بَعْثِ الرِّسَالَاتِ وَالتَّوَصِّيَّاتِ إِلَى أَصْحَابِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنْهُ يَنْقُلُونَهَا إِلَى شِيعَتِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ، وَيُحَثُّونَهُمْ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَتَطْبِيقِهَا.

وَكَانَ مِنْ جَمَلَةِ تِلْكَ التَّوَصِّيَّاتِ وَصِيَّةٌ أَوْصَى بِهَا بَعْضَ مَوَالِيهِ وَشِيعَتِهِ، ذَكَرَ فِيهَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْحَمِيدَةِ حَثَّ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهَا، أَهَمُّهَا ذَكَرَ التَّقْوَى وَالْوَرَعَ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ.

يَقُولُ الْإِمَامُ الْعَسْكَرِيُّ عليه السلام فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ: «أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْوَرَعِ فِي دِينِكُمْ، وَالْاجْتِهَادِ لِلَّهِ، وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَّاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكُمْ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَطُولُ السَّجُودِ، وَحَسَنُ الْجَوَارِ، فَبِهَذَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. صَلُّوا فِي عَشَائِرِهِمْ، وَأَشْهَدُوا جَنَائِزَهُمْ، وَعُودُوا مَرْضَاهُمْ، وَأَدُّوا حَقُّوقَهُمْ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا وَرَعَ فِي دِينِهِ وَصَدَقَ فِي حَدِيثِهِ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَحَسَّنَ خَلْقَهُ مَعَ النَّاسِ، قِيلَ: هَذَا شِيعِي، فَيَسْرَنِي ذَلِكَ. اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا زِينًا وَلَا تَكُونُوا شَيْنًا، جَرَّوْا إِلَيْنَا كُلَّ مُودَةٍ وَادْفَعُوا عَنَّا كُلَّ

قبيح، فإنّه ما قيل فينا من حسن فنحن أهله، وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك. لنا حقّ في كتاب الله وقرابة من رسول الله، وتطهير من الله لا يدّعيه أحد غيرنا إلّا كذاب. أكثروا ذكر الله، وذكر الموت، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي ﷺ، فإنّ الصلاة على رسول الله ﷺ عشر حسنات. احفظوا ما وصّيتكم به، واستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام»^(١).

التقوى والورع

إنّ أوّل ما يوصي به الرسول ﷺ والإمام أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة المعصومون من ولده عليهم السلام في خطبهم وأحاديثهم ورسائلهم هي التقوى، وكذا أئمة الجمعة في خطبهم؛ فإنّ التوصية بالتقوى أوّل ما تتصدّر الخطب والرسائل؛ وذلك لما أكّدت عليه الآيات القرآنيّة الكثيرة التي ذكرت التقوى والمتّقين، وحثّت على الالتزام بها، وبيّنت جزاء المتّقين^(٢)؛ وذلك لأنّها السبيل الذي ينتهجه الإنسان للوصول إلى السعادة وتحقيق الأهداف والكمالات التي يريجوها.

لذلك نلاحظ ذكرها في وصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام لشييعته قائلاً: «أوصيكم بتقوى الله والورع في دينكم».

فقد ذكر الإمام عليه السلام صفتين مهمّتين في علم الأخلاق والسلوك، وهما، التقوى، والورع. ولا بدّ أن نتفهّم معنى التقوى والمقصود بها والمراد منها، وكذلك الورع؛ حتى يمكننا أن نحثّ النفس على الالتزام بهاتين الصفتين.

(١) ابن شعبة الحرّاني، عليّ بن الحسين، تحف العقول عن آل الرسول ﷺ: ص ٤٨٧.

(٢) كما في السور التالية: البقرة: آية ١٩٤، ١٩٧. الأعراف: آية ٢٦. الحجّ: آية ٣٧. آل عمران: آية ٧٦.

التوبة: آية ٤، ٧. الحجر: آية ٤٥، وغيرها الكثير من الآيات القرآنيّة الأخرى.

المقصود من التقوى^(١) هو اتقاء الأمور التي تجرّ الإنسان إلى النار والعذاب في الآخرة، وهذا الاتقاء يتحقّق من خلال الالتزام بأوامر الله تعالى وتطبيقها، والاجتناب عن نواهيه وما حرّمه.

والمقصود من الورع^(٢) هو تنزيه النفس عن الوقوع في المحرّمات، سواء كانت

(١) ورد في الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة قوله في تعريف التقوى: «قال في (المجمع): والتقوى فعل كنجوى، والأصل فيه وقى من وقيته منعه. فُلبت الواو تاءً. قال: والتقوى في الكتاب العزيز جاءت لمعانٍ: الخشية والهيبه، والطاعة والعبادة، وتنزيه القلوب عن الذنوب، وهذه - كما قيل - هي الحقيقة في التقوى دون الأولين. هذا في أصل التقوى... وفي (السفينة) قال المجلسي: التقوى من الوقاية، وهي في اللغة فرط الصيانة، وفي العرف صيانة النفس عمّا يضرّها في الآخرة، وقصرها على ما ينفعها فيها...»

وأحسن حديث في تعريف التقوى وبيان أقسامها ما في (مصباح الشريعة)، قال الصادق عليه السلام: التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى بالله في الله، وهو ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهو تقوى خاصّ الخاصّ. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلاً عن الحرام، وهو تقوى الخاصّ. وتقوى من خوف النار والعقاب، وهو ترك الحرام، وهو تقوى العامّ...». الكربلائي، جواد بن عباس، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة: ج ٣، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) «معنى الورع لغةً: يقول صاحب (تاج العروس): الورع محرّكة التقوى والتحرّج والكفّ عن المحارم... وأصل الورع الكفّ عن المحارم ثم استُعير للكفّ عن الحلال والحرام... أمّا معناه الشرعي فيقول الجرجاني في كتابه (التعريفات): الورع هو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرّمات». ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الدين محمد، الورع: ص ٦.

«وسئل الإمام الصادق عليه السلام مرّة عن تعريف الورع من الناس ليعرفوا بذلك حقيقة الورع؟

من الأطعمة والأشربة، أم المعاملة والأفعال، أم الأقوال، أم غيرها من المحرمات المتنوعة الكثيرة؛ فإنّ الإنسان إذا نزه نفسه عن كلّ ذلك عدّ من الورعين.

وإنّما أوصى الإمام العسكري عليه السلام شيعته بالتقوى والورع، لما لهما من المنزلة في الشريعة الإسلامية المقدّسة، وللترايط والتلازم بينهما من جهة، وبين انتساب الإنسان إلى الشيعة الحقيقيين من جهة أخرى، بمعنى وجود ملازمة بين كون الإنسان شيعياً حقيقياً وبين اتصافه بالتقوى، فلا يُسمّى شيعياً إلّا إذا كان متّقياً، كما تُبيّن الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليه السلام ذلك.

فقد بيّن الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام منزلة التقوى بالنسبة إلى العبادة في حديث له يقول عليه السلام فيه: «إنّ أشدّ العبادة الورع»^(١).

ثم يفرض الإمام الباقر عليه السلام الملازمة بين الشيعي الحقيقي والتقوى، قائلاً في بيان الشيعي الحقيقي الذي يتبع أهل البيت عليه السلام، وهو صادق في اتّباعه لهم بقوله: «فوالله ما شيعتنا إلّا من اتقى الله وأطاعه»^(٢).



فقال عليه السلام: الذي يتورّع عن محارم الله عزّ وجلّ. المظفر، محمّد حسن، الإمام الصادق: ج ٢،

ص ١٨. الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٧، ح ٨.

وفي (معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة): «الورع لغة: التحرّج والتوقّي عن المحارم، ثم استعير للكفّ عن الحلال المباح. وعرف بأنّه اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات». عبد المنعم، محمود بن عبد الرحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهيّة: ج ٣، ص ٤٧١.

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٧.

(٢) عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قال أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: «يا جابر، أيكفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلّا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون - يا جابر - إلّا بالتواضع، والتخشّع، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والتعهد للجبران



إنّ النتائج التي يرجوها الإنسان ويتوخّاها عند التزامه بالورع وتقوى الله تعالى هي نتائج كبيرة وكثيرة في الدارين الدنيا والآخرة، تؤدّي إلى رضا الله تعالى والسعادة. فهما يكشفان الهموم، ويدلّان المصاعب، ويحلّان المشكلات، ويجلبان الرزق، ويزيدان في العمر، وغير ذلك من الأمور الصالحة في الدنيا والآخرة التي يتوخّاها الإنسان لنفسه من خلال التزامه بهما.

الوصول إلى التقوى والورع

ولأهميّة التقوى في حياة الإنسان وآخرته - ولما في الاتّصاف بها من غاية سامية وكبيرة، ونتائج تُسعد الإنسان في داريه - تعلّمنا أهل البيت عليهم السلام كيفية الوصول إلى التقوى وإحراز ملكتها، فيقول النبي صلى الله عليه وآله في موعظة يُلقى بها على أبي ذر الغفاري: «يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتّقين حتى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلّ ذلك أم من حرام»^(١).

إنّ محاسبة النفس هي طريق الوصول إلى التقوى، فقد أوضح الرسول الله صلى الله عليه وآله جليّاً في الحديث المتقدّم ذلك، ممثلاً لهذه المحاسبة بمحاسبة الشريك شريكه في العمل أو التجارة، فكما أنّ الشريكين يتحاسبان في كلّ يوم على أمر شرّكتهما



من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلّا من خير، وكانوا أئمناء عشائهم في الأشياء». الصدوق، محمد بن عليّ، الأمالي: ص ٧٢٤.

(١) الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي: ج ٢٦، ص ١٩٦، باب مواظب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وتجارتها وعملها لتفادي الخسارة والنقصان، ولكي يأخذ كل شريك حقه حتى لا يكون مغبوناً أو خسراناً، كذلك جعل النفس شريكاً للإنسان يجب أن يحاسبها يومياً للوصول إلى ملكة التقوى.

إذاً من خلال هذه الملكة يجني الإنسان أرباحه ويدفع خسارته، فيبدأ الإنسان بمحاسبة نفسه عن مطعمها ومشربها وملبسها ومن أين جاءت بكل هذا الرزق، أمن حلال أو حرام؟

فإذا حاسب الإنسان نفسه ضمن صحّة عمله وكسبه ورزقه وطريق ذلك، وبهذه الطريقة يصل إلى مرتبة التقوى المنجية التي يُريدها الله تعالى لعباده، والتي يُشير إليها أهل البيت (عليهم السلام) في كون الشيعي الحقيقي هو المتقي من الناس.

من المؤكّد بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قد ذكر المطعم والمشرب والملبس من باب المثال لا الحصر؛ فإنّ محاسبة النفس محاسبة يومية لا تقتصر على هذه الثلاثة فقط، وإنّما كلّ ما يدخل في دائرة تصرّف الإنسان وما يصدر عنه من قول أو فعل يجب على الإنسان أن يُحاسب نفسه عليه، فحري بالإنسان أن يجعل لنفسه خلال يومه وليلته بضع دقائق للمحاسبة ومراجعة السلوك الذي مارسه خلال الساعات الماضية؛ فإنّ لكلّ إنسان صوت إلهي يُرشده إلى عمل الخير ويحنبه عمل الشرّ أو السوء، يُرشده إلى الطاعة وينهاه عن المعصية، لكن في المقابل هناك شهوات نفسانية وهوى شيطاني قد يتغلّب على أصوات الطاعة داخل نفس الإنسان، فيغلب صوت المعصية والشرّ والسوء صوت الخير والطاعة في نفس الإنسان، فيفقد بذلك ملكة التقوى.

لذلك لا بدّ أن يختلي الإنسان مع نفسه ليتحقّق من سلوكه وأفعاله وأقواله؛ لكي يرى هل أنّ ما قام به من أعمال مقبول عند الله عزّ وجلّ أم مرفوض؟ فإذا كان من الأوّل فيسعدّه ذلك، وإذا كان من الثاني أنّب نفسه وحاسبها على صدور المعصية منها، وتعهدها بأن تلتزم بطاعة الله واجتناب معاصيه.

أما الورع فهو من آثار معرفة الله الحقيقية والخوف منه، فعندما يكون موقف الإنسان شديداً أمام الواجب والمحرم، بأن يجعل الله نصب عينيه عندهما، فيعمل ما يجب من الواجبات ويترك أو يرفض ما هو حرام مما ذكره الله تعالى في المحرمات؛ إذ لا يكون في هذه المواقف قاهر غير النفس والدين، فيعرف بذلك حقيقة الورع. لذلك ورد في وصية النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري في هذا المعنى قوله: «يا أباذر، كن ورعاً تكن أعبد الناس، وخير دينكم الورع»^(١).

صدق الحديث وأداء الأمانة

إِنَّ مَنْ تَبَعَ أَحَادِيثَ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام الْوَارِدَةَ فِي الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاللِّتِمَاطَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، يَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهَا يُؤَكِّدُ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُهِّمَةِ الْحَيَاتِيَّةِ وَالْعِبَادِيَّةِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي تَحْتَمُّ عَلَى الْفَرْدِ تَطْبِيقَهَا وَأَدَائُهَا مِنْ أَجْلِ حِفْظِ نَفْسِهِ وَحِفْظِ مَجْتَمَعِهِ، وَرَبْطِ الْأَوَاصِرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِمَا يَضْمَنُ لَهُ وَلَهُمُ التَّعَايُشُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْوَدِّ وَالسَّلَامِ وَالتَّآخِي وَتَبَادُلِ الْاحْتِرَامِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْاَلْتِمَاطَاتِ الْحَيَاتِيَّةِ.

فهناك الكثير من الأحاديث تؤكد على أداء الصلاة والإكثار منها، وكذلك الصوم والإكثار منه، والدعاء والإكثار منه؛ فإنَّ أداء هذه العبادات بشروطها له موقع كبير ومنزلة كبيرة في نفس الإنسان، لذلك يؤكِّد الأئمة عليهم السلام على هذه المضامين والمعاني الأخلاقية والعبادية السامية، والتي منها ما ورد في وصية الإمام العسكري - موضوع البحث - فإنه في المقام بعد أن أوصى بالتقوى والورع يبدأ بالإشارة إلى مجموعة من الآداب الإسلامية التي تنظم الصلة بين العبد وربِّه، وبينه

(١) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق: ص ٤٦٨.

وبين أبناء مجتمعه، فقال عليه السلام: «... وصدق الحديث وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم من برٍّ أو فاجر، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلّى الله عليه وآله».

فقد أكد عليه السلام على السلوكيات التي يجب أن يهتم بها العبد من أجل سلامة دينه وارتباطه مع ربه وأفراد مجتمعه، فقد أكد على صدق الحديث مع الناس؛ فإنه يجب أن يكون صادقاً في حديثه، وأداء الأمانة لهم مهما كان الإنسان الذي أودع الأمانة، سواء كان برّاً أو فاجراً، فإن الأمانة يجب أن تؤدّى إلى صاحبها وإن لم يكن ملتزماً بالعبادة، لذلك يؤكد الرسول صلّى الله عليه وآله على هذا المعنى المهم بقوله: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحجّ، والمعروف، وطنطنتهم بالليل، أنظروا إلى صدق الحديث وأداء الأمانة»^(١).

إن كثرة الصوم أو الصلاة إذا صدرت من أحدهم لا تكشف عن الالتزام الديني أو الأخلاقي عند ذلك الشخص؛ إذ ربّما يكون ذلك من الأمور التي قد اعتاد على الإكثار منها، فلا يُنظر إلى كثرة صلاة الإنسان أو صومه، وإنّما الحديث الشريف يؤكد على صدق حديثه وأداء أمانته؛ فإنّهما من جملة الأمور التي تكشف عن خبايا الإنسان وما يحويه قلبه من حبّ والتزام بالعبادات والسلوك والأخلاق الإسلامية.

نعم، الصدق مفهوم عامّ وإن ذُكر في المقام بما يخصّ الحديث مع الآخرين والإخبار عن الأشياء والحوادث والوقائع، فهو أعمّ من ذلك، فهناك الصدق في النية، والصدق في العزم، والصدق في الوفاء بالعهد، والصدق في المقامات الدينية. ومعنى الصدق في النية أن يكون الإنسان صادقاً في نيّته مع الله بأن تكون خالصةً له

(١) الفتاوى النيسابورية، محمد بن الحسن، روضة الواعظين: ص ٣٧٣.

تعالى، ومعنى الصدق في الوفاء بالعهد أن يكون صادقاً في وعده مع الناس وعهده إليهم ومع الله تعالى. وكذلك يكون صادقاً في توكله على الله تعالى، وهكذا الصدق في كل شيء يعتزم فعله.

وكذلك الأمانة؛ فإن معناها واسع أيضاً؛ فإن معنى الأمانة التي طلب الحديث الشريف رعايتها وحفظها وأدائها ليست أمانة المال فقط، وإنما هناك أمانة العرض؛ فإن عرض المؤمن أمانة في عنق أخيه المؤمن يجب أن يحافظ عليها. وكذلك عيوب الإنسان المؤمن أمانة يجب حفظها وسترها وعدم إفشائها. هذا هو المعنى الواسع الذي يُريده الإسلام من أداء الأمانة، لكن التركيز الأكبر جاء على أداء الأمانة المالية؛ لأنها هي الأشهر في الأوساط الاجتماعية.

القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة

صدق الحديث وأداء الأمانة من جملة المواصفات الأخلاقية والالتزامات الاجتماعية المهمة التي لها منزلة عظيمة عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ذكر هذا المعنى في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد هذه الالتزامات من أجل الترغيب في الالتزام بهذه الأخلاقيات، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رواية يرويها جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقربكم مني في الموقف غداً أصدقكم حديثاً، وأداكم أمانةً، وأوفاكم بالعهد، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم إلى الناس»^(١).

لا شك بأن القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة له فوائد كبيرة، أهمها شمول

(١) المفيد، محمد بن محمد، الأمالي: ص ٦٧.

القريب منه ﷺ بشفاعته؛ فإنَّ القرب المكاني لوحده من غير لوازمه الأخرى ربَّما لا ينفع الإنسان، ولعلَّ المؤمنين يوم القيامة كلَّهم يتمنَّون ذلك القرب ومجاورة الرسول ﷺ، وربَّما يحصل تراحم بينهم على ذلك.

لكنَّ النقطة الحساسة في المقام أنَّه لا يُؤذن لكلِّ شخص يطلب ذلك القرب منه ﷺ بالتقرُّب، وإنَّما هناك مجاميع من الناس يُؤذن لهم في ذلك لأسباب، منها أنَّهم اتَّصفوا بالصفات التي ذكرها الحديث المتقدِّم عنه ﷺ، وهي: صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وحسن الخلق. فإنَّ مَنْ اتَّصف من المؤمنين بهذه الصفات أو بعضها نال تلك الدرجة من القرب من رسول الله ﷺ، واستحصل لوازمها من الشفاعة والغفران وغيرهما.

لم يؤكِّد الحديث - المتقدِّم - على كثرة الصلاة والصيام في نيل مرتبة الدنو والقرب من الرسول ﷺ، وإنَّما ذكر صفات أخلاقية أخرى غير الفرائض والواجبات التي يجب أداؤها، فكانت تلك المجموعة من الصفات الأخلاقية والالتزامات الاجتماعية هي المعيار والميزان يوم القيامة في ذلك الدنو.

حسن الجوار

قال الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): «... وحسن الجوار».

حسن الجوار هو الآخر من الالتزامات الأخلاقية والاجتماعية المهمة التي أكَّدت عليها الشريعة الإسلامية وأحاديث أهل البيت (عليهم السلام).

وليس المقصود بحسن الجوار هو كفِّ الأذى عنه فقط؛ فإنَّ هذا أدنى حقوق الجار على جاره، وليس الحقوق محصورةً في زيارته وعيادته في مرضه، وتشيع جنازته، وحضور مجلس فاتحته؛ فإنَّ هذه الالتزامات الاجتماعية هي من الأمور المعروفة والسهلة الأداء عند الناس والجوار، وإنَّما هناك حقوق كبيرة يجب الالتفات إليها، وهي مشاركته في سرَّائه وضرَّائه، بمعنى أن يُشارك الجار جاره في أحزانه إذا حزن، وأفراحه

إذا شعر منه أنه يفرح، ويتجسّد كلّ ذلك في الأمور التي يواجهها الإنسان في حياته اليومية، كالقاء السلام على الجار والمبادرة بذلك، وتقديم يد العون والمساعدة له في حالة احتياجه إلى ذلك، فإنّ الجار هو أقرب الأشخاص إلى جاره، وهي علاقة إسلامية مهمّة في المجتمع تقوم على أساس ومبدأ تبادل الاحترام وعدم الإساءة بالقول والفعل.

ولعلّ من أهمّ حقوق الجار على الجار في الوقت الحاضر هي ستر عيوبه وعورته، ونصحه بطريقة يتخلّلها الأدب وعدم الإساءة، فإذا علم الإنسان بأنّ في جاره مجموعة عيوب أخلاقية أو اجتماعية لا تناسب شأنه، أو لا تليق بوضعه الإسلامي أو الاجتماعي، كأن يكون العيب في أحد أولاده - مثلاً - أو في زوجته؛ فإنّ من حقّ هذا الجار أن يستر عليه ذلك ولا يُفشيهِ للآخرين، فلا يُحدّث بهذا العيب أحداً من الناس ولا يتكلّم فيه، وإنّما عليه نصحه سرّاً من دون أن يشعره بالانتقاص أو الإهانة، حتى يصلح هذا العيب من غير أن يشعر الناس به.

إنّ من أبرز ما ورد عن الرسول صلّى الله عليه وآله في هذا الصدد - حقوق الجار - الحديث المشهور عنه في كثرة الوصية بالجار حتى ظنّ بعضهم أنّه سوف يورثه، بأن يجعله من الأرحام الذين يرثون تركه رحمهم الميّت، بأن يكون حاله حال الابن أو الأخ في استحقاقه من أرث الميّت. كلّ ذلك لأجل التأكيد على هذه الحقوق المهمّة التي تنظّم سير الحياة داخل المجتمع فيما إذا حفظ الجار حقّ جاره، لذلك ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لأولاده قبل شهادته عليه السلام قوله: «الله الله في جيرانكم، فإنّه وصية نبيكم صلّى الله عليه وآله، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنّه سيورثهم»^(١).

(١) الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج ٢، ص ٥٩.

فهذا تأكيد شديد من رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام على الاهتمام بالجوار، لذلك لا بدّ أننعكس هذا التأكيد على واقعنا المعاصر ونحفظ حقوق الجيران بما يناسب شأنهم وحالهم، وضمان سير نظم الحياة الاجتماعية في صفوف المجتمع، كلّ ذلك لأجل أن نكون صادقين في انتبائنا لأهل البيت عليهم السلام من خلال التزامنا بما رسموه لنا من مكارم أخلاق وسلوك، فإنّ هذا الالتزام هو ضريبة هذا الانتماء والولاء.

الوحدة الإسلامية

من هنا يكرّر الإمام العسكري هذا المعنى في وصيّته لشيّعه وأصحابه ومواليه بقوله: «... فهذا جاء محمد ﷺ، صلّوا في عشائرهم، وأشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم...»، مُشيراً إلى مسألة مهمّة يؤكّد عليها الأئمّة كثيراً، وهي الحفاظ على الوحدة الإسلامية بين أبناء الأُمّة الإسلامية وإن اختلفت مذاهبهم ومشاربهم، فإنّ الأئمّة عليهم السلام يُريدون لأبناء هذه الأُمّة الإسلامية أن يعيشوا أجواء المحبّة والتآلف والإخوة، وتبادل أخلاقيات الوثام والترابط بينهم، والالتزام بأداب المعاشرة وإن كان هناك اختلاف في المذاهب، فإنّ المعاشرة بالحسنى والمخالطة من خلال الوصول إليهم، وحضور جنائزهم، وعيادة مريضهم، يعتبر من أداء الحقوق.

إنّ الظروف العصيبة التي يمرّ بها الشعب العراقي اليوم تُحتمّ على أبناء مجتمعه أن يكونوا أكثر التزاماً بهذه الوصايا؛ للحفاظ على وحدتهم؛ فإنّ العصابات والجهات الخارجية التي تبغض هذا الشعب تُريد إثارة الفتنة الطائفية بين صفوفهم؛ ليتقاتلوا ويتناحروا فيما بينهم، حتى تكون تلك العصابات والجهات هي المستفيدة من ذلك. لذا نوصي جميع أبناء مجتمعنا بالالتزام بما يطرحه علينا أئمّتنا عليهم السلام من تعاليم ودروس أخلاقية سامية تحفظ لنا أنفسنا وعيشنا الكريم وإن

اختلفت مذاهبنا وطوائفنا؛ فإنّ ذلك - دون شكّ - يقضي على تلك الفتنة من جانب، ويبرز السمعة الطيبة للمتممين لأهل البيت عليهم السلام من جانب آخر، ويكشف عن صدق الولاء لهم من جانب ثالث.

يقول الإمام العسكري في الوصية أيضاً «... فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق في حديثه، وأدّى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا شيعي، فيسرني ذلك».

الانتماء الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام

إنّ الانتماء الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام الذي يُشير إليه الإمام العسكري حينما يقول: «قيل: هذا شيعي، فيسرني ذلك»، يحتاج إلى الالتزام بما ذكره الإمام عليه السلام من صفات أخلاقية سلوكية حسنة، فلا يقال: بأنّ هذا شيعي فيسر الإمام عليه السلام بذلك إلّا إذا انعكست هذه الصفات على سلوك الإنسان وجسدها عملياً، وبذلك يعكس السمعة الطيبة التي تكشف عن سمعة هذا المذهب، الذي هو مذهب أهل البيت عليهم السلام، فيدخل السرور والفرح على قلوب أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الأخلاق السيئة والمعاشر السيئة مع أفراد المجتمع فهي لا تكشف عن كون صاحبها شيعياً جعفرياً؛ لأنّها ليست من صفات وأخلاق أهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ المنتسبين لأهل البيت عليهم السلام لا يصدر عنهم مثل هذه الأعمال السيئة التي تسيئ لصاحبها وللمذهب. لذلك قد يفتي الفقيه بحرمة بعض الأمور أو التصرفات؛ لأنّها توهن سمعة مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ومن هنا؛ يوصي الإمام عليه السلام في هذه الكلمات شيعة صراحةً بأن يكونوا أهلاً لهذا الانتساب الحقيقي الذي يكون زيناً لأهل البيت عليهم السلام لا شيناً عليهم، والذي

يجرّ إليهم المودّة ويدفع عنهم القبيح، فيقول: «اتّقوا الله، وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً، جرّوا إلينا كلّ مودّة وادفعوا عنا كلّ قبيح، فإنّه ما قيل فينا من حسن فنحن أهله، وما قيل فينا من سوء فما نحن كذلك، لنا حقّ في كتاب الله وقرابة من رسول الله، وتطهير من الله لا يدعيه أحد غيرنا إلّا كذاب».

فالانتساب لمذهب أهل البيت ﷺ شرف لا يُضاهيه شرف، وفخر لا يُعادلّه فخر، وسعادة ليس مثلها سعادة، وهو مصدر العزّة والكرامة، لكنّ كلّ ذلك مشروط بالانتماء والانتساب الحقيقي لمذهب أهل البيت ﷺ، الذي يستدعي دفع الضرائب الباهظة، وهي كون الإنسان ملتزماً عملياً وسلوكياً بسيرة أهل البيت ﷺ، وأوّل هذه الالتزامات هي التقوى، لذلك يكرّر الإمام ﷺ ذكر التقوى مرّةً أخرى؛ لأنّها قوام الانتماء الحقيقي لمذهبهم ﷺ وانتساب الموالى الحقيقي لهم، فيقول: «اتّقوا الله».

ثم يردف ذلك بما يصلح الإنسان حاله من سيرة حسنة في تعامله ومعاشرته مع الناس بالخلق الحسن الذي يعكس السمعة الطيّبة، فيكون زيناً ولا يكون شيناً. إنّ إساءة الخلق وارتكاب المعاصي والمحرّمات لا يعكس السمعة السيّئة على المرتكب فقط، وإنّما يعكس تلك السمعة على المذهب الذي يدّعي الانتماء إليه أيضاً، وعلى الطائفة التي يدّعي الانتساب إليها، وبذلك يكون شيناً على أهل البيت ﷺ إذا كان يدّعي الانتماء لهم وهو يرتكب المعاصي والمحرّمات، الأمر الذي لا تظهر معه المودّة لأهل البيت ﷺ ولا يُحبّب نفوس الآخرين الانتماء لهذا المذهب، ولا يدفع القبح عنهم، على الرغم من أنّ أهل البيت ﷺ مهما قيل فيهم من حسن فهم أهله ومعدنه وأصله، ومهما قيل فيهم من سوء فما هم كذلك؛ فإنّهم منه بُراء، فإذاً على الذي يدّعي الولاء لهم أن يعمل بسيرتهم الحسنة لكي يصدّق - بعمله - ادّعاءه هذا.

خاتمة الوصية

قال الإمام العسكري عليه السلام: «أكثرُوا ذكرَ الله، وذكر الموت، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله؛ فإنَّ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله عشر حسنات. احفظوا ما وصيْتُكم به، واستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام».

يُشير الإمام العسكري في ختام وصيته إلى مطالب مهمّة جداً تعود بنا إلى ما افتتحنا به الحديث أولاً، وهو إنَّ إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام الذي أكّد عليه أهل البيت عليهم السلام أنفسهم ليس بحضور المجالس التي تُقام في إحياء مناسباتهم والاستماع إلى فضائلهم ومناقبتهم؛ فإنَّ هذا جزء من الإحياء، وإنَّما الإحياء الحقيقي هو أن نعمر قلوبنا بتعلّم علومهم، ونطبّق هذه العلوم في حياتنا اليومية وسيرتنا العملية، وأن نسعى لنشرها بين الناس.

هذا بالإضافة إلى الالتزام بما يوصي به أهل البيت عليهم السلام من التخلّق بالصفات الحميدة الفاضلة التي تنفع المؤمن يوم القيامة، وقد ذكر منها الإمام العسكري أخيراً الإكثار من ذكر الله تعالى، والإكثار من ذكر الموت، وتعهّد تلاوة القرآن الكريم، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام.

هذه جملة الأمور التي تُحسّن علاقة الإنسان مع الله تعالى ربّه، التي هي محور وجوده على الأرض؛ فإنَّ من علامات حبّ الإنسان لربّه هي الإكثار من ذكره بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير وغيرها من الأذكار.

وعلى الإنسان أن يُهيئ نفسه لملاقاة حتفه بالموت في أيّ وقت؛ فإنَّ ذكر الموت والإكثار منه يدفع بالإنسان إلى محاسبة نفسه ومراجعتها؛ حتى تكون جاهزةً للقاء ربّها عند موتها.

وتلاوة القرآن وتعهده عبادة يُثاب المرء عليها، والمداومة على التلاوة والغوص في معاني الآيات والتدبر فيها فيه من الأجر والثواب الشيء الكثير؛ إذ تجعل قلب الإنسان مطمئناً وساكناً؛ فإن القلب يزداد ثبوتاً بقراءة القرآن.

وأما ما ذكره الإمام عليه السلام أخيراً من الصلاة على النبي ﷺ وآله الكرام، فإنها من العبادات التي شرف الله تعالى بها المسلمين، وهي تعني الدعاء والتمجيد والتعظيم والثناء، والإقرار بالفضل. ولها من الثواب والفضل الكثير، والأحاديث والروايات في فضلها عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة يطول المقام بذكرها. وقد ختم الإمام الحسن العسكري عليه السلام بها هذه الوصية، مشيراً بأن الصلاة الواحدة على النبي ﷺ بعشر حسنات.

نسأل الله تعالى أن نكون من الموالين الحقيقيين لأهل البيت عليهم السلام، ومن أوائل الملتزمين بهذه الوصية المباركة.

السلام على الإمام الحسن العسكري يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يُبعث حياً.

والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثامنة والسبعون

نفحات أخلاقية مستوحاة من كلام الإمام عليّ عليه السلام

بتاريخ: ٢٨ / ٣ / ٢٠٠٨ م

- ◀ نصّ خطبة الإمام عليّ عليه السلام
- ◀ المحطّة الأولى: النهضة الإصلاحية في الأمة الإسلامية
- ◀ المحطّة الثانية: الاستعداد والتهيؤ
- ◀ النقطة الأولى: التمحيص والغربة
- ◀ النقطة الثانية: التقوى
- ◀ الاعتبار بالأمم السابقة
- ◀ نماذج تاريخية للتعاظ والاختبار
- ◀ عودة الامتحان والاختبار
- ◀ الخطايا والتقوى
- ◀ الحقّ والباطل

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله أحقّ محمود بالحمد، وأولاه بالمجد، إلهاً واحداً صمداً»^(١).
والصلاة والسلام على أكرم خلق الله حسَباً، وأشرفهم نسباً، أبي القاسم محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين.
أوصيكم إخواني وأخواتي وجميع عباد الله - ونفسي المبادرة بالخطيئات
والأثمارة بالسوء - بتقوى الله تعالى.
نستعرض في هذه الخطبة كلاماً مهماً لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام حينما
بويع بالخلافة في المدينة، يُخبر به الناس بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم، ومبيناً ما
سيقبل على الأمة الإسلامية من أحداث بعد تولّيه الخلافة، فيقول:

نصّ خطبة الإمام عليّ عليه السلام

«ذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم: إِنَّ مَنْ صرّحت له العبر عما بين يديه من
المثالات حجزته التقوى عن تفحّم الشبهات. ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهيّتها يوم
بعث الله نبيّه صلّى الله عليه وآله، والذي بعثه بالحقّ، لتبْلُكُنَّ بَلْكَه، ولتُغْرَبَكُنَّ غَرْبَلَه، ولتُسَاطَنَّ سَوَط
القِدر، حتى يعود أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وَلَيْسَبِقَنَّ سابقون كانوا
قَصْرُوا، ولْيَقْصُرَنَّ سَبّاقون كانوا سبقوا. والله، ما كتمتُ وشمةً ولا كذّبت كذبةً، ولقد
نُبِّئتُ بهذا المقام وهذا اليوم، ألا وإنّ الخطايا خيلٌ شُمُسُ مُحل عليها أهلها، وخُلِعت

(١) المير جهاني، حسن، مصباح البلاغة (مستدرک نهج البلاغة): ج ٢، ص ٢٧٢.

جُمُها فتَحَمَّتْ بهم في النَّار. أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلٌّ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا، وَأُعْطُوا أَرْزَمَتَهَا فَأُورِدَتْهم الجَنَّةَ، حَقٌّ وباطل ولكلُّ أهل، فلئن أمر الباطل لقدياً فَعَل، ولئن قلَّ الحقَّ فلربَّما ولعلَّ ولقلَّما أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ»^{(١)(٢)}.

إنَّ من المعلوم عند أهل الاختصاص أنَّ الخطاب الصادر عن المعصومين عليهم السلام وإن كان المخاطبون به هم أهل ذلك الزمن الذي صدر النصُّ في وقتهم، لكنَّ هذا الخطاب ليس مختصاً بهم، وإنَّما الخطاب الصادر عن المعصوم عليه السلام هو خطاب لجميع الأمم والشعوب، منذ ذلك الزمن وإلى الأزمان اللاحقة.

لذا فالنصُّ الصادر عن الإمام عليه السلام الذي عرضناه وليس مختصاً بتلك الأمة التي كانت في عصره، وإنَّما تعمُّ أبناء مجتمعنا اليوم أيضاً، وقد وردت فيه التوصيات الأخلاقية والتربوية والثقافية، ممَّا يستحقُّ الوقوف عندها والاهتمام بها.

(١) نهج البلاغة، (تحقيق: صبحي صالح): ص ٥٧.

(٢) الرهينة: الوثيقة. والزعيم: الكفيل. وصرَّحت: كشفت. والعبر: جمع العبرة. والمثالات: العقوبات. الحجز: الحجب والمنع. وتقحَّم فلان: ألقى نفسه في المهلكة، وتقحَّم الإنسان في الأمر دخل فيه من غير روية.

وتَبَلَّلت الألسن: أي اختلطت، وفي (النهاية): البلابل المموم والأحزان، وبلبله الصدر وسوسسته، ومنه حديث علي عليه السلام: لتبليبلن بلبلة. وتُغْرِبُلُن: من غربل الدقيق أي: نخله، أو من غربلت اللحم أي: قطعته. وساط القدر يسوطه سوطاً: قلب ما فيها من الطعام بالمحرك وأداره حتى اختلط أجزاؤه. والسباق كشداد. والوشمة: بالشين المعجمة الكلمة، وبالمهملة الأثر والعلامة. وشُئِس كُرْسُل. واللُجْم - بضمتين - جمع لجام. وذُلُّ: جمع ذلول كُرْسُل ورسول، وهو المنقاد، قال سبحانه ﴿فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾. وأمر الباطل - بالكسر - إذا كثر وتمَّ. الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢١٨.

وقبل الخوض في شرح مفردات هذا النص الشريف وبيان مضامينه ومعانيه، نتوقف في محطتين يُشير إليهما كلام الإمام عليه السلام بصورة غير مباشرة.

المحطة الأولى: النهضة الإصلاحية في الأمة الإسلامية

يشهد تاريخ الأمم في كلّ زمان صراعاً بين الحقّ والباطل، صراعاً بين مَنْ يحمل نهج الإصلاح ومسيرة الاعتدال في الأمة الإسلامية، وبين مَنْ يُريد بقاء الفساد والضلال مخيماً عليها، لذا فلا بدّ للإنسان صاحب اللبّ من موقف شريف ينصر فيه الحقّ ويخذل الباطل.

من هنا يُشير الإمام عليه السلام بعد توليه الخلافة إلى نهضته الإصلاحية التي يعلم هو في قرارة نفسه بأنّها سوف تواجه بالرفض من قبل الكثير من أصحاب المصالح غير المشروعة، الذين كان همّهم الوحيد الاستئثار بأموال الأمة الإسلامية وثرواتها، والتسلّط على مقدراتها والعبث فيها، وجعل الدولة تحت تصرّفهم، فكانت نهضته الإصلاحية عليه السلام تتطلب عزمًا وحزمًا وشجاعةً من قبل المتصدّين المناصرين الذين عرفوا الإسلام وطبقوه وكانوا هم قادة الأمة.

يُحدّث الإمام عليه السلام الناس بأنّ مسلسلات الأحداث التي عصفت بالأمة والمجتمع عندما جاء رسول الله ﷺ برسالته وبُعث نبياً، سوف تعود ثانيةً بعد توليه الخلافة، فإنّ الله تعالى سوف يبتلي هذه الأمة الآن بمثل ما ابتليت به سابقاً حينما حمل النبي ﷺ رسالة الإصلاح والهداية للأمة، فكما كان هناك خطّ يقف ضدّ الرسالة السماوية التي بُعث بها النبي ﷺ وحاربها، كذلك يوجد خطّ سوف يقف ضدّ هذه النهضة الإصلاحية التي يُريد الإمام تحقيقها، فإنّه عليه السلام يشعر بأنّ هذه النهضة سوف تواجه بالرفض من قبل الذين لا يتسنّى لهم تطبيق التعاليم الإسلامية؛ لأنّها لا تصبّ

بصالحهم، فسوف تواجه برودة فعل قوية من قبل هؤلاء، لذا لا بدّ أن يكون هناك موقف شجاع وحازم ينصر جبهة الحقّ التي تُصارع الباطل.

إنّ الناس ينقسمون إلى قسمين إذا ما أُريد معرفة مواقفهم في هذا المجال، القسم الأوّل هو مَنْ نصر الحقّ ووقف بجانبه وضحّى من أجله، والقسم الآخر هو مَنْ ناصر الباطل ووقف معه محاولاً وأد مقوّمات الإصلاح ومبادئ النهضة الإصلاحية، والقضاء عليها وعلى مَنْ يحمل الهداية إلى البشرية.

من هذا المنطلق يجب أن يكون عند الإنسان المؤمن مبدأ وموقف يُعبّر به عن إيمانه برسالته، وعن صدق انتمائه لهذه الرسالة، يُعبّر به عن إيمانه برسالة السماء وبما جاء به النبي ﷺ، وبما يحدّثه الإمام عليّ عليه السلام من تجديد لهذه النهضة الإصلاحية الإسلامية، وهو موقف نصره الحقّ وأهله، الأمر الذي يتطلّب أن يكون الإنسان على علم ويقين بأنّ هذا يستتبعه جملة من المصاعب والابتلاءات والمشكلات، والتي يمكن التعبير عن ذلك كلّ بالتضحية؛ فإنّ نصره الحقّ تحتاج إلى الاستعداد للتضحية.

المحطة الثانية: الاستعداد والتهيؤ

إنّ من جملة ما يقرب المعنى في هذه المحطة هو مثال الطالب في المدرسة أو في الجامعة حينما يقترب موعد الامتحان والاختبار؛ فإنّه - والحال هذه - سوف يكون مستعدّاً وتهيئاً لذلك، بمعنى أن يسبق هذا الامتحان الاستعداد والتهيؤ له؛ وذلك لأنّ مستقبله ومصيره يتوقّف على هذا الاختبار، فإمّا أن يعرض نفسه للشقاء إذا فشل فيه، وإمّا أن ينال الكمال والسعادة بالنجاح. كذلك الإنسان في مسيرة حياته لا بدّ أن يتهيأ لكلّ شيء يُريد مواجهته أو الإقبال عليه، ولا سيّما إذا كان الأمر متعلّقاً بمصير الأُمّة الإسلامية الذي يُعدّ الإنسان نفسه عنصراً منها. لذلك تحتاج هذه النهضة الإصلاحية إلى الاستعداد والتهيؤ لنصرتها والوقوف بجانبها.

وترتكز هذه المحطة على نقطتين أساسيتين تُساعدان الإنسان على الاستعداد والتهيؤ للدخول في أي مشروع إصلاحي يعود على الأمة الإسلامية بالخير.

النقطة الأولى: التمهيص والغربة

إن من ضرورات السنّة الإلهية تعرّض الإنسان للغربة والتمهيص بالاختبار والامتحان، ففي كلّ زمان ومكان يبتي الله العباد جميعهم - المؤمن والكافر، المهتدي والضالّ، المطيع والعاصي له - بالتمهيص والغربة، وهو أمر لا مفرّ منه؛ وذلك كي يتعلّم الإنسان على المصاعب ومواجهة العضلات والمشكلات التي تُحيط به، ويعتبر منها حتى يمكنه التغلب عليها.

وكما أنّ الغربال يعزل الدقيق الخالص والجيد القابل للاستفادة منه عن غير القابل للاستفادة، كذلك هو تطبيق السنن الإلهية قانون هذا الغربال على أبناء الأمم في جميع الأزمنة، لتمييز الصالح عن الطالح، ويبرز المؤمن ويسقط غير المؤمن، فيتميّز من هو صادق بإيمانه وولائه، ومن هو كاذب ومخادع في ذلك الولاء والإيمان، يتميّز من يستحقّ الرضا من الله تعالى والثواب والجنة، ومن لا يستحقّ ذلك.

النقطة الثانية: التقوى

تقوى الله ومخافته ركيزة أساسية في الاستعداد لمواجهة أي شيء يحدث في حياة الإنسان؛ لأنّها ملكة نفسانية تحصل عند الإنسان عند التزامه وتقيده بسلوكيات خاصّة محبوبة عند الله تعالى والناس، تقربه من الله تعالى وتقوي الرابطة بين العبد وربّه، لذلك يكون متهيئاً لاستقبال كلّ ما يحدث له في الحياة.

يوجد في كلّ مجتمع وفي كلّ زمان خطّان أو جهتان متعارضتان، إحداهما جهة الهداية والإصلاح تدعو إلى الحقّ والتمسك به، والأخرى جهة الضلال والغواية

والدعوة إلى الباطل، وعادةً ما تتصارع هاتان الجهتان في المجتمع وكلّ واحدة منهما تدعو الناس إلى الالتحاق بها والانضمام إليها بعرض المغريات، الأمر الذي يُحدث صراعاً حاداً داخل نفس الإنسان يدعوه للتمسك بالشرّ ووسوسة الشيطان من جانب، وللالتحاق بجهة الحقّ من جانب آخر، فكيف يستطيع الإنسان أن ينجح ويخرج منتصراً من هذا الصراع مع كثرة المغريات ووسوسات الشيطان وهوى النفس الأمّارة بالسوء؟

هنا تلعب تقوى الله دوراً بارزاً وأساسياً في ميول الإنسان ونزعاته النفسيّة، فكلّما كان الإنسان تقيّاً ورعاً التزم جانب الحقّ، تاركاً وسوسة الشيطان جانبا، أمّا مَنْ كانت نزعاته الشيطانيّة أقوى من تقواه فيحيد عن الحقّ ويميل إلى جانب الباطل، تجرّفه شهواته، فيكون من الضالين.

الاعتبار بالأُمم السابقة من وسائل التقوى

إنّ من جملة الوسائل الموصلة للتقوى دراسة تاريخ الأمم السابقة والاتّعاظ والاعتبار بالأحداث التاريخيّة التي لحقت بالأمم والأفراد، دراسة عميقة يمكن من خلالها اتّخاذ المواقف الصحيحة تجاه الأحداث التي يمرّ بها الإنسان في وقته؛ إذ التاريخ يُعيد نفسه.

لذلك كان للقرآن الكريم هدف سام في التعرّض إلى قصص الأمم السابقة والشعوب الغابرة والشخصيّات المهمّة في المجتمعات، كالأنبياء والأوصياء والأولياء، فقد تعرّض إلى أحوالهم وما جرى عليهم، غير قاصد من هذا السرد القصصي أو التاريخي مجرّد عرض القصّة أو الإخبار عنها فقط، وإنّما غرضه من ذلك هو تذكير الإنسان بدراسة هذه الأحداث بعمق والتأمّل فيها؛ لكي يتّخذ منها العبرة والعظة؛ لكي يستطيع أن يحدّد موقفه الصحيح من خلال ما يمرّ به من

أحداث تُحيط وتعصف به، فيجعل تلك التجارب السابقة التي درسها وفهم أحداثها وسيلةً للنجاة ممّا يواجهه من مصاعب وابتلاءات بأشكالها المختلفة؛ إذ هناك سمة عامّة أو طابع عامّ للأحداث والأحوال التي تمرّ بها الأمم والأفراد، فيجب أن يتعامل معها بروية وهدوء؛ للحصول على النتائج الصحيحة والخروج من الأحداث بانتصار.

لقد واجه المصلحون - الأنبياء والرسائل والأوصياء - على مرّ التاريخ أثناء أدائهم المهام السماوية التي كلّفوا بها، شتى أنواع الابتلاءات والمصاعب، فقد قبلوا بالرفض تارةً، وبالمواجهة العنيفة أخرى، وبالحرب النفسية الباردة ثالثةً، وغيرها من المواجهات الراضية للإصلاح، فكانت كلّ أمة أو كلّ شعب يخرج فيه المصلح لهداية الناس ينقسم إلى قسمين، القسم الأوّل يتقبّل دعوة الإصلاح ويقف إلى جانبها ويؤيّد صاحبها، سواء كان نبياً أم ولياً أم مصلحاً. والقسم الآخر يُناهض هذه الدعوة الإصلاحية ويقف ضدها عاصياً ورافضاً لها، فيكشف التاريخ مصير القسم الثاني في نهاية أمره أنّه ينتهي إلى الخسران والضلال والهلاك.

إنّ أوضح المصاديق التي يمكن عرضها هنا هو مراجعة تاريخ الدعوة الإسلامية التي جاء بها الرسول ﷺ، فقد تعرّض المؤمنون في بداية الدعوة إلى المحن والابتلاءات والمصاعب الكثيرة والحروب والتضحيات المادية والجسدية، لكنّ النهاية كانت الانتصار الذي نال المسلمون فيه السؤدد والعزّ والكرامة؛ فإنّه مهما كان الباطل قوياً وعزيراً ومنيعاً، ومهما طالت فترة إحكامه وسيطرته على امتلاك زمام الأمور، فإنّ النهاية تكون بزواله وانتصار الحقّ.

إنّ مراجعة تاريخ الأمم والشعوب ودراسة أحداثها دراسةً عميقةً تكسب

الإنسان العبرة في اتّخاذ المواقف، الأمر الذي يقوّي ملكة التقوى عند الإنسان في اتّخاذ القرارات الصحيحة التي تصبّ في صالح الفرد والمجتمع العام، إذ تجعل من الإنسان متهيئاً ومستعداً لمواجهة أيّ حدث متوقّع ربّاً يطرأ عليه.

من هنا يُشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما بويع بالخلافة إلى أنّ الأُمّة قد تعرّضت لأحداث سابقة ليست بعيدة، وسوف تعود مرّةً أخرى، فلقد تعرّضت الأُمّة للانحراف على مستوى القيادة، وكذا الممارسات الاجتماعية، وهو نوع من البلاء، فقد واجه النبي صلى الله عليه وآله أنواعاً من ذلك البلاء، ومن بعده استأثر بعض بثروات الأُمّة حتى تُهبت من قبل طبقة مستبدّة، ولأجل ذلك لا بدّ أن تكون هناك نهضة إصلاحية تُحيي هذه الأُمّة من جديد، وخلالها سوف يتعرّض المسلمون أيضاً للبلاء، وتعود بعض الشبهات حتى يتمحّص المؤمن ويتميّز عن غير المؤمن.

لذلك يقول عليه السلام عندما بدأ بإلقاء كلامه وخطبته: «ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، إنّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثالات حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات. ألا وإنّ بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيّه»، مشيراً بذلك إلى ما سردنا من كلام في المحطّتين الأولى والثانية المتقدّمتين، وهو في الوقت نفسه يبيّن في هذا الكلام أحقيّة ما سيذكره، وأنّه صدق ومطابق للواقع الذي يُنبّه السامعين له والمتلقين لكلامه على أمور:

الأمر الأوّل: يجب تلقيّ هذا الكلام الذي يحمل المواعظ والحكم دون اعتراض أو نقاش؛ لأنّ الإمام عليه السلام واثق أشدّ الوثوق بما يقوله للآخرين.

الأمر الثاني: بما أنّ الإمام عليه السلام هو كفيل وزعيم بكلامه فلا بدّ من الالتزام بمضامينه وبما ورد فيه، وتطبيق ما ينصّ عليه.

فالإمام عليه السلام يمهد السامع لتلقيّ هذا الكلام وقبوله وإطاعة مضامينه.

الأمر الثالث: إنّ التقوى هي الوسيلة الموصلة للنجاح والكمال واتخاذ القرارات الصائبة التي تجرّ بالمنفعة على الإنسان، ومن جملة الأمور الموصلة للتقوى دراسة أحوال الأمم السابقة والأفراد الغابرة بتأمل^(١).

لا بدّ من التركيز الكثير على الوسيلة الموصلة لهذه التقوى في المقام، وهي دراسة تاريخ وأحوال الأمم السالفة والاتّعاظ بها واكتساب العبر منها، لذا نتوقّف وقفة أخرى في هذه النقطة؛ لكي نستعرض من حلقات التاريخ بعض المواقف التي تلهمنا هذه العبر والموعظة؛ للاستفادة منها؛ إذ التاريخ مليء بالأحداث والقصص التي إذا ما أرد الإنسان معناها تمسّك بالله تعالى وعاد إلى رشده وارتبط بربه، وهو معنى التقوى؛ لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ من صرّحت له العبر ممّا بين يديه من المثالات حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات».

(١) يقول صاحب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) في بيان هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام ما يختصر المعنى الذي ذكرناه بعبارة جميلة موجزة: «أعلم أنّه عليه السلام صدرّ كلامه بما يكون مرغّباً لهم في الاستماع بما يقوله بقوله: (ذمّتي بما أقول رهينة)، أي وثيقة، «وأنا به» أي بكونه صدقاً مطابقاً للواقع «زعيم» وكفيل. ثم أشار عليه السلام إلى وجوب الاعتبار بالعبر النافعة من حيث كونها وسيلة إلى التقوى الحاجز عن الاقتحام في الشبهة، وقال: (إنّ من صرّحت له العبر)، أي كشفت (عمّا بين يديه من المثالات) والعقوبات الواقعة على الأمم السابقة الجارية في القرون الخالية، يكون انكشاف تلك العبر واعتباره بها مؤدياً إلى الخشية من الله سبحانه، و(حجزته التقوى عن التقحّم في الشبهات) والاقتحام في الهلكات من غير رويّة». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٣، ص ٢٢٠.

نماذج تاريخية للاتعاظ والاعتبار

ربّما يكون السبب في ارتكاب بعض الذنوب هو أمر صغير وبسيط يعتاد عليه الإنسان، فيُطلق العنان له دون معالجة أو توبة، فيقوده ذلك إلى ارتكاب المعاصي والذنوب الكبيرة؛ لأنّ الشيطان يستدرجه حتى يقع في المعصية الأكبر؛ لذا يذكر القرآن الكريم أمثلة وقصصاً كثيرة لأشخاص وأمم قادهم شيطانهم إلى الغواية وارتكاب المعاصي، مبتدئين بذنب صغير أصروا عليه حتى استفحل في نفوسهم، فقادهم إلى ارتكاب ذنوب وجرائم كبيرة وصلت إلى القتل وسفك الدماء.

إنّ واحداً من النماذج التي ذكرها القرآن الكريم قصّة (قاييل) الذي وسوس له الشيطان فقتل أخاه (هابيل) بعد أن حسده ثم ندم على ذلك^(١).

ونموذج آخر قصّة النبي يوسف مع إخوته الذين رموا به في قعر البئر حسداً منهم له بعد أن كادوا يقتلونه^(٢).

وغير هذين النموذجين ممّا ذكر القرآن الكريم من قصص تتعلق بأحوال المجتمعات والأفراد في الأمم السابقة، التي كانت لها أحداث مع الأنبياء والرسل والمصلحين.

وقبل ذلك يذكر القرآن أيضاً إبليس الذي كان من العباد، إلّا أنّ كبره وعُجبه وغروره قاده إلى التحوّل من عبادة الله تعالى إلى إغواء بني البشر، فقصّة إبليس^(٣) هي أكبر عبرة وعظة للناس؛ فإنّ العُجب والغرور والتكبر والاستعلاء كلّ ذلك

(١) كما في سورة المائدة: آية ٢٧ - ٣١.

(٢) كما في سورة يوسف.

(٣) كما في سورة الأعراف: آية ١١ - ١٣.

يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَالَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى يُصْبِحُ مَعَهَا الْإِنْسَانُ سَيِّئُ الْخَلْقِ ذَمِيمُ الصِّفَاتِ غَيْرُ مَحْمُودٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالنَّاسِ .

إِنَّ هَذِهِ الْعِبَرُ تَكْشِفُ لِلنَّاسِ وَالْأَجْيَالِ عَمَّا وَاجَهُهُ أَشْخَاصٌ وَأَقْوَامٌ تِلْكَ الْأُمَمُ السَّالِفَةُ مِنْ عَقُوبَاتٍ قَاسِيَةٍ أَدَّتْ بِهِمْ إِلَى الْهَلَاكِ؛ بِسَبَبِ طُغْيَانِهِمْ وَغُرُورِهِمْ وَابْتِعَادِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَمِيلِهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَصَدَّهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْمُصْلِحِينَ .
مَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنَّ سَبَبَ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ لَا يَخْتَصُّ بِقَوْمٍ أَوْ أُمَّةٍ دُونَ أُخْرَى، فَرَبَّمَا طَالِبُ الْعِلْمِ فِي زَمَانِنَا، أَوْ صَاحِبُ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ، أَوْ صَاحِبُ الْجَاهِ، أَوْ رَجُلُ السُّلْطَةِ، أَوْ الَّذِي يَمْتَلِكُ الْكَفَاءَةَ الْعِلْمِيَّةَ، أَوْ غَيْرَهُمْ يَصِيبُهُمْ مِنَ الْغُرُورِ وَالتَّكَبُّرِ مَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ حَالِ الْهُدَايَةِ إِلَى حَالِ الضَّلَالِ وَالْغَوَايَةِ؛ فَإِنَّ الْعُجْبَ وَالْغُرُورَ وَالْإِعْتِدَادَ بِالنَّفْسِ كُلِّ ذَلِكَ يَقُودُ إِلَى مَا لَا يَحْمَدُ عَقْبَاهُ؛ فَإِنْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ فِي زَمَانِهِمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ الْحَقِّ وَالْإِصْلَاحِ وَالْهُدَايَةِ، وَقَابِلُهُمُ الطَّوَاغِيتُ وَالْجَبَابِرَةُ وَالْمُفْسِدُونَ وَآوَقَفُوا مَشَارِيْعَهُمُ الْإِصْلَاحِيَّةَ، فَإِنَّ فِي زَمَانِنَا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هُنَاكَ مَنْ يُمَثِّلُ امْتِدَادَ خَطِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَحْمِلُ الْهُدَايَةَ وَالْإِصْلَاحَ لِلْمَجْتَمَعِ، وَفِي الْمَقَابِلِ يَوْجَدُ مَنْ يَقِفُ حَاجِزاً وَمَانِعاً أَمَامَهُ .

وَكَمَا تَعَرَّضَتْ تِلْكَ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ وَالْأَقْوَامُ إِلَى الْعَقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَكَانَ نَتِيجَتُهَا الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَأْتِي يَوْمٌ تَتَعَرَّضُ فِيهِ الْأَقْوَامُ وَالْأُمَمُ الْآخِلَةُ إِلَى نَيْلِ مِثْلِ تِلْكَ الْعَقُوبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الْحَقَّةِ؛ لَصَدَّهِمْ عَنْ نَشْرِ الْحَقِّ وَحَرْصِهِمْ عَلَى إِفْشَاءِ الْبَاطِلِ .

فَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ خَطَّانٍ يَخَالِفُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَكُلُّ مَنْهُمَا لَهُ أَنْصَارُهُ، مَعَ أَنَّ كَلَامَهُمَا أَمْرٌ بَيِّنٌ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ رَشْدٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، وَالثَّانِي وَاضِحٌ غِيَّةٌ يَجِبُ اجْتِنَابُهَا،

لكن ربّما تكثر الشبهات - في كلّ زمان - فيتصوّر السّدج والبسطاء والجهّال أنّ الباطل حقّ فيتبعونه وينصرونه، الأمر الذي يؤدّي بهم إلى الهلاك والخسران.

لأجل ذلك وضع الله تعالى معياراً وميزاناً وضابطاً يمكن من خلاله أن يُميّز الإنسان الحقّ عن الباطل، وهو الرجوع إلى أهل العلم؛ فإنّهم الحجّة في ذلك؛ لأنّهم يستطيعون أن يُميّزوا بينهما ويُرشّدون الناس إلى ذلك. والله تعالى أوجد هذه المجموعة من الناس على الأرض في كلّ زمان؛ إذ لا تخلو الأرض من حجّة، كلّ ذلك لطف منه تعالى بعباده.

يمتلك بعض الناس القابلية لتمييز الحقّ عن غيره؛ وذلك لصحبته الطويلة مع النبي ﷺ مثلاً، أو لسيرتهم الحميدة، لكنّ النوازع النفسيّة عندهم، وحبّ الدنيا واتباع الهوى والشهوات حجبهم عن تمييز الحقّ، فدفعهم ذلك للوقوف أمامه ناصرين الباطل، كما حصل ذلك مع رجال كانوا يجتهدون آناء الليل والنهار يتلون القرآن ويتعبّدون، لكنّهم انتهوا إلى سوء العاقبة، فمالوا عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(١) مع أنّهم كانوا إلى جانبه. وهذا الأمر ربّما يتكرّر في زماننا أيضاً؛ فإنّ فينا

(١) ورد في (بحار الأنوار) عن (إرشاد القلوب): «خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة من مسجد الكوفة متوجّهاً إلى داره، وقد مضى ربع من الليل، ومعه كميل بن زياد، وكان من خيار شيعة ومحبّيه، فوصل في الطريق إلى باب رجل يتلو القرآن في ذلك الوقت ويقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ آيَلٍ سَاجِدٍ وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ﴾. [الزمر: آية ٩] بصوت شجي حزين، فاستحسن كميل ذلك في باطنه وأعجبه حال الرجل من غير أن يقول شيئاً، فالتفت صلوات الله عليه وآله إليه وقال: يا كميل، لا تُعجبك طنطنة الرجل، إنّ من أهل النار، وسأنبك في ما بعد. فتحيّر كميل لمكاشفته له على ما في باطنه، ولشهادته بدخول النار مع كونه في هذا الأمر وتلك الحالة الحسنة. ومضى مدّة متطاولة

مَنْ يَحْمِلُ الْحَقَّ لَكِنْ رَبِّمَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ أَوْ تَرَاوَدَهُ شَهْوَةٌ أَوْ نَازَعَةُ نَفْسِيَّةٍ، فَيَتَصَوَّرُ الْبَاطِلَ حَقًّا وَالْحَقَّ بَاطِلًا، فَيَقِفُ مَعَ الْبَاطِلِ وَيَنْصُرُهُ تَارِكًا الْحَقَّ، فَيُؤْوِلُ أَمْرَهُ إِلَى الْخُسْرَانِ.

إذاً دراسة التاريخ دراسةً متأنيةً مجرّدةً عن العواطف والأهواء، وبعيدةً عن الشبهات والشهوات ونوازع الشرّ، من الأمور الضرورية، التي توصل الإنسان إلى التقوى التي تحجز الإنسان عن التقصّر في الشبهات كما يقول المؤمنون عليه السلام.

عودة الامتحان والاختبار

يقول الإمام عليه السلام: «أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبْلَبَنَّ بِلَبْلَةٍ، وَلَتُغْرَبَلَنَّ غَرَبَلَةً...».

إنَّ السُّنَنَ الإِلَهِيَّةَ قَائِمَةً عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَإِنَّ التَّارِيخَ يُعِيدُ نَفْسَهُ، فَإِنَّ الْإِمْتِحَانَ وَالْإِحْتِبَارَ اللَّذَيْنِ مَرَّ بِهِمَا النَّاسُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بُعِثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ سَوْفَ يَتَكَرَّرَانِ فِي زَمَانِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حِينَ بُويعَ بِالْخِلَافَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَعْثَةَ كَانَتْ تُثَمِّلُ خَطَّ رِسَالَةِ السَّمَاءِ وَالْإِسْلَامِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْهُدَايَةَ الْحَقِيقِيَّةَ،



إِلَى أَنْ آلَ حَالِ الْخَوَارِجِ إِلَى مَا آلَ، وَقَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَكَانُوا يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ كَمَا أُنْزِلَ، فَالْتَفَتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِلَى كَمِيلِ بْنِ زِيَادٍ وَهُوَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالسِّيفُ فِي يَدِهِ يَقْطُرُ دَمًا، وَرُؤُوسُ أُولَئِكَ الْكُفْرَةِ الْفَجْرَةِ مُحْلَقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، فَوَضَعَ رَأْسَ السِّيفِ عَلَى رَأْسِ مَنْ تَلَكِ الرَّؤُوسَ وَقَالَ: يَا كَمِيلُ، ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ أَنْاءَ الْإِلِّ سَاحِدًا وَقَائِمًا﴾. أي: هو ذلك الشخص الذي كان يقرأ القرآن في تلك الليلة فأعجبك حاله. فقبل كميل قدميه واستغفر الله وصلى على مجهول القدر». المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣٣، ص ٣٩٩.

والإصلاح الحقيقي لجميع بني البشر في ذلك الزمان والأزمنة اللاحقة؛ لأنّه الدين الخاتم. إلّا أنّه على الرغم من ذلك وقف أمام هذه الدعوة الإصلاحية والبعثة الإلهية مَنْ لم يؤمن بها وبالله تعالى، فكلام أمير المؤمنين عليه السلام يؤكّد على أنّ هذا المعنى سوف يتكرّر في زمنه أيضاً؛ وذلك لأنّه سوف يدعو إلى الإصلاح من جديد، ويقف أمام نهضته الإصلاحية مَنْ لم يدخل الإيمان في قلبه ممّن كان مستفيداً من سياسة الخلافة السابقة.

إذاً لا بدّ من هذا الاختبار؛ وذلك لكي يميّز الله الصادق والمخلص في إيمانه وولائه، ممّن يدّعي الإيمان والولاء كذباً وزوراً، ويميّز الذي يحمل راية الحقّ والهدى عن الذي يحمل راية الباطل والضلال وإن كان قد تزيّب بزيّ الحقّ أو لبس لباسه. وهذا الاختبار هو الغربة الحقيقية التي تُخرج النوع الجيّد وتعزله عن غير الجيّد بعد أن كان الجيّد مختلطاً بغيره ويصعب تمييزه عمّا سواه، إلّا أنّه بعد الغربة يعرف الإنسان الجيّد من الرديء، فيستفاد من الأوّل دون الثاني.

الخطايا والتقوى

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا وإنّ الخطايا خيل شُمسُ حُمل عليها أهلها وخُلِعَتْ جُملُها فتقَحّمت بهم في النار. ألا وإنّ التقوى مطايا ذُلّل حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة».

إنّ النكتة التي يُبينها أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الكلمات هي المفارقة بين حصيلة الخطايا وحصيلة التقوى، فالأولى الهلاك ودخول النار، والثانية السعادة ودخول الجنة، لذا فالجدير بالإنسان أن يُعالج ما يرتكب من ذنب من أوّل الأمر وإن كان الذنب صغيراً؛ فإنّ الخطأ أو المعصية إذا تُركت من غير علاج سوف تقود صاحبها إلى ذنب ومعصية أكبر يرتكبها تؤدّي به إلى الهلاك، فإنّ قابيل - كما تقدّم في طيّات الكلام - كانت بداية خطئه وارتكابه الذنب الكبير فيها بعد - هي مسألة قلبية

صغيرة، وهي الحسد، فقد حسد أخاه هابيل، لكنه ترك هذا الأمر دون معالجة حتى استفحل عليه واستولى عليه الشيطان، فجره إلى الهلاك بارتكاب القتل.

لذا يُشبه أمير المؤمنين عليه السلام هذا المعنى بالفرس الصعبة (خيل شمس) التي تمنع ظهرها من الركوب عليه، فإذا حُمِلَ عليها - والحال هذه - خلعت لجامها، فلا يتمكن ركبها من الوصول بها إلى مقصوده؛ إذ إنه لا يملك زمام قيادتها، فلا يُسيطر عليها، فتتخبط به حتى تهلكه، وخاصةً إذا كان الطريق الذي يُريد أن يسلكه وعراً ومليئاً بالمخاطر والعقبات.

فهذه الخطايا والذنوب إذا تُركت تؤدّي بصاحبها إلى الهلاك. أمّا الأمر في التقوى فهو على العكس من ذلك، فإنها كالدابة الذلول السهلة التي يتمكن صاحبها من ركوبها والوصول بها إلى مقصده وهدفه دون معاناة أو تعب أو نصب؛ وذلك لأنّها فرس مروّضة يستطيع قائدتها أن يتحكّم بها من خلال لجامها، فيسيرها كيف يشاء، لذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنها: «فأوردتهم الجنة».

الحقّ والباطل

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «حقّ وباطل ولكلّ أهل، فلئن أمر الباطل لقدياً فعل، ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ ولقلّما أدبر شيء فأقبل».

يختتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلامه بذكر الحقّ، وكأنّه حصيلة كلّ ما تقدّم. فيقول: إنّ في كلّ زمان ومكان هناك حقّ وباطل يتصارعان، لذا على الإنسان أن يتّعظ من الأحداث السابقة والحالية التي مرّت عليه أو تمرّ به؛ كي يميّز الحقّ فينصره ويقف إلى جانبه، ويعرف الباطل فيحذر منه ويخذه، ولا يعرّنه أنّه قد ادّعى الولاء لأهل البيت عليهم السلام، وصرّح به واعتقد - في قرارة نفسه - بأنّه قد تمسّك بالأئمة

الاثنى عشر وسار على نهجهم بأنّه قد نجا؛ فإنّ مجرّد ادّعاء التشييع والولاء لأهل البيت عليه السلام لا يجدي نفعاً إذا لم يميّز الإنسان بين الحقّ والباطل، فربّما يدّعي ذلك لأنّه قد استأنس بالباطل ومال إليه ولازمه؛ فإنّ لكلّ من الحقّ والباطل أهل، فعلى الإنسان أن يحذر لئلا يكون من أهل الباطل فيغوى.

لا يستوحش الإنسان من سلوك طريق الحقّ وإن رأى قلّة سالكيه، ولا يستأنس بالباطل وإن رأى كثرة سالكيه؛ فإنّ الحقّ هو الحقّ وإن قلّ أنصاره، والباطل هو الباطل وإن كثر أعوانه، فالذي على الحقّ يتحمّل المصاعب والابتلاءات وإن كثرت عليه؛ لأنّ عاقبته الخير، فربّما يتحكّم الباطل في زمام كثير من الأمور - كما نراه اليوم في زماننا - ويترك الحقّ ضعيفاً لا يمكنه التحكّم بشيء، لكنّ هذا لا يعني أن الخاتمة للباطل؛ فإنّ الباطل وإن طال حكمه لكنّ نهايته الذلّ والهوان والخسران والخزي والعار، وإنّ الحقّ مهما كان صعباً وطالت عليه فترة الابتلاء لكنّ نهايته العزّ والسعادة والكرامة.

نسأل الله تعالى السلامة في ديننا، وأن يُنجينا من مضلات الفتن، ونسأله السير على نهج أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأن نجعل ما مرّ على الأمم السابقة عبرةً وعِظةً لنا، وأن نسير على خطّ الولاية لأهل البيت عليه السلام حقّاً وصدقاً، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة التاسعة والسبعون

الاتعاظ بذكر الموت

بتاريخ: ١١ / ٤ / ٢٠٠٨ م

﴿ المنفعة في سلب النعمة

﴿ الصبر على سلب النعمة

﴿ مراقبة الله تعالى لعباده

﴿ الشهادة بالتوحيد والنبوة

﴿ ذكر الموت

﴿ ما بعد الموت

﴿ تركة المال

﴿ البيوت والأزواج

﴿ طي الكتاب عند الموت

﴿ التقوى

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي «غَدَّانا بطِيبَاتِ الرِّزْقِ، وَأَغْنَانَا بفضله، وَأَقْنَانَا بِمَنِّهِ، ثُمَّ أَمَرَنَا لِيُخْتَبَرَ طَاعَتَنَا، وَنَهَانَا لِيُتَبَلَى شُكْرُنَا»^(١).

والصلاة والسلام على أَمِينِهِ على وَحْيِهِ، وَنَجِييِهِ من خَلْقِهِ، إِمَامِ الرَّحْمَةِ، وَمِفْتَاحِ الْبَرَكَةِ، أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى آلِهِ خُزَّانِ وَحْيِهِ، وَعِيبَةِ عِلْمِهِ، الَّذِينَ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً. وَعَلَى الصَّحَابَةِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الصَّحْبَةَ، وَأَبْلَوْا الْبُلَاءَ الْحَسَنَ فِي نَصْرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ تَعَالَى - وَنَفْسِي الْغَافِلَةَ - بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْوَرَعِ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ. نُوَدُّ التَّعَرُّضَ فِي الْمَقَامِ إِلَى إِحْدَى خُطَبِ الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْوَارِدَةِ فِي (نَهْجِ الْبَلَاغَةِ)، وَالتِّي وَرَدَ فِيهَا جُمْلٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ الْمَعْبُورَةِ عَنِ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ لِلْإِنْسَانِ فِي التَّنْفِيرِ عَنِ الدُّنْيَا؛ لْغَرَضِ الْوَصُولِ إِلَى الزَّهْدِ فِيهَا، وَالِاتِّصَافِ بِالتَّقْوَى؛ فَإِنَّ الْإِمَامَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكَثِيرِ مِنْ خُطْبِهِ يُرِيدُ أَنْ يُمَهِّدَ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ لِزَهْدِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَكُونَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْسَفَرِ الطَّوِيلِ بَعْدَ التَّزَوُّدِ لِلْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْشُدَهَا الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْمُؤْمِنُ، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَيُبَيِّنُ لَهُ حَقِيقَةَ حَالِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْإِطْلَاعِ عَلَى تَارِيخِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَالشُّعُوبِ الْغَابِرَةِ، وَأَحْوَالِ النَّاسِ الَّذِينَ مَضَوْا، مِمَّنْ كَانُوا فِي

(١) الصحيفة السَّجَّادِيَّة: ص ١٩.

غفلة عن ذلك؛ فقد انشغلوا بالدنيا وحطامها، وبالتالي لم يتزودوا لذلك السفر الطويل.

يبدأ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذه الخطبة بالحمد لله تعالى والثناء عليه على ما أخذ من النعم وأعطى منها، ثم يذكر بعض الصفات الإلهية المقدسة، ثم يتعرض لفصل في الوعظ والإرشاد.

المنفعة في سلب النعمة

يقول الإمام عليه السلام في خطبته: «نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَتَى وَابْتَلَى»^(١).

(١) نصّ الخطبة موضوع البحث، التي يذكر فيها الإمام عليه السلام حمد الله المتعالي وتمجيده، وجملة من أوصاف الكبرياء والجمال له تعالى، ثم يعظ فيها ويזהّد في الدنيا. قال عليه السلام: «نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَتَى وَابْتَلَى. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، الْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، الْعَالَمُ بِمَا تُكْنُ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعَيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيُّهُ، وَبِعَيْثِهِ، شَهَادَةً يَوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانُ وَالْقَلْبُ اللَّسَانُ».

(منها): فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبَ، وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبَ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعُ دَاعِيَهُ، وَأَعْجَلُ حَادِيَهُ، فَلَا يَغْرَتُكَ سِوَاؤُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ، وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ، طَوَّلَ أَمَلٍ وَاسْتَبْعَادَ أَجَلٍ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطْنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ. أَمَّا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَأْمَلُونَ بَعِيدًا، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا، أَصْبَحَتْ بَيْوْثُهُمْ قُبُورًا، وَمَا جَمَعُوا بُورًا، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ. فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ مَهْلُهُ وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبْلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مَقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لِتَزُودُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزَّيَالِ». نهج البلاغة، خطب أمير المؤمنين عليه السلام: ص ١٤، رقم الخطبة ١٣٢.

إِنَّ نِعْمَ اللَّهِ كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، فالمال نعمة، والصحة والعافية نعمة، والأولاد نعمة، والجاه نعمة، والعلم نعمة، وغيرها الكثير من النعم الإلهية التي يطول المقام بذكرها.

وهذه النعم الدنيوية المتنوعة تارةً يمنح الله تعالى بعضها للإنسان، ويعطي بعضها المختلف عن الأوّل للإنسان الآخر، وأخرى يسلب هذه النعم، فلماذا هذا العطاء وذلك السلب؟

يُبَيِّنُ الإمام (عليه السلام) في هذه الكلمات هذا المعنى؛ فَإِنَّ مَنْحَ هذه النعم الإلهية وسلبها هو اختبار وامتحان للإنسان؛ لأنّ النعمة تستحقّ شكر المنعم على إعطائها للعبد، وقَبْلَ ذلك تستحقّ مَنْ يعيها ويقدرها ويؤدّي حقّها، فإذا أَحَسَّ العبد بهذه النعمة وشكر المنعم أدامها الله تعالى عليه، وإن قَصَرَ العبد في حقّها وشكرها سلبها الله تعالى عنه.

أَمَّا كَيْفِيَّةُ ذلك الاختبار فَإِنَّ وفور النعمة على الإنسان يُسبّب له حالات من العُجب والتكبر والغرور، ممّا يؤدّي به إلى الطمع والجشع والانشغال بالدنيا والتعلّق بها، مبتعداً عن الله تعالى وذكره وطاعته، لذا سلب النعمة عن مثل هذا الإنسان الذي لا يؤدّي حقّها يُعتبر فعلاً جميلاً من الله تعالى؛ ليعده عمّا يُصيبه في حال أن وفرّ له هذه النعمة؛ فَإِنَّ في هذا السلب حكمةً، الله تعالى هو أعلم بها.

لذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): نحمد الله تعالى على ما أخذهُ أو يأخذهُ من النعم من عبده، كما نحمده على ما يُعطي منها؛ فَإِنَّ في أخذهِ وعطائه لهذه النعم مصلحةً للعباد.

إنَّ سلب بعض النعم من العباد فيه منفعة له، وإنَّ من مصاديق المنفعة ما يمكن إجماله - على نحو المثال لا الحصر - في أمور:

الأمر الأوّل: ربّما يكون العبد متنعمًا ببدنه وعقله، فهو في صحّة وعافية أنعم الله بهما عليه، وربّما يكون له من المال الشيء الكثير والوفير، قد أغدق الله تعالى عليه من نعمه أن رزقه مالاً، ووَفَّرَ له مستلزمات الحياة المرفّهة، ورزقه الأولاد والذريّة، وجعل له من الجاه والرفعة والعزّة ما لم يجعل لغيره من الناس، كلّ ذلك نعمة يتفصّل بها الله تعالى على عبده. لكنّ سلب إحدى هذه النعم قد يكون سبباً في غفران الذنوب والتكفير عن السيئات، فالابتلاء بالمرض، أو الفقر، أو فقدان الأحبة، هو سلب لهذه النعم، لكنّه في الوقت نفسه يُعتبر سبباً في المغفرة وحصول الأجر.

من هنا يتوجّب علينا أن نحمد الله تعالى على ما يأخذ من النعم وما يُعطي، فما يأخذ منها شيئاً إلّا ليعوّض الإنسان منفعةً أخرى ليست من الضروري أن تكون دنيويّةً، وإنّما تكون أُخرويّةً.

وما أحوجنا جميعاً في هذه الحياة الدنيا إلى أن تكفّر عنّا سيئاتنا وذنوبنا قبل أن ننتقل إلى عالم الحساب والعقاب.

الأمر الثاني: قد يكون الابتلاء سبباً في رفع منزلة العبد المبتلى بهذا السلب عند الله تعالى؛ فإنّ الله عزّ وجلّ إذا أحبّ عبداً ابتلاه^(١)، وواحد من الابتلاءات هو

(١) إشارة إلى الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ عظيم البلاء يُكافأ به عظيم الجزاء، فإذا أحبّ الله عبداً ابتلاه بعظيم البلاء، فمن رضي فله عند الله الرضا، ومن سخط فله عند الله السخط». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٥٣، ح ٨.

سلب النعمة منه، حتى ورد في بعض مضامين الأحاديث الشريفة بأن ابتلاء الإنسان المؤمن يكون على قدر إيمانه^(١)، وأنه لا خير في من لا يبتلى^(٢).

فسلب النعمة يكون سبباً في رفع المنزلة عند الله تعالى، لكن شريطة أن يواجه ذلك بالصبر والشكر، فعندما يرى المؤمن الجزاء العظيم والثواب الكثير في الحياة الآخرة يتمنى حينذاك لو أن هذا الابتلاء الذي أصابه في الدنيا قد زاد عليه؛ لعظيم الجزاء الأخروي قبالة.

الأمر الثالث: قد تمرّ على الإنسان في الدنيا حالة - أو أكثر من حالة - من حالات كثيرة تزداد فيها عليه النعم الإلهية، لكن الله تعالى - لمصلحة - ما يبتليه بأمر يجعله محروماً من تلك النعم؛ وذلك لأن وفور النعمة أحياناً يؤدّي إلى البطر في حال توفّرت في غير أهلها ومحلّها، فتقود صاحبها إلى ارتكاب المحرّمات، وتصير سبباً في

(١) ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: «إنّ في كتاب علي عليه السلام: إنّ أشدّ الناس بلاءً النّبّيون، ثم الوصيّون، ثم الأمثل فالأمثل، وإنّما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وحسّن عمله اشتدّ بلاؤه؛ وذلك أنّ الله تعالى لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبةً لكافر. ومن سخط دينه وضعف عمله، قلّ بلاؤه. إنّ البلاء أسرع إلى المؤمن التقى من المطر إلى قرار الأرض». الفيض الكاشاني، محمّد محسن، الوافي: ج ٥، ص ٧٦٤، باب أنّ ابتلاء المؤمن على قدر إيمانه، ح ٣٠٠٢. وأنظر أحاديث الباب الأخرى.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: إنّّي لأكره للرجل أن يُعافى في الدنيا فلا يُصيبه شيء من المصائب». الفيض الكاشاني، محمّد محسن، الوافي: ج ٥، ص ٧٦٧، باب أنّه لا خير في من لا يبتلى، ح ٣٠١١، وأنظر أحاديث الباب الأخرى.

الانغماس في الملهذات والشهوات المحرمة، وبالتالي يكون مبتعداً عن الطاعات وأداء الواجبات.

ومثال ذلك: ما لو كانت للإنسان تجارة رابحة يجمع من خلالها المال الكثير، أو يُعيّن في إدارة منصب مهمّ، فينشغل بأمور الدنيا عن أداء العبادات والقربات والخيرات تدريجياً، كأن يتأخر عن صلاة الجمعة والجماعة، ثم يترك زيارة الأئمة عليهم السلام وأداء المستحبات، ثم يبدأ بتأخير صلاته المفروضة، وعدم أدائه الحقوق الواجبة عليه، وبالتالي نراه شيئاً فشيئاً يُسلب منه الإيمان.

ولكيلا يقع في هذه الحالة يتبليّه الله تعالى - والابتلاء سُنّة إلهيّة - بأمر ينشغل به فيسلبه كلّ هذه النعم والأموال التي جمعها، كأن يُبتلى بالمرض تارةً، أو بالفقر أخرى، أو بالتهجير ثالثةً، كما هي الحال في ما أُبتلى به الكثير من أبناء وطننا؛ فإنّ شريحة واسعة من أبناء مجتمعنا العراقي قد أُبتليت بهذا البلاء العظيم، فسُلبت منهم نعمة الاستقرار في دورهم وأرضهم، لكنّهم حمدوا الله تعالى على هذا البلاء؛ لأنّهم أيقنوا بأنّه إمّا أن يكون سبباً لغفران الذنوب وتكفير السيئات، وإمّا سبباً لارتفاع المنزلة والمكانة عند الله تعالى، وإمّا لحكمة لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ.

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الجملة من خطبته يُريد أن يُرشدنا ويُربّيّا ويُعلّمنا على كيفيّة الحمد لله في السراء والضراء، فإنّه متى ما أخذت منّا النعم وسُلبت يجب أن نحمد الله على ذلك، مثلما نحمده حين يمنحنا تلك النعم؛ وذلك لأنّ كلّ فعل من الله تعالى هو جميل يستحقّ عليه الحمد، فهو تعالى اسمه وذكره يستحقّ الحمد على ما أخذ، ويستحقّ الحمد على ما أعطى من النعم.

ومعنى ذلك أنّ أخذ النعمة وإعطاءها فيه حكمة، وهذه الحكمة هي الابتلاء والاختبار والامتحان، فإذا منح الله الإنسان المغام والمكاسب والمنزلة في الدنيا،

ينتظر منه أن يجتاز هذا الامتحان والاختبار، فيبتليه بالشكر على هذه المكاسب، هل يشكر الله تعالى على ذلك أم لا؟

إنّ الشكر الحقيقي لله تعالى على هذه النعم التي أعطاها لعبده هو جعل النعم في طاعة الله تعالى، كأن يسخرها في خدمة المؤمنين، أو يصرفها في وجوه البرّ والخيرات.

الصبر على سلب النعمة

إنّ حصيلة سلب النعمة من العبد هي اختبار مقدار ما يمتلك من الصبر والتحمّل على المصاعب والابتلاءات التي أصابته، فإذا رأى الله تعالى من الإنسان أنّه قد صبر على هذه البلوى يفي له بأجره بغير حساب، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)؛ فإنّ الآية تُشير إلى أنّ كلّ إنسان مهما كان حجم ابتلائه في كلّ شيء، فإنّ جزاءه يكون بحساب ومقدار، إلّا الصبر فإنّ الصابر يوفّى له أجره بغير حساب ومقدار.

من هنا نوجّه نداءنا إلى جميع الإخوة المبتلين بشتّى أنواع الابتلاءات، والذين يعانون من المصاعب والمحن، الإخوة الذين هُجّروا عن ديارهم وأرضهم وعانوا وقاسوا صعوبة العيش وضنكته؛ فإنّكم إن صبرتم يكون أجركم بغير حساب. وكذلك الإخوة الذين ابتلوا بالمرض فصارعوا شتّى أنواع الأمراض إن صبرتم فإنّه سوف يبرأ مرضكم عاجلاً أو آجلاً، وسوف يرزقكم الله تعالى أجراً بغير حساب.

(١) الزمر: آية ١٠.

الفقراء الذين ذاقوا مرارة العيش وتعبوا من أجل الحصول على لقمة العيش؛ فإنكم إن صبرتم على هذا الحرمان والظنك المعيشي، فإن كل ذلك سوف ينتهي عاجلاً أو آجلاً، ويوفّيكم الله أجركم على ذلك بغير حساب.

مراقبة الله تعالى لعباده

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الباطن لكل خفية، الحاضر لكل سريرة، العالم بما تكن به الصدور، وما تخون العيون».

يُنَبِّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفات الكمال والجمال والكبرياء الإلهية؛ لكي يحذره العبد ويخافه، ويكون قد راقب سلوكه وفعله وقوله في حال تيقن بأن الله تعالى محيط به وعالم بما يقول ويفعل، وأنه سوف يفضحه أو يكشفه في يوم من الأيام، لذا يجب محاسبة النفس ومراقبتها لكيلا يقع الإنسان في المخالفة الشرعية، وبالتالي يفتضح أمره.

من أجل هذا يُبَيِّن الإمام في هذه الكلمات بأن الله تعالى موجود في كل مكان، وهو - عز وجل - محيط علماً بما يحمله الإنسان من أسرار ومكنونات، وما يضمه من مشاعر وعواطف وظنون، ممّا هو خافٍ على غيره من أبناء جنسه من البشر؛ فإن القول أو الفعل أو السلوك إذا أخفاه الإنسان على غيره من الناس فذلك لا يخفى على الله تعالى المراقب له، والعالم بكل سكناته وحركاته.

الشهادة بالتوحيد والنبوة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمداً نجيّه وبعيّه، شهادة يوافق فيها السرُّ الإعلان، والقلبُ اللسان...».

إنّ دروس التربية كثيرة، وواحد منها ما يحمله هذا المقطع العقائدي المهم الذي يتوخى أمير المؤمنين عليه السلام منه أن يُعطي فيه درساً أخلاقياً تربوياً عقائدياً

للأجيال، وذلك من خلال مجموعة كلمات غنيّة بمعانيها، وكبيرة في قيمتها؛ فإنّه عليه السلام يدلي بالشهادة لله تعالى بالوحدانيّة وللنبيّ صلى الله عليه وآله بالرسالة، ويذكر بأنّ هذه الشهادة يتوافق فيها ما يضمّره في الداخل من الأسرار وما يُعلنه خارجاً، أي يتوافق فيها ما في القلب مع ما يحكيه ويلفظه اللسان، وهو درس في كيفيّة طرد النفاق من سريرة الإنسان.

فلا بدّ للإنسان المؤمن أن يتطابق في شهادته لله تعالى بالوحدانيّة وللنبيّ صلى الله عليه وآله بالرسالة الإعلان اللساني والإسرار القلبي؛ فإنّ ما يكون على اللسان من لفظ هو ما يحمله من معنى داخلي في قلبه؛ إذ إنّ جميع المسلمين يشهدون بألسنتهم أنّه لا معبود إلّا الله تعالى وحده، ولكن هل قلوبهم بالفعل تحمل هذا المعنى الحقيقي للشهادة؟ فهل التوجّهات القلبية الخفيّة، والتوكّل والعزيمة عند كلّ المسلمين هي لله تعالى وحده؟

وأما إذا وجدت العبوديّة للشيطان، أو العبوديّة لشهوات النفس وملذّاتها، أو العبوديّة للنفس الأمّارة بالسوء، يكون ما في القلب مخالفاً لما يظهره اللسان من الشهادة.

إنّ المسلمين في أدائهم للصلاة يشهدون بالعبوديّة لله تعالى، وكذا في أدعيتهم ومناجاتهم وزياراتهم للمعصومين والأولياء والصالحين، لكنّهم في حال سرّائهم وضرّائهم هل يتوجّهون إلى الله تعالى؛ بحيث تكون قلوبهم متعلّقة بالله عزّ وجلّ ومرتبطة به دوماً؟

إذا أضمر الإنسان في قلبه مشاركة غير الله تعالى له في الخلاص من المحن والبلاء، أو قضاء الحاجات، فإنّ ذلك يُخرجه عن الشهادة الحقيقيّة بالعبوديّة لله وحده.

لذا، لكي يخرج الإنسان من حالة النفاق هذه، ولا يكون قلبه وما تخفيه سرائره مخالفاً لما عليه لسانه؛ فإنه لا بد أن يتطابق الاثنان معاً، ما هو في القلب مع ما هو على اللسان، ما هو في السرّ مع ما هو في العلن؛ فإنّ هذه التربية تُرشد إلى ما هو الحقّ من الشهادة بالوحدانية لله تعالى وللنبي ﷺ بالرسالة.

ذكر الموت

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «فإنّ الله الجِدُّ لا اللَّعِبَ، والحقُّ لا الكذب. وما هو إلّا الموتُ أسمع داعيه، وأعجلَ حاديه. فلا يغرّك سوادُ الناسِ من نفسك».

يُخصّص الإمام (عليه السلام) هذه العبارات في هذا الفصل - والفصل اللاحق - من الخطبة الشريفة في ذكر الموت، هادفاً بذلك إلى التنبيه على هذه المسألة المهمّة التي لا يجهلها أحد من الناس، وإنّما يتجاهلونّها ويغفلون عنها، فإنّ الموت أمر حق لا مفرّ ولا مخلص ولا منجى منه، إنّ جدّ وليس بلعب، إنّ حقيقة وليس بكذب، لذا يؤكّد الإمام (عليه السلام) على هذا المعنى في هذه الجُمْل من خطبته؛ ليكون واعظاً لنا؛ إذ إنّ سلوك الإنسان وما يصدر عنه من تصرّف وعمل يكشف عن أنّ الموت بعيد عنه، فهو يتصرّف غير عابئ بشيء وكأنّه لا يتعرّض لهذه الحقيقة التي هي غير منكّرة، فنراه ينشغل بأعمال الدنيا، وينغمس بالملذّات المحرّمة، ويتعدّد عن ذكر الله تعالى، متغافلاً أنّ الموت لا بدّ وأن يناله ويقع عليه.

إنّ ظاهرة عدم الاستعداد للموت، أو حتى عدم التفكير به تجرّ الإنسان إلى الابتعاد عن الله تعالى وعدم مراقبة نفسه ومحاسبتها، وحين يقع الموت على الإنسان تُغلّق صحيفة أعماله، ويُطوى كتابه، فلا ينفع حينئذٍ الندم إذا ما دَوّن في تلك الصحيفة غير عمل السيّئات والعياذ بالله. لذا على الإنسان أن يلتفت إلى هذا المعنى وهذه الحقيقة، وأن يُغيّر ما عليه سلوكه وأعماله إذا ما كانت في غير مرضاة الله تعالى، ويستعدّ للموت وإلى ما بعد الموت.

الكثير من الناس حينما يُسأل عن هذه الظاهرة فيقال له: هل أنت مستعدّ للموت؟ يُجيب بلسان الحال أو المقال قائلًا: الموت بعيد عني!

كيف توصّل إلى هذا الجواب؟ لقد توصّل إليه من خلال ما يلاحظه ويشعر به من نعم الله تعالى بأنّه الآن يتمتّع بصحة جيدة، أو أنّه لا زال شاباً في مقتبل عمره، وأنّه عادةً ما يسرع الموت إلى الإنسان المريض أو كبير السنّ.

إنّ هذا تصوّر خاطئ؛ فإنّ الأجل إذا اقترب لا يفرّق بين صغير وكبير، ولا بين مريض ومعافى، بل كلّ الناس تحت سطوته.

لذا يُنبّه الإمام عليه السلام النّاس على هذا المعنى، واعظاً لهم بقراءة ما ورد في القرآن الكريم من آيات كريمة تخصّ ذكر الأمم السابقة، وقراءة كتب التاريخ والتأمّل في أحوال مَنْ سبق من النّاس والأمم، الذين سحقهم الموت على حين غفلة وهم لا يشعرون، وكانوا غير مستعدّين لاستقباله.

إنّ من جملة المواعظ الحسيّة التي تُخطّئ هذا التصوّر والتمسّك بظاهرة ابتعاد الموت عن الشباب وعن صحيح البدن وقوي البنية، هو ما نراه يحدث في هذه الدنيا؛ إذ الكثير من الشباب - وربّما حتى الأطفال - ممّن يمتلك هو أو وليّه السطوة والقوّة والمال وغير ذلك من مستلزمات الرفاهيّة، نراه يفاجئه الموت من دون إنذار مسبق، فيأتي خبر وفاته على حين غفلة.

ومن جملة المواعظ أيضاً التأمّل في الآثار التي كانت لأناس سابقين، من قصور كانت مشيّدةً، وأبنية محصّنةً، كان يسكنها الجبابرة والملوك الذين يملكون من أسباب القوّة الشّيء الكثير، فقد قضى عليهم الموت، ولم ينفعهم قصورهم ولا أبنيتهم المحصّنة، فقد تحطّمت وتهدّمت بعد أن سكنوا قبورهم.

وخير واعظ على ذلك وأقربه منّا ما نلاحظه يومياً من حمل جنازة القريب أو الصديق، أو الذهاب إلى القبور التي توسّد لحودها الإخوان والأقرباء والأصدقاء، أو حضور مجالس العزاء على أرواحهم؛ فإنّ هذه عِظة وعبرة يجب أن نعتبر منها، فكما يحمل الإنسان جنازة أحدهم اليوم، فربّما تُحمل جنازته من بعده غداً أو في لحظة مفاجئة من لحظات الزمن القريبة.

فليتيقّن الإنسان بأنّ الموت قريب منه، ويجب عليه الاستعداد له ولا يغفل عنه، لذا يُشير الإمام عليه السلام إلى أنّ الموت قد أسمع داعيه، أي: وصل صوت داعي الموت إلى أسماع الناس؛ فإنّه في كلّ ساعة هناك من يُنعى إلينا خبر وفاته، فلا يغرنك أيّها الإنسان سواد الناس من نفسك، أي: لا تغترّ بحال كثرة الناس من حولك وتغفل عن ذكر الموت؛ فإذا اغترّ الإنسان بذلك جرّته غفلته إلى عدم إصلاح عيوبه وعدم تدارك ذنوبه ومعاصيه.

ما بعد الموت

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فقد رأيت مَنْ كان قبلك ممّن جمع المال وحذر الإقلال، وأمن العواقب طولَ أملٍ واستبعادَ أجلٍ كيف نزل به الموتُ فأزعجه عن وطنه، وأخذه من مأمنه، محمولاً على أعواد المنايا، يتعاطى به الرجالُ الرجالَ، حملاً على المناكب وإمساكاً بالأنامل، أمّا رأيتم الذين يأملون بعيداً، ويننون مشيداً، ويجمعون كثيراً، أصبحت بيوتهم قبوراً، وما جمعوا بوراً، وصارت أموالهم للوارثين، وأزواجهم لقوم آخرين، لا في حسنة يزدون، ولا من سيئة يستعتبون».

يستمرّ الإمام عليه السلام في التنبيه على مسألة الموت، واعظاً الناس على ألا يتناسوا ذكره، مستعرضاً بعض الجُمَل والعبارات البلاغية المستوحاة من الحالة الحياتية التي يعيشها الإنسان، ويرأها بأمّ عينيه وهي تتكرر أمامه بصورة مستمرة كلّما تقدّمت به الأيام. يُركّز من خلالها على الاهتمام بهذه المسألة؛ خوفاً على الإنسان من أن يُفاجئه

الموت ويخرج عن الدنيا وهو فقير الحسنات والأعمال الصالحة، إذ كان همّه جمع المال في الدنيا خوفاً من الإقلال فيها.

إنَّ أوَّل ما يذكره الإمام عليه السلام في هذا المقطع الجميل هو المال؛ فإنَّ الكثير من الناس يجمع الأموال؛ وذلك حذراً على نفسه من غدر الدنيا والزمان به، مقنعاً نفسه في أنه يجب أن يكون مستعداً لحال الفقر إذا ما أصابه، فيكون أكثر همّه هو جمع المال؛ ليؤمّن نفسه من عواقب أمور الدنيا. لكنّه في الوقت نفسه يُعطي لنفسه طول أمل واستعداد أجل من حيث لا يشعر، حتى يُفاجئه الموت وينزل به دون أن يجمع لآخرته شيئاً ولو يسيراً يقيه من عذابها.

يُصوّر الإمام عليه السلام حال الإنسان إذا نزل به الموت، فبدلاً من أن يكون في مأمنه في هذه الحياة الدنيا ودار استقراره الذي عمّر فيها، نراه محمولاً على أكتاف الرجال يتناوبون في حمل جنازته وتشييعها إلى حيث مثواه الأخير (القبر). وفي ذلك إشارة واضحة إلى أنَّ مسألتَي الحياة والموت ليستا بيد الإنسان؛ فإنَّ الإنسان ربّما يجد نفسه في صحّة جيدة، ويتمنّع بقوة في بدنه وعقله، لكن يُفاجأ بالموت، فتقبض روحه وهو على الحال التي فيها. لذا لا بدّ من الاستعداد للموت والحرص على عدم نسيانه.

تركة المال

يبدأ الإمام عليه السلام بشرح حال تركة الإنسان بعد موته ومفارقته لها، سواء كانت أموالاً أم بيوتاً أم غير ذلك، فيستعرض صورةً حيّةً لما يُفارقة من الدنيا، فبعد أن ينشغل الإنسان بجمع المال الكثير، وتعمير الدور والقصور وتشييدها ببذل الجهد والطاقة، متحمّلاً العبء وسهر الليل ومصارعة التعب والمشقة في أيّام كثيرة وربّما

سنين، يترك كل ذلك ولا يأخذ منه إلى قبره شيئاً. فيتقاسم ورثته كل ما ترك، ورباً يختلفون فيما بينهم في تقسيمها حتى تقع الفتنة ويحصل الشقاق، والسبب هو هذه الأموال التي تركها، فتكون هذه نعمة عليهم وليست نعمة.

إنّ ما نقوله من حصول الفتنة والتنازع بين ورثة الميت ليس مجرد كلام من نسج الخيال كما ربّما يطرأ في أذهان بعضنا، وإنّما هو حقيقة نسمع بها ونراها في حياتنا، بل ربّما يحصل بين الورثة ما هو أشدّ من هذا، حتى يصل بهم الأمر إلى أن يسبّوا ويلعنوا ميتهم الذي أورثهم تلك الأموال.

من هنا نؤكد على أنّ سلب النعمة عن العبد إنّما تكون لمصلحة وحكمة يعلمها ربّ العباد؛ فإنّ هذه الأموال إنّما تكون نعمة متى ما أدى مالها أو صاحبها حقوقها الشرعية الواجبة والمستحبة، ومتى ما أنفقها أو استعملها في الخيرات والمبرات، ونفع بها الناس والدين، فإنّ ما يبذله في ذلك هو الجزء الذي سوف يأخذه معه إلى آخرته، والذي يمكن أن يكسب من خلاله القصور في الجنة والحياة الآخرة الباقية، مع بقاء الذكر الحسن والثناء الجميل له في الدنيا.

إنّ بعض أصحاب الأموال عندما تحته على أداء حقوقها الشرعية والمساهمة بها في مشاريع القربات والخيرات والمبرات، يكون جوابه سلبياً في ذلك، فبعضهم يؤجل أداء الحقوق إلى ما بعد سنوات هروباً منها، وبعضهم يوكل الأمر بعد وفاته إلى ورثته في أدائها؛ أملاً منه بأنّه سوف يعيش بهذه الأموال دهرًا طويلاً، وهو لا يعلم في أيّ يوم يأتي أجله ويدهمهم الموت، فيطوى كتاب حياته في الدنيا.

البيوت والأزواج

إنّ حال البيوت والقصور التي شيّدوها وبنوها بنياناً محكماً ظناً منهم ورجاءً في البقاء فيها مدةً طويلةً من الزمن، سوف تُصبح قبوراً لهم؛ فإنّ بعض الناس يُدفن

في داره، ولا يبقى منها بمرور الزمن إلا أثر أو رسم، حاله حال مَنْ كان قبله من الناس والأمم السالفة التي مضت وخلفت آثاراً ورسوماً فقط، فقد آلت قصورهم إلى خراب وصارت قبوراً لهم. وإنَّ ما جمعه في دنياهم أصبح لغيرهم، فلا فائدة تُرجى لهم منه.

أمّا الأزواج - والمقصود بهم الأعمّ من الرجال والنساء - فقد أصبحوا من بعدهم لقوم آخرين غيرهم.

كلّ ذلك يركّز الإمام عليه السلام عليه لاستفزاز نفس الإنسان نحو الفضائل وترك الرذائل من الأعمال؛ فإنّ الأزواج الذين هم أقرب الناس إلى النفس والقلب يُصبحون بعيدين عنهم، يعيشون مع أناس غيرهم بعد موتهم، فهل يعتبر الإنسان من ذلك؟!

لعلّ من الناس مَنْ ينسى ذكر الله تعالى والآخرة من أجل زوجته أو زوجته، في حين أنّهم بعد وفاته لا ينفعه شيئاً، وإنّما يُصبحن زوجاتٍ لقوم آخرين.

طي الكتاب عند الموت

إذا جاء الموت أُغلقت صحيفة أعمال العبد، فلا تدوّن له حسنة فيها بعد موته؛ إذ لا عمل بعد الموت يزيد في الحسنات، ولا تُمحى منه سيئة كانت قد دوّنت فيها؛ إذا لا توبة تمحو السيئات بعد الممات.

فما دام كتاب أعمال الإنسان لم يُغلق في حال حياته فإنّ في ذلك فرصة له للعمل الصالح الذي يزيد من الحسنات ويرفع من مقام العبد في الآخرة، وفرصة لتكفير الذنوب ومحو السيئات التي ارتكبها في الدنيا، وذلك بالتوبة وكثرة الاستغفار، فهنيئاً لمن اغتنم هذه الفرصة قبل موته.

الدنيا هي باب العمل قبل الحساب، فليغتتم العبد أيام هذه الدنيا فيعمل بها صالحاً قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة التي هي دار الحساب، فيُكفّر عن سيئاته وذنوبه ومعاصيه عسى الله تعالى أن يغفر له ويمحو عنه ما دُوّن في ذلك الكتاب من الخطيئات، ويستزيد من حسناته وأعماله الصالحة التي هي رصيده في دار الحساب.

التقوى

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ مَهْلُهُ وَفَازَ عَمَلُهُ... فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازًا لِتَزُودُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ».

لَمَّا نَبَّهَ الإمام عليه السلام على زوال الدنيا وفنائها، أردف بالقول بما هو زاد الآخرة وذخيرتها، وهو التقوى، فإذا ذكّر الإنسان نفسه بالموت زهد في الدنيا وأشعر قلبه التقوى التي هي الهدف المرجو للإنسان، وهي لا تأتي إلّا من الزهد في هذه الدنيا ونفور الإنسان عنها. يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «حَبَّ الدُّنْيَا رَأْسَ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١).

فإن كلّ ذنب ومعصية وخطيئة إنّما يكون جذرها وأساسها هو حبّ الدنيا. ليست الغاية من الدنيا هي البقاء والحياة فيها، وإنّما هي عبارة عن ممرّ عبور إلى دار البقاء والحياة الحقيقيّة التي لا فناء فيها، دار المقام التي يستحقّ الإنسان أن يعمل من أجلها، والتي تتمثّل بالعيش في الجنان، وهذه الجنان لا ينالها الإنسان إلّا بثمن، بأن يعمل لها ويجهد نفسه ويكدح من أجلها، بحيث يبذل بإزائها كلّ ما يتمكن منه في سبيل شرائها وتهيتها.

الحياة الآخرة هي الاستقرار، وهي الحياة الخالية من الأمراض والأسقام

(١) الواسطي، عليّ بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٣١.

والصعوبات التي يواجهها الإنسان في الدنيا، هي الحياة التي ليس فيها ممات، هي الحياة التي فيها دوام الصحة والعافية، التي فيها الغنى الدائم بدون الفقر، التي فيها العلم لا الجهل، حياة دون فناء، وإنّ مثل هذه الحياة هي التي تستحقّ أن يكدح الإنسان من أجلها ويُتعب نفسه لأجل أن ينالها؛ لأنّها سوف تكون دار قراره واستقراره.

وكلّ ذلك لا يمكن أن يناله الإنسان ويحصل عليه إلّا بتذكّر الموت والزهد في الدنيا، والتزوّد بسلاح التقوى الذي يقضي على حبّ الدنيا.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممّن يتّعظ ويعتبر بكلمات الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام البليغة، التي تذكّرنا بالموت وتحبّب لنا الآخرة، وترشدنا إلى الزهد بهذه الدنيا الفانية، إنّّه - تعالى - سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثمانون

الغيبية مرض اجتماعي خطير

بتاريخ: ١٨ / ٤ / ٢٠٠٨ م

﴿ الشق الأول: صون حُرّمات الإنسان

ﷻ أَلَف: حرمة الدماء والأموال والأعراض

ﷻ بَاء: حرمة هتك المنزلة الاجتماعيّة

﴿ الآثار السلبية لمرض الغيبة

ﷻ أَوَّلًا: انعدام حالة التكاتف والتعاون

ﷻ ثانيًا: تآكل المجتمع وتفكك العلاقات

ﷻ ثالثًا: انحطاط المنزلة عند الله تعالى

ﷻ رابعًا: خسران رصيد الحسنات

﴿ الشق الثاني: خطبة أمير المؤمنين عليه السلام

ﷻ الطائفة الأولى: البعيدون عن الذنوب

ﷻ الطائفة الثانية: مستورو العيوب

ﷻ الطائفة الثالثة: المشغولون بعيوب الآخرين

ﷻ الطائفة الرابعة: مرتكبو الصغائر

﴿ التأكيد على الابتعاد عن مرض الغيبة

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله على ما عَرَفْنَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَلْهَمَنَا مِنْ شُكْرِهِ، وَفَتَحَ لَنَا مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ بِرُبُوبِيَّتِهِ... كَحَمْدٍ نُعَمَّرُ بِهِ فِي مَنْ حَمَدَهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَنَسْبِقُ بِهِ مَنْ سَبَقَ إِلَى رِضَاهُ وَعَفْوِهِ»^(١).
والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، البشير النذير، أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.
السلام عليكم إخواني وأخواتي جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو، والغارقة في بحار الذنوب والمعاصي - بتقوى الله تعالى والتزوّد ليوم ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٢).

أودّ التعرّض في المقام إلى بيان أحد الأمراض الأخلاقية الاجتماعية الخطيرة، وهو من الأمراض التي لها تأثيراتها السلبية والضارة للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وهو التعرّض للناس بالانتقاص منهم، وذكر عيوبهم ومثالبهم وذنوبهم ومعاصيهم وهو خلق ذميم ومن رذائل الصفات، المعبر عنه بالغيبة^(٣).

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

(٢) الحجّ: آية ٢.

(٣) الغيبة لغة: من الاغتيال، يُقال: اغتاب الرجل صاحبه اغتياياً، إذا وقع فيه: وهو أن يتكلّم خلف

ويمكن تقسيم الكلام في هذا الموضوع الأخلاقي المهم إلى شقين، نتعرض في الثاني منهما إلى خطبة من خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة)، والذي يتعرض فيها إلى هذا المرض الخطير، ويُقسّم الناس فيها إلى طوائف، ويحدّد كذلك الموقف المطلوب من كلّ إنسان مع معرفة مكانه ومحلّه وكونه في آية واحدة من هذه الطوائف.

أمّا الشقّ الأوّل فسوف نذكر فيه ما يتعلّق بحرمة الإنسان وصون دمه وعرضه وماله، وسلبيات التعرّض بالهتك لهذه الحرمات.



إنسان مستور بسوء، أو بما يغمّه وإن كان فيه. [الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ٢، ص ٢٩٧]. وحدّ الغيبة اصطلاحاً: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه مثل أن تقول: الأقرع، أو الأعور. أو في نسبه نحو أن تقول: ابن النبطي، وابن الإسكاف، أو الزبال، أو الحائك. أو في خلقه نحو: سيئ الخلق، أو بخيل، أو متكبر. أو في أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذاب، وظالم، ومتهاون بالصلاة، أو الدنيويّة نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالناس، كثير الكلام، كثير الأكل. أو في ثوبه كقولك: وسخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذبال...

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «هل تدرون ما الغيبة؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه». فقائل قال: رأيت يا رسول الله، إن كان ذلك في أخي؟ قال: «إن كان فيه فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه». [ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٩، ص ٦٦ - ٦٧].

وهي من أعظم الموبقات الموقعة في الهلكات، والموجب لانحطاط الدرجات؛ لأنّ المفاصد التي تترتب على ارتكابها أكثر من المفاصد التي تترتب على سائر المنهيات، وضرره ضرر نوعي، وضرر سائر المعاصي شخصي غالباً. [الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ٣٦٨].

الشق الأول: صون حرّمات الإنسان

ألف: حرمة الدماء والأموال والأعراض

أكدت الشريعة الإسلامية على لزوم حفظ حياة الإنسان؛ فإنّ حرّمته عند الله كبيرة؛ فإنّ للدماء في الإسلام حرمةً، وكذلك أموال المسلم لها حرمتها عند الله تعالى، وفي الوقت نفسه أعطى الإسلام حرمةً خاصّةً للأعراض؛ فإنّ الكثير من التشريعات الإسلامية إنّما شرّعت لصيانة وحفظ هذه الحرّمات الثلاث^(١) وحفظها وعدم جواز التعرّض لهتكها وانتهاكها.

لذلك ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ في حجة الوداع: «أيّها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. إنّ الله حرّم الغيبة كما حرّم المال والدم»^(٢).

باء: حرمة هتك المنزلة الاجتماعية

كما أكدت الشريعة الإسلامية على حرمة دم الإنسان وماله وعرضه، كذلك

(١) قال الفقيه الهمداني رحمه الله: «وأما القواعد التي يُشكل رفع اليد عنها إلّا بنصّ صحيح صريح معتضد بالفتوى ونحوها، فهي: القواعد الكلّية المعروفة مناطاتها، المعتضدة بالعقل والاعتبار، مثل: قاعدة سلطنة الناس على أموالهم، وحرمة دم المسلم، وعرضه، وماله». [الهمداني، رضا، مصباح الفقيه: ج ٧، ص ١٠١].

(٢) الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٢٣٢٨. وأورد ابن شعبة الحرّاني الحديث بالنصّ الآتي: «أيّها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد». ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن عليّ، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٣٠.

اهتمت بحفظ قيمة الشخصية الاجتماعية للإنسان وصون حرمتها وعدم هتكها؛ فإن كل شخص في المجتمع له حظّه من الاحترام والتقدير بين أبناء مجتمعه، وهذا ما يحفظ له قيمته واعتباره الاجتماعيّ ومنزلته الاجتماعية؛ إذ قد اعتاد العرف العام في المجتمعات أن يُعطي لكل شخص ما يستحقّه من المنزلة والتقدير وسط مجتمعه؛ وذلك لكي يُمارس دوره في المجتمع، ويقوم بأداء أعماله ومسؤولياته المنوطة به، وينهض بها على أحسن وجه وأتمّه؛ إذ لا يمكن أن تكون له الهمة العالية لأداء هذا الدور إذا فقدت تلك المنزلة الاجتماعية وزال عنه ذلك الاعتبار الاجتماعي الذي يحظى به عند الناس.

وليس المقصود من حرمة الأعراس في المقام هو حفظ (الفروج) فقط، وإنّما المقصود معنى أعم من ذلك؛ فإنّ المقصود حرمة إفشاء العيوب والمثالب وعدم التعرّض لذكرها.

فلا بدّ أن تُصان شخصية الإنسان وكرامته ومنزلته، ويُحفظ ماء وجهه في المجتمع، فكما تُحفظ حقوق الإنسان وأمواله، كذلك تُحفظ شخصيته الاجتماعية، وكما ينبغي على الإنسان أن يسعى لحفظ حياة الآخرين، كذلك عليه السعي لحفظ كرامة الإنسان، وعدم التعرّض لمنزلته الاجتماعية بالطعن والانتقاص.

ومن جملة الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي يُعاب بها المجتمع هو التعرّض والمساس بشخصية الإنسان والانتقاص منها، وذكر عيوبها ومثالبها وذنوبها ومعاصيها أمام الناس لسبب أو دون سبب، وهو مرض (الغيبة).

الآثار السلبية لمرض الغيبة

يمكن في المقام رصد مجموعة من السلبيّات أو العواقب الوخيمة التي تنتج عن تفشي هذا المرض الاجتماعي الخطير على الفرد والمجتمع دنيوياً وأخروياً. لذلك

حرصت الشريعة الإسلامية على بيان قبح هذا الذنب - كما سوف يأتي في طيّات الكلام - وبيان الآثار السلبية الكثيرة له، والتي تُسبب الضرر على مستوى الفرد والمجتمع.

أولاً: انعدام حالة التكاتف والتعاون

لقد حرص المشرع الإسلامي على زرع الثقة بين أفراد المجتمع، وعلى أن تسود روح المحبة والوآم والتآلف والتكاتف والتعاون بين المسلمين^(١) من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة من كلّ فرد منهم، وهي أن يقوم كلّ شخص بدوره الذي يُناط به. وهذا لا يُمكن في حالة شيوع مثل هذا المرض وعدم معالجته؛ لأنّه يؤدّي إلى

(١) ورد في الشريعة الإسلامية المقدّسة ما يُشير إلى حالة تعاون الإنسان مع غيره من المسلمين - إذ لا يُمكن للفرد أن يقوم بكلّ أعباء الحياة بمفرده - في جملة وفيرة من النصوص: منها: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. [المائدة: آية ٢].

ومنها: قول رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْفَعْتُهُ فَلَهُ ثَوَابُ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». [الصدوق، محمد بن عليّ، ثواب الأعمال: ص ٢٨٨].

ومنها: قول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ فِي عَوْنِ الْمُؤْمِنِ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ». [الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٩٧].

ومنها: قول الإمام الباقر عليه السلام: «لَأَنْ أَعُولَ أَهْلَ بَيْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ... أَسَدَّ جُوعَتِهِمْ وَأَكْسَوْا عَوْرَتَهُمْ، فَأَكْفَ وَجُوهَهُمْ عَنِ النَّاسِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْجَّ حُجَّةً وَحُجَّةً، وَمِثْلُهَا وَمِثْلُهَا حَتَّى بَلَغَ عَشْرًا، وَمِثْلُهَا وَمِثْلُهَا حَتَّى بَلَغَ السَّبْعِينَ». [الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٩٥، ح ١١].

ومنها: قول رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ خَدَمَ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِثْلَ عِدَدِهِمْ خَدَمًا فِي الْجَنَّةِ». [الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٠٧، ح ١].

حصول البغض والحقد والكراهية والحسد والهجران بين أبناء المجتمع، وتزعزع الثقة المطلوب حصولها بينهم.

وفي حالة حصول هتك الشخصية والمنزلة الاجتماعية والمساس بها والانتقاص منها لا يمكن الوصول إلى حالة التكاتف والتعاون المرجوة.

ولعلّ من الأسباب التي تؤدي إلى انعدام حالة التعاون بين أبناء المجتمع في حالة هتك الشخصية الاجتماعية والانتقاص منها، هو شعور الإنسان بالذلّ والهوان وانحطاط منزلته وكرامته، وضياع سمعته، وإراقة ماء وجهه أمام الآخرين، فيفقد بذلك مكانته واحترامه وكلمته أمامهم، وبالتالي لا يمكنه أداء المهمة الموكلة إليه والنهوض بها بهمة عالية وروح متفانية، فتقلّ بذلك النشاطات الاجتماعية التي يقوم بها الفرد.

ولعلّ من الأسباب أيضاً أنّ هذا المرض الخطير يولّد حالة الحسد والبغض والكراهية بين أبناء المجتمع، الأمر الذي يؤدي إلى القطيعة بينهم وعدم التواصل فيما بينهم، بل وهجران بعضهم بعضاً، وإذا ما سادت هذه الحالة بين صفوف المجتمع لا يمكن أن ينهض أفرادهم بمهامهم، فتتعدّم حالة التعاون بينهم.

وعلى العكس من ذلك ما إذا سادت في المجتمع الواحد روح الاحترام وحفظ مكانة الناس وصون كرامتهم ومنزلتهم الاجتماعية، فعندئذ ستسود روح المحبة والتراحم والتعاون بينهم؛ وذلك لشعور كلّ واحد منهم بأنّ له قيمة اجتماعية بين أبناء مجتمعه، بعد إظهار الآخرين له الاحترام والتقدير، الأمر الذي يمكنه من النهوض بمهامه وأداء وظائفه بروحية عالية، وإنجاز المهمة الموكلة إليه بإخلاص وتفان^(١).

(١) ذكر العلامة الطباطبائي رحمته الله ما نصّه: «والغيبة تُفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد، فتسقطها

ثانياً: تآكل المجتمع وتفكك العلاقات

من الآثار السلبية التي وردت في حرمة الغيبة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

فقد شبّهت الآية الكريمة غيبة الناس والتعرض لذكر شخصياتهم بالانتقاص والطعن فيهم وذكر عيوبهم ومثالبهم، بأن الذي يغتاب غيره كأنه يأكل لحم أخيه



عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع، وهو أن يُخالط كلّ صاحبه ويمارجه في أمن وسلامة، بأن يعرفه إنساناً عدلاً سويّاً، يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره. وأمّا إذا عرفه بها يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك، وضعفت رابطة الاجتماع، فهي كالأكلة التي تأكل جثتان من أثليّ بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة. والإنسان إنّما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويّة اجتماعيّة، أعني: بمنزلة اجتماعيّة صالحة لأن يُخالطه ويمارجه، فيفيد ويُستفاد منه، وغيبته بذكر عيبه لغيره تُسقطه عن هذه المنزلة، وتبطل منه هذه الهويّة. وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح، ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره، فيتبدّل الصلاح فساداً، ويذهب الأُنس والأمن والاعتدال، وينقلب الدواء داءً.

فهي في الحقيقة إبطال هويّة اجتماعيّة على حين غفلة من صاحبها، ومن حيث لا يشعر به، ولو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرّز منه وتوقّى انتهاك ستره، وهو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الإنسان ونواقصه؛ ليتمّ به ما أراده من طريق الفطرة، من تآلف أفراد الإنسان وتجمّعهم وتعاونهم وتعاوضهم، وأين الإنسان والنزاهة من كلّ عيب؟!». الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(١) الحجرات: آية ١٢.

ميتاً؛ لما في هذا الفعل من القباحة والشناعة الشديتين؛ إذ إنَّ الأخ هو شريك الإنسان في كلِّ شيء، شريكه في الولاء والإيمان، وشريكه في الوطن والانتماء، وشريكه في العيش، فكيف يستطيع أن يأكل لحم هذا الشريك وهو ميت؟! إنَّه عمل يكرهه الناس جميعاً؛ لأنَّهم يأنفون عن أكل الميت.

ثالثاً: انحطاط المنزلّة عند الله تعالى

رُوي أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «مَن مات تائباً من الغيبة فهو آخر مَن دخل الجنة، ومَن مات مصرّاً عليها فهو أوّل مَن يدخل النار»^(١).

يُشير هذا الحديث إلى أثر سلبيٍّ أخرويٍّ خطير يُحيط بالعبد الذي يُمارس الغيبة، وهو انحطاط منزلته عند الله تعالى يوم القيامة، وذلك أنَّ الذي يغتاب الناس يكون آخر مَن يدخل الجنة في حال أنَّه قد تاب واستغفر الله تعالى، وقَبِلَ الله توبته، بغض النظر عن الحقوق الأخرى المترتبة على الغيبة، والتي هي حقوق الإنسان الذي هُتكت حرمة وصدرت في حقّه الغيبة.

من المؤكّد بأنَّ الإنسان لا يخلو من الذنوب والمعاصي؛ لكنَّه إن كَفَرَ واستغفر الله وتاب مُحمي عنه تلك الذنوب. أمّا ذنب الغيبة فهو حتى بعد التوبة له أثره، وهو أنَّه يحطّ من منزلة الإنسان يوم القيامة، فيجعله آخر مَن يدخل الجنة؛ وذلك لقباحة الغيبة وشناعتها ورذالتها. فهو على الرغم من كونه تائباً عنها، لكنَّه في منزلة أدنى بالنسبة إلى التائبين عن الذنوب الأخرى.

أمّا الإنسان الذي يموت وهو مصرّ على ارتكاب الغيبة وقولها وممارستها، فهو أوّل مَن يدخل النار يوم القيامة.

(١) النوري، حسين، مستدرک الوسائل: ج ٩، ص ١٢٦، ح ١٠٤٣٨.

رابعاً: خسران رصيد الحسنات

يجهد الإنسان المؤمن في الحياة الدنيا من أجل زيادة رصيده من الحسنات التي تنفعه لآخرته، وليس اكتساب الحسنة يأتي مجاناً من غير جهد أو عمل، وإنما كل ما يعمل به الإنسان في حياته إما أن يؤجر عليه ويثبت، وإما أن تُسجل عليه معصية وذنب، فهو يسعى لأن يكون رصيده الأخرى مثقل بالحسنات، ولكنه غفل عن أنّ الغيبة تُحمّله ثمناً باهضاً، وهو خسران ذلك الرصيد من الحسنات، فهو ذنب كبير يُذهب بتلك الحسنات؛ لذا يؤكّد الحديث الشريف الوارد عن الإمام الصادق (عليه السلام) هذا المعنى، فيقول: «الغيبة حرام على كل مسلم، وإنما لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(١).

إنّ ذلك الرصيد من الحسنات الذي جهد الإنسان في جمعه واكتسابه، سوف يضع بمجرّد ارتكاب ذنب الغيبة، فقد شبهها الحديث بالنار، فكما أنّ النار تلتهم الحطب وتأكله ويصير رماداً، كذلك هي الغيبة تلتهم الحسنات التهاماً وتأكلها حتى ينفد ما للإنسان من حسنات. وربّما لا يقتصر الأمر على هذا؛ فإنّه بالرغم من إتيان الغيبة على الحسنات وأخذها منها الشيء الكثير، يُضاف على فاعل الغيبة من سيئات من اغتابهم، فيزداد عليه حمله من السيئات بعد فقده الحسنات.

من هنا يُرَبّي الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الناس ويوجههم ليتجنبوا هذا الذنب العظيم، ويتعدوا عن هذه المعصية وهذا المرض الاجتماعي الخطير، وذلك بما يأتي في الشق الثاني من الكلام في المقام.

(١) النراقي، محمّد مهدي، جامع السعادات: ج ٢، ص ٢٣٤.

الشق الثاني: خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

يقسم الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام الناس في هذه الخطبة إلى طوائف، وكل واحد من أبناء البشر لا بد أن يجد نفسه في طائفة من هذه الطوائف. ومن خلال الخطبة يوضح الإمام عليه السلام العلاج لمن أصيب - من الناس - بمرض الغيبة. وسوف نستعرض مقاطع هذه الخطبة تباعاً، ونبين مقصود الإمام عليه السلام من كلامه في النهي عن عيب الناس^(١).

الطائفة الأولى: البعيدون عن الذنوب

يقول الإمام عليه السلام: «وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم». يذكر الإمام علي عليه السلام في هذا الجزء من خطبته الطائفة الأولى من الناس، وهم الذين من الله تعالى عليهم بلطفه ورحمته أن سلمهم وعصمهم من العيوب والذنوب والمعاصي التي يمارسها بعض الناس، وعلى هؤلاء أن لا يذكروا العيوب

(١) نورد في المقام نص الخطبة كاملاً لزيادة الفائدة: «وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاً وعيره ببلواه، أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه، مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به؟! وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله؟! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله في ما سواه مما هو أعظم منه. وأيم الله، لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير، لجرأته على عيب الناس أكبر. يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنبه؛ فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية؛ فلعلك مُعَذَّب عليه. فليكفُف من علم منك عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته مما أثبت به غيره». نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢، ص ٢٣-٢٤، رقم ١٤٠.

والمعاصي والذنوب التي يرتكبها الآخرون غيرهم؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أبعدهم عن ارتكابها، وإنَّما عملهم في هذه الحالة الاشتغال بشكر الله تعالى على أن أنعم عليهم وشملهم برعايته، وأبعدهم عن تلك العيوب.

وربَّما الكثير من الناس من يدخل تحت هذه الطائفة، لكنَّه يحمل هذه العيوب ويرتكب تلك الذنوب والمعاصي، لكنَّ الله تعالى برعايته وعنايته ورحمته بهم أن ستر إظهار هذه العيوب؛ لأنَّه لا يعلم بها إلاَّ الله تعالى. لذا فليكن هذا الستر من الله دافعاً للإنسان على عدم ذكر عيوب الآخرين، فكما أنَّ الله سبحانه قد ستر على الإنسان هذا النقص الذي يحمله في نفسه ويفعله ولا يعلم به أحد، كذلك يجب عليه ستر عيوبهم، ويكون متخلِّقاً بأخلاق الله تعالى، فيستر على الآخرين ذنوبهم ومعاصيهم وعيوبهم.

الطائفة الثانية: مستورو العيوب

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فكيف بالعائب الذي عاب أخاً وعيَّره ببلواه، أمَّا ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه ممَّا هو أعظم من الذنب الذي عابه به؟!».

يُشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى الطائفة الثانية من الناس، وهم الذين قد ستر الله تعالى عليهم - بمنَّه ولطفه ورحمته - ما هو أعظم من الذنوب والعيوب والمعاصي التي يذكرونها بحق الآخرين ويعيبونهم بها، فإنَّ الله تعالى لم يكشف ما ارتكبه من يدخل تحت هذه الطائفة من الناس ممَّا هو أعظم من ذنوب غيرهم، وإنَّما ستره عليهم، فالذي ينبغي لهم استحضار هذا المعنى في نفوسهم، والتخلُّق بأخلاق الله تعالى حينما ستر عليهم معاصيهم ولم يفصحهم.

فهو تنبيه لمن هو دون الطائفة الأولى ممن يرتكب الذنوب على ما ينبغي له من ترك الغيبة، وذلك باعتبار ستر الله تعالى عليه من ذنوبه ما هو أعظم مما عيّر به أخاه. ومن هنا يُعرف المؤمن الحقيقي والملتزم بشريعة الباري عزّ وجلّ، وهو الذي تخلّق بالأخلاق الإلهية التي شملته بالرحمة واللطف، وستر عليه معايبه وذنوبه ومعاصيه ولم يطلع عليها الآخرون، وعلى الرغم من أنّها كانت أعظم من ذنوب ومعائب الآخرين.

الطائفة الثالثة: المنشغلون بعيوب الآخرين

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «وكيف يذمّه بذنب قد ارتكب مثله؟! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه، فقد عصى الله في ما سواه ممّا هو أعظم منه».

يُشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى طائفة ثالثة من الناس، وهم الذين ينشغلون بذكر عيوب وذنوب غيرهم والطعن فيهم، مع أنّهم يرتكبون أعظم منها إذا لم يكونوا قد ارتكبوا تلك الذنوب بعينها.

ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ بني آدم خطّاء كما يقول الرسول ﷺ^(١)، وأنّ العاقل والحكيم من الناس هو الذي يبحث عن أخطائه وعيوب نفسه وما يرتكب من الذنوب والمعاصي ويشغل بإصلاحها قبل أن يبحث عن عيوب الآخرين وأخطائهم ويعيب عليهم ذلك؛ فإنّ المطلوب عقلاً إصلاح الإنسان نفسه أولاً قبل النظر في عيوب الناس.

وهنا يذكر الإمام عليه السلام بأنّ العائب على غيره يجب أن ينظر إلى نفسه أولاً، فربّما يعيب على شخص ذنباً أو خطأً وهو موجود فيه ويرتكبه قبل ذلك الشخص؛ فإنّ

(١) روي عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون المستغفرون».

الفيض الكاشاني، محسن، المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء: ج ٧، ٨١.

الكثير من الناس ينظرون إلى عيوب الآخرين ومعاصيهم، وهي - في الحقيقة - أقلّ خطراً أو شناعةً من ذنوبهم أو معاصي أنفسهم، إذا لم يكن الطرفان قد ارتكب العيب نفسه وبعينه؛ فإنّ الأولى بهؤلاء العائنين على غيرهم أن ينشغلوا بذكر عيوبهم وإصلاحها قبل أن يطعنوا بالآخرين وأعمالهم.

الطائفة الرابعة: مرتكبو الصغائر

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وأيُّ الله، لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير، لجرأته على عيب الناس أكبر».

لا أحد يستطيع أن يزكّي نفسه ويفضّلها على الآخرين؛ فإنّه لا يُزكّي الأنفس إلّا الله تعالى، فلا يرى الإنسان نفسه أنّه لا يرتكب إلّا صغائر الذنوب والمعاصي، وأنّ الآخرين من حوله يرتكبون الكبائر من الذنوب؛ فإنّ الله تعالى هو الذي يزكّي الأنفس.

من هنا يُشير الإمام عليه السلام إلى الطائفة الرابعة من الناس في هذا المقطع من كلامه، وهم الذين يرون في أنفسهم أنّهم لا يرتكبون إلّا الصغائر من الذنوب والمعاصي، وأنّ غيرهم من الناس يرتكبون الكبائر، فيعيون عليهم ذلك، إلّا أنّهم لا يشعرون بأنّ هذا العمل بحدّ ذاته - ذكر عيوب الآخرين وذنوبهم ومعاصيهم والانشغال بذلك والطعن فيهم لأجله - هو ذنب أعظم من تلك الذنوب التي يرتكبوها الآخرون. وربّما تكون هذه الحالة منتشرة عند أغلب أفراد المجتمع لكن لا يشعرون بها.

وبعبارة أخرى: ربّما يرى الإنسان في نفسه من خلال أفعاله وأقواله مقارنةً بأفعال الآخرين وأقوالهم أنّه لا يرتكب ما يرتكبونه من الذنوب والمعاصي الكبيرة، وإنّما الذي يفعله هو يُعدّ من الذنوب الصغيرة، فيترك ذكر عيوبه؛ لقلّة شأنها في نظره،

ويشغل نفسه بذكر عيوب الناس والطعن فيهم. لكنّ هذا العمل يُعتبر من الذنوب الكبيرة، وهو أكبر ممّا عاب به على غيره، لذلك يقول الإمام عليه السلام: «جرأته على عيب الناس أكبر».

وبعبارة ثالثة: لو فرضنا أنّ فلاناً من الناس لم يقترب ذنباً كبيراً، وأنّه قد فعل الذنب الصغير فقط، لكنّ حرصه وإصراره على أن يذكر عيوب الناس، ويُذيعها ويُشيعها ليسمعها الناس، فهو من الذنوب الكبار^(١).

التأكيد على الابتعاد عن مرض الغيبة

يقول الإمام عليه السلام: «يا عبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنبه؛ فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية؛ فلعلّك مُعَذَّب عليه».

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تقسيمه الناس إلى طوائف من ناحية ذكرهم لعيوب الآخرين في مقاطع كلامه المتقدّم، وما تحمله تلك المقاطع من إرشادات ومواعظ

(١) يقول شارح (نهج البلاغة) حبيب الله الهاشمي الخوئي في هذا الصدد: «وحصل المراد أنّه لا يجوز لأحد أن يعيّر أخاه؛ لأنّه إمّا أن يكون بذنب وقد ارتكب الغائب مثله، أو أكبر منه، أو أصغر. فإن كان بذنب قد ارتكب مثله أو أكبر، كان له في عيب نفسه شغل عن عيب غيره، وفيه قال الشاعر:

وإذا جريت مع السّفيه كما جرى	فكلاكما في جريه مذموم
وإذا عتبت على السّفيه ولمته	في مثل ما تأتي فأنت ظلوم
لاتنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

إلى آخر الأبيات...

وإن كان بذنب ارتكب أصغر منه فهو ممنوع أيضاً؛ لأنّ جرأته على الغيبة وإقدامه عليها أكبر المعاصي؛ باعتبار ما يترتب عليها من المفساد والمضارّ الدنيويّة والأخرويّة». الهاشمي، الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٨، ص ٣٧٠.

للذي يغتاب الآخرين ويذكر عيوبهم، يوجّه نداء استعطاف للناس يُرشدهم فيه إلى الكفّ عن الغيبة، مخاطباً الذين يغتابون الناس أن يتركوا الكلام في عيوبهم، مشيراً إلى مسألة مهمّة ينبغي لفت نظر الإنسان إليها، وهي: ربّما يشغل الإنسان بذكر عيوب الناس؛ لتصوره أنّهم يرتكبون الكبائر من الذنوب والمعاصي، لكنّه لا يعلم بأنّ الله سبحانه قد يغفر لهم تلك الذنوب بعد توبتهم، ربّما تشملهم رحمة ربّ العالمين، أو شفاعة النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام)؛ لما لهم من الأعمال الصالحة، فيغفر الله ذنوبهم، والحال أنّه تعالى لا يغفر لمن اغتابهم وذكر عيوبهم ونشرها وإن أمن على نفسه بأنّه غير مرتكب إلّا الذنب الصغير. فلعلّ الله تعالى يُعذّبه على هذا الذنب الصغير، فلا يأمن الإنسان على نفسه من صغير معصية.

ربّما يغفر الله تعالى للناس ذنوبهم الكبيرة ويعفو عنهم ويمحو سيئاتهم، لكنّه سبحانه لا يغفر لمن عاب على الناس تلك الذنوب وإن كان قد ارتكب صغيرة، فلعلّ عذابه يكون على تلك الصغيرة التي ارتكبها.

لذلك يؤكّد الإمام (عليه السلام) هذه الوصية للإنسان بأن يكفّ عن ذكر غيره، ويترك غيبتهم وإن كان قد علم تلك العيوب منهم، فالأولى أن يذكر عيب نفسه. يقول الإمام (عليه السلام) في نهاية خطبته: «فليكفّف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على معافاته ممّا ابتلي به غيره».

إنّ من الحكمة أن يشتغل الإنسان المؤمن العاقل الحكيم باكتشاف عيوب نفسه؛ لأجل إصلاحها، ويكفّ عن الطعن والانتقاص من شخصيّة غيره بذكر عيوبه أمام الملائكة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر على الإنسان أن يشكر الله تعالى على أن منّ عليه

وشمله برحمته ورعايته، وجنبه الوقوع في تلك العيوب والمعاصي؛ فإنّ هذه من النعم التي أنعم الله بها عليه؛ إذ قد عافاه ممّا ابتلي به غيره من الناس.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للتوبة، ويجنبنا الوقوع في مثل هذه المعاصي والذنوب، وألا يجعل في نفوسنا مكاناً لهذا المرض الاجتماعي الخطير، إنّه سميع مجيب الدعاء.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الحادية والثمانون

الانتفاع بالقرآن الكريم

(نفحات تربويّة من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام في بيان فضل القرآن)

بتاريخ: ٩ / ٥ / ٢٠٠٨ م

﴿الترغيب في طاعة الله والتحذير عن معاصيه

﴿المقارنة بين العلوم الدنيويّة وما أتى به القرآن الكريم

﴿محابّ الله ومكارهه من الأعمال

﴿ميل النفس إلى المعصية

﴿محاسبة النفس

﴿فضل القرآن

﴿زيادة في هدى أو نقصان من عمى

﴿القرآن شفاء من الداء

﴿ثمرة القرآن الأخروية

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل علينا كتاباً يهدي إلى الحق والطريق الأقوم، وجعل فيه الشفاء للصدور، والبشارة لمن اتخذه هادياً ومرشداً إلى الصواب. والصلاة والسلام على من صدح به ليلاً ونهاراً، مبشراً بثوابه ومخدراً من عقابه، أبي القاسم محمد، وعلى آله الذين حفظوا أحكامه، وصانوا شرائعه، وهدوا الناس إليه.

أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأمارة بالسوء - بتقوى الله. نتعرض في هذه الخطبة لذكر نصوص من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الموعظة والنصيحة والحث على الاستقامة، ولزوم الصدق، وذلك في خطبة أوقعها أوائل الخطب التي خطب بها أيام ببيع بالخلافة بعد مقتل عثمان، يرغب فيها المخاطبين في الطاعات، ويحذرهم من السيئات والشهوات ومتابعة هوى النفس، ويبين فيها فضل القرآن ومنزلته، ويطلب متابعتها والأخذ بها ورد فيه من النصائح والمواعظ^(١).

(١) يستعرض سماحة الشيخ (دامت بركاته) في هذه الخطبة نصوصاً تربوية من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة رقم (١٧٦)، وهي خطبة طويلة يعظ الإمام عليه السلام فيها الناس ويبين لهم فضل القرآن، وينهى عن البدعة. ولتعميم الفائدة في المقام ندرج هنا نص الخطبة المذكورة، مقتصرين على الفصول التي جعلها ساحتها موضوع الخطبة.

الترغيب في طاعة الله والتحذير عن معاصيه

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «انْتَفِعُوا ببيانِ الله واتَّعِظُوا بمواعظِ الله، واقْبَلُوا نصيحةَ الله؛ فَإِنَّ الله قد أَعَدَّ إِلَيْكُمْ بالجلية، واتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ».

يُورد الإمام عليه السلام في هذه الجُمْل من كلامه نصائح بليغة للإنسان، فهو يرغِّبه في طاعة الله ويوجهه نحو الالتزام بها، ويحذِّر وينفِّر من معصيته تعالى، كل ذلك لأنَّ الله تعالى قد قطع الأعذار على العباد بتقديم الحجج الواضحة والبراهين الجليلة على وجوب الطاعة والابتعاد عن المعصية، فليس عند العبد يوم القيامة من عذر مقبول



قال أمير المؤمنين عليه السلام: «انْتَفِعُوا ببيانِ الله واتَّعِظُوا بمواعظِ الله، واقْبَلُوا نصيحةَ الله؛ فَإِنَّ الله قد أَعَدَّ إِلَيْكُمْ بالجلية، واتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ محابَّته من الأعمال ومكارِهه منها؛ لتَتَّبِعُوا هذه وتَجْتَنِبُوا هذه؛ فَإِنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يقول: إِنَّ الْجَنَّةَ حُقَّتْ بالمكاره، وَإِنَّ النَّارَ حُقَّتْ بالشهوات. واعلموا أَنَّهُ ما من طاعة الله شيءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِه، وما من معصية الله شيءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ، فرحم الله امرأً نَزَعَ عن شهوته، وقمع هوى نفسه؛ فَإِنَّ هذه النفس أبعد شيءٍ مَنْزِعاً، وإِذَا لا تزال تَنْزِعُ إِلَى معصية في هوى. واعلموا - عباد الله - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً لها، فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم، قَوِّضُوا من الدنيا تقويض الراحل، وطَوِّئُوا طَيِّئَ المنازل.

واعلموا أَنَّ هذا القرآن هو الناصح الذي لَا يَغْشَى، والهادي الذي لَا يُضِلُّ، والمحدث الذي لَا يَكْذِبُ، وما جالسَ هذا القرآنَ أَحَدٌ إِلَّا قام عنه زيادة أو نقصان؛ زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أَنَّهُ ليس على أَحَدٍ بعد القرآن من فاقَةٍ، ولا لأَحَدٍ قَبْلَ القرآن من غِنَى، فاستشفعوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم؛ فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجَّهوا إليه بحبِّه، ولا تسألوا به خلقه، إِنَّهُ ما توجَّه العباد إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أَنَّهُ شافع مشفَّع، وقائل مصدِّق، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ له القرآن يوم القيامة شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ حَكَلَ به القرآن يوم القيامة صُدِّقَ عَلَيْهِ...». نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٢٥٠-٢٥١.

في حال سُئِلَ عن إتيانه بواجب أو ارتكابه محرّماً؛ لأنّ الله تعالى قد قطع عليه ذلك مسبقاً، فلا تُقبل منه الأعذار أو المبرّرات التي يُدلي بها آنذاك وإن كانت قد تنفعه في الدنيا، إلّا أنّها يوم القيامة لا قيمة لها.

فقد أوضح الإمام عليه السلام أنّ سبب عدم قبول الأعذار يوم القيامة بأنّه تعالى قد أنزل لكلّ قوم كتاباً فيه بيان لما هو المطلوب منهم، وبيان لأحكامه الإلهية وشرائعه والأنظمة التي تكتمل فيها الحياة والأرواح، وتحصل بها السعادة للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة. وبعث إليهم بالحجج وأرسل الرسل لكي يُبينوا تلك الأحكام، ويُعلّموا الناس كيفية تطبيقها والالتزام بها، وجعل هؤلاء الرسل يُمثّلون القدوة في تطبيق تلك الأحكام لكي يقطعوا طريق الاعتذار عن العباد.

وقد جعل الله في كلّ زمان حجّة له على الناس يُبين من خلالها لهم أحكامه وشرائعه، وتكون الحجّة مرجعاً للعباد في بيان ما يلتبس عليهم من الأمور وما يُشتبه عليهم من الأحكام، لذا فلا يكون بعد ذلك للإنسان عذر يبرّر له عدم التزامه بالتكاليف والواجبات واجتنابه المحرّمات.

المقارنة بين العلوم الدنيوية وما أتى به القرآن الكريم

هناك أمر مهمّ يجب أن يعيه الإنسان، وهو مسألة المصير، فهو لا يُدرك قيمة الحياة الآخرة مقارنةً بالحياة الدنيا، لذا فهو يبذل الجهود الكبيرة، ويعرّض نفسه للمصاعب والآلام، ويتحمّل الكثير من العناء من أجل أمور دنيوية، لكنّه في قبال ذلك لا يبذل شيئاً - ولو يسيراً - من تلك الجهود من أجل الأمور الأخروية، فلا يُعطيها حقّها أو استحقاقها منه.

وأمثلة ذلك كثيرة في الحياة اليومية الاجتماعية، وهي متحقّقة في كلّ فرد من

أبناء المجتمع؛ فإنَّ الإنسان وهو طالب في المدرسة ينتقل من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة المتوسطة، ثم الإعدادية وبعدها إلى الجامعة، وربما يطمح في الحصول على الشهادات العليا كذلك، وهذا بالتأكيد يتطلب منه بذل جهود كبيرة وصرف أوقات كثيرة تستمر معه سنوات يسهر فيها ليلاً ويكدح نهاراً، والهدف من وراء كل هذه الجهود هو هدف دنيوي، وهو الحصول على الشهادة، أو اكتساب شيء من العلم والخبرة من أجل الحصول على الوظيفة، أو الالتحاق بعمل ما بغية الارتزاق منه.

فلو أجرينا مقارنة بين ثلاثة أمور مهمة تخص هذه العلوم المكتسبة وبين العلوم القرآنية، وهي:

(أ) مرتبة هذه العلوم الدنيوية التي حصل عليها الإنسان بالنسبة لمرتبة العلوم القرآنية.

(ب) الثمار التي جناها من اكتسابه هذه العلوم بالقياس إلى ثمار القرآن الكريم.
(ج) مدة الانتفاع بهذه العلوم إذ ما قورنت بمدة الانتفاع بالعلوم القرآنية. فلا شك في أنه سوف تكون مرتبة العلوم التي وردت في كتاب الله العزيز أعلى منها في العلوم الدنيوية؛ فإنَّ مرتبة علوم القرآن تبلغ القمة في السمو بالنسبة إلى ما يحتاجه الإنسان من هذه العلوم.

كما لا شك في أن ما يجنيه الإنسان من القرآن الكريم، وما ورد فيه من أنظمة وشرائع وأحكام، ثمارها أكثر من الثمار التي يحصل عليها من العلوم الدنيوية؛ لأنَّ الأولى تُحقِّق له الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة. وكذلك مدة الانتفاع بثمارها لا تنتهي ولا حدَّ لها؛ لأنَّها تستمر من بعد الحياة الدنيا إلى الآخرة، فلا نهاية لها.

إذاً لو عمل الإنسان العاقل الحكيم مقارنة بين الأمور الثلاثة التي يحصل عليها من العلوم الدنيوية مع ما يحصل عليه من القرآن الكريم، وعرف بأنَّ ما جاء

به القرآن الكريم يفوق ما تمنحه له هذه العلوم، لاقتضى ذلك أن يبذل من الجهد ويصرف من الوقت على ما يكسبه من ثمار القرآن الكريم أضعاف ما يبذله بإزاء تحصيل ثمار تلك العلوم الدنيوية.

ومن هنا يبحث الإمام عليه السلام في بداية خطبته الناس على الانتفاع ببيان الله تعالى، والاتعاظ بما وعظ في آياته، والاستماع لنصائحه وتطبيقاتها؛ لأنه قد قدم فيها الأعداء الجليلة، وجعل فيها الحجة على العباد.

محاب الله ومكارهه من الأعمال

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ويُنَّ لكم محابّه من الأعمال ومكارهه منها؛ لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه؛ فإنّ رسول الله ﷺ كان يقول: إنّ الجنّة حُفَّتْ بالمكاره، وإنّ النار حُفَّتْ بالشهوات».

إنّ أعمال الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى على قسمين: الأعمال المحبّبة إليه تعالى، والأعمال التي يبغضها ويكرهها الله عزّ وجلّ. والأولى يجب على الإنسان اتّباعها؛ وذلك لأنّها تقربّه إلى الله تعالى، وهي من محابّه. والثانية يجب عليه اجتنابها؛ لأنّها تُبعدّه عن الله تعالى؛ إذ هي من مكارهه تعالى.

ومصاديق القسم الأوّل كثيرة، وهي الأعمال الصالحة، والخيرات، والعبادات، وهذه المحابّ لله عادةً ما تكون فيها مشقّة وعناء حسب طبيعة العمل وطريقة أدائه، فمن الأعمال والطاعات ما يتطلّب من الإنسان مشقّة وعناءً جسديّاً، كأداء فرائض الصلاة ومستحباتها من قيام الليل، وكذا ما في الصيام من تحمّل الجسد للجوع والعطش. ومنها ما يتطلّب منه بذل المال ومخالفة هوى النفس والشهوات الدنيوية، كالزكاة والخمس والحجّ، فهي بذلك تكون ثقيلاً على الإنسان. وكذلك غير ما ذكر

من الفضائل كالصبر، والتوكل على الله، والتوبة، كلها قد تحتاج إلى تحمل المشقة لكي يحققها الإنسان، لذلك إذا سئل الإنسان أحياناً عن عدم أدائه لهذه الواجبات والطاعات وأعمال الخير يعتذر بصعوبتها وثقلها عليه.

ومصاديق القسم الثاني كثيرة أيضاً، ومنها المعاصي، وارتكاب المحرمات، والذنوب. والنفس تميل إلى هذا القسم، وربما تنقاد إليه بسبب ما به من الشهوات والملذات التي ترغبها النفس الإنسانية؛ لأنها عادة ما تهوى ذلك. ومخالفة ذلك - بطبيعة الحال - تحتاج إلى تحمل العناء والمشقة؛ لأن النفس الإنسانية تنزع الإنسان إلى الشهوة وعمل المحرم والميول إليه وارتكابه على الرغم من كونه محرماً. فمنع النفس وإبعادها عن المال الحرام مثلاً، أو عن ارتكاب الشهوة المحرمة، يحتاج إلى جهد نفسي وعناء لأجل الابتعاد بهذه النفس عن ارتكاب تلك المحرمات.

والمطلوب من الإنسان أن يتدبر أولاً في النتيجة التي سوف يصل إليها في كلا القسمين؛ فإنّ جزاء تحمل العناء والمشقة وبذل الجهد في القسم الأول المحبب إلى الله تعالى من الأعمال هو الجنة، ومعنى الجنة هي الحياة الأبدية الخالدة التي لا ممت فيها، الحياة التي فيها غنى دون افتقار، فيها سعادة دون عناء أو تعاسة أو هموم أو مصاعب ومشاكل، فيها صحة دون مرض، فيها شباب دون كبر، فيها ما تشتهي الأنفس من الملذات والنعم المادية والمعنوية التي لا زوال لها ولا انقطاع.

إنّ هذا الجزاء العظيم يستحقّ من الإنسان أن يبذل بإزائه الجهد والتعب والعناء، وأن يتحمل المصاعب والآلام والأعباء، وأن يجهد نفسه من أجل تحصيل هذه النتيجة، وذلك بإتيانه الطاعات والقربات وفعل الخيرات، ومجاهدة نفسه وكبحها وإبعادها عن المحرمات.

أمّا جزاء القسم الثاني المبعوض عند الله تعالى من الأعمال، فهو النار والعذاب الأليم، عذاب شديد طويل مستمرّ، عذاب لا يزول.

ولتقريب ذلك نقول: إذا حُكِمَ على الإنسان في الدنيا بالسجن لمدة سنة أو أكثر مثلاً، فإنه سوف يشعر بالملل داخل السجن، ويتنظر يوم الإفراج عنه للخروج من هذا السجن الدنيوي على الرغم من أنه لا عذاب فيه، فالإنسان لا يتحمل هذه المدة من السجن التي لا يُعَذَّب فيها، وإنما يُحصَر في غرفة ويمنع من الخروج منها، فكيف به إذا دخل النار التي لا يخرج منها وفيها عذاب شديد؟!

إنَّ جزءاً من ممارسة الشهوات المحرّمة وهوى النفس والانقياد إليها نحو المعاصي هو دخول النار والعذاب الأليم الخالد.

لذلك رَدَّعُ النفس عن هذه الشهوات والأعمال المحرّمة التي تُثقل الإنسان بالذنوب هو من الممارسات المحبّبة لأجل حماية النفس من دخول النار ونجاتها من العذاب الأليم.

من هنا يحتاج الإنسان أن يقف مع نفسه لأجل حسابها، فيُخاطبها ويُحدّثها في كيفية اجتناب المحرمات وعدم الانقياد إليها، ويُحدّثها في كيفية الابتعاد عن المعاصي وإن استلزم ذلك المشقّة والعناء في الدنيا.

إنَّ محاسبة الإنسان نفسه في الدنيا قبل الآخرة هي وقاية لها من دخول النار؛ لأنَّ النفس الإنسانيّة تكون سبباً في شقاوة الإنسان في الآخرة إذا لم يُحكم زمام أمرها في الدنيا، فإنّها إذا أُطلق لها العنان تقود الإنسان إلى الهلاك بإقدامها على المعاصي والذنوب، وتركها الطاعات والثواب.

فالتوقّف مع النفس ومحاسبتها يومياً على ما يصدر منها يكون رادعاً لها عن ارتكاب المحرّمات، وباعثاً لها للإقدام نحو الطاعات، لذا يُشير أمير المؤمنين بذكر قول رسول الله ﷺ الذي يُبيّن فيه السبب الذي يجعل الإنسان لا يأتي بالطاعات،

ويميل إلى ارتكاب المحرمات على الرغم من وجود البيان من الله تعالى، يقول ﷺ: «فإن رسول الله ﷺ كان يقول: إن الجنة حُفَّت بالمكاره». فإن دخول الجنة يأتي من أداء الواجبات والطاعات، وهي بطبيعة الحال تحتاج إلى الجهد والعناء والمشقة، لكن ثواب ذلك الجنة والنعيم الدائم. «وإن النار حُفَّت بالشهوات»؛ فإن الانقياد إلى الشهوات المحرمة والمعاصي يُقابله الخسران، وجزاؤه دخول النار والعذاب الأليم.

ميل النفس إلى المعصية

قال الإمام أمير المؤمنين ﷺ: «واعلموا أنه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كرهه، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة، فرحم الله رجلاً نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه؛ فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وإنها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى». إن النفس الإنسانية بطبيعتها تميل إلى الشيء السهل، ومعنى الطاعة هو الالتزام بالحق، والطريق إليه شائك وصعب ومرهق؛ إذ فيه ما فيه من المشقة والعناء، فالصلاة - مثلاً - والصوم والحج والزكاة والخمس - وغيرها من الأحكام والطاعات - تكتنفها المشقة والعناء، والنفس تكره لنفسها هذه المشقة وتحمل الأتعاب، فالطاعة لا تأتي إلا في كرهه.

أمّا المعصية فهي تأتي في شهوة، والأخيرة تتفق مع الرذيلة التي هي عكس الفضيلة؛ إذ لو اتفقت الفضيلة مع الشهوة أيضاً لما بقي للقيم والأخلاق والشرائع أثر، وأصبح الناس كلهم سواءً.

كما أن النفس للقوة الشهوية أطوع منها للقوة العاقلة، وخاصة في ما هو أقرب إليها من اللذات المحسوسة التي يلحقها العقاب عليها. لذا المطلوب التغلب على هذه الشهوة، ونزع الهوى من النفس؛ فإن الله تعالى قد مكّن الإنسان من ذلك، فوهبه العقل والقدرة على ردع النفس؛ لكي يتغلب على شهواته وهوى نفسه.

وخلاصة ما يُريد الإمام علي عليه السلام الإشارة إليه أنه لا طاعة إلا في أمر تكرهه النفس، ولا معصية إلا بموافقة أمر تحبه النفس.
من هنا يقول: رَحِمَ الله رجلاً أقْلَعَ وقَمَعَ نفسه الأمانة بالسوء عن هوى نفسه وقهرها على الابتعاد منه، وامتنع من الانهالك في الشهوات؛ فإن النفس لا تزال تشاق إلى معصية في هوى.

محاسبة النفس

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «واعلموا عباد الله، أن المؤمن لا يُصبح ولا يُمسي إلا ونفسه ظنون عنده، فلا يزال زارياً عليها ومستزيداً لها، فكونوا كالسابقين قبلكم، والماضين أمامكم...».

في هذا المقطع الشريف يُبين الإمام عليه السلام الحال التي ينبغي أن يكون الإنسان عليها صباحاً ومساءً، فهو يُنبّه على وصف المؤمنين، وكيفية معاملتهم مع أنفسهم؛ جذباً للسامعين والمخاطبين على التأسي بهم، وتحريضاً لهم على اقتفاء آثارهم.
وهذا الأمر إنما يتم في حال أن يجعل الإنسان نفسه متهمّة أمامه بالتقصير في طاعة الله عزّ وجلّ، بمعنى ألا يجعل الإنسان نفسه راضيةً ومقتنعةً بما تقوم به من طاعات وقربات لله تعالى مهما كَبُرَ حجم تلك الطاعات، وإنما يجعلها عرضةً للتقصير ويشعرها دوماً بأنّ ما جاءت به هو قليل جداً بحقّ مولاه.

فالعاقل هو مَنْ يتّهم نفسه ويعيب عليها التقصير، ويطلب منها ولها المزيد من الكمال والتحرّر من الرذائل والعيوب، ومن أكبر العيوب أن يبرئ الإنسان نفسه من العيب والخطأ أمام الله، والمؤمن لا يُصبح ولا يُمسي إلا وهو حذر من نفسه، معتقداً فيها التقصير في الطاعة.

والطريقة العملية التي يجب أن تُتبع للحصول على هذه المحاسبة النفسية هي أن يبدأ الإنسان رحلته اليومية مشروطاً على نفسه منذ الصباح أن يأتي بما هو محبوب عند الله تعالى، وأن يتجنب ما هو مكروه عند الله عزّ وجلّ، ويبدأ الإنسان - بعد هذه العزيمة القلبية - بمراقبة أفعاله وأقواله وسلوك نفسه وما يصدر عنها في أوقات ذلك اليوم حتى يحين المساء، فيخلو مع نفسه لمحاسبتها؛ فينظر في ما صنعت وفي ما أتت به من عمل أو قول في نهارها، فهل حققت ذلك الشرط الذي اشترطه عليها، أو لم تُحقِّقه؟ فإن وجدها قد حققت مراده وأتت بما هو محبوب لله تعالى، وتركت وانتهت عما هو مكروه له تعالى؛ فإنه بذلك يشكر الله تعالى لكي يزيد عليه هذه النعمة. وإن وجدها قد قصّرت في ذلك وارتكبت المعاصي وما هو مبغوض عند الله، فيبحث عن سبب هذا التقصير ومنشئه، ويوبّخ نفسه ويعيبها على هذا التقصير الذي يوقعه في الهلاك والعذاب الدائم.

إنّ مراقبة النفس ومحاسبتها يُسبّب في ردعها عن ارتكاب المعصية، ويزيد من عزمها على الاستزادة من الأعمال الصالحة وطلب الطاعات.

لذا يُرغّب الإمام في نهاية هذا المقطع ويحثّ المخاطبين والسامعين على أن يكونوا كالسابقين من أكابر الصحابة وأهل الخير والصلاح الذين مضوا أمامهم إلى الجنة في الإعراض عن الدنيا، بعد أن راقبوا أنفسهم وحاسبوها وردعوها عن ارتكاب المعاصي، واشترطوا عليها فعل الطاعات، قائلاً: «فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم...».

فضل القرآن

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يَغُشُّ، والهادي الذي لا يُضِلُّ، والمحدث الذي لا يَكْذِبُ، ما جالس هذا القرآن أحدٌ إلّا قام عنه بزيادة أو نقصانٍ، زيادة في هدى أو نقصان في عمى».

يعطف الإمام عليه السلام الكلام في هذا المقطع على القرآن الكريم، فيبين فضله على الناس؛ لأنه يرشد إلى وجوه المصالح، وهو لا يغش؛ لأنه هادٍ لا يضل. وفي المقام يوضح بعض الأمور التي تخص هذا المعنى:

(أ) زيادة في هدى أو نقصان من عمى

من الطبيعي أن كل إنسان يريد أن يعرف ما ينبغي له أن يفعل، وما ينبغي له أن يترك؛ وذلك بحثاً منه على الحياة الطيبة والمعيشة الرغيدة الهائلة. والله تعالى قد أضاء له بالقرآن الكريم الطريق لتلك الحياة التي هي أصلح وأنفع له؛ لأن فيه تبيان كل شيء، وفيه الأحكام والتشريعات الإلهية التي إن اتبعها الإنسان نجاة، وإن حاد عنها هوى.

إن مثل القرآن الكريم في واقعنا الحياتي مثل الصديق الثقة الناصح في سلوكه وأعماله، فهو يوجه صديقه التوجيه الصحيح دون أن يخدعه أو يغشه، فمن المؤكد أن يكون الموقف تجاهه واتجاه نصيحته هو اتباع رأيه والأخذ به، واستشارته والعمل بمشورته وإرشاداته. والقرآن الكريم ناصح للإنسان؛ إذ ليس فيه شيء من الغش، وحديثه صادق ليس فيه شيء من الكذب، وهو في الوقت نفسه يُجبر عن أحوال الأمم السابقة، ويتحدث عن أحوال ملوك وأمم وأناس سابقين، مبيناً ما جرى عليهم ومصير كل منهم، فيذكر مصير من سار في طاعة الله تعالى، ومصير من اتبع طريق معصية الله تعالى. وذكره لهذه القصص والأحداث التي مر بها السابقون؛ للعبرة والاتعاظ بها، ولتكون للإنسان درساً في حياته القادمة، لذا يجب أن يكون الموقف تجاه القرآن الكريم هو الأخذ بما يقول وتطبيق ما فيه من أحكام وإرشادات تجعل الإنسان يحيا حياة طيبة.

ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى مجالسة القرآن الكريم وحجم المنفعة التي يكتسبها الإنسان من هذه المجالسة، وفي ذلك منقبة وفضل للقرآن الكريم على الناس؛ لأنّ هذه المجالسة إمّا أن تزيد الإنسان هدىً، أو تنقص من عمى الجهل عنده؛ لأنّ فيه من الآيات والبراهين ما يزيد في بصيرة المستبصر وينتقص من جهالة الجاهل.

فلو أنّ الإنسان قد اعتاد أن يقرأ في كلّ يوم صفحات من كتاب أو منشور، ووضع بين يديه ونصب عينيه ميزاناً يُقيّم حجم الفائدة التي يكتسبها من قراءته لذلك الكتاب أو المنشور، ومقدار المنفعة التي تحصل له من ذلك، أو الهداية التي يبيغها منها؛ فإنّه لا بدّ من وجود مصلحة ما يُرشد إليها ما هو مكتوب فيها، فهو ينتظر أن يستزيد من المصالح حينما يُقدم على مثل هذه القراءة، أو ينتظر أن يجد في ذلك مقدار ما يدفع عنه هذا الكتاب أو المنشور من المفسدة والخسران الذي يعيشه. فإنّه إذا قارن بين ذلك وبين قراءته ومجالسته للقرآن الكريم، سوف يجد فرقاً كبيراً بين ما ينتفع به من القرآن، وبين ما يحصل عليه من المنفعة بقراءة غيره من الكتب؛ فإنّه إن قرأ شيئاً - ولو سيراً - من القرآن الكريم لا يقوم عن ذلك إلّا وهو في حال زيادة من هدىً أو نقصان من عمى أو ضلال.

والمراد من مجالسة القرآن ليس هو الجلوس بالمعنى المتعارف منه الذي تصوّره أوّل وهلة، وهو جلوسنا الطبيعي المعتاد مع الناس، وإنّما المقصود من مجالسة القرآن هو ملازمة القرآن، والتدبّر والتفكّر عند قراءة آياته وتلاوتها، أي: التأمل في معاني كلّ كلمة واردة في الآية التي تُقرأ.

فليست هذه القراءة هي قراءة عادية يقرأ بها الإنسان صحيفةً أو منشوراً أو كتاباً عادياً، وإنّما قراءة القرآن يجب أن تكون قراءةً مع تأنٍّ وإمعانٍ في ما تحمله الألفاظ من معانٍ سامية فيها من النصائح والمواعظ والإرشادات والأحكام ما تجعل من القارئ أن يتمسك بها ويطبّقها.

نعم، المجالسة مع القرآن بهذا المعنى - وإن كانت مدّة قصيرة أو دقائق معدودة - تخرج بنتيجة طيبة للإنسان، وهي إمّا الازدياد في الهدى، وإمّا النقصان من العمى والتحيّر والضلال.

(ب) القرآن شفاء من الداء

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفّوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم؛ فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال...».

تقدّم أنّ من تفهّم القرآن وعمل به فهو غنيّ له عن كلّ هادٍ ومرشد، ومن جهله أو أعرض عنه فلا ينتفع بشيء سواه؛ وذلك لأنّه ثروة غنيّة بالعلوم والأحكام والنظم، فمن عمل بأحكامه يتمّ له الحكمة، وهو مع ذلك يصلح معاش العباد، ويضع الحلول والعلاجات لدفع المشكلات الاجتماعية والأوضاع الفاسدة من جهة، ويكون شفاءً من الأمراض الظاهرة والباطنة والروحانيّة والجسمانيّة من جهة أخرى؛ فإنّ فيه شفاءً كلّ ذلك، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾^(١).

إنّ مرجع المشكلات والصعوبات والمحن والابتلاءات والمصاعب التي يمرّ بها الإنسان في حياته، ولربّما تُسبّب له أمراضاً جسديّة أو نوبات قلبيّة أو حالات نفسيّة، هو الأمراض الروحيّة، فإذا أراد الإنسان العون من أجل القضاء على هذه المشكلات، والتغلّب على المصاعب والمحن والخروج منها بسلام وطمأنينة، عليه

(١) الإسراء: آية ٨٢.

أن يجعل القرآن الكريم جليسه، ويأخذ به هادياً ومرشداً، ويجعله شفاءً؛ فإن كثيراً من تلك الأمراض تُشفى ببركة القرآن الكريم، وأنها مهما بلغت من التعقيد والصعوبة، فإنه يستطيع أن يخرج منها بسلام، يخرج منها سعيداً ظافراً منتصراً؛ وذلك لأن القرآن يُعالج هذه الأمراض الروحية، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

إن هذه ثمرة دنيوية أخرى تُضاف إلى ثمار القرآن الكريم، يجتاز بها الإنسان أصعب الامتحانات، وبه تزول المحن ويخرج الإنسان من البلية، ويصلح حاله، وتنعدم فاقته، ولا يبقى له بعد التمسك بالقرآن الكريم إلى شيء آخر حاجة، ومن لم يكن كذلك فهو من مصاديق المحتاجين.

(ج) ثمرة القرآن الأخروية

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق. وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن تحل به القرآن يوم القيامة صدق عليه».

يُشير هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام إلى أن ثمرة القرآن لا تقتصر على كونها ثمرة دنيوية، وإنما في الوقت الذي ينتفع الإنسان من القرآن الكريم في الدنيا يحصل على ثمرة أخروية كذلك، فلا تقتصر ثمار تلاوة القرآن أو مجالسته على الحياة الدنيا فقط، وإنما يكون القرآن في الآخرة شافعاً ومشفعاً، وقائلاً مصدقاً؛ فإنه يشفع لقرائه والعاملين به والحاملين له يوم القيامة، فيقبل الله تعالى في ذلك اليوم شفاعته في حقهم، وهو - أي: القرآن الكريم - يقول ويشهد في حق هؤلاء بما هو خير لهم.

كما أنه يشهد على التاركين له والناذرين به وراء ظهورهم شهادة تضرهم، وإن

مَنْ سعى به القرآن إلى الله تعالى يوم القيامة وقال في حقه قولاً يضره ويوقعه في المكروه، فقد صدّق عليه، فقوله بذلك صدق وحقّ.

من هنا يورد الإمام الباقر عليه السلام حديثاً^(١) يبيّن فيه حال قرّاء القرآن، ويقسمهم إلى ثلاثة أصناف، أحد هذه الأصناف هو الناجي من عذاب الله، وبواسطته يرحم الله تعالى العباد. فلينظر الإنسان الذي يقرأ القرآن ويتعاهده في أيّ صنف يكون مكانه من تلك الأصناف الثلاثة.

الصنف الأوّل: يقول أبو جعفر الباقر عليه السلام: «قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتّخذ بضاعةً واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس...».

إنّ هدف هذا الصنف من القرّاء ليس خالصاً لله تعالى؛ إذ لم يكن غرضه من

(١) يورد سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي - دامت بركاته - الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام مقطّعاً إيّاه ثلاثة مقاطع؛ وذلك لبيان الأصناف الثلاثة من قرّاء القرآن الواردة في الحديث الشريف، شارحاً لكل صنف منها، ومعلّقاً عليه. ونصّ الحديث كالآتي:

عن عيسى بن هشام، عمّن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتّخذ بضاعةً واستدرّ به الملوك، واستطال به على الناس. ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده، وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن. ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يُبدل الله عزّ وجلّ الأعداء، وبأولئك يُنزل الله تبارك وتعالى الغيث من السماء، فوالله هؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر». المجلسي، محمّد تقي، روضة المتّقين: ج ١٣، ص ١٢٥.

تلك القراءة الحصول على المغنم الدنيويّة والأخرويّة المترتبة على قراءة القرآن وتلاوته الخالصة لوجه الله تعالى، وإنّما الغرض من التلاوة والترتيل ليقال عنه: إنّ قارئ القرآن، وليقال عنه: ما أحسن وأجود قراءته وترتيله وتلاوته، وكلّ ذلك طمعاً في المكاسب الدنيويّة والتطاؤل على الناس.

الصنف الثاني: «... ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده، وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن».

ربّما يصدّق هذا الصنف على الكثير من القراء الذين يحفظون شيئاً كثيراً من آيات وسور القرآن الكريم؛ فإنّ هناك من يحفظ القرآن بكامله وبتمام ألفاظه، لكنّه يحفظه بلسانه فقط؛ إذ لا تجد عنده من التدبّر والتفكّر في معاني القرآن شيئاً يقوده إلى تطبيق ما حفظه من أحكام وقوانين جاء بها القرآن الكريم.

إنّ هذا الصنف من القراء هو مجرد حفظ لألفاظ القرآن لا ترقى به إلى مستوى التطبيق العملي لما ورد في القرآن من مفاهيم وأحكام وأنظمة وشرائع، فلا ثمرة مرجوة من أمثال هذا الصنف من القراء، لذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن».

الصنف الثالث: «ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده وتجاوى به عن فراشه، فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يُدِيل الله عزّ وجلّ من الأعداء، وبأولئك يُنزل الله تبارك وتعالى الغيث من السماء، فوالله هؤلاء في قرأ القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر».

إنّ هذا الصنف من القراء هو الصنف الناجي؛ لأنّ أصحابه هم الذين تمسّكوا بالقرآن حقيقةً، وتدبّروا في معانيه، وعملوا بما ورد فيه، وطبّقوا تعاليمه وأحكامه؛ فإنّهم لم يقرؤوا القرآن طمعاً في المكاسب الدنيويّة، ولم يحفظوا ألفاظه بدون تمعّن وتفكّر، وإنّما صار أحدهم يظمأ نهاره خوفاً من عقوبة الله تعالى، ويسهر ليله تعبداً

الله تعالى، ويتجافى جنبه عن المضجع ليلاً قائماً فيه يعبد الله عزّ وجلّ، كلّ ذلك تطبيقاً لما ورد في القرآن الكريم من تعاليم وأحكام.

وهذا الصنف هو الذي يُشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه، والذي يكون القرآن الكريم شافعاً له، بل إنّ نتائجه أكثر من ذلك؛ فإنّ ثمرة وجود أمثال هؤلاء القراء من هذا الصنف لا تنحصر بالقارئ وحده، بمعنى أنّ المنفعة الحاصلة من هذه القراءة - التي هي خالصة لله تعالى، وكانت بإمعان وتدبّر - ترجع إلى عموم المجتمع؛ فإنّ القارئ إذا صدق عليه هذا الصنف، لا تعود ثمرة قراءته لنفسه فقط، وإنّما بواسطة هؤلاء القراء يدفع الله تعالى المحن والبلاء عن الناس، ويزيل عنهم العقوبات، وبهم يُدبّل الله عزّ وجلّ من الأعداء، أي: بواسطة يدفع الله تعالى أعداء الأمة عن الأمة وأبنائها، وبسببهم يُنزل الله تبارك وتعالى رحمته وغيثه من السماء.

إنّ فضل القرآن الكريم على الناس كثير، فهو سبب لنجاتهم وخلاصهم من الهلاك، وهو السبب في دفع العدو عنهم، وبواسطته يُنزل الله تعالى على عباده الغيث رحمةً بهم، لذا فإذا ما أراد أبناء الأمة الإسلامية الخير والصلاح والأمن والأمان والعزة لأنفسهم وأمتهم، فعليهم التمسك بالقرآن الكريم، وأن يكونوا من هذا الصنف الثالث من أصناف القراء للقرآن الكريم؛ فإنّه هو المؤثر في القلوب والأنفس.

وأخيراً يُشير الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى أنّ عدد القراء في هذا الصنف قليل جدّاً، قائلاً: «فوالله هؤلاء في قراء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»، فيُعبّر عنهم بأنّهم أعزّ من الكبريت الأحمر كناية عن ندرتهم وقلّتهم.

نسأل الله تعالى أن نكون ممن يتلو كتاب الله تعالى كما وجه به أمير المؤمنين عليه السلام،
وكما ذكره الإمام الباقر عليه السلام، ونسأله تعالى أن يجعل القرآن شافعنا يوم القيامة، إنه
تعالى سميع مجيب.
والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية والثمانون

التلون والنفاق

بتاريخ: ٢٣ / ٥ / ٢٠٠٨ م

﴿ تلون الأخلاق وتبدلها

﴿ اتحاد اللسان

﴿ إمساك اللسان وحفظه

﴿ العلاقة بين القلب واللسان

﴿ القلب محل الإيمان

﴿ حقيقة المسلم

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله الذي اختار لنا محاسن الخلق، وأجرى علينا طيبات الرزق، وجعل لنا الفضيلة بالملكة على جميع الخلق، فكل خلقه مُنْقَادَةً لنا بِقُدْرَتِهِ، وصَائِرَةً إِلَى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ»^(١).

وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خير مَنْ بُعثَ رَحْمَةً للعالمين، هادياً ومبشراً ونذيراً، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

إخواني وأخواتي، السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأمانة بالسوء، المبادرة إلى الخطيئات - بتقوى الله تعالى وتطهير أنفسنا وألستنا بما نهانا الله تعالى عنه.
من جملة ما خطب به أمير المؤمنين عليه السلام الناس، ما ورد في (نهج البلاغة) خطبة يحذر فيها من آفات اللسان وفلتاته، هذه الجارحة التي توقع الإنسان في المهالك والمخاطر العظيمة في الدنيا والآخرة.

يُحذّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من مرض أخلاقي خطير له نتائج وخيمة على الإنسان والمجتمع في الدنيا والآخرة، ألا وهو مرض النفاق، وتلوّن الإنسان في اللسان، وربما التلوّن في قلبه وذهنه أيضاً. فَيُبيّن أمير المؤمنين عليه السلام الآلية التي يمكن

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

من خلالها أن يضمن الإنسان نجاته من تلك الآفة الخطيرة، ويتجنب الوقوع في المزالق والمخاطر التي يسببها له اللسان كما سنرى من خلال شرح فقرات ذلك المقطع من الخطبة الشريفة^(١).

تلون الأخلاق وتبدلها

يقول الإمام عليه السلام: «إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها».

تهزيع الشيء تكسيره^(٢)، ويقال في اللغة: هزعت الشجر تهزيعاً كسرتة وفرقته^(٣).

(١) من خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام قال: «...إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهُ، مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يُخْزِنَ لِسَانَهُ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيٌّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ...». نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٢٥٣.

(٢) أنظر: نهج البلاغة، (تحقيق: صبحي صالح): ص ٦٤١. وفيه أيضاً: والصادق إذا كَذَبَ فقد انكسر صدقه، والكريم إذا لُؤِمَ فقد انثلم كرمه.

(٣) الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة: ج ١٠، ص ٢١٣.

وقال الجوهري في (الصحاح): «وهزعت الشيء تهزيعاً: كسرتة فانهزح، أي: انكسر واندق». الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ٣، ص ١٣٠٦- مادة (هزع).

وقال ابن الأثير: «وفي حديث علي: إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَصْرِيفَهَا. هزعت الشيء تهزيعاً كسرتة

والتصريف في الأخلاق: من صرفته إذا قلبته^(١)، كما في تصريف الرياح بمعنى قلبها وتبدّلها من حال إلى حال^(٢).

وفي هذه الجملة الرائعة الصادرة عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام تحذير من ظاهرة خطيرة، وهي التلّون والتبدّل في الأخلاق الملازم للنفاق، فالإمام عليه السلام ينهى عن النفاق والتلّون في الأخلاق، وتغييرها عن محاسنها إلى مساوئها، وتفريقها وتقليبها من حال إلى حال، كما هو شأن المنافق؛ فإنّه لا يبقى على خلق واحد، ولا يستمرّ على حالة واحدة، وإنّا قد يكون صادقاً، وقد يكون كاذباً، وتارةً وفيّاً وأخرى غادراً، ومع الظالمين ظالماً، ومع العدول عدلاً^(٣).
إنّ التلّون في الأخلاق - أو النفاق - له حالات عند بني البشر، وهذه الحالات



وفرقته». ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ٥، ص ٢٦٢ - مادة (هز ع).

وقال الطريحي: «في الخبر: إياكم وتهزيع الأخلاق، أي: تفريقها وتكثيرها. قيل: نهى عن النفاق. وتهزيع الأخلاق: تغييرها عن محاسنها إلى مساوئها. يقال: هزعت الشيء وهزعته: إذا كسرتة». الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ٤، ص ٤١٠.

(١) أنظر: نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٦٤١.

(٢) التصريف في الرياح: «تحويلها من وجه إلى وجه، ومن حال إلى حال. قال الليث: تصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة... وقال غيره: جعلها جنوباً وشمالاً وصباً ودبوراً، فجعلها ضرباً من أجناسها». الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) أنظر: الخوئي، حبيب الله، منهج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢١٤.

تتفاوت عند الأشخاص وتختلف، فقد يكون للإنسان لسانان، وآخر وجهان، ولثالث قلبان، ولرابع ذهنان في طريقة التفكير. وكلّ هذه الحالات تندرج تحت النفاق، لكن لكلّ واحدة تصرّفها وسلوكها الخاصّ.

وصاحب اللسانين والوجهين كثير في مجتمعاتنا، فقد يذكر الإنسان إنساناً آخر - سواء تربطه به علاقة أم لا - بمدح وثناء في حضوره، فيذكر فيه الصفات الحسنة المحموده، ويبالغ في الثناء عليه، لكنّه في حال غيبته يطعن فيه ويغتابه وينتقص منه ويذكر عيوبه.

وربّما يكون الإنسان إماماً لجماعة، أو رئيساً لمجموعة، أو ربّاً لأسرة، فيذكر أمامهم - أي: أمام تلك الجماعة أو المجموعة أو الأسرة - أموراً، وحينئذ يفارقهم أو يتبعد عنهم يذكر أموراً أخرى مخالفة لما ذكره سابقاً.

إنّ هذا النمط من الناس يصدق عليه أنّه ذو لسانين وذو وجهين، وهذا ممّا ذمّته الشريعة الإسلامية وحذّرت منه، فقد عابت على الإنسان أن تكون له مثل هذه الصفة، فإنّه ورد في الحديث الشريف عن إمامنا أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أُعطي حسده، وإن ابتلي خذله»^(١).

وقد أوضح الحديث - بصورة جليّة - أنّ الإنسان يكون ذا وجهين وذا لسانين عندما يطري أخاه شاهداً - أي: حاضراً - ويأكله غائباً، أي: يمتدحه ويشني عليه في حال حضوره، لكنّه يغتابه ويعيبه حال غيابه؛ فإنّ هذا بئس العبد.

(١) الصدوق، محمد بن عليّ، ثواب الأعمال: ص ٢٩٦. وأنظر في ما يخصّ هذا الشأن: الحرّ العاملي،

محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٢٠٦ وما بعدها، باب تحريم كون الإنسان ذا وجهين ولسانين.

وكما يكون التلّون بالأخلاق وتقبلها باللسان والوجه كذلك يكون بالقلب، فقد يحمل الإنسان في قلبه مشاعر طيبة تجاه بعض الناس، أو يتظاهر بها أمامهم، أو أمام جهة معينة، لكنّه يحمل مشاعر أخرى سيئة لهم في قلبه إذا ما فارق تلك الجهة أو الجماعة. وقد يتعامل بأخلاق طيبة في بعض الأحيان مع أناس، لكنّه يتعامل بمكر وحيلة وخداع معهم في وقت آخر.

وربّما يحمل الإنسان في ذهنه العقيدة الحقّة، ولكنّه يخالط ذلك ببعض العقائد الباطلة.

كلّ هذه الأمور تُعدّ خلاف صفات الإيمان؛ فإنّ من اتّصف بهذه الأمور يُعدّ من اتّصف بصفات المنافقين.

وهذا التلّون - الصدق في بعض الأحيان والكذب في أحيانٍ أخرى، أو الوفاء بالوعد والعهد في بعض الأحيان، وعدم الوفاء بهما في أحيانٍ أخرى - في الواقع هو نوع من النفاق؛ إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً، وإنما تارةً يكون صادقاً، وأخرى يكون كاذباً، وتارةً يكون وفيّاً وثانيةً يكون غادراً، وهذا ممّا يحذّر منه الإمام عليه السلام بجملة البلاغة القصيرة: «إياكم وتمزيع الأخلاق وتصريفها».

اتّحاد اللسان

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «واجعلوا اللسان واحداً» لما حذّر الإمام عليه السلام من تصريح الأخلاق والنفاق أمر باتّحاد اللسان؛ إذ تعدّد اللسان من وصف المنافق؛ لأنّه يقول في السرّ غير ما يقوله في العلانية، وفي الغياب بخلاف ما يقوله في الحضور، ويتكلّم مع هذا بغير ما يتكلّم مع ذاك. ولأجل صون اللسان شرّع الإمام عليه السلام في بيان حاله؛ تحذيراً من أن يكون الإنسان ذا لسانين وهو المنافق.

وهذه الظاهرة من الظواهر المهمة، وهي تمثل مدخلاً لنجاة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وربما تكون سبباً في هلاكه وتعرضه للعواقب الوخيمة. ثم إنَّ أضرار هذه الظاهرة إذا كانت سلبية لا تقتصر على الفرد، ولا تختص به وحده، وإنَّها تأثيرها يكون شاملاً وعمماً ينصبّ على جميع أبناء المجتمع.

لذا فإنَّ من جملة الأمور المهمة التي يجب الالتفات إليها أنَّ اللسان هو مصدر السعادة، وفي الوقت نفسه هو مصدر الشقاء والهلاك، فبه يكمل الإنسان والمجتمع، وبسببه يرى الإنسان العواقب الوخيمة، ويتبعه بذلك جميع المجتمع. فالإمام عليه السلام يحرص على أن يكون اللسان متّحداً دائماً، أي: تكون له حالة واحدة، ويحذّر من تعدّده وتلوّنه.

وننطلق من هذا التحذير للواقع الاجتماعي والحياة الاجتماعية التي يتعايش فيها أبناء الأمة الإسلامية، فاللازم في العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين أن يكون المؤمن متكلماً بلسان واحد مع الجميع، وهو لسان الصدق والوفاء. إنَّ الالتزام بوحدة اللسان داخل المجتمع لا يمنع الإنسان المؤمن أن يُرشد أخاه أو ينصحه أو يعظه أو يُقيّم سلوكه وتصرفاته، أو حتى معتقده، كما لربّما يتصوّر بعضهم من أنَّ هذه الوحدة تمنع من ذلك.

نعم، الأمر المهمّ في ذلك هو سلوك الطريقة الصحيحة للتقييم والتعديل والنصيحة، وهي أن يجالسه ويتكلّم معه بصورة مباشرة، ويبيّن له - بوسائل مقبولة - خطؤه وانحرافه؛ فإنَّه إذا رأى الإنسان المؤمن من أخيه خطأً في قول أو فعل أو معتقداً، فليُخبره بذلك حال حضوره ومشاهدته، لا أن يذكر عنه هذه الأمور في حال غيابه، فيُخفي عنه ما يُريد أن يعظه به، ويتكلّم عكس ذلك، فإنَّ هذه الصفة تُعدّ من صفات النفاق، ولا ينبغي أن يحمل المؤمن صفةً من صفات النفاق.

إمساك اللسان وحفظه

يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «لِيَخْزُنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ؛ فَإِنَّ هَذَا اللَّسَانَ جَمُوحٌ»^(١) بصاحبه.

يُشير الإمام عليه السلام في هذه الجملة من كلامه الشريف إلى مسألة هي الأخرى مهمّة جدّاً، وهي مسألة حفظ اللسان وإمساكه، فهو يأمر بخزنه عن الفحش في القول الذي يستلزم النهي عن أمور كثيرة تأتي من اللسان؛ بسبب الفضل في القول ووضعه في غير مواضعه ومواطنه، فإنّه يصدر عن اللسان الغيبة والنميمة والكذب والسعاية والسبّ والاستهزاء والتهمة والغش ... إلى غير ذلك من آفات اللسان التي هي رذائل تقوده إلى المهالك.

لذا يعبر الإمام عليه السلام عن ذلك بقوله: «فإنّ اللسان جموح بصاحبه» معللاً لهذا النهي ومشيراً إلى أنّ اللسان يخرج بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل التي هي موارد الهلكة في الدنيا والآخرة، مشبّهاً لذلك بالفرس الجموح الذي لا يهدأ في سيره حتى يُخشى على راحته من التردّي والسقوط، وهكذا اللسان إذا أطلقه الإنسان ولم يُمسك بلجامه؛ فإنّه يقوده إلى التردّي والهلاك.

من هنا يتحتّم على الإنسان المؤمن أن يخزن هذا اللسان ويحفظه، كما يخزن ماله ويحفظه؛ لئلا يتعرّض للتلف والضياع؛ فإنّ اللسان أهمّ من المال بالنسبة إلى

(١) لِيَخْزُنَ: كينصر، أي: ليحفظ لسانه.

الجموح: من جمع الفرس إذا غلب فارسه، فيوشك أن يطرح به في مهلكة فيرده. نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٦٤١.

الإنسان، وكما تقدّم معنا بأنّه إمّا أن يكون مصدراً لسعادة الإنسان الدائمة، أو مصدراً لشقائه الدائم، لذلك ورد عن المعصومين عليهم السلام أحاديث كثيرة في هذا المعنى تُشير إلى حفظ اللسان لأجل أن يكون مصدراً من مصادر السعادة، فقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(١).

إنّ من مزالق اللسان وهفواته أنّه ربّما يُسبّب نشوب الحرب بين دولتين - أي: شعبيين - أو بين أبناء الشعب الواحد، وذلك بسبب كلام غير مسؤول يصدر عن لسان أحدهم، فتحدث بسببه فتنة كبيرة ربّما يروح ضحيّتها أرواح بريئة فيقتلوا وتزهق نفوسهم مع أنّهم لا ذنب لهم.

وكذا من هفوات اللسان إذا أُطلق له العنان فإنّه سوف يتحدّث بكثير من الفواحش والردائل؛ فإنّه مصدر لمثل الافتراء والسبّ والتفريق بين المؤمنين، وبالنتيجة يكون آلة غواية ودمار للفرد والمجتمع.

لكنّه في الوقت نفسه يمكن أن يكون آلة هداية المجتمع وإسعاد الناس؛ ذلك من خلال تقديم النصيحة وبيان أحكام الله تعالى وشرائع الإسلام، والصلح بين الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم؛ فإنّ كلّ ذلك إنّما للسان دور كبير فيه.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١١٥، باب الصمت وحفظ اللسان، ح ١٤. ونصّ الحديث فيه هكذا: «عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن قيس أبي إسماعيل - وذكر أنّه لا بأس به من أصحابنا - رفعه، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله، أوصني. فقال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله، أوصني. قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله، أوصني. قال: احفظ لسانك، ويحك، وهل يكبّ الناس على مناخِرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟!».

العلاقة بين القلب واللسان

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والله، ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه، وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه؛ لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه وإن كان شراً واره، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه».

في هذا المقطع الشريف من الخطبة مطالب فيها ثروة تربوية إذا ما روعيت كانت نتائجها قد صبت بصلاح المجتمع؛ أمّا إذا هي أهملت عادت على المجتمع بعواقب وخيمة ومهالك كثيرة، وسببها جميعاً هو اللسان، فإما أن يتقي الإنسان به ربه سبحانه وتعالى فيصبح من المتقين، وإما أن يترك الإنسان حبس لسانه فيصبح من المنافقين.

ويمكن أن نستفيد من كلام الإمام عليه السلام المبارك عدّة مطالب:

المطلب الأول: يُبين الإمام عليه السلام بأنّ اللسان هو الوسيلة التي تُوصل العبد إلى التقوى التي تنفعه في دنياه وآخرته؛ فإنّه عليه السلام لا يرى التقوى نافعة إلا مع خزن اللسان أو حبسه عن الكلام، وبذلك يكون قد حفظه عن الموبقات والآثام.

المطلب الثاني: لقد حذر الإمام عليه السلام - في ما تقدّم - من مهالك اللسان، فهنا يمكن أن يرد السؤال الذي في جوابه العلاج للخلاص والنجاة من تلك المهالك، وهو: ما هي الطريقة أو الآلية التي يمكن من خلال تطبيقها ألاّ يُصبح اللسان وسيلةً للهلاك أو المخاطر في الدنيا والآخرة؟

يُبين الإمام عليه السلام الآلية التي يكون اللسان فيها مصدراً للمنزلة الرفيعة والمقام السامي، والسعادة في الدنيا والآخرة، وإذا ما تُركت - هذه الآلية - يكون اللسان

مصدراً وسبباً للشقاء والهلاك، وهذه الآلية هي التريث والتأني وعدم الإسراع في الكلام إذا ما أراد الإنسان أن يتكلم حول موضوع ما، وذلك التريث معناه أن يعرض كلامه - الذي ينوي النطق به - على القلب؛ فإن هو وافق الموازين العقلية والشرعية حينئذ يتحدث به، وإن خالف تلك الموازين يجب الإمساك حينها عن الكلام، فيكون السكوت هو مصدر السلامة؛ لأنه حينئذ أفضل من الكلام.

وموازين الشرع التي يجب مراعاتها أثناء الكلام هي التثبت والتأكد من صحة الكلام الذي سوف يصدر عن لسان الإنسان بحق أشخاص آخرين، فهو ربما ينتقد سلوكاً معيناً، أو كلاماً معيناً، وفي هذه الحالة لا بد وأن يتثبت الإنسان من هذا السلوك أو الكلام، بأن يتيقن ويطمأن من صدوره عمّن يريد انتقاده، وأن السلوك أو الكلام قد صدر عن ذلك الشخص المعني بالفعل.

إن هذا التثبت ربما يحتاج إلى أيام أو شهور للتأكد من صحة ما يريد الإنسان الحديث حوله، وإنما يحتاج ذلك إلى هذا الوقت الطويل؛ لأن فيه من المسؤولية القدر الكبير؛ فإن الحديث بشأن الآخرين ربما يؤدي إلى القتل، أو هتك العرض، أو تشويه السمعة، وهذه من أخطر الأمور الاجتماعية التي لا تُعالج بسهولة إذا ما وقعت خطأ، أو في غير وقتها ومحلها، فإذا لم يتثبت الإنسان من صحة ما يريد الخوض فيه، فالإمساك عن الكلام هو أسلم له.

من هنا لا بد أن يُعرض الكلام على الموازين الشرعية والعقلية قبل النطق به، فربما يُسبب الكلام في طعن شخص أو قذفه واتهامه مع أنه في الحقيقة بريء، كأن يُقال في حقّه: إنه قد تصرف تصرفاً خاطئاً، أو يُقال عنه: إنه تربطه علاقة غير شرعية مع امرأة أجنبية عنه؛ فإن إصدار مثل هذا الكلام بحق الآخرين من غير التحقق منه والتأكد من صحته وسلامته ربما يؤدي إلى هلاكه، أو هتكه وهتك سمعته في صفوف المجتمع.

المطلب الثالث: إنّ خطاب أمير المؤمنين عليه السلام ليس موجّهاً للناس العاديين أو أبناء المجتمع البسطاء فقط، وإنّما هو موجّه أيضاً إلى من يتحمّل المسؤولية بصورة مطلقة، كالمسؤولية الدينية، أو المسؤولية السياسية، فهو خطاب شامل لرجال الدين ورجال السياسة والقادة والمسؤولين في كافّة مفاصل الدولة والمجتمع.

إنّ الكلام الذي يصدر عن هؤلاء هو أخطر من الكلام الذي يصدر عن عامّة الناس، فربّما تصدر كلمة أو جملة يتفوّه بها قائد البلد يعرّض فيها مصالح ذلك البلد إلى الخطر، أو تؤدّي إلى وقوع حرب بين دولتين، وربّ كلمة أو جملة تصدر عن رجل الدين تؤدّي إلى وقوع فتنة طائفية كبيرة بين أبناء مجتمع واحد.

لذا لا بدّ من التريث والتثبت والتروي قبل إطلاق الكلام، ولا سيّما من قبل الذين يملكون القرارات والمسؤوليات.

المطلب الرابع: القلب هو مَصْفَى الكلام، ومعنى ذلك أنّ الكلام قبل أن يصدر عن اللسان يُعرض على القلب أو يُمرّ به عليه؛ لأجل تصفيته وتنقيته، فإنّ وجده قلب الإنسان المؤمن مفيداً ونافعاً وذا ثمار طيبة وغير مخالف للموازين الشرعية والعقلية، أي: لا يضرّ الآخرين من الناس، أطلقه فصدر عن اللسان. وأمّا لو وجده على خلاف ذلك أمسك عنه ولم يطلقه. وهذه هي صفات المؤمن.

وعلى العكس من ذلك صفات المنافق؛ فإنّه قد وضع قلبه وعقله وموازين الشرع والعقل جانباً، وأصدر كلّ الكلام الذي يخطر في نفسه دون أن يُبالي أو يفكر في عواقبه، فينسب كلاماً وأفعالاً وسلوكاً لآخرين من الرجال والنساء من غير تثبّت من صحّة ذلك، فلذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام معبراً عن هذه الصفة في كلّ من المؤمن والمنافق: «وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لسانه».

المطلب الخامس: إنّ من صفات المؤمن المهمة التي من خلالها يجعل قلبه غربالاً للكلام ويُمَرِّره به قبل أن يصدر عن لسانه، التفكّر والتأمّل والتدبّر في الكلام، والنظر بروية في عواقبه في الدنيا والآخرة، وعرضه على ميزان العقل والشرع، فإنّ المؤمن إذا أراد الكلام تدبّره في نفسه، وتأمّل به كثيراً وفي عواقبه وتأثيراته عليه وعلى مجتمعه، فإنّ وجده صالحاً أطلقه، لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واره»، فإنّه - المؤمن - يطلق كلامه لأجل الخير الذي يعمّه ويعمّ أبناء مجتمعه، ويُمسك عن الكلام ويخفيه إذا كان فيه شرّ.

وهذه الصفة معدومة عند المنافق، فهو كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه»، فهو - المنافق - يتكلّم من غير تدبّر وتأمّل بما سوف يقوله وإن كان ليس فيه مصلحة له، بل وإن كان يضرّ به نفسه ومجتمعه.

وخلاصة ما تقدّم: إنّ لسان المؤمن تابع لاعتقاده، فلا يقول شيئاً إلّا وهو يعتقد به، بينما المنافق يقول ما ينال به غايته الخبيثة، فإذا قال شيئاً أخطره على قلبه حتى لا ينساه فيناقضه مرّةً أخرى، فيكون قلبه بذلك تابِعاً للسانه.

قد يصوم المرء ويُصلي ويحجّ ويُزكّي، وربّما يجاهد في سبيل الله بالنفس والمال، وهو مع ذلك لا يسلم من غضب الله تعالى وعذابه؛ وسبب ذلك كلمة تصدر عنه تناصر ظالماً، أو تخذل مظلوماً، أو تتهم بريئاً، فيُعاقبه الله عزّ وجلّ على تلك الكلمة التي أضرت بالآخرين، وهذا كلّ من آفة اللسان التي تهلك صاحبها.

إنّ الصلة والعلاقة بين قلب الإنسان ولسانه تختلف باختلاف الأشخاص، فبين لسان المؤمن وقلبه علاقة قويّة جدّاً؛ وذلك أنّ المؤمن يضع كلامه في الميزان ويفكّر طويلاً قبل أن ينطق به، وبعد الثبّت به يُلقيه على السامعين، وبهذا يكون لسانه تابِعاً لقلبه ونابِعاً منه، ومن عقله ودينه. أمّا المنافق فلا يشعر بالمسؤوليّة، وإنّما يُلقي الكلام جزافاً من غير تفكير وروية، وهذا معناه أنّ كلامه يسبق شعوره وتفكيره.

القلب محلّ الإيمان

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

يدلّ الحديث الشريف على أنّ سلامة الإيمان تنبع من سلامة القلب؛ فإنّ منبع الإيمان هو القلب، والأعضاء إنّما هي أدلّة عليه غالباً، فإذا انحرف قلب الإنسان لم ينفعه التحفّظ الظاهري لجوارحه وأعضائه، فإذا أراد الإنسان أن يكون مستقيماً الإيمان فلينظر إلى قلبه أولاً، فإنّ استقامة الإيمان مرهونة باستقامة القلب، والأخيرة مرهونة كذلك باستقامة اللسان؛ فإنّ سلامة القلب تنبع - أيضاً - من سلامة اللسان، والعكس صحيح؛ فإنّ سلامة اللسان من سلامة القلب أيضاً، فكلاهما يتمّ الآخر.

وعليه فإنّ الإيمان لا يتمّ إلّا إذا انسجم القلب مع اللسان، والسرّ في ذلك هو أنّ استقرار الدين والإيمان في القلب موقوف على استقامة اللسان على الحقّ وخزنه عن الباطل، فمتى لم يستقم اللسان في نطقه علم أنّ القلب سقيم؛ فإنّه ينبغي على الإنسان إذا أراد الكلام، فقبل أن يتفوّه به ينظر في ما يُريد التكلّم به، فإنّه إن وافق ميزان العقل والشرع أطلقه، وإن لم يوافق ذلك أمسك عنه.

حقيقة المسلم

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن استطاع منكم أن يلقي الله تعالى وهو نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، فلْيَفْعَلْ».

هذه العبارات هي أسلوب آخر من أساليب الوعظ الذي يطرحه الإمام عليه السلام؛ لكي يعرف الإنسان من خلاله كونه مسلماً حقيقياً؛ لأنّ معنى الإسلام هو

الانقياد والخضوع والتسليم التام لأوامر الله تعالى وأحكام الشرع^(١)، ومنها أن يكون المسلم مجتنباً الغيبة، والفحش من القول، والنميمة، والهجاء، وغيرها من الرذائل التي تخل بالإسلام والإيمان؛ فإنَّ المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده^(٢).

فالمسلم الحقيقي هو مَنْ يحفظ أرواح المسلمين وأموالهم وأعراضهم، والمقصود حفظ كل ما يمس سمعة الإنسان - سواء رجل أم امرأة، عائلة مسلمة أم جهة معيّنة مسلمة - فلا يتعرّض لأي أحد بهتك حرمة، أو ذكر معاييه والاستنقاص منه، وذلك حتى يصدق عليه أنّه مسلم، وإلا إذا أخلّ بواحدة من هذه الصفات فلا يتحقّق إسلامه.

لذلك يجعل الإمام عليه السلام هذه الضابطة للاستقامة والإسلام والإيمان.
نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل في القول والفعل، إنه سميع مجيب.
والحمد لله ربّ العالمين.

(١) أنظر: الشهيد الثاني، زين الدين بن علي العاملي، حقائق الإيمان: ص ١٢٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٣٤. ونصّ الحديث فيه: عن سليمان بن خالد، قال أبو جعفر عليه السلام: «يا سليمان، أتدري مَنْ المسلم؟ قلت: جُعِلَ فداك، أنت أعلم. قال: المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده. ثم قال: وتدري مَنْ المؤمن؟ قال: قلت: أنت أعلم. قال: إنّما المؤمن مَنْ اتّمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم، والمسلم حرام على المسلم أن يظلمه، أو يخذله، أو يدفعه دفعة تُعتته».

الخطبة الثالثة والثمانون
حُسْنُ التَّبَعْلِ (الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ) نَمُودَجًا

بتاريخ: ٦/٦/٢٠٠٨م

﴿قبس من فضائل الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ﴾

لله المنقبة الأولى: يرضى الله لرضاها

لله المنقبة الثانية: نور الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ

﴿سيرة الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ المباركة﴾

لله الأمر الأول: مساندة الرجل

لله الأمر الثاني: مسؤولية التربية

لله الأمر الثالث: طاعة الزوج

لله الأمر الرابع: العفة والستر

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من رحمته، ودليلاً على آلائه وعظمته^(١).

والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضاته، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو، والمبادرة إلى الخطيئات - بتقوى الله تعالى والسير على نهج محمد وآله الطاهرين. تمرّ علينا في يوم غدٍ ذكرى استشهاد الصديقة الطاهرة، المغضوب حقّها، المكسور ضلعها، المُسقط جنينها، سيّدة نساء الأوّلين والآخرين، السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام^(٢). وهذه المناسبة العظيمة والعزيزة نتعرّض لذكر شيء من فضائلها ومناقبها وسيرتها؛ لكي يكون ذلك تذكرةً لنا، ومنهجاً ودستوراً متكاملًا يجب أن نسير عليه في حياتنا العلميّة والعملية.

قبس من فضائل الزهراء عليها السلام

تفرّدت الصديقة الطاهرة - وهي أقدس امرأة في الوجود - بمجموعة من

(١) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٦٩٢.

(٢) أُلقيت هذه الخطبة بتاريخ الثاني من شهر جمادى الآخرة لعام ١٤٢٩ هـ؛ أي: قبل يوم من ذكرى

شهادة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام.

الفضائل والمناقب لم تكن لواحدة من النساء غيرها، ولا عجب في ذلك؛ فإنّها وُلدت من سيّد المعصومين أبي القاسم محمد ﷺ، واقتربت بأبي المعصومين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وصارت أمّاً لأحد عشر معصوماً من كواكب الأمة وقادتها الهداة إلى الله تعالى، الذين حافظوا على خطّ الإمامة والعصمة والطهارة والكمال. ولذا فإنّ من حقّها علينا أن نذكر - للعالم أجمع - مناقبها وسيرتها وعلمها؛ لكي تبقى صورتها شاخصةً في قلوبنا وأرواحنا وعقولنا وفكرنا، ولكي يبقى منهجها المتكامل وسيرتها العمليّة دستوراً حياً نابضاً في حياتنا العلميّة والعمليّة. وفي المقام نذكر شيئاً من فضائلها، ثم نعطف الكلام على سيرتها العمليّة، لكي نصل إلى الهدف الأسمى الذي نبتغيه جميعاً، ألا وهو الكمال البشري، والسعادة في الدنيا والآخرة.

المنقبة الأولى: يرضى الله لرضاها

لو لم تكن للسيدة فاطمة الزهراء منقبة نالت بها فخراً وشرفاً وفضلاً إلا هذه المنقبة لكفتها، وهي أنّ رضاها كاشفٌ عن رضا الله تعالى، وغضبها كاشف عن غضب الله تعالى، وبالتالي فهي ليست قديسة ومعصومة في فكرها وعملها فقط، بل هي قديسة وطاهرة ومعصومة حتى في عواطفها وانفعالاتها، فهي لا تخضع للأهواء والأمزجة والرغبات الشخصية والشهوات النفسيّة كما هي حال البشر العاديين في عواطفهم وانفعالاتهم، وهذا ما يكشفه الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ في حقّها، وهو - رسول الله ﷺ - لا ينطق عن الهوى^(١)، فقد بين هذا الفضل

(١) إشارة للآيتين الشريفتين (٣، ٤) من سورة النجم، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا

وهذه المنقبة العظيمة بقوله عليها السلام: «يا فاطمة، إِنَّ اللَّهَ لَيَغْضِبُ لِعِصْيَانِكَ، وَيَرْضَى لِرِضَاكِ»^(١).

المنقبة الثانية: نور الزهراء عليها السلام

أضواء الزهراء بنورها - نور علمها، ونور سلوكها، ونور عبادتها، ونور عقّتها، ونور اتّصالها بالله تعالى - كلّ السماوات والأرض؛ وذلك لأنّه نور خُلق من نور عظمة الله تعالى، لذا فإنّ كلّ نور نعيشه اليوم ونشعر به مهما كان مصدره، ونقطة انطلاقه إنّما هو نور مستمدّ من نورها عليها السلام، ومن نور أبيها المصطفى عليه السلام، وبعلمها أمير المؤمنين عليه السلام وأولادها المعصومين عليهم السلام، حتى أنّ الملائكة - كما سوف يأتي في الحديث - قد تعجّبوا من هذا النور الذين غشي أبصارهم وخرّوا على أثره ساجدين، قد سألوا الله عن مصدره، فأجابهم بأنّه نور من نوره تعالى أخرجهم من صلب نبي الله محمد عليه السلام.

قال الإمام الباقر عليه السلام وقد سُئِلَ: لِمَ سُمِّيتِ الزَّهْرَاءُ؟ قال: «لأنّ الله تعالى خلقها من نور عظمتها، فلمّا أشرقّت أضواء السماوات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة وخرّت الملائكة لله ساجدين، وقالوا: إلهنا وسيّدنا، ما هذا النور؟ فأوحى الله إليهم: هذا نور من نوري، أسكنته في سائي وخلقته من عظمتي، أخرجته من صلب

(١) الطبري (الشيوعي)، محمد بن جرير، دلائل الإمامة: ص ١٤٦، ح ٥٣.

وورد في المضمون نفسه أيضاً: أنّ رسول الله عليه السلام قال في حقّها: «فاطمة بضعة منّي، مَنْ آذاها فقد آذاني، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها، وهي سيّدة نساء العالمين». الديلمي، الحسن بن محمد، إرشاد القلوب: ج ٢، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

نبيّ من أنبيائي أفضله على جميع الأنبياء، وأخرج من ذلك النور أئمةً يقومون بأمري، ويهدون إلى حقّي، وأجعلهم خلفائي في أرضي بعد انقضاء وحيي»^(١).

سيرة الزهراء عليها السلام المباركة

بعد أن ذكرنا قبسات من مناقبها وفضائلها عليها السلام - وهي كثيرة لا تحصى - نعطف الكلام على ذكر شيء من سيرتها العطرة المباركة، آمليْن أن نستنير منها شيئاً نجعله منهج عمل لنا جميعاً، نسير على هديه ونوره.

وفي المقام نذكر جملةً قصيرةً من حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه الجملة رغم قصرها إلا أنّها في الحقيقة تؤلّف دستوراً يُضفي على المرأة السعادة والكمال في حياتها إذا ما التزمت في تطبيقه على أرض الواقع، وكذا تعكس هذه السعادة على المجتمع كلّ.

يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حديث مشهور: «... جهاد المرأة حُسنُ التبعل»^(٢).

إنّ أبرز مصداق وأظهره في تطبيق معنى هذا الحديث على أرض الواقع في هذه الحياة هي السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام؛ إذ مثّلت في بيتها وداخل أسرتها المعنى الحقيقي لمفردات وكلمات هذا الحديث؛ فإنّ بيتها هو البيت الإسلامي النموذجي والمثالي؛ فإنّها قد انتقلت من بيت النبوة - وكانت سيّده - إلى بيت الإمامة الذي خرجت منه الأنوار الساطعة، أنوار المعصومين الاثني عشر عليهم السلام.

(١) الإربلي، عليّ بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٩٢.

(٢) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح) خطب الإمام علي عليه السلام: ص ٤٩٤. «قال عليه السلام: الصلاة قربان كل تقّي. والحجّ جهاد كلّ ضعيف، ولكلّ شيء زكاة البدن الصيام. وجهاد المرأة حُسنُ التبعل».

ولأجل توضيح وبيان الكلام المتقدم نستعرض مجموعة ملامح من سيرتها في تطبيق معنى الحديث المذكور، نجعل منها منهجاً عملياً للمرأة المسلمة في الحياة الأسرية والاجتماعية المعاصرة؛ بغية تجديد السعادة والكمال للمرأة وأُسرتها ومجتمعها، وذلك في مجموعة أمور:

الأمر الأول: مساندة الرجل

لقد عاشت السيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام حياتها الزوجية مساندةً لزوجها أمير المؤمنين عليه السلام في كلِّ الظروف القاسية والصعبة التي توالى عليها، فشاطرته قساوة الحياة التي فرضتها عليها الظروف الصعبة، التي كان يعيشها المسلمون آنذاك، فلقد كانت الظروف المعيشية والاجتماعية هي الأشدَّ والأكثر قساوةً في بيت علي عليه السلام بالقياس إلى غيره من المسلمين؛ وذلك لخوضه الحروب الإسلامية، ومشاركته في تحقُّق النصر الإسلامي الذي كان لسيف علي بن أبي طالب عليه السلام الدور البارز والمهم فيه.

فكانت الزهراء عليها السلام تعيش تلك الظروف الصعبة والقاسية صابرةً واقفةً ذلك الموقف المساند لأمير المؤمنين عليه السلام، تزيد من عزمه وشجاعته في الدفاع عن الإسلام.

إن هذا الجانب من مسيرة الزهراء عليها السلام الذي شكّل عاملاً مساعداً لزوجها أمير المؤمنين عليه السلام في جهاده ودفاعه عن الإسلام، يُعطي حافزاً للمرأة المسلمة المعاصرة أن تكون عوناً وسنداً لزوجها - على الرغم من صعوبة العيش وقساوته - في أن يكون له موقف مشرّف في الدفاع عن الحق. فإذا ما أرادت المرأة المؤمنة أن تتخذ من فاطمة الزهراء قدوةً وأُسوةً لها، فعليها أن تكون مساندةً ومشجعةً لموقف

الرجل في الدفاع عن الحق وأهله، بعد أن تُثَمَّن له ذلك الموقف وتحته وتشجعه عليه وإن عانت قساوة العيش وضنك الحياة، فإذا كان الزوج قد خرج للجهاد مشاركاً في ميادين الحروب نصرةً للحق، فعليها أن تتحمل ذلك وتصابر عليه، وتشجعه على الالتحاق بصفوف المجاهدين.

إنّ مصاديق مساندة الزوج ومشاطرته قساوة الحياة كثيرة وليست مقتصرةً على ما مرّ ذكره، وإنّما تكون المرأة مساندةً وشريكه لزوجها في كدحه وتكسبه وخروجه للعمل، وذلك بتهيئة الظروف الملائمة للزوج، ومشاركته في ضائقته - المادية والنفسية - وتحملها وإيائه البلاء والمحنة إذا ما ألمّت به، فإذا كان الزوج فقيراً - مثلاً - تحمّلت معه معاناة الفقراء، وإذا كان سيء الخلق - لا سمح الله - صبرت على سوء خلقه، وإذا كان مريضاً أعانته في علاجه وفترة مرضه، وهكذا تقف معه مساندةً له بكلّ ما يلمّ به أو ما يمرّ به من محن وظروف قاسية؛ كي يستطيع مصارعتها والتغلب عليها.

إنّ صبر الزوجة على تحمّل الظروف القاسية والمحن مع زوجها وهي قانعة بما يمرّ بها وبأسرتها من امتحانات صعبة هو من الأمور التي تكشف عن إيمانها الحقيقي؛ فإنّ الإيمان لا يُقاس بأداء العبادات والإكثار منها، بل إنّ الذي يضمن للمرأة اكتسابها الثواب الكثير ودخولها الجنة والسعادة الأبدية هو تحمّلها لحالة زوجها وما يمرّ به من الظروف ومساندتها له، فلا تتصوّر المرأة بأنّ الإكثار من الصلاة والصيام والدعاء والزيارة وغيرها من أداء الفرائض والواجبات كفيلة لوحدها بدخولها الجنة.

نعم، أداء الفرائض والواجبات واجب عليها، لكنّ هناك التزامات شرعية واجتماعية أخرى يجب عليها مراعاتها كذلك. فربما تؤدّي امرأة ما الشيء المتعارف من العبادات دون الإكثار منه، لكنّها تنال المنزلة الرفيعة عند الله تعالى وتسبق بها

الكثير من النساء اللاتي يتعمّقن في الأمور العباديّة، والسبب في ذلك هو صبرها وقناعتها في تحمّل الظروف الأسريّة الصعبة التي تمرّ بها. فهذا هو الذي يكشف عن كونها امرأة مؤمنة حقّاً.

فإذا ما أرادت المرأة أن تكون فاطميّة حقّاً، تُمثّل في صورتها الحياتيّة سيّدها فاطمة الزهراء عليها السلام، كان عليها أن تقف وقفةً مساندةً لزوجها، تتحمّل معه الأعباء، وتصارع معه المحن والمصاعب التي تعصف به؛ فإنّها إن حقّقت هذا المعنى استطاعت أن تبلغ الإيمان الحقيقي، واستطاعت أيضاً أن تبني أسرةً وجيلاً من الأبناء الصالحين، تغذي بهم المجتمع الإسلامي، وهذا هو سرّ السعادة الحقيقيّة في الدنيا، ومفتاح دخول الجنّة في الآخرة.

من هذه المواقف الإيمانيّة ينطلق أو ينبثق التقييم الرائع الذي صدر عن أمير المؤمنين عليه السلام بحقّ فاطمة الزهراء عليها السلام كزوجة كاملة متكاملة، قائلاً عنها: «... ولقد كنتُ أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان»^(١).

فإنّ الزوج - وبسبب مشاكل الحياة وقساوة ظروفها - تُحيط به المصاعب، فتُصيّبه الهموم والغموم والأحزان؛ فإذا ما جاءت الزوجة المؤمنة المساندة له، ونظر إليها، تنكشف همومه وأحزانه؛ إذ هي بإيمانها تزوّده بصبر فوق صبره، وتزيد من طاقته على تحمّل تلك المسؤوليّات.

(١) قال عليّ عليه السلام: «فوالله، ما أغضبته، ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عزّ وجلّ، ولا أغضبني، ولا عصت لي أمراً، ولقد كنت أنظر إليها فتتكشف عني الهموم والأحزان». المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ١٣٤.

الأمر الثاني: مسؤولية التربية

الأسرة هي نواة المجتمع، وهي الركيزة التي تقوم عليها الأم، وإنما تعمر هذه الأسر بالأم الصالحة، الأم المربية؛ فإن الأم هي اللبنة الأولى في أساس تربية الأبناء، والتربية مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتق الأبوين، ولا سيما الأم، فإنها تحتاج إلى عمل شاق وجهد كبير ووقت طويل في إعداد الأبناء إعداداً إسلامياً كاملاً.

فالمرأة المؤمنة لها الدور الأساس في التربية، وعند أدائها ذلك الدور بصورة صحيحة تكون قد أدت دورها الحقيقي الذي رسمته لها السماء والقرآن من خلال القيام بواجبتها تجاه الأبناء داخل الأسرة.

هذه المسؤولية الكبيرة تحمّلها السيّدة الزهراء عليها السلام وأدت دورها كأُم مربية على أحسن وجه وأكمل، فقد أنجبت من الأبناء ذكوراً وإناثاً كانوا خيرة البشر، الذين هم مصدر الإمامة، وانبثق منهم نور كواكب الأئمة المعصومين عليهم السلام، كلّ ذلك من خلال عملها التربوي المتكامل داخل الأسرة، واعتنائها الشديد بتربيتهم وإضفاء النور الإلهي عليهم.

من هنا نناشد المرأة المؤمنة أن تمارس دورها الحقيقي في التربية داخل الأسرة، مقتديّة بالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، متحمّلة من أجل ذلك الصعوبات والمشقة في مراقبة سلوك الأبناء وتدريبهم وتغذيتهم الماديّة والروحيّة والأخلاقيّة.

نحن لا ننكر أن يكون للمرأة دور خارج بيتها وأسرّتها، كقيامها بنشر العلم ودعوة الناس إلى الالتزام بالأحكام الشرعيّة الإلهيّة، أو دفاعها عن الحق، أو ممارسة وظيفة ما، لكن الدور الأساس للمرأة هو داخل بيتها وأسرّتها.

نعم، الزهراء عليها السلام في وقتها كانت قد مارست دوراً مهماً وكبيراً لا علاقة له بتربية الأبناء، لكن ذلك كان في ظرف محدّد ومرحلة معيّنة. أمّا دورها الأساس فقد كان متمثلاً داخل بيتها.

الأمر الثالث: طاعة الزوج

تقوم الحياة في الإسلام على مبدأ الحقوق والواجبات بين الناس وأبناء المجتمع، ولذا يأتي دور التشريع الإسلامي لينظّم حياة الناس بما يصلح حالهم. وإنّ واحدةً من المفردات التي هي محطّ نظر واهتمام في الإسلام، سعادة الزوجين اللذين هما نواة الأسرة، التي هي الأخرى بدورها العنصر الأهمّ في بناء المجتمع. وفي سبيل تحقيق ذلك أكّد على إطاعة الزوجة لزوجها من أجل بقاء سلامة العلاقة وخصانتها، وقوّة الارتباط بينهما، وإنّ طاعة الزوجة لزوجها تدلّ على أنّها هي الزوجة الصالحة.

ومن جملة الأمور المهمّة التي تبتني عليها سعادة الأسرة هي حُسن المعاشرة والمعاملة بين الزوجين، فعلى كلّ منهما معاشرة صاحبه بالمعروف، وعلى الزوجة أن تُعين نفسها على كسب ودّ زوجها داخل بيتها وتحقيق طاعته بأدائها الشكر له على طيب معاملته ومعاشرته.

وإنّ من أهمّ الالتزامات التي يجب أن تلتفت إليها الزوجة هي الالتزام بطاعة زوجها وعدم الخروج من المنزل إلّا بإحراز إذنه في ذلك، فعليها أن تطلب منه الإذن بذلك إذا أرادت الخروج من بيته؛ فإنّ كثيراً من الخلافات الزوجيّة التي تحصل داخل الأسر إنّما تنشأ من عدم التزام المرأة بحقوق الزوج، وفي مقدّماتها عدم الاستئذان منه في الخروج من البيت.

ومن هنا ينطلق بنا أمير المؤمنين عليه السلام مبيناً ملمحاً من ملامح الزوجة الصالحة، من خلال إشارته إلى طاعة الزوجة لزوجها في حديثه الذي يصف فيه حال السيّدة الزهراء عليها السلام معه، وهو في الوقت نفسه يبيّن للآخرين كيفيّة المعاملة مع الزوجة.

يقول ﷺ: «فوالله، ما أغضبته، ولا أكرهتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل، ولا أغضبتني ولا عصت لي أمراً»^(١).

فُتُعطى هذه الكلمات الرائعة الصادرة عن أمير المؤمنين ﷺ درساً تربوياً لعنصري الأسرة - الرجل والمرأة - معاً، وعند تطبيقه يضيف على بيت الأسرة جو للسعادة والرضا والوئام والانسجام، لكي تستطيع الأسرة بكاملها ممارسة دورها في المجتمع.

الأمم الرابع: العفة والستر

لا زالت الزهراء ﷺ هي المدرسة الإسلامية التي تتعلم منها المرأة المسلمة الدروس الحياتية والتربوية داخل البيت وخارجه، وإن من المسائل المهمة التي تكتسبها المرأة من سيرة السيدة الزهراء ﷺ هي حفظ العفة والعزة والكرامة؛ إذ لو صانت المرأة نفسها وحفظت عفتها حفظ للمجتمع بكامله كرامته وعزته واحترامه وهيبته، واستقرار أمنه الأخلاقي، فلا يتعرض بذلك للانحراف والفساد.

تقرر الزهراء ﷺ بكلام لها هذه المسألة، والتي لو طبقت لكانت فوائدها وثمراتها تعم المجتمع الإسلامي بكامله، فضلاً عن الأسرة.

جاء في كتاب (كشف الغمة): «روي عن عليّ ﷺ قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فقال: أخبروني أي شيء خير للنساء؟ فعيينا بذلك كلّنا حتى تفرّقنا، فرجعتُ إلى فاطمة ﷺ فأخبرتها الذي قال لنا رسول الله ﷺ وليس أحد منّا علمه ولا عرفه، فقالت: ولكنّي أعرفه، خير للنساء ألا يرين الرجال ولا يراهن الرجال»^(٢).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ١٣٤.

(٢) الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ج ٢، ص ٩٤.

إنَّ السَّترَ الكاملَ يكشفُ عن عِفَّةِ المرأةِ ويزيدُ من قيمتها الاجتماعيَّةِ وكرامتها، الأمرُ الذي ينشرُ السَّعادةَ داخلَ صفوفِ المجتمعِ فضلاً عن الأسرةِ الواحدةِ أو الأسرِ.

وهذا الحِجابُ إنَّما يتأتَّى من تطييقِ ما أوصحته الزَّهْرَاءُ عليها السلام بجملةٍ قصيرةٍ مؤلَّفةٍ من كلماتٍ قليلةٍ، وهي أنَّ الشَّيءَ الذي هو خيرٌ للنساءِ ألاَّ يراها الرجالُ، وكذلك ألاَّ ترى هي الرجالُ، وهذا إنَّما يتحقَّقُ في سترِ المرأةِ نفسها وصونها حِجابها وعدمِ بروزها إلى خارجِ حدودِ بيتها.

إنَّ دعوةَ السيِّدةِ الزَّهْرَاءِ بالسترِ والعفافِ والالتزامِ بالحِجابِ لا يتعارضُ مع خروجِ المرأةِ لطلبِ العلمِ وتبليغهِ، وللدَّعوةِ إلى الحقِّ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، وكذا لا يتعارضُ مع خروجها للعملِ إذا اقتضتْ ظروفها الحيَّاتيَّةُ ذلك؛ فإنَّ أداءَ المهامِّ والمسؤوليَّاتِ إذا أُنيطتْ بها وتطلَّبَ ذلك خروجها وبروزها أمامَ الملأِ، وكانت عِفَّتُها محفوظةً وحِجابها مصوناً، فلها أن تؤدِّيَ دورها في ذلك وتنشرَ رسالتها، وقضاءَ عملها، دون أن يتعارض ذلك مع السَّترِ والحِجابِ، فإنَّ السيِّدةَ الزَّهْرَاءَ عليها السلام كانت قد خرجت مؤدِّيَّةَ دورها وفرضها في الجهادِ والدِّفاعِ عن الحقِّ. وكذلك ابتنها زينبُ الكبرى عليها السلام خرجت مجاهدةً مع الإمامِ الحسينِ عليه السلام، مدافعةً عن الحقِّ، متَّصرةً لأهله، وقد تمثَّلت العِفَّةُ فيها مع ما قامت به من دورٍ جهاديٍّ عظيمٍ.

نسألُ اللهَ تعالى أن تكون سيرةَ السيِّدةِ الزَّهْرَاءِ عليها السلام منهاجاً لنا ولنسائنا وبناتنا، وأن يوفِّقنا للاقتداءَ بها عليها السلام، وأن يُديمَ علينا ذكرَ فضائلها ومناقبها، إنَّه سميعٌ مجيبٌ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخطبة الرابعة والثمانون
من مواظ الإمام علي عليه السلام البليغة

بتاريخ: ٢٠ / ٦ / ٢٠٠٨ م

﴿ تمهيد

﴿ الرجاء والخوف الحقيقيّان

﴿ الاغترار بسعة رحمة الله والطمع في ثوابه بغير عمل

﴿ الإسراع إلى التوبة

﴿ التظاهر بالزهد مع عدم القناعة

﴿ التقصير في العمل والمبالغة في السؤال

﴿ البطر والافتتان بالغنى

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله الذي لا يُلْغُ مدحتَه القائلونَ، ولا يُحْصي نعماءَه العادّونَ، ولا يُؤدّي حقّه المجتهدونَ، الذي لا يُدرِكه بُعدُ اِهْمَمٍ، ولا يَنَالُه غَوْصُ الفِطْنِ»^(١).
وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على أمين الله على وحيه وعزائم أمره، الخاتم لما سَبَقَ والفتاح لما استُقبل، أبي القاسم محمد، وآله الذين أوجب الله تعالى مودّتهم، وجعلهم الهادين إلى صراطه القويم.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو، المبادرة إلى الخطيئات - بتقوى الله تعالى والاتّعاظ بما ورد عن آل الرسول ﷺ من مواعظ بليغة تهدي إلى الرشد والصواب.

تمهيد

سوف نطرّق في هذه الخطبة إلى ذكر موعظة صدرت عن أمير المؤمنين عليه السلام في الترغيب إلى الآخرة؛ هذه الموعظة قالها لرجل سأله أن يعظه، وسوف أُبيّن القيمة العلميّة والتقوائيّة والأخلاقيّة لهذه الموعظة^(٢).

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ج ١، ص ١٤.

(٢) ونصّها كما يلي: قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سأله أن يعظه: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أُعطي منها لم يشبع، وإن مُنِع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أُوتي، وابتغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي، يُحبّ الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو

ولقد ذكر الشريف الرضي الذي جمع خطب ومواعظ وحكم كتاب (نهج البلاغة) في تقييمه لهذه الموعظة ما نصّه: «ولو لم يكن في هذا الكتاب [أي: نهج البلاغة] إلا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة وحكمة بالغة، وبصيرة لمبصر، وعبرة لناظر مفكّر»^(١).

فلو أن كتاب (نهج البلاغة) ليس فيه إلا هذه الموعظة لكفى به كلاماً حكيماً بليغاً، وموعظةً وتبصرةً لمن يريد أن يتعظ ويُبصر. ونحن من خلال بيان قيمة هذه الموعظة نريد أن نفتح قلوبكم للاستماع والاتعاظ من هذه الموعظة؛ لتكون واعيةً تُدرك وتعي المضامين التربوية والأخلاقية العالية التي تنطوي عليها هذه الموعظة؛ من أجل العمل بها.

وقبل استعراض مقاطع تلك الموعظة أودّ أن أبيّن الغرض من الموعظة، وهو أحد أمور ثلاثة:

الأمر الأول: وجود من يجهل هذه المضامين، فتُعطى له من خلال الموعظة لإرشاده وبيان ما فيها لكي يعلمها.

الأمر الثاني: هناك من يعلم بوجودها، ولكنه في غفلة عن هذه المضامين العالية، فينبّه من خلال الموعظة.



أحدهم، يكره الموت؛ لكثرة ذنوبه، ويُقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سَقِمَ ظَلَّ نادماً، وإن صحَّ أمنَ لاهياً، يُعَجَّبُ بنفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلي، إن أصابه بلاء دعا مضطراً وإن ناله رخاء أعرض مغترّاً، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله، إن استغنى بطرَ وقتن، وإن افتقر قنطَ ووَهَن. نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٤٩٨.

(١) ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٣٢٩.

الأمر الثالث: إنه يعلم تلك المضامين، وغير غافل عنها، لكنه لا ينشط في تطبيقها والعمل بما فيها؛ نتيجة ما يُصيبه من الفتور والكسل وعدم الهمة، فحينئذ تكون هذه الموعظة محفزاً ومنشطاً له لأجل الإتيان بما فيها من مضامين^(١). ولا شك بأنّ فينا مَنْ لا يخلو من أحد هذه الأمور الثلاثة، فمن أجل هذا يجب أن نهمل من هذه المضامين العالية ونطبق ما فيها؛ لكي نضمن لأنفسنا السعادة في الدارين الدنيا والآخرة.

الموعظة الأولى: الرجاء والخوف الحقيقيّان

يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجي التوبة بطول الأمل».

الرجاء هنا هو أن يرجو الإنسان رحمة الله تعالى وثوابه؛ إذ كلّ إنسان مؤمن بالله تعالى يطمع أن ينجو من عذاب الله عزّ وجلّ، ويفوز برضاه ورحمته وثوابه. وهذا الشيء لا يتحقّق إلّا إذا تحقّق في قلب الإنسان أمران، هما: الرجاء، والخوف.

(١) يقول الخوئي شارح (نهج البلاغة) في هذا المعنى ما نصّه: «الموعظة إرشاد للجاهل، وتبنيه للغافل، وتنشيط للكسل، وأهمّ ما قام به الأنبياء والأوصياء لإصلاح العباد وعمران البلاد. والغرض منه إعداد العقول لتلقّي الأحكام والقوانين بالقبول، والإقبال عليها عن ظهر القلب، وقد وصف الله تعالى القرآن بأنّه موعظة وشفاء لما في الصدور، فقال عزّ من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: آية ٥٧]...»

وقد تصدّى عليّ عليه السلام لموعظة كافّة أهل الإسلام بمواعظ شافية كافية تشعّ أنوارها على القلوب طيلة القرون الماضية والغابرة». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهج البراعة في شرح نهج البلاغة:

والرجاء القلبي يجب أن يكون صادقاً، بمعنى أن الإنسان لا بدّ أن يكون صادقاً في رجائه؛ لأنّه إذا لم يكن كذلك لا يكون هناك محفّز ودافع ومشجّع للإنسان على الإتيان بالطاعات وأعمال البرّ والخير التي تحتاج إلى المشقّة، لذا لا بدّ أن يكون للإنسان محفّز يدفعه نحو ذلك، وهذا المحفّز يحقّقه الرجاء القلبي الصادق الذي به ينال رضا الله تعالى ورحمته وثوابه.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخوف القلبي؛ فإنّه يجب أن يكون هذا الخوف صادقاً؛ لكي يكون رادعاً للإنسان يحجزه ويمنعه عن الوقوع في المعاصي والذنوب والآثام، ويردعه عن ارتكابها، مُبْعِداً له عن غضب الله تعالى.

فإذا أراد الإنسان المؤمن الوصول إلى هذه النتيجة، فلا بدّ أن يكون صادقاً في رجائه وخوفه؛ لكي يُترجم هذين المقامين القلبيين إلى عمل واقعي. لذا فإنّ كثيراً من الناس لا يتطابق عملهم مع ما يدّعون من أقوال، وما يدّعون من مقامات قلبية؛ وذلك لأنّهم لم يكونوا صادقين في الرجاء والخوف القلبيين، وإنّما ينطقون هذا الادّعاء بألسنتهم؛ فإنّهم يرجون رحمة الله وثوابه، ويخافون عقابه، ولكنّ أعمالهم لا تكشف عن ذلك، وإنّما تُكذّب مدّعاهم، فهم ليسوا صادقين في مقام الرجاء والخوف القلبيين.

من هنا يحذّر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذا النفاق وهذا الكذب في ادّعاء هذه المقامات القلبية، مشيراً إلى أنّ المؤمن إذا أراد الوصول إلى رحمة الله تعالى ونيل ثوابه، وبلوغ الحياة الحقيقية التي ينشدها كلّ إنسان، ويرجو النجاة من عقاب الله وغضبه في الدنيا والآخرة، فعليه بالرجاء الحقيقي الصادق الذي يُطابق عمله، فيعمل صالحاً، ويرتدع ويتنهي عن ارتكاب المعاصي.

الموعظة الثانية: عدم الاغترار بسعة رحمة الله والطمع في ثوابه بغير عمل

إنّ كلّ خطير ونفيس يطول إليه الطريق، وتكثر في نواله المشاقّ، وحتى الأمور

التافهة والزائلة من أمتعة الدنيا لا يصل إليها الإنسان إلا بالسعي والحركة، فكيف إذا كان المطلوب هو دخول الجنة والفوز بها والطمع في ثواب الله تعالى؟! فإن هذا مما يحتاج إلى بذل الجهد والوسع، لكن بعض الناس ربما يغتر بسعة رحمة الله تعالى، ويتصور في نفسه بأن الله تعالى قد جعل لرحمته الواسعة أسباباً وأبواباً يستطيع الإنسان الدخول إليها والانضواء تحتها عن طريق أحد تلك الأسباب والأبواب دون عمل، من قبيل تصور بعضهم بأن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام يشفعون له يوم القيامة، فيدخل الجنة بشفاعتهم، الأمر الذي يكون حائلاً له عن القيام بأعمال الخير والبر والطاعات.

لكن أمير المؤمنين عليه السلام يقول في ذلك بأن الآخرة لا تُرجى بغير عمل، فلا يغتر الإنسان بسعة رحمة الله عز وجل ويترك نفسه راجياً أن ينال الثواب دون القيام بأيّة حركة أو نشاط لنيل ما يرجوه؛ فإنه إذا كان صادقاً في رجائه لنيل ذلك الثواب والانضواء تحت تلك الرحمة الإلهية، لا بد أن يكون ذا عمل دنيوي واضح يكشف عن صدق ذلك الرجاء؛ فإن هذا الرجاء لا يكون صادقاً إلا إذا كان محفزاً ودافعاً للعمل الصالح.

وأما دعوى الخوف القلبي فإن الذي يكشف عنها هو المبادرة إلى العمل الأُخروي، بأن يتدارك الإنسان ما فاتته من الطاعات، فيقضي ما فاتته من صلاة وصيام وحج وأداء الحقوق الشرعية، والتحلل من حقوق الآخرين.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إن طول آمال الإنسان موجبة لتأخير التوبة والإنابة وتدارك المعاصي؛ فربما يغتر الإنسان بشبابه وعافيته وقواه البدنية والمالية، ويتصور أن له عمراً طويلاً فيتجاهل التوبة ويؤجلها إلى سنوات قادمة، مع أنه

يجهل اللحظة التي يُدرکه الموت فيها، وحينها لا يستطيع تدارك ما فاتة في هذه الحياة، وهذا يكشف أيضاً عن مخالفة دعواه في الخوف القلبي من الله تعالى وعقابه وغضبه.

الموعظة الثالثة: الإسراع إلى التوبة

يوجه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - في كلامه المتقدم - دعوة للإنسان المؤمن بالإسراع إلى التوبة؛ فإن تأخير التوبة بطول الأمل يستلزم البقاء على المعصية والعذاب بها في الآخرة. لأجل ذلك يُناشد الإمام عليه السلام الناس بأن ينتهزوا الفرصة قبل أن يحلّ بهم الموت، بأن ينظر كلّ واحد منهم إلى ما فاتة في ما مضى من عمره، محاولاً تداركه، دون أن تغرّه صحته أو عافيته أو شبابه وقوته أو ماله، فتحول - كلّ هذه الأمور - دون قيامه بأعماله العبادية؛ إذ الأجدر به أن يستفيد من تلك الطاقات التي منحها الله تعالى له، فيؤدّي من خلالها الحقوق الواجبة عليه، ويعمد إلى ما فاتة من واجبات وفرائض يقضيها قبل أن يُحاسب عليها يوم القيامة.

إنّ للموت أسباباً عديدة رغم أنّ ميقاته محدّد، لكنّه غير معلوم، فهو يأتي في وقت يجله الإنسان ولا يعلم بحالته وكيفيته، فربّما يُصيب الموت شاباً وهو في كامل صحته وقوته بسبب حادث ما، أو يُفاجئه مرض ما يقضي على حياته، لذا فلا يُرجي الإنسان التوبة بطول الأمل ويصرف وقته مشغولاً بالأُمور الدنيوية، وفي حال نصحه بالإسراع إلى التوبة يغترّ بما لديه من مال وقوّة بدنية، فيتجاهل ذلك وهو لا يعلم متى يُدرکه الموت.

فعلى الإنسان في مقام الخوف الصادق أن يُسرّع إلى التوبة الحقيقية، متداركاً ما بقي من عمره، مطبّقاً ما يقوله أمير المؤمنين عليه السلام في موضع آخر من النصيحة والوعظ حينما يوصي أحد أصحابه - وهو يذمّ الدنيا ويزهد فيها - قائلاً: «فتدارك ما

بقي من عمرك ولا تقل غداً أو بعد غد؛ فإنما هلك مَنْ كان قبلك بإقامتهم على الأمانى والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون»^(١).

هناك الكثير من الناس عندما تُقدّم لهم النصيحة بالإسراع إلى التوبة يستجيب لذلك، لكنّه يُسوِّف الأمر محتجاً بانشغاله بأعمال مهمّة تحول دون ذلك، بانياً على أمّله بأنّه سوف يعيش سنوات طويلة وأنّه لا بدّ أن يأتي فيها الوقت المناسب لتوبته، وذلك حينما يُنهي كلّ أعماله، لكنّه لا يعلم متى يُدرّكه الموت، فهل يستطيع أن يضمن لنفسه بأنّ الموت لا يُلاحقه خلال هذه الفترة؟ هل يضمن لنفسه بأنّ الموت لا يُدرّكه وهو في سنيّ شبابه؟

لا أحد يستطيع أن يضمن لنفسه العيش لحظة واحدة، فلا يُسوِّف الإنسان في صلاته وصيامه وعباداته وأداء ما عليه من الحقوق الإلهيّة؛ لأنّه سوف يجد نفسه - وهو لا يشعر - عاجزاً عن أداء هذه العبادات والحقوق، وقد فاتته أداؤها ولا يتمكّن الآن من تدارك ذلك.

من هنا يُذكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مثل هذا الإنسان بالذين هلكوا قبله ولم يتداركوا ما فاتهم من الطاعات، ولم يتحلّلوا من حقوق الله والآخرين؛ لأنّهم عوّلوا أمانيّهم بأنّهم سوف يعيشون في هذه الحياة الدنيا طويلاً، فسوّفوا التوبة حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون.

الموعظة الرابعة: التظاهر بالزهد مع عدم القناعة

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أُعطي منها لم يشبع، وإن مُنع منها لم يقنع».

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٣٦.

إنَّ ممَّا أكَّده عليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقطع هو أن لا يضع الإنسان نفسه في مقام الوعظ لغيره، محدِّراً الناس من الدنيا، مظهرًا لهم القول بالزهد فيها بأنَّها دار زوال وفناء لا قيمة لها، فلا ينبغي للإنسان السعي لأجلها وإجهاد النفس لها. لكنَّه في حقيقة أمره وعمله حريص على الدنيا أشدَّ الحرص، فتراه جشعاً وطمعاً لا يتطابق عمله فيها مع قوله للآخرين بالزهد فيها.

إنَّ تطابق السلوك والعمل والتصرّف مع ما يقوله الإنسان من المسائل المهمّة في باب الوعظ والإرشاد، فالواعظ قبل أن يعظ غيره يجب أن ينظر في سلوكه وعمله، فهل يتطابقان مع أقواله؟ فإنَّ الموعدة لا تؤثر إذا كان من ينطق بها يخالف عمله قولَه، فلا تكون ذات فائدة للإنسان.

لذلك يصف أمير المؤمنين عليه السلام أصحاب هذا المذهب وهذه الطريقة، قائلاً عنهم بأنَّه «إن أُعطي من الدنيا لم يشع»؛ لأنَّ الطبيعة البشريّة مجبولة على حبّ الازدياد، وإنَّما يقهرها أهل التوفيق وأرباب العزم والقوى، ويردّف قائلاً: «وإن مُنِع منها لم يقنع» بما عنده، بل يُريد الازدياد من الدنيا.

أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى فضيلة أخلاقية مهمّة، وهي القناعة، ومعناها الرضا والاقتصار على مقدار الحاجة من المال وما يحتاج إليه^(١)، وهي فضيلة مستلزمة لسكون نفس الإنسان ورضاه بما قُسم له، وغناه عمّا وراءه^(٢)؛ فإنَّ القنوع يقنع بما يُصيب من الدنيا، ويقنع بالقليل ويشكر باليسير^(٣). وهي في الوقت نفسه

(١) أنظر: ابن ميثم البحراني، ميثم بن عليّ، نهج البلاغة: ج ٤، ص ٣٤٧.

(٢) أنظر: المصدر السابق: ج ٥، ص ٤٢٦.

(٣) أنظر: ابن فهد الحليّ، أحمد، عدّة الداعي ونجاح الساعي: ص ٨٤.

توفّر للإنسان العزّة والكرامة والسعادة، ولأجل ذلك ورد في بعض النصوص عن رسول الله ﷺ قوله: «القناعة كنز لا يفنى»^(١).

وعدم القناعة أو عكسها هو الجشع والطمع والحرص، وهذه لا تجلب للإنسان سوى الغمّ والهمّ مهما سعى أو صرف ليله ونهاره وهو على هذه الحال؛ فإنّه لا يصل إلى نهاية تُقنعه أو إلى نتيجة تُرضيه، لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام «القانع غني وإن جاع وعري»^(٢)، وهذا معناه الرضا بما قسم الله تعالى له، وبما رزقه وأعطاه.

وقد ورد في تعريف القناعة أيضاً بأنّها قوّة النفس عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة من المعاش والأقوات، وعدم ما يُشاهد من ذلك عند الغير^(٣).

وفي هذا التعريف إشارة إلى إحدى الوسائل أو الطرق المهمّة للحصول على القناعة أو الوصول إليها، وهي نظر الإنسان إلى مَنْ هو أقلّ منه، ولا ينظر إلى مَنْ هو أعلى منه، فالمریض - مثلاً - إذ أراد أن يملك القناعة والرضا بحاله، عليه أن ينظر إلى مَنْ هو أشدّ منه مرضاً، ولا ينظر إلى مَنْ هو صحيح. وكذا الفقير يجب أن ينظر إلى مَنْ هو أدون منه وأشدّ منه فقراً، وهكذا كلّ مَنْ ابتلي ببلاء وحرص على اكتساب القناعة عليه أن ينظر إلى مَنْ هو أشدّ منه بلاءً، وأكثر منه امتحاناً، فلا ينظر الإنسان إلى مَنْ هو أكثر منه سعةً وأحسن حالاً، ومَنْ هو فوقه في كلّ الأمور،

(١) الطبرسي، أبو الفضل عليّ، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ٢٣٣.

(٢) النوري، ميرزا حسين، مستدرک الوسائل: ج ١٥، ص ٢٢٨، ح ١٨٠٨٠ / ٢٠.

(٣) ابن ميثم البحراني، ميثم بن عليّ، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٤٢٦.

لذلك يُعلِّمنا الإمام الصادق عليه السلام هذا المعنى من خلال الحديث الشريف الوارد عنه عليه السلام: «أنظر إلى مَنْ هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى مَنْ هو فوقك في المقدرة؛ فإنَّ ذلك أقنع بما قُسم لك»^(١).

وورد عن النبي صلى الله عليه وآله هذا المعنى أيضاً في قوله: «أنظروا إلى مَنْ هو دونكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم؛ فإنه أجدر ألاَّ تزدروا بنعمة الله عليكم»^(٢).
إذاً فَمَنْ أراد أن تكون عنده القناعة في كلِّ شيء يقسمه الله تعالى له ويرضا به، عليه أن يسلك هذه الطريقة، وهي أن يكون نظره إلى مَنْ هو أدون منه دائماً، ولا ينظر إلى مَنْ هو فوقه، وهذا معناه الإحساس بنعمة الله تعالى مهما صغرت وشكره عليها.

الموعظة الخامسة: عدم التقصير في العمل والمبالغة في السؤال

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله».

من الأمور المهمّة التي يجب لفت النظر إليها، هو أنّ بعض الناس يُحاول أن

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ٢٤٤، ح ٣٣٨. ونصّ الحديث فيه: «... عن هشام بن سالم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لحمران بن أعين: يا حمران، أنظر إلى مَنْ هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى مَنْ هو فوقك في المقدرة؛ فإنَّ ذلك أقنع لك بما قُسم لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربِّك. اعلم أنّ العمل الدائم والقليل على يقين أفضل عند الله - جلّ ذكره - من العمل الكثير على غير يقين. واعلم أنّه لا ورع أنفع من تجنب محارم الله، والكفّ عن أذى المؤمنين واغتيالهم، ولا عيش أهنأ من حُسن الخلق، ولا مال أنفع من القنوع باليسير المجزي، ولا جهل أضرّ من العُجب».

(٢) الهاشمي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٧، ص ٢٠١.

يُظهر الخوف على غيره من ذنوب يرتكبها ذلك الغير وهي - في الحقيقة - أقل من ذنوبه، ويرجو لنفسه ثواباً أكثر مما يستحقّ على عمله، مع أنّ الحقّ أن يخاف على نفسه أكثر من خوفه على غيره؛ بسبب كثرة ذنوبه.

وبعبارة أخرى: بعض الناس يتصوّر أنّ الآخرين ذنوبهم عظيمة، ويجعل نفسه في مقام الواعظ لهم، الخائف عليهم من ذنوبهم، ولكنه في الواقع يرتكب ذنوباً هي أكبر من تلك الذنوب التي يرتكبها الآخرون؛ فإنّه إن نظر إلى عيوب الآخرين رآها كبيرة في عينيه، مع أنّه يحمل عيوباً هي أكبر وأعظم منها، لكنه يتصوّر بأنّ أعماله وعبادته وبرّه وخيره أكثر شأنًا من أعمال الآخرين وعبادتهم وبرّهم، لذلك يرجو لنفسه منزلةً عند الله أعظم ممّا يستحقّ في واقع الحال.

إنّ مثل هذه الحالات ربّما تدخل تحت عنوان الخداع والنفاق؛ وذلك لأنّ صاحبها يجمع بين نهيه عن المعاصي وعدم تناهيه عنها، فهو ينهى الآخرين عن ارتكاب الذنوب، لكنه لا ينهى نفسه عن ارتكابها، فهو يعظ غيره لكنه لا يعظ نفسه، ويأمر غيره بما يقصر هو عن فعله، وهو خداع ونفاق، لذا فإنّ الأوّل بالإنسان أن يستعظم ذنب نفسه أولاً ولا يستعظم ذنب غيره، وأن يكون محطّ نظره أعماله لا أعمال غيره، فلعلّ من الذين استقلل أعمالهم وخيراتهم وطاعاتهم، واستكثر ذنوبهم، هم عند الله على العكس ممّا تصوّره؛ لأنّ الله هو أعلم بحقائق الأمور.

ثم إنّ في الوقت الذي يخاف على الآخرين قلة أعمالهم وخيراتهم ما يزال يرجو لنفسه النجاة والخير والسعادة، لكنّ رجاءه متعلّق بأعماله التي لا توصله إلى المصير الذي يرجوه، فهو يعمل القليل ويطلب في مقابله الأجر الكثير، فالأوّل به أن يستقلل داخل نفسه من عمله في الطاعات وأعمال الخير؛ لكي يكون هذا دافعاً له إلى عمل المزيد من القربات بما يناسب حجم ما يطلبه ويتغيه ويرجوه من الأجر الكثير.

الموعظة السادسة: عدم البطر والافتتان بالغنى

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إِن اسْتَغْنَى بَطْرَ وَفِتْنٍ، وَإِن افْتَقَرَ قِنَطٌ وَوَهْنٌ». يُشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى عدم شكر النعمة؛ فإنَّ النعمة إذا لم تُشكر تزول، وشكرها لا يكون باللسان فقط، وإنَّما باستخدامها وإنفاقها في طاعة الله تعالى، وعدم جعلها أو استخدامها في معصية الله.

لكنَّ بعض الناس حينما يُغنيه الله تعالى ويُنعم عليه لا يشكر هذه النعم، وإنَّما يطغى ويُصيبه البطر والافتتان بهذه النعمة، وهذا في الحقيقة يُعدُّ من الفجور. والبطر هو الطغيان عند النعمة وطول الغنى^(١)، فهو الاغترار بالنعمة، والغرور فتنه، فلا يُفتتن الإنسان إذا أصابه الغنى وأنعم الله عزَّ وجلَّ عليه من نعمه.

وعلى العكس من ذلك إذا فَقَدَ تلك النعمة وافتقر، فإنَّه يقنط ويأس ويضعف، فإذا أُبْتُلِيَ بِفَقْرٍ أَوْ مُحَنَةٍ أَوْ شِدَّةٍ يَرَاوِدُهُ الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، لَذَلِكَ يَضْعَفُ عَنِ الرَّجَاءِ، مَعَ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ رَجَاءُ الْإِنْسَانِ لِرَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَجَاءً عَظِيمًا وَكَبِيرًا يَجْعَلُهُ يَعْتَقِدُ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ بِأَنَّ فَرَجَ اللَّهِ قَرِيبٌ، وَأَنَّ مُحَنَتَهُ سَرْعَانَ مَا تَزُولُ، وَيُنْعِمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنِعْمِهِ وَرَحْمَتِهِ.

نسأل الله تعالى أن نكون ممَّن سمع هذه الموعظة البليغة ووعاها، وعمل بها ورد فيها، إنَّه سميع مجيب.
والحمد لله ربَّ العالمين.

(١) أنظر: ابن منظور، محمَّد بن مكرم، لسان العرب: ج ٤، ص ٦٩ - بطر.

الخطبة الخامسة والثمانون
التحصين التربوي في سيرة الإمام الهادي عليه السلام

بتاريخ: ٤ / ٧ / ٢٠٠٨ م

◀ تمهيد

◀ التحصين التربوي والأخلاقي

◀ أساليب الإمام الهادي عليه السلام التربوية

له الأسلوب الأول: زيارة الأئمة عليهم السلام

له الأسلوب الثاني: تعهد القرآن الكريم وسنة أهل البيت عليهم السلام

له الأسلوب الثالث: الدعاء والتوجه إلى الله تعالى في الحوائج

له الأسلوب الرابع: الثقة بالله تعالى والتوكل عليه

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يدوم بدوامه، ويوازن عرشه المجيد، ويعادل كرسيه الرفيع.
والصلاة والسلام على أمين الله على وحيه، وعزائم أمره وصفيه من خلقه أبي
القاسم محمد، وعلى آله الأئمة الدعاة، والقادة الهداة، والسادة الولاة عليهم السلام.
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو - بتقوى الله تعالى،
والاهتداء بسيرة آل بيته الأطهار عليهم السلام.

تمهيد

تمرّ علينا في الأسبوع القادم ثلاث مناسبات مهمة: الأولى: ولادة الإمام محمد
الباقر عليه السلام في اليوم الأوّل من شهر رجب الأصبّ. والثانية: في اليوم الثاني منه
مناسبة ولادة الإمام الهادي عليه السلام. والثالثة: في اليوم الثالث منه أيضاً ذكرى استشهاد
الإمام عليّ الهادي عليه السلام.

وإذا أردنا الحديث عن سيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فعلينا دراسة تلك السيرة
بوعي وتأمل وتفكر وتدبر؛ إذ ليس من الصحيح أن ندرسها دراسةً سطحيّةً
ساذجةً من غير فهم ووعي؛ وذلك لكي نلتمس من تلك السيرة ما نهتدي به إلى
مرضاة الله تعالى، ونصل إلى الأهداف التي توخّاها الأئمة عليهم السلام.

ولأجل قُرب حلول ذكرى ولادة الإمام الهادي عليه السلام - كما ذكرنا - سوف
نتعرّض في هذه الخطبة لذكر قبساتٍ من سيرته العطرة، ودوره ونشاطاته في تحصيل

الأُمَّة الإسلاميَّة، لكي نأخذ منها ما نحتاج إليه، وما يُناسب وينسجم مع الظروف التي يعيشها أبناء وطننا، لكي نتمكّن من خلال التدبّر فيها من تطبيقها؛ حتى نخرج من المحن والابتلاءات التي نمرّ بها، نُرضي الله تعالى بذلك، آمليْن أن يُحقّق لنا الظفر والنصر والعزّة.

ومقصودنا من التحصين هو حماية الأُمَّة والمجتمعات الإسلاميَّة من الانحرافات المتنوّعة في كافّة الميادين، الحماية في ميدان العقيدة، وفي ميدان السياسة، وفي ميدان العلم، وفي ميدان المسائل التربويّة والأخلاقيّة.

ولهذا التحصين وسائل يُمكن من خلالها الابتعاد عن الوقوع في المتاهات البعيدة عن روح الإسلام، ومن جملة تلك الوسائل:

الأوّل: بناء الكوادر العلميّة.

الثانية: تقوية الارتباط مع خطّ المرجعيّة الدينيّة الذي يُمثّل الامتداد الحقيقي للأُمَّة عليه السلام.

الثالثة: نشر الوعي والثقافة الإسلاميّة.

التحصين التربوي والأخلاقي

إنّ من جملة الأدوار التي مارسها الإمام الهادي عليه السلام في سيرته هو الدور التربوي، أي: دور تثقيف الأُمَّة أخلاقياً. ولقد أبرز الإمام عليه السلام هذا الدور للمجتمع من خلال أتباعه عدّة أساليب.

أساليب الإمام الهادي عليه السلام التربويّة

بالرغم من كلّ الظروف التي فرضت على الإمام الهادي عليه السلام وعزله عن شيعته ومحبيه، لكنّه عليه السلام كان يُمارس مسؤوليّاته التربويّة بكلّ الوسائل التي يتسنى له من خلالها التأثير في المجتمع، فهو تارةً يُلبّي حاجاتهم فيُسعفهم بقضائهم، وأخرى يتصرّع

بالدعاء إلى الله ليقضي حاجاتهم، مؤكّداً بذلك أهميّة التوجّه إلى الله وعدم طلب الحوائج من غيره، وثالثةً يصرّ على أن يربط الأئمة عاطفياً بالقدوة الصالحة الذين هم أهل البيت عليه السلام من خلال التأكيد على زيارتهم ودراسة سيرتهم وتناقل أحاديثهم؛ فإنّ هذه جملة من الأساليب المتنوّعة التي اتّبعها الإمام الهادي عليه السلام في التحصين التربوي.

الأسلوب الأول: زيارة الأئمة عليه السلام

إنّ من جملة ما ورد عن الإمام الهادي عليه السلام في هذا المجال زيارتين مهمّتين: الزيارة الأولى: زيارة الجامعة الكبيرة التي تضمّ جملةً وافرةً من المضامين العقائديّة الحقّة، يُبيّن فيها الإمام الهادي مقامات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليه السلام، ويذكر صفاتهم وصفات مواليتهم الحقيقيين الذين يصدقون في ولائهم وتشيعهم لأهل البيت عليه السلام^(١).

(١) زيارة الجامعة الكبيرة: نصّ من النصوص الدينيّة الشيعيّة المهمّة المرويّة عن عليّ بن محمّد الهادي عليه السلام بسندٍ صحيح تامّ، تُعدّ من أعظم الزيارات شأنًا وأعلاها مكاناً، وهي من أوسع وأشمل الزيارات المنقولة عن أئمة أهل البيت عليه السلام، وأنّ فصاحة ألفاظها وبلاغة مضامينها تُنادي بصحّة صدورها عن المعصوم عليه السلام. وبوسع الزائر قراءتها عند زيارة أيّ واحد من الأئمة عليه السلام. احتوت هذه الزيارة على الرياض النضرة والحدائق الخضرة المزدانة بأنوار المعارف والحكمة في شطر وافر من حقوق أولي الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، فقد اشتملت على جملة من الأدلّة والبراهين المتعلّقة بأصول الدين، وأسرار الأئمة الطاهرين، وهي تمثّل خلاصة مذهب أهل البيت عليه السلام، مع إبراز مقاماتهم الحقّة، وبيان منزلتهم العظيمة، وكامل فضائلهم ومناقبهم، فهي مدرسة عُليا لنيل الكمالات ودرك الكرامات.

روى هذه الزيارة جملة من أساطين الدين وحمله علوم الأئمة الطاهرين، فقد رواها شيخ الطائفة

الزيارة الثانية: زيارة الغدير، حيث زار بها الإمام الهادي عليه السلام جده أمير المؤمنين عليه السلام حينما أشخصه الخليفة العباسي - المعتصم - إلى العراق، وقد تضمنت هذه الزيارة أهم أسس العقائد والولاية لأمر المؤمنين^(١).



الطوسي في (التهذيب)، والصدوق في (من لا يحضره الفقيه)، و(عيون أخبار الرضا عليه السلام). وقد أعدّ الشيخ آقا بزرك الطهراني في موسوعته (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) قائمة ببعض الشروح التي كُتبت في شرحها، وذكرها تحت عنوان: (شرح الزيارة الجامعة)، وذكر كل شرح بعنوانه المستقل إن كان له عنوان مستقل، وقال قبل إيراده للشروح: «بما أنّ بعض تلك الزيارات مجملًا وفقرات متشابهة تحتاج إلى الشرح والتوضيح والبيان لردّ الاعتراض ودفع الانتقاد، عمد جمع من الأعلام إلى شرحها وبيان المراد منها، وأنّه في بعض المقامات غير ما يدلّ عليه ظاهر اللفظ...».

جاء في أوّل الزيارة: (السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي...).

أنظر: الصدوق: محمد بن عليّ، من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٦١٠ وما بعدها. وعيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٣٠٥ وما بعدها. الأوحد الإحسائي، أحمد بن زين الدين، شرح زيارة الجامعة الكبيرة: ج ١، ص ٢٨ وما بعدها. شبر، عبد الله، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة: ص ٣١ وما بعدها. الحسيني الصدر، عليّ، في رحاب الزيارة الجامعة: ص ٨ وما بعدها. الطهراني، آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج ١٣، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(١) زيارة الغدير: تضمنت هذه الزيارة أهم الأسس العقائدية والولائية لأمر المؤمنين عليه السلام، وهي من أروع وأجلّ الزيارات، فقد ذكرت فضائل أمير المؤمنين عليه السلام وما عاناه في عصره من المشاكل السياسية والاجتماعية.

وقد رويت هذه الزيارة بأسانيد معتبرة عن الإمام عليّ بن محمد الهادي النقي عليه السلام، حيث زار بها جده الإمام عليّاً عليه السلام في يوم الغدير عندما أشخصه المعتصم العباسي إلى بغداد، كما رواها المفيد مرسلّة عن الإمام أبي محمد العسكري عن أبيه عليه السلام.



وكان الإمام عليه السلام - كما هي سيرة آبائه المعصومين - يتوخى من وراء ذلك أهدافاً جليلةً لصالح الإنسان المؤمن، منها:

أولاً: تقوية الرابطة العاطفية بين الأئمة عليهم السلام وشيعتهم.

ثانياً: تجديد الولاء مع الأئمة عليهم السلام والسير على نهجهم.



قال الشيخ عباس القمي بعد أن أورد نصّها: «وهذه الزيارة يُزار عليها بها في جميع الأوقات عن قرب وعن بعد، فلا تخصّ يوماً خاصاً أو مكاناً معيناً، وهذه البتة فائدة جليلة يغتنمها الراغبون في العبادة، والشائقون إلى زيارة سلطان الولاية عليه السلام».

ويقول السيّد محمد سعيد الحكيم في هذا الشأن أيضاً: «ويبدو أنّ الإمام أبا الحسن عليّ بن محمد الهادي صلوات الله عليه قد حاول أن يجمع ما ورد متفرّقاً عمّن قبله من آبائه صلوات الله عليهم في بيان الزيارة الجامعة الكبيرة لجميع الأئمة صلوات الله عليهم، وزيارة أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام يوم الغدير... فقد أفاضت هاتان الزيارتان في هذين الأمرين الأخيرين بنحو يصلحان لأن يكونا بمجموعهما أطروحةً كاملةً عن الموقف العقائدي الشيعي من أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام، ومن أعدائهم وخصومهم؛ ليكونا سبباً لتذكير عموم الشيعة بعقيدتهم وتركيزها في نفوسهم».

جاء في أوّل الزيارة: «السلام على محمد رسول الله خاتم النبيّين، وسيّد المرسلين، وصفوة ربّ العالمين...».

أنظر: المشهدي، محمد بن جعفر، المزار: ص ٢٦٣ وما بعدها. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٩٧، ص ٣٥٩ وما بعدها. القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص ٥٤٤ وما بعدها. الحكيم، محمد باقر، دور أهل البيت في بناء الجماعة الصالحة: ج ٢، ص ١٩٩ - ٢٠٠. الحكيم، محمد سعيد، فاجعة الطف؛ أبعادها - ثمراتها - توقيتها: ص ٤٩٢.

وهذان الأمران إنّما يحصلان من خلال زيارة الأئمة عليهم السلام، سواء الزيارة الحضورية عند مراقدهم، أم الزيارة عن بعد بقراءة الزيارات الواردة فيهم، وكلّ ذلك يجب أن يكون بتمعّن وتفكّر وبوعي وتدبّر في مضامين تلك الزيارات الأخلاقية والعقائدية، لا أن يقرأ الإنسان الزيارة قراءةً ساذجةً من غير تأمّل بما تحمله من معاني تربوية وعقائدية تشدّ الإنسان نحو الإمام المقصود بالزيارة. وكذلك من خلال الإكثار من زيارات أهل البيت عليهم السلام والمشاركة الفاعلة في الزيارة المليونية السنوية، شريطة أن يُصاحب هذه المشاركة الوعي وفهم حقيقة هذه الزيارة.

الأسلوب الثاني: تعهّد القرآن الكريم وسنة أهل البيت عليهم السلام

إنّ من جملة ما وصف به يحيى بن هرثمة عبادة الإمام الهادي عليه السلام، ملازمته للمسجد وإعراضه عن الدنيا، فكان ملازماً للمسجد منقطعاً إلى العبادة، وعندما فتشوا داره لم يجدوا فيه سوى المصاحف وكتب العلم والأدعية، ممّا يعني مداومة الإمام على تلاوة القرآن.

يقول يحيى: «فذهبتُ إلى المدينة، فلما دخلتها ضجّ أهلها ضجيجاً عظيماً ما سمع الناس بمثله؛ خوفاً على عليّ، وقامت الدنيا على ساق؛ لأنّه كان محسناً إليهم، ملازماً للمسجد، ولم يكن عنده ميل إلى الدنيا، فجعلتُ أسكنهم وأحلف لهم إنّي لم أُؤمر فيه بمكروه، وأنّه لا بأس عليه. ثم فتشتُ منزله فلم أجد فيه إلّا مصاحف وأدعية وكتب العلم»^(١).

يُعطينا هذا المقطع من الكلام درساً في تعهّد القرآن الكريم، وكذلك تعهّد السنة الشريفة؛ إذ إنّ الاهتمام بالقرآن والحديث كان ديدن أهل البيت عليهم السلام،

(١) الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ٢، ص ٣٧.

وسيرتهم تكشف عن ذلك، فلا بأس أن يتعهد الإنسان القرآن الكريم بتلاوة آية واحدة منه يومياً، فإنه يكون في الشهر قد قرأ ثلاثين آية.

إنّ هذا البرنامج لا يستغرق من وقت الإنسان إلّا بضع دقائق في اليوم، وكذلك لا يحتاج إلى جهد وعناء، وهو مع هذه السهولة ينفع الإنسان نفعاً كبيراً، فإذا اطلع الإنسان وقرأ في اليوم حديثاً واحداً من أحاديث أهل البيت عليه السلام، وواظب على هذا الأمر؛ فإنه سوف يكتسب مضمون ثلاثين حديثاً في الشهر، يُحاول تطبيقها في سيرته العملية وحياته اليومية.

وكذا إذا ما اتَّخذ الإنسان قراراً في داخل نفسه بأنّه سوف يطبّق مضمون الآيات التي يتلوها يومياً؛ فإنه سوف ينال النفع الكبير، وهذا نوع من أنواع الوقاية والتحصين التربوي والأخلاقي الذي يبتغيه الإمام الهادي عليه السلام لشيعة، وقد طبّقه هو عليه السلام خلال سيرته العملية عندما كان ملازماً للمسجد لا يملك إلّا المصحف الشريف يتلو آيات الله تعالى.

الأسلوب الثالث: الدعاء والتوجّه إلى الله تعالى في الحوائج

إنّ كلّ واحد منّا بحاجة إلى الدعاء والتوجّه إلى الله تعالى لكي يدفع عنه البلاء، ويخلصه من المحن، ولا سيّما الدعاء الجماعي، لذلك فإنه من جملة الأمور التي تنفع في المقام المواظبة على حضور العبادات الجماعية - كصلاة الجمعة والجماعة - فإنه بالإضافة إلى جزيل الثواب الذي فيها، هناك فوائد أخرى تُرتجى منها، وهي استجابة الدعاء إذا كان جماعياً، لذا فلا يشغل الإنسان نفسه عند دخول أوقات الصلاة بالأمور الدنيوية التافهة؛ فإنه سوف يندم على ذلك يوم القيامة عندما يشعر بقيمة الثواب العظيم الذي فاته بسبب عدم اهتمامه بأداء العبادات جماعة.

الإنسان في كل ظروفه وأحواله بحاجة إلى الدعاء النابع من القلب الذي يتوجّه فيه بنية خالصة إلى الله تعالى ويثق به في إجابته لدعائه، لا أن يتوسّل بالأسباب الدنيويّة بالوصول إلى مقاصده وما يتوخّاه.

وفي المقام يُعلّمنا الإمام الهادي عليه السلام من خلال تقديمه تجربة حسيّة يعيش من خلالها معنى التوجّه إلى الله واللجوء إليه في المهمّات والملّات لأجل أن يُبصر أصحابه وشيعته بأهميّة هذا المبدأ، وكيف أنّ الدعاء النابع من القلب إلى الله تعالى والوائق به يفعل المعجزات والكرامات، وذلك في واحدة من الحوادث الكثيرة التي وقعت مع شيعة أهل البيت عليهم السلام وأبتاعهم، فقد حدث في زمن المتوكّل العباسي - الذي كان كثير العداء للإمام الهادي عليه السلام - أنّ رجلاً من شيعة الإمام عليه السلام تصله صلات المتوكّل فيقتات بها هو وأفراد عائلته، لكنّه - المتوكّل - قد قطعها عنه عندما أحسّ بانتمائه وولائه للإمام الهادي عليه السلام، لذلك قصد هذا الرجل الإمام الهادي عليه السلام طالباً منه التدخل في هذا الأمر عند الخليفة العباسي، أو أن يفعل معه شيئاً من أجل إرجاع تلك الصلة التي كان قد أمر بقطعها.

يقول هذا الرجل ^(١) - وهو أبو موسى، عيسى بن أحمد بن عيسى - قصدت

(١) ونصّ الحديث هكذا: «... أبو محمّد الحسن بن محمّد بن يحيى الفحام، قال: حدّثني أبو الحسن محمّد بن أحمد بن عبيد الله المنصوري، قال: حدّثني عمّ أبي أبو موسى، عيسى بن أحمد بن عيسى، قال: قصدت الإمام عليّ بن محمّد عليه السلام يوماً فقلت له: يا سيّدي، إنّ هذا الرجل قد أطرّحني وقطع رزقي وملّني، وما أنّهم في ذلك إلّا علمه بملازمتي لك، وإذا سألته فسياسته تُلزمه القبول منك، فينبغي أن تتفصّل عليّ بمسألته. فقال: تُكفي إن شاء الله.

فلما كان في الليل طرّقني رسول المتوكّل، رسول يتلو رسولاً، فجئت والفتح على الباب قائم، فقال: يا رجل، ما تأوي في منزلك بالليل؟ كدّ هذا الرجل ممّا يطلبك. فدخلت فإذا المتوكّل جالس على فراشه، فقال: يا أبا موسى، نشغل عنك وتنسينا نفسك، أيّ شيء لك عندي؟ فقلت: الصلة

الإمام الهادي عليه السلام يوماً، فقلت: إنَّ المتوكِّل - الخليفة العبَّاسي - قد قطع رزقي، وما أتهم بذلك إلَّا علمه بملازمتي لك. أي: إنَّه قد شعر بأنني من شيعتك ومن أتباعك، وأحسَّ بملازمتي لكم، فصار هذا سبباً في قطعه تلك الأرزاق. فينبغي أن تتفصَّل عليَّ بمسألته، أي: يطلب من الإمام الوساطة في حلِّ هذا الأمر. وهذه الحالة تشبه الحالات التي تحدث في حياتنا وزماننا، بأن يشعر صاحب



الفلائيَّة، والرزق الفلاني، وذكرت أشياء. فأمر لي بها وبضعفها. فقلت للفتح: وافي عليَّ بن محمَّد إلى هاهنا؟ فقال: لا. فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا. فولَّيت منصرفاً فتبعني، فقال لي: لست أشكَّ أنَّك سألته دعاءً لك، فالتمس لي منه دعاءً. فلمَّا دخلت عليه عليه السلام قال لي: يا أبا موسى، هذا وجه الرضا. فقلت: ببركتك يا سيِّدي، ولكن قالوا لي: إنَّك ما مضيت إليه ولا سألته. فقال عليه السلام: إنَّ الله تعالى علم منَّا أنَّنا نلجأ في المهمَّات إلَّا إليه، ولا نتوكَّل في المهمَّات إلَّا عليه، وعوَّدنا إذا سلَّناه الإجابة، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا. قلت: إنَّ الفتح قال لي كيت وكيت. قال: إنَّه يوالينا بظاهره، ويجانبنا بباطنه، الدعاء لمن يدعو به إذا خلصت في طاعة الله، واعترفت برسول الله ﷺ وبحقِّنا أهل البيت، وسألت الله تبارك وتعالى شيئاً لم يمنحك.

قلت: يا سيِّدي، فعلمني دعاءً اختصَّ به من الأدعية. فقال: هذا الدعاء كثيراً ما أدعو الله به، وقد سألت الله ألاَّ يُحيِّب من دعا به في مشهدي بعدي، وهو: يا عُدَّتِي عند العدد، ويا رجائي والمعتمد، ويا كهفي والسند، ويا واحد يا أحد، ويا قُلَّ هو الله أحد، أسالك اللهم بحقِّ مَنْ خلقته من خلقك ولم تجعل في خلقك مثلهم أحداً، أن تُصَلِّيَ عليهم، وتفعل بي كيت وكيت». الطوسي، محمَّد بن الحسن، الأمالي: ص ٢٨٥، ح ٥٥٥/٢. الطبري، محمَّد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى: ص ٢١٤-٢١٥، ح ٤١.

السلطة بوجود رابطة وعلاقة بين أحد المؤمنين وبين المرجع الديني، فيصدر أوامره بمصادرة أمواله - مثلاً - عقوبةً له، فيلتمس هذا المؤمن من المرجع الوساطة له من أجل حلّ هذه المشكلة مع صاحب السلطة، فيبعث له بكتاب - مثلاً - أو يرسل له شخصاً للتفاهم والتفاوض معه من أجل إرجاع ما سلبه من ذلك المؤمن.

فقال له الإمام الهادي عليه السلام: «تُكفى إن شاء الله». أي: ستُقضى لك تلك الحاجة إن شاء الله. لكنّ الإمام عليه السلام لم يُبين الوسيلة التي سوف يتبعها من أجل قضاء هذه الحاجة، وإنما اكتفى بعبارة: «تُكفى إن شاء الله».

يقول الرجل: فلمّا كان الليل طرقتني رُسل المتوكّل رسول بعد رسول. أي: تفجّأ من رُسل المتوكّل الذين توافدوا عليه يطلبون منه الحضور إلى مجلس الخليفة. يقول الرجل: فجئت والفتح على الباب قائم، فقال: يا رجل، ما تأوي في منزلك بالليل؟ كدّ هذا الرجل ممّا يطلبك. أي: قد تعب الرجل من شدّة طلبه لك وإرساله الرسل إليك.

يقول: فدخلت وإذا المتوكّل جالس في فراشه، فقال: يا أبا موسى، تُشغل عنك، وتُتسينا نفسك، أيّ شيء لك عندي؟ فقلت: الصلة الفلانية، والرزق الفلاني، وذكرت أشياء، فأمر بها وبضعفها.

وهنا يتفجّأ الرجل وتُصيبه الدهشة؛ إذ كيف يأمر هذا الحاكم الذي يضمّر العداوة الشديدة لشيعّة أهل البيت عليهم السلام بالصلة التي قطعها، ثم يُضاعفها له! وحينها صار يفكّر بالأمر، وهل أنّ الإمام عليه السلام قد زار الخليفة المتوكّل وطلب منه أن يُعيد هذه الصلة والأرزاق مثلاً؟!!

لذلك يقول: فقلت للفتح: وافى عليّ بن محمّد إلى ها هنا؟ فقال: لا. فقلت: كتب رقعة؟ فقال: لا.

عندها أسرع هذا الرجل إلى الإمام عليه السلام مستفسراً عن الأمر، فحينما مثّل بين يديه بادره الإمام قائلاً: «يا أبا موسى، هذا وجه الرضا». فقلت: ببركتك يا سيّدي.

ولكن قالوا لي: إنَّك ما مضيت إليه ولا سألته! أي: إنَّ الإمام عليه السلام لم يمضِ إلى المتوكِّل ولم يسأله ذلك، فكيف بعث المتوكِّل إلى الرجل رُسْله وطلبه وأغدق عليه بالصَّلَّات وضاعفها له، مع أنَّ الإمام عليه السلام لم يطلب منه ذلك؟!!

وهنا يكمن المقصد التربوي والأخلاقي الذي يُريد الإمام عليه السلام بثِّه إلى شيعته، وذلك من خلال جوابه للرجل بعبارة المهمة، قائلاً له: «إنَّ الله تعالى علم منَّا أنَّنا لا نلجأ في المهمَّات إلَّا إليه، ولا نتوكَّل في الملتَمَّات إلَّا عليه، وعودنا إذا سألناه الإجابة».

هذا هو الدرس التربوي الحسِّي والعملي الذي طبَّقه الإمام الهادي عليه السلام أمام شيعته ليعتبروا به، ويتمسَّكوا به، ويتخذوه منهجاً في حياتهم، أي: إنَّ المتوجَّه بقلب خالص بالدعاء، والمتضرَّع له تعالى أن يُسهِّل الأسباب بمجاوزة المحن والابتلاءات والمشاكل في الحياة الدنيا، فقد علم الله تعالى منه بأنَّ هذا التوجَّه الخالص الصافي له تعالى وحده، فعندما سأله أجاب الدعاء.

فالإمام عليه السلام لا يتوجَّه في المصاعب والملتَمَّات إلى شخص - سواء كان خليفة أم غيره - يطلب منه التدخل في حلِّ هذه الملمَّة أو تلك، وإنَّما يتوجَّه فيها لله وحده لا شريك له، فهو تعالى قاضي الحاجات ومسبِّب الأسباب.

الأسلوب الرابع: الثقة بالله تعالى والتوكِّل عليه

تُعطينا الحادثة المتقدِّمة عن الإمام الهادي عليه السلام درساً تربوياً في كيفيَّة الثقة بالله تعالى والتوكِّل عليه سبحانه، والإمام عليه السلام بدوره يحذِّر شيعته من الخروج عن هذا المضمون التربوي المهم؛ إذ بيده تعالى كلُّ شيء، وهو قادر على كلِّ شيء، فمهما كانت الأمور صعبةً أو معقَّدةً ويعتقد الإنسان بأنَّها لا تُحلَّ ولا علاج لها، فإنَّها على الله تعالى سهلة يسيرة، لذلك يُكمل الإمام عليه السلام كلامه مشيراً إلى هذه الثقة بالله تعالى

والتوكل عليه، قائلاً للرجل: «وَعَوَّدَنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ الْإِجَابَةَ، وَنَخَافُ أَنْ نَعْدَلَ فَيَعْدَلَ بِنَا». أي: نخاف أن نعدل عن هذه العادة فيعدل عنا الله تعالى في جميع هذه الملمات، فإنَّه في جميع الحالات لا نسأل إلا الله تعالى وحده، فإذا عدلنا عن سؤاله، فهو كذلك يعدل عن إجابتنا ودعائنا.

إنَّ هذا المضمون التربوي والأخلاقي الذي ينتهجه الإمام عليه السلام لو طبّقناه في جميع المجالات، لتوصّلنا إلى النتائج الطيّبة المرجّوة من الدعاء والتوكل عليه تعالى في جميع الظروف التي تعصف بنا، والتي احتوشتنا وصبّت علينا وإبلاً من المحن والمصاعب والابتلاءات، إذ قد مرّت بنا في الأعوام السابقة حالات صعبة وقاسية بسبب الظروف التي يعيشها بلدنا، وكادت قد تنزل بنا إلى حرب أهليّة طائفية ربّما إذا نشبت لا تنطفأ نيرانها سنوات من الزمن، وربّما تكبدنا خسائر جسيمة في الأرواح والأموال، ويحلّ بنا الدمار. ولكن بحمد الله وبفضل توجيهات المرجعية الدينيّة العليا، وبفضل وعي أبناء هذا الشعب الصابر الممتحن وتوجّهم بالدعاء والثقة بالله تعالى والتوكل عليه، دفع الله عنا هذا البلاء، وأبعد عنا شبح هذه الحرب.

لذا فإنّ آية شدّة أو آية محنة وبلاء في الحياة يجب أن نواجهها بهذا النهج من سيرة الإمام الهادي عليه السلام، وهو التوكل على الله تعالى والوثوق به والتضرّع بالدعاء إليه تعالى، طالين الإجابة.

وفي الختام لا يسعنا إلا القول: السلام عليك يا مولاي يا أبا الحسن الهادي يوم ولدت، والسلام عليك يوم استشهدت، والسلام عليك يوم تُبعث حيّاً. نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للسير على نهج الأئمة الهداة إلى الله تعالى، وأن يحررنا معهم، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين

الخطبة السادسة والثمانون

اتباع الهوى وطول الأمل

بتاريخ: ١١ / ٧ / ٢٠٠٨ م

التحذير من اتباع الهوى وطول الأمل

➤ الخصلة الأولى: اتباع الهوى

لله أقسام النفس

لله مصاديق اتباع الهوى

➤ الخصلة الثانية: طول الأمل

لله شبهة العمل لأجل الدنيا وردّها

لله علاج حبّ الدنيا والتمسك بها

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه، وبمُحَدَّث خَلْقِهِ على أَزَلِّيَّتِهِ، وباشتباهم على أن لا شَبَهَ له، لا تستلمه المشاعر، ولا تحجُّبُه السَّوَاتِرُ^(١).

والصلاة والسلام على حبيب الله من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله أبي القاسم محمد وعلى آله خير البرية المطهّرين من الرّجس، وعلى أصحابه المتّجّبين الذين تبعوه بإحسان إلى قيام يوم الدين.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأمارة بالسوء - بتقوى الله تعالى، والحذر من اتّباع الهوى وشهوات النفس، والاعتذار بالدنيا وطول الأمل بها.

التحذير من اتّباع الهوى وطول الأمل

يحذّر الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام من خصلتين أخلاقيتين مهمّتين، يجب على الإنسان المؤمن الالتفات إليهما، وهما: اتّباع الهوى، وطول الأمل. وهما من أعظم ما يتخوّف الإمام عليه السلام منه على الإنسان، فقد قال في ذلك: «أيها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتّباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»^(٢).

(١) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٢١١، ج ٢، ص ٣٩-٤٠، الخطبة رقم ١٥٢.

(٢) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٨٣.

وفي المقام نُبَيِّن معنى هاتين الخصلتين - اتِّباع الهوى، وطول الأمل - والآثار المترتبة عليهما؛ وذلك أنَّهما من أعظم الموبقات وأشدَّ المهلكات، ولكونهما كذلك كان خوفه عليه السلام منهما شديداً جداً؛ لما يترتب عليهما من المفاصد الدنيوية والمضارِّ الأخروية.

الخصلة الأولى: اتِّباع الهوى

المراد من اتِّباع الهوى هو ميل النفس الأمارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذات الدنيوية إلى حدِّ الخروج عن قصد الشريعة^(١). وهو جاذب للإنسان عن قصد الحقِّ وملاحظة آثاره، وأقوى صادِّ له عن سلوك سبيله ومشاهدة مناره^(٢).

أقسام النفس

تقسَّم النفس إلى أقسام، منها:

أولاً: النفس الأمارة بالسوء، وهي كما ورد في الآية القرآنية حكايةً عن لسان النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٣).

ثانياً: النفس المطمئنة: وهي كما ورد في الآية الشريفة: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٤).

ثالثاً: النفس اللوامة، وهي كما ورد في الآية الشريفة: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٥).

(١) المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي: ج ٩، ص ٣٩٠.

(٢) الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٠٠.

(٣) يوسف: آية ٥٣.

(٤) الفجر: آية ٢٧.

(٥) القيامة: آية ٢.

ومحلّ الكلام في المقام هو النفس الأمّارة بالسوء^(١)، فإنّ لها طباعاً وميولاً ورغبات تدفع بالإنسان إلى التمسّك بالعقائد الباطلة تارّةً، وإلى الحكم بغير الحقّ أخرى، وإلى ظلم الآخرين ثالثاً، وإلى ارتكاب الشهوات المحرّمة وغيرها من الأمور التي يخرج الإنسان بارتكابها عمّا حدّده له الشارع المقدّس رابعةً.

وفي المقابل وضع الله سبحانه وتعالى - من خلال سنّ القوانين والأحكام الشرعيّة - موازين ومعايير شرعيّة وعقليّة وفطريّة، لها القدرة على التحكّم بإرادة الإنسان واختياره، بحيث لو طبّق الإنسان هذه الموازين لاستطاع السيطرة على

(١) ذكر الشيخ السبحاني أنّ للنفس الإنسانيّة في القرآن الكريم أربعة مراتب؛ هي:

«١- النفس الأمّارة: إنّ النفس بطبعها تدعو إلى مشتبهاتها من السيّئات، فليس للإنسان أن يُبرئ نفسه من الميل إلى السوء، وإنّما له أن يكفّ عن أمرها بالسوء ودعوها إلى الشرّ، وذلك برحمة من الله سبحانه، يقول سبحانه نقلاً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾...»

٢- النفس اللّوامة: النفس اللّوامة وهي الضمير الذي يؤثّب الإنسان على ما اقترفه من السيّئات والآثام، خصوصاً بعد ما يفيق من سكراتها، فيجد نفسه تنحدر في دوامة الندم على ما ارتكبه...»

٣- النفس المطمئنّة: وهي النفس التي توصلها النفس اللّوامة إلى حدّ لا تعصف بها عواصف الشهوة، وتطمئنّ برحمة الربّ، وتحسّ بالمسؤوليّة الموضوعية على عاتقها أمام الله وأمام المجتمع. يقول سبحانه: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾...

٤- النفس الراضية المرضيّة: وهي النفس المتكاملة الراضية من ربّها رضا الربّ منها، واطمئنانها إلى ربّها يستلزم رضاها بما قدّر وقضى تكويناً، أو حكم به تشريعاً، فلا تسخطها مسانحة ولا تريغها معصية...». السبحاني، جعفر، الأقسام في القرآن الكريم: ص ١٢٣ - ١٢٥.

تلك النفس الأمّارة؛ لأنّ الفطرة الإنسانيّة من طبيعتها المراقبة والخوف من عقاب الله تعالى بذكر الموت وذكر الآخرة، فلو وضع الإنسان هذه الموازين أمامه لاستطاع أن يتحكّم بهذه النفس الأمّارة بالسوء، وبالتالي تكون تصرّفات وأفعاله وسلوكه، وأقواله وفق الحقّ، مبتعداً عن اتّباع الهوى.

فالإمام عليه السلام يُعلّل ذلك بأنّ اتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ؛ وذلك لأنّه يوجب صرف النظر إلى الشهوات الدنيويّة - كما ذكرنا - وقصر الهمة في الملذّات، وهو مستلزم للإعراض عن الحقّ.

مصاديق اتّباع الهوى

أولاً: يعلم الإنسان المسلم بأنّ هناك عقائد أساسيّة تُسمّى بأصول الدين، وهي اعتقاده بالتوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد، ولو خُلّي الإنسان هو وموازين عقله وفطرته قبل أن ينظر في الأدلّة الواردة من الشرع المقدّس على ذلك، ولم تتحكّم فيه أهواؤه ورغباته وأمزجته ومصالحه وانفعالاته وغيرها من جنود النفس، لتوصّل إلى الاعتقاد بهذه العقائد الحقّة.

وأما إذا كانت النفس الإنسانيّة بما تحمله من هذه الأمزجة والعواطف والمصالح والرغبات والأهواء والمصالح الدنيويّة الكثيرة - السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها - هي الحاكمة والمتّبعة، بعيداً عن الفطرة والموازين العقليّة، حينئذٍ تتغيّر تلك العقيدة، ويكون الاعتقاد وفق ما تُملّيه عليه هذه النفس.

وهنا قد يقول قائل: نحن نعتقد بالتوحيد، وكذلك نعتقد بالنبوّة والإمامة واليوم الآخر، فما معنى هذا التحذير من اتّباع الهوى؟

وجواب ذلك: إنّّه بالإضافة إلى هذه الاعتقادات الأساسيّة هناك اعتقادات فرعيّة أيضاً مترتبة على تلك العقائد الأساسيّة، وإذا تحكّمت النفس الإنسانيّة وطغت على الإنسان، فربّما لا يعتقد بهذه الاعتقادات الفرعيّة، وحينئذٍ تقع المفاسد.

ومن جملة تلك الاعتقادات الفرعية التي يعتقد بها أتباع أهل البيت عليهم السلام الجزئيات والتفصيلات المتعلقة بعقيدة الإيمان بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام، وكذلك جزئيات الاعتقاد بالإمامة، وكذلك تفريعات العقيدة باليوم الآخر، فإن هذه الاعتقادات الفرعية إذا تحكمت بها النفس وقعت المفاصد العقائدية في أوساط المجتمع المسلم.

ومن جملة الأمور الفرعية المهمة في هذا المجال أيضاً مسألة التقليد، فربما يُقلد الإنسان فقيهاً ويرجع إليه ويتبعه في أموره الشرعية، مع أنه ليس أهلاً للمرجعية الدينية؛ وذلك بسبب رغباته وأمزجته وعواطفه التي تميل به إلى اتباع ذلك الفقيه وتقليده، وليس رجوعه ناشئاً من تحكيم القواعد والضوابط التي وضعها الشارع المقدس لاختيار المرجع الديني الذي تحصل معه براءة ذمة المكلف حين العمل بفتاواه، فإن هناك ضوابط وموازن شرعية في اختيار مرجع التقليد والرجوع إليه.

ثانياً: نصره الباطل وخذلان الحق مصداق من مصاديق اتباع الهوى؛ فإن الصراع بين الحق والباطل مستمر ما دامت الحياة، فهو من الحروب المزمنة التي لا تُفارق الدنيا. فلو فرض أن وقع خلاف بين دولة وأخرى، إحداها على الحق والثانية على الباطل. أو فرض وقوع الخلاف بين جهة مسؤولة وأخرى مثلها، أو حزب وآخر، أو بين إنسان وإنسان آخر، فكان أحدهما محقاً والآخر باطلاً. فإذا أراد الإنسان أن يكون له موقف مع واحدة من الجهتين، أو واحد من الطرفين، فعليه أن يضع أمامه الموازين العقلية والشرعية لكي يكون موقفه هو نصره الحق، أو الميول مع الجهة المحققة، أو نصره من يمثل الحق.

أمّا إذا كان الذي يُحدّد موقفه في النصرة هو ميوله الشخصي، أو مصالحه الشخصية، أو حرصه على الدنيا وملذاتها، أو عواطفه؛ فإنه حينئذٍ سوف يختار

نصرة الباطل وابتعد عن نصره الحق. وهذا من اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء ورغباتها الباطلة؛ فإنها هي التي جعلته يختار هذا الطريق وينصر الباطل ويقدمه على الحق.

ثالثاً: الحكم بالباطل، فإنه أيضاً من مصاديق اتباع الهوى، فلو قُدر لشخص أن يتولّى منصب القضاء - مثلاً - لأهليته لذلك وصلاحيته له، فعليه مراعاة الموازين الشرعية في القضاء بين الناس؛ لكي يكون حكمه حكماً بالعدل، أما إذا تحكّم في موقفه القضائي ميوله وأمزجته وعواطفه النفسية، كأن يميل إلى جهة يشعر بانتفاعه منها، أو خوفاً منها، أو حرصاً على دنياه، أو ما شابه ذلك من الأمور التي تُخرجه عن اتباعه للقوانين الشرعية التي يجب على القاضي اتباعها وتطبيقها، فإنه حينئذٍ سوف يحكم بالباطل؛ ذلك لأنه أتبع إملاءات هوى نفسه، وهو من اتباع الهوى الذي يُشير إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

رابعاً: مواقف الإنسان في سيرته وطريقة معاملته وعيشه مع أفراد أسرته أو المحيطين به، كموقف الحب والبغض، أو موقف العطاء والمنع، أو موقف العدل والظلم، فإن هذه المواقف يجب أن تكون طبق الموازين الشرعية، لا طبق ما يُميله عليه هوى نفسه ورغباته النفسية.

وبعبارة أخرى: على الإنسان أن يوزع حبه أو عطاءه المالي أو عدله على أفراد عائلته أو مجتمعه، سواء في البيت أم في السوق أم في محل عمله، على وفق ما يحكم به العقل والشرع، تاركاً حبه للدنيا وشهواتها وملذاتها جانباً؛ لكي يكون له موقف - في جميع هذه الأمور - محايد غير مخالف للشرع؛ فإنه إذا تحكّمت فيه أهواء نفسه خرجت حينئذٍ هذه المواقف عن حدودها الشرعية، ودخلت في دائرة اتباع هوى النفس، وهو صدود عن الحق الذي يجب أن يتبع.

خامساً: شهوات الدنيا وملذاتها المحرّمة المتنوّعة؛ فإن الإنسان في هذه الدنيا

في معرض الوقوع في حبال الشيطان بإغراءاته المختلفة، فربما تُعرّض على الإنسان معاملة ماليّة باهضة الثمن لكنّها محرّمة، أو ربّما يُعرض عليه منصب أو حظّ من حظوظ الدنيا الكثيرة، لكنّ الطريق إليه غير شرعي، أو يكون منشأً للحرام. وهنا يجب على الإنسان أن يقف موقف الشجاع الصلب في قبول مثل هذه العروض أو رفضها، فإذا تمسّك بميزان العقل والشرع فسوف يمتنع عنها، لكنّه إذا ترك ذلك الميزان وجعل أمره بيد هوى النفس وشهواتها ورغباتها وميولها؛ فإنّه حينئذٍ سوف يقع في الحبال الشيطانيّة والشهوات المحرّمة، ويكون بذلك متّبعاً هوى نفسه وصاداً عن اتّباع الحقّ.

إنّ ما تقدّم كان جملةً من مصاديق اتّباع الهوى، وهي كثيرة جدّاً في الحياة، فعلى الإنسان في مسيرته الحياتيّة أن يُحكم تصرّفاته وسلوكه وأقواله في كافّة مجالات الحياة، وأن تكون كلّها طبق الموازين الشرعيّة والعقليّة؛ فإنّ الإنسان في هذه الحياة معرّض لكثير من الشهوات الدنيويّة المختلفة الطرق، المتّحدة المصير الذي هو خروج الإنسان من دائرة اتّباع الحقّ وانجذابه نحو اتّباع هوى النفس، وهو صدود عن الحقّ واتّباع للباطل، ونتيجة كلّ ذلك هي هلاك الإنسان في الدنيا والآخرة؛ لذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ أعظم شيء أخاف منه عليكم هو اتّباع هوى النفس الذي يؤدّي إلى الصدود عن الحقّ.

ولو تأملنا في بعض الآيات القرآنيّة الكريمة لوجدناها تُشير إلى هذا المعنى الذي ذكره الإمام عليه السلام، والذي هو منتشر في مفاصل الحياة كما ذكرنا. فمن جملة ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، فإنّ هذه

دعوة للقضاة في تحكيم الموازين الشرعية في قضائهم وإصدار أحكامهم بين الناس، لا أن يتبعوا هوى النفس^(١).

ومن جملة ذلك أيضاً الآية الشريفة: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾^(٢)، أي: لا تتبعوا هوى النفس وشهواتها وميولها؛ لأنها بعيدة عن الهوى الإلهي، ومعناه فلا تتبعوا الهوى من مخافة أن تعدلوا عن الحق، الذي هو أعم من الحكم في باب القضاء؛ فإن الحق في كافة المجالات التي ذكرناها آنفاً^(٣).

الخصلة الثانية: طول الأمل

الأمر الثاني الذي يتخوف منه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على الإنسان هو طول

(١) ورد في تفسير هذه الآية الشريفة: «على كل عالم أن يقضي ويفتي بالحق، وإلا شمله الحساب الدقيق العسير، والعذاب الشديد الأليم، ولا فرق بين حاكم وآخر...». مغنية، محمد جواد، التفسير المبين: ص ٦٠٠.

وقال السيد الطباطبائي: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَّ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: العطف بينه وبين ما قبله يُعطي أن المعنى ولا تتبع في قضائك هوى النفس، فيضلك عن الحق الذي هو سبيل الله، فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق.

قال بعضهم: إن في أمره عليه السلام بالحكم بالحق أو نهيه من اتباع الهوى تنبيهاً لغيره ممن يلي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطل، وإلا فهو عليه السلام من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق، ولا يتبع الباطل». الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٧، ص ١٩٥.

(٢) النساء: آية ١٣٥.

(٣) ورد في تفسير هذه الآية: «والمعنى على هذا أنكم تصيرون من أهل العدل بترك الهوى ومخالفته. وقيل: التقدير كراهة أن تعدلوا، أي: إنكم تتبعون الهوى كرهاً بالعدل، وإن الله نهاهم عن ذلك. والأول أقرب». مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف: ج ٢، ص ٤٦٠.

الأمل. ويجب أن نعرف المقصود به، أو المراد منه، وما هي أسبابه؟ وكيفيّة علاجه. معنى طول الأمل هو أن يعتقد الإنسان ببقائه في الحياة الدنيا مدّة طويلة^(١)، وهذا بالتأكيد يصاحبه حبّ ورغبة في التمتع والتلذّذ بجميع ملذّات الدنيا من المال والأولاد والشهوات، وهذا ما يكشف عنه كدحه وعمله واهتمامه بأمور الدنيا ونسيانه الأمور الشرعيّة؛ فإنّ هذا لسان حال يُعبّر عن حبّه ورغبته واعتقاده بطول بقاءه في هذه الدنيا.

وعلى العكس من هذا قصر الأمل، وهو أن يعتقد الإنسان أنّ مدّة بقاءه في الحياة الدنيا مدّة قصيرة، وعليه فلا يُصاحبه هذا الاعتقاد وذلك الحبّ وتلك الرغبة بالتلذّذ والتمتع في ملذّات الحياة وشهواتها، وإنّما يكون عمل الإنسان الذي لديه مثل هذا الاعتقاد على توظيف تلك المدّة القصيرة في طاعة الله تعالى والتقرّب إليه بشتّى أنواع التقرّب، بفعل الخيرات وعمل الطاعات، ويسعى جاهداً من أجل تحقيق هذا التقرّب الإلهي.

ولقد حذّر الإمام عليه السلام من طول الأمل؛ والسبب في ذلك أنّه يُنسي الآخرة؛ لأنّ طول الأمل - كما ذكرنا - معناه توقّع أمور محبوبة دنيويّة؛ وذلك يوجب دوام

(١) يقول الهاشمي الخوئي في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «والمراد بالأمل تعلّق النفس بحصول محبوب في المستقبل، ويرادفه الطمع والرّجاء، إلّا أنّ الأمل كثيراً ما يُستعمل فيما يُستبعد حصوله، والطمع فيما قرُب حصوله، والرّجاء بين الأمل والطمع. وطول الأمل عبارة عن توقّع أمور دنيويّة يستدعى حصولها مهلةً في الأجل وفسحةً من الزمان المستقبل». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

ملاحظتها، وهذا يستلزم إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة؛ لانمحاء تصورها في الذهن، وذلك معنى النسيان لها^(١).
وبعبارة أخرى: إذا أحبَّ الإنسان شيئاً رغب ألاَّ يفارقه؛ لتعلقه الشديد به، بحيث يصعب عليه الانفكاك عنه، فإذا أحبَّ الإنسان ملذات الدنيا وشهواتها تُصبح لديه الرغبة الشديدة بعدم معارضتها؛ الأمر الذي ينسى معه آخرته.

شبهة العمل لأجل الدنيا وردّها

قد يخطر في الذهن بأنّ الاعتقاد بقصر الأمل في الدنيا وقصر مدّة العيش فيها ينافي بعض الآيات والأحاديث التي تأمر بالعمل في هذه الدنيا وترشد الإنسان نحو إعمار الأرض، وأن يُحسّن من واقعه المعيشي والاقتصادي والاجتماعي فيها؛ لأنّ ذلك يناسب من يرجو البقاء في هذه الدنيا مدّة طويلة.
وجواب ذلك: إنّ هذا العمل في الدنيا لا يتنافى مع قصر الأمل إذا كان بخطط قريبة أو متوسطة البعد؛ لا ما إذا كانت بعيدة المدى، هذا إذا كان لصالح الإنسان نفسه، مع حثّ النفس في الوقت نفسه على الزهد في هذه الدنيا؛ إذ يجب على الإنسان أن يعتقد في نفسه أنّ أجله قريب منه دائماً، فلربّما بعد دقيقة أو دقائق يكون جسداً بلا روح قد فارق الحياة وأصبح جنازةً محمولةً إلى مثواه الأخير.
وأما إذا كان لصالح المجتمع فإنّ الشريعة الإسلامية تدعو إلى العمل مع وضع الخطط التي تفيد عمارة الأرض؛ لتطوير المجتمع وتحسين الواقع المعيشي والاقتصادي للمجتمع بصورة عامّة.

علاج حبّ الدنيا والتمسك بها

هناك حالة منتشرة في الأوساط الاجتماعية التي نعيشها، وهي عندما تتقدّم

(١) أنظر: الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٠١.

بالنصيحة لأحدهم مرشداً له بأن يؤدّي ما عليه من حقوق شرعية لله تعالى، أو بأن يؤدّي ما عليه من واجبات وطاعات إلهية كانت قد فاتته وهو غير مهتمّ بها، أو تذكّره بحقوق الناس، أو تُرشده إلى فعل الخيرات التي ينال الثواب بفعلها، يتدرّع بذرائع دنيوية غير مهتمّ بما تنصحه به .

إنّ ممّا يدور في أذهان بعض الناس أفكار تكشف عن تمسّك أمثال هؤلاء بالدنيا والحرص عليها، من قبيل أن يقول بعضهم: أنا الآن أعيش فترة شبابي وأريد أن أكوّن نفسي، أبنياً بيتاً، اشترى ما أحتاج إليه من مستلزمات الحياة، أسعى في زواج أولادي، أنا مشغول في إجهاد نفسي من أجل الوصول إلى المنصب الفلاني، أو أن أحصل على الشهادة، أسعى من أجل أن أحمق أحلامي، وغيرها من الأمور المتعلقة بالدنيا البعيدة عن التفكير بالعمل للأخرة، الأمر الذي ينسى معه الإنسان أنّ الموت قريب منه، وبالتالي لا يفكر بذنوبه ومعاصيه وآثامه، ولا يسعى للتوبة منها، بانياً على اعتقاده بأنّه سوف يعيش فترةً طويلةً في هذه الحياة، وبعد إكمال مشاريعه الدنيوية يرجع إلى ربّه بالتوبة وتكفير الذنوب .

إنّ مثل هذا تصوّر هو شعور واهم وخاطيء؛ لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يحدّد يوم أجله وانقضاء حياته وعمله في هذه الدنيا، فربّما يداهم الموت في آية لحظة من لحظاته، فيحلّ به الموت فجأة وعلى حين غفلة دون إنذار مسبق، وبذلك ينقطع عن الحياة، وتفوته فرصة التوبة والرجوع إلى الله، وحينها يندم يوم الحساب أشدّ الندم على ذلك؛ لأنّه لا يستطيع أن يتدارك في ذلك الموقف الأخروي ما صدر منه من آثام وذنوب، ولا يستطيع تدارك ما فاتته من طاعات وحقوق لله تعالى وعباده .

إذاً هذه الحياة الدنيا هي فرصة للمسلم عليه أن يستغلّها؛ ليجعلها نوعاً من السعادة وطريقاً للنجاة قبل أن يحلّ به الموت، وعندها يفقد كلّ شيء.
وهناك مجموعة من العلاجات للحدّ من هذه الظاهرة - التي تراود الكثير من المسلمين وإن لم يقولوها بألسنتهم، لكنّه واقع حال يعيشه أغلبهم، وهو طول الأمل - نستعرض منها:

أولاً: التأمل في أحوال الدنيا وتقلّباتها السريعة، فهي سرعان ما تتحوّل بالإنسان من حال إلى حال أخرى، فكم من إنسان يتمتّع بالقوّة والنشاط والصحة نراه قد أصبح جثةً محمولة إلى مثواها الأخير، وكم من إنسان غني مترف يفتقر فجأةً بضيايح جميع ما يملكه من المال أو بتلفه مثلاً، وكم من عزيز بين أهله وقومه يُهان ويذلّ! فهذه الدنيا تتغيّر وتتبدّل وتتحوّل، لهذا يجب التدبّر فيها وفي تحولاتها، وأخذ العظة والاعتبار منها.

ثانياً: التفكير بالموت واستشعار حالته، وخاصّةً عندما يكون الإنسان في مجلس العزاء، فإنّ عليه أن يعيش حالةً من الشعور بأنّ الموت قريب منه، الأمر الذي يشغله عن التفكير بالدنيا وملذّاتها، ويشدّه نحو العمل لآخرته.
إنّ من الصفات الإيمانية التي يحثّ عليها الإمام الصادق (عليه السلام) هي هذه الصفة التي يتضمّنّها الحديث الوارد عنه، يقول (عليه السلام): «إذا أنت حملت جنازةً فكن كأنك أنت المحمول»^(١)؛ فإنّ الإمام (عليه السلام) يريد من المسلم أن يعيش هذه الفكرة دوماً، يعيش هذا

(١) عن عجلان أبي صالح، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): «يا أبا صالح، إذا حملت جنازةً فكن كأنك أنت المحمول، أو كأنك سألت ربّك الرجوع إلى الدنيا لتعمل، فانظر ماذا تستأنف». قال: ثم قال: «عجباً لقوم حبس أوّهم على آخرهم، ثم نادى منادٍ فيهم بالرحيل وهم يلعبون!». الكوفي، حسين بن سعيد، الزهد: ص ٧٧ - ٧٨.

الشعور والتصور، بأنّ الموت محيط به، قريب منه، سرعان ما يحلّ به، لذا فليفرض الإنسان المشيّع للجنّاة أو الحامل لها بأنّه هو المحمول، أو هو المشيّع، فلا يتحدّث بأُمور الدنيا وشهواتها ولذّاتها، وإنّما يكون حديثه أن يسأل الله تعالى الرجوع إلى الدنيا ليستأنف فيها العمل الصالح، عمل الخيرات، أداء الطاعات والقربات، ويكون تفكيره في كيفيّة تدارك المعاصي والذنوب التي اقترفها ومحوها من صحيفة أعماله، تداركها بالتوبة والعودة إلى الله تعالى والتحلّل من حقوق الآخرين؛ كي يُغادر هذه الحياة وهو في حال يُطمأنّ معها بنجاته وفوزه في الآخرة.

وبعبارة أخرى: إنّ في حضور تشييع الجنّاة، وحضور دفن الميتّ عبرةً لمعتبر، تجعل من الإنسان ألا يفكّر بطول الأمل ونسيان الآخرة، وإنّما تجعل كلّ تفكيره ينصبّ على أن يتصوّر نفسه بأنّه سوف يُرمى في قبره ويُهال عليه التراب ويُغطّى قبره، يفكّر في وحشة القبر وظلمته وغربته وضيقه، يفكّر في عالم البرزخ وما فيه من المساءلة والحساب وأحوالهما، فيبدأ بمحاسبة نفسه واستحضار ذنوبه ومعاصيه، حتى يطرح الفكرة المناسبة لتوبته والرجوع إلى الله عزّ وجلّ والتوجّه إليه.

إذاً تذكّر الموت واستحضار الآخرة دافع قوي نحو التوبة، التي هي بدورها تستلزم أداء الواجبات والطاعات وفعل القربات والخيرات، والابتعاد عن الشهوات والمحرمات.

لذا يجعل الأئمّة عليهم السلام من خلال وصاياهم هذا العلاج للقضاء على فكرة التمسك بالدنيا وطول الأمل في العيش فيها؛ وذلك من خلال طرحهم الكثير من الأحاديث المختلفة الألفاظ من أجل إيصال هذا العلاج، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله حديثاً يحمل المضمون نفسه لكنّه بألفاظ أخرى تعبّر عن هذا المعنى، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيّها

الناس، أما تستحيون من الله؟! قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأمّلون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تعمرون^(١).

إنّ هذا الحديث النبوي ينطبق على واقعنا المعاصر، فكأنّ رسول الله ﷺ يُخاطبنا عندما يقول: «أيّها الناس...»، فإنّ ما يفعله الناس اليوم من أمور كثيرة بعيدة كلّ البعد عن طاعة الله والتفكير بآخرفته وعقوبته، وهي أمور تفقدنا الحياء من الله تعالى؛ فإنّ كلّ ما بوسع الإنسان اليوم العمل على إشباع ملذّاته الدنيويّة، فيسرع في بناء البيوت وجمع الأموال آملاً أن يعيش في الدنيا طويلاً، مع أنّ الله عزّ وجلّ رسم للإنسان طموحين وأملين، أوّلهما يُفنى ولا قيمة له، والثاني ليس بفانٍ، وهو المرجو، أمل الدنيا ومتاعها الفاني الذي لا يساوي شيئاً، وأمل الآخرة الذي هو حياة بلا موت، وصحّة بلا سقم، وغنى بلا فقر، وحياة مليئة بالملذّات والشهوات المتنوّعة. فعندما يتعلّق الإنسان بالأمل الأوّل، ويترك الأمل الثاني، يفقد حيائه أمام الله تعالى الذي وفّر له ما يمكنه من الوصول إلى الأمل الثاني، وهي الحياة الدائمة.

إنّ الإنسان لا يستحي من الله حينما يعده الله تعالى بالقصور الفارهة، والبساتين والحدائق النضرة، والخور العين، وغيرها من نعم الجنّة التي لا تُعدّ ولا تُحصى، فيترك الإنسان كلّ هذا ويتعلّق بالدنيا ويجهّد نفسه من أجل حطامها، مبتعداً عن الله تعالى وما وعده به في الآخرة.

فما على الإنسان إلّا الاتّعاظ بما يقوله النبي ﷺ والأئمّة من أهل بيته وتطبيقه؛ لأجل الفوز بالآخرة والخروج من حالة عدم الاستحياء من الله تعالى. والحمد لله ربّ العالمين.

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيثار: ج ٧، ص ٣٥٤: «... عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أمّ المنذر، قال: اطّلع رسول الله ﷺ ذات عيشة إلى الناس، فقال: أيّها الناس، أما تستحيون الله...».

الخطبة السابعة والثمانون

دروس في التعايش الاجتماعي من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام

بتاريخ: ١٨ / ٩ / ٢٠٠٨ م

﴿استذكار سيرة أمير المؤمنين عليه السلام والاقتداء بها

﴿ منقبة الإيمان

﴿ محاور التعايش الاجتماعي في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام

﴿ المحور الأول: قاعدتا التعامل الاجتماعي

- القاعدة الأولى: المائلة الإنسانية

- القاعدة الثانية: ميزان النفس

﴿ المحور الثاني: الرعاية الاجتماعية

﴿ قصّة وعبرة

المحطة الأولى: استشعار الرحمة

المحطة الثانية: استحضار السؤال يوم القيامة

المحطة الثالثة: إظهار المواساة الواقعية

المحطة الرابعة: العفو عن الإساءة

المحطة الخامسة: رضا الله تعالى

﴿ مناشدة

﴿ المحور الثالث: الحلم والصفح

مقدمة الخطبة^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمدُ لله الذي هدانا لهذا الحمد، وجعلنا من أهله... وسبّلنا في سبيل إحسانه لنسلکها بمنّه إلى رضوانه، حمداً يتقبّله منا ويرضى به عنا»^(٢).
والصلاة والسلام على أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأتّارة بالسوء - بتقوى الله والورع عن محارمه.

استذكار سيرة أمير المؤمنين عليه السلام والاقتداء بها

مرّت علينا في يوم أمس الذكرى الميمونة والمباركة لولادة وليد الكعبة، وسيد الوصيّين، وإمام المتّقين، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وبهذه المناسبة نتوجّه بأجمل التهاني والتبريكات لسيدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد، ولأهل بيته الأطهار عليهم السلام، ولمراجعنا العظام؛ وللأمة الإسلامية وأبنائها جميعاً.

وهنا نطرح السؤال التالي: إذا أردنا أن نحتفل بذكرى ولادة أمير المؤمنين عليه السلام ونُحييها الإحياء الحقيقي الذي يُحبّه أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت الأطهار عليهم السلام،

(١) صادف أن أُلقيت هذه الخطبة في الرابع عشر من شهر رجب الأصبّ عام ١٤٢٩ هـ؛ أي: بعد

مرور يوم واحد على مناسبة الذكرى الميمونة لولادة أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) الصحيفة السجّادية: ص ٢٠٩.

وإذا أردنا أن نعيش حياةً تُشبه حياة الأنبياء، فماذا علينا أن نفعل؟ وكيف نحتفل ونُحيي هذه الذكرى المباركة؟

والجواب: إنّه من البديهي في بداية الأمر يكون مقتضى الإحياء في هذه المناسبات هو ذكر شيء من فضائل ومناقب ومنزلة صاحب الذكرى، والتعريف به، وذكر قبساتٍ من حياته وسيرته المباركة.

لكنّ الإحياء الحقيقي لمثل هذه المناسبات لا يكمن في هذا الأمر فقط؛ فإنّ إقامة المجالس، وإطعام الطعام، وادّعاء الولاية لأمر المؤمنين عليه السلام والعتر الطاهرة، دون تطبيق مستلزمات هذا الادّعاء، لا يخرج عن مجرد ادّعاء، ولا يدخله في دائرة الولاية الحقيقيّة والاتباع الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ الشيء الأهمّ من ذلك كلّهُ هو التذكير بسيرتهم العطرة، والحثّ على الاقتداء بها، وذلك باستذكار صفاتهم ومواقفهم وتطبيقها في الحياة، أي: نحمل أنفسنا على اقتفاء آثارها؛ فإنّ هذا الأمر هو الذي يقربنا من صاحب الذكرى، وهو الشيء الذي يُريده منّا، وبه يمكن أن نُطلق علينا التسمية بالشيعة والأتباع والموالين لأهل البيت عليهم السلام.

لذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَى حَيَاةً تُشَبِّه حَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَمُوتَ مَيِّتَةً تُشَبِّهُ مَيِّتَةَ الشَّهَدَاءِ، وَيَسْكُنَ الْجَنَّةَ الَّتِي غَرَسَهَا الرَّحْمَنُ، فَلْيَتَوَلَّ عَلِيًّا، وَلْيُوَالِ وَلِيَّهٖ، وَلْيَقْتَدِ بِالْأَثَمَةِ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَإِنَّهُمْ عَتَرَتْنِي خُلُقُوا مِنْ طَيِّبَتِي»^(١).

والاقتداء بالأئمة عليهم السلام ومولاتهم معناه الاتّصاف بصفاتهم واقتفاء أثرهم والسير طبق منهجهم وسلوكهم، فإذا تحقّق من المؤمن هذا المعنى يصدق عليه أنّه قد جعل الأئمة عليهم السلام قدوته، ورزق حياةً تُشبه حياة الأنبياء، وميِّتةً تشبه، وميِّتةً تشبه ميِّتة الشهداء، وصدقت عليه الولاية الحقيقيّة.

(١) ابن بابويه القمي، عليّ بن بابويه، الإمامة والتبصرة: ص ٤٥، ح ٢٧.

وبعد أن عرفنا عمق الإجابة عن السؤال حول كيفية إحياء المناسبات المتعلقة بأهل البيت عليهم السلام، ننطلق لنبحر في بحر سيرة أمير المؤمنين عليه السلام العميقة؛ لنستلهم منها بعض الملامح المتعلقة بالتعايش الاجتماعي، وذلك من خلال الاطلاع على سلوكه وأفعاله وأقواله في هذا المعنى؛ لنحمل أنفسنا على الاقتداء بها، الأمر الذي ندخل به السرور على قلبه عليه السلام، ونكون به من الموالين الحقيقيين له.

وقبل الخوض في ذلك لا بأس بذكر منقبة وفضيلة تبين عظيم منزلة أمير المؤمنين عليه السلام.

منقبة الإيمان

جاء في رواية عن عمر بن الخطاب بحق إيمان عليّ بن أبي طالب عليه السلام ما نصّه:

«أشهد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسمعته وهو يقول: لو أنّ السماوات السبع والأرضين السبع وضعن في كفة ميزان، ووضع إيمان عليّ في كفة ميزان، لرجح إيمان عليّ»^(١).

(١) الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب: ص ١٣١، ح ١٤٦. البحراني، هاشم، حلية الأبرار: ج ٢، ص ٦٧، ح ١١. القاضي أبو حنيفة المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار: ج ٢، ص ٣٢١ - ٣٢٢. ونصّ الرواية في الأخير هكذا: «مصلحة بن عبد الله، عن أبيه، قال: جاء رجلان إلى عمر بن الخطاب فسألاه عن طلاق العبد للأمة، فمضى بها إلى حلقة فيها أمير المؤمنين عليّ صلوات الله عليه، فقال له: ما طلاق العبد للأمة؟ فأشار إليه بإصبعه المسبحة والتي تليها. فقال للرجلين: تطليقتين. فقال له أحدهما: سبحان الله! جئناك وأنت أمير المؤمنين نسألك، فجئت إلى رجل فسألته وأجبنا ما أفتاك به؟! قال عمر: ويلك، أتدري من ذلك الرجل؟ هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لو أنّ السماوات والأرض وضعتا في كفة ميزان، ووضع إيمان عليّ في كفة أخرى، لرجح إيمان عليّ».

إنَّ رجحان كفة إيمان عليٍّ عليه السلام يُراد به التعبير عن العظمة والرفعة والسمو الذي بلغه الإمام عليه السلام، فالرواية تُبين المنزلة الرفيعة لعليٍّ عليه السلام ومعرفته بالله تعالى، وصُلب إيمانه به، وقوّة اعتقاده وإخلاصه له تعالى، الأمر الذي يكشف عن الثقة المطلقة التامة بالله تعالى، وتوكله عليه في كلّ شيء.

محاور التعايش الاجتماعي في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام

عمل الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام على تكريس التعايش بين أبناء الأمة الإسلامية من خلال زرع وتأسيس مقوماته، وممارسة ذلك عملاً، راسماً بذلك منهجاً للأجيال من بعده، بعد إن كان هو المثل الأعلى في ذلك خلال مواقفه التي أبدّاها في سيرته التي أوضحت سبيل التواصل والتوافق بين أبناء الأمة.

وما أحوجنا اليوم - وفي ظلّ الظروف الراهنة الصعبة التي نعيشها - إلى تطبيق هذا المنهج والافتداء به، والسير على خطّه من أجل الخروج من دائرة الواقع الصعب إلى الحياة الأفضل.

وفي المقام نستعرض ثلاثة محاور رئيسية نستلهمها من سيرة الإمام عليه السلام تكفل لنا التعايش الاجتماعي الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يؤسّس له.

المحور الأول: قاعدتنا التعامل الاجتماعي

التعامل الاجتماعي خُلِق، وكلّما كان هذا التعامل مبنياً على أسس وقواعد تضبطه، يُعدّ بذلك خُلُقاً رفيقاً، لذا وضع الإمام عليٍّ عليه السلام قاعدتين أساسيتين لهذا التعامل الاجتماعي بين شرائح المجتمع وإن اختلف أبنائه في العقيدة أو الدين.

القاعدة الأولى: المماثلة الإنسانية

إنّ من جملة ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تصنيف الناس، قوله في عهده إلى

مالك ابن الأشرر النخعي حينما ولّاه على مصر وأعمالها: «... ولا تكوننّ عليهم سبُعاً ضارياً، تغتنم أكلهم؛ فإنهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»^(١).

والفقرة الثانية تهتمّ ببيان المماثلة في الإنسانيّة، أي: تُبيّن أساس التعامل مع الناس الآخرين الذين لا يشتركون مع المسلمين في الدين والمذهب والعقيدة؛ فإنّ الناس يشبه بعضهم بعضاً، فهذا الصنف هو إنسان أيضاً، تقتضي رقة الجنسيّة وطبع البشريّة الرحمة له، مع قطع النظر عن الدين والمذهب، فهو مماثل ونظير في الإنسانيّة، وله حقوق على غيره بما هو إنسان، لذا يجب مراعاة تلك الحقوق وصونها واحترامها والعمل على تطبيقها، ومن تلك الحقوق حُسن المعاملة معه واحترام شخصيّته وعدم بخسه حقّه، فالواجب على المسلمين أن يجذبوا بسيرتهم وأخلاقهم كلّ إنسان وإن لم يكن مشاركاً لهم في دينهم؛ لأنّه مشارك لهم في إنسانيّتهم وخلقهم.

القاعدة الثانية: ميزان النفس

لقد اعتمد أمير المؤمنين عليه السلام على النفس من أجل الوصول إلى معرفة التعامل الاجتماعي، فجعل النفس هي الميزان في ذلك، فقد خاطب ولده الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بقوله: «اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك، فأحب له ما تحبّ لنفسك، واکره له ما تكره لها»^(٢).

(١) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٤٢٧، الكتاب رقم ٥٣، وهو كتابه للأشتر النخعي لما ولّاه مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمّد بن أبي بكر، وهو أطول عهد كتبه، وأجمعه للمحاسن، وقد اقتصرنا على ذكر موضع الشاهد منه.

(٢) المجلسي، محمّد تقي، روضة المتّقين: ج ١٣، ٨٤. وهو مقطع من وصيّة طويلة للإمام عليه السلام، نافعة

وضع الإمام عليه السلام في هذا المقطع الشريف من كلامه طريقةً سهلةً في التعامل الاجتماعي، وهي وجود معايير وموازين داخل كل نفس إنسانية تُعينه على معرفة حقوق الآخرين، دون الرجوع إلى البحث عن ذلك في بطون الكتب، أو إجهاد النفس من أجل تعلّمها من الآخرين، وهي طريقة الرجوع إلى النفس؛ فإنّ كلّ إنسان يرى في نفسه أنّ شخصيّته الاجتماعية يجب أن تُحترم خارجاً، وتُحفظ وتُصان كرامته أيضاً، فهو لا يرضى بالتعرّض إلى الطعون والافتراءات، ويرى أنّه يُحبّ الخير لنفسه، ويكره لها الشرّ، ويكره أن يغتابه أحد، أو يتّهمه أحد، أو يُنتقص منه، أو يهتكه أحد، وهو يرى أنّه يُحبّ الخير لنفسه، ويُحبّ كسب المال، وهكذا يرى الإنسان أنّ نفسه تميل وتُحبّ أشياء وتكره أشياء. وهذه الأمور النفسانية يجب أن يلحظها الإنسان عند الآخرين، ويُجب مدارتها ومراعاتها، من أجل أن يحرص على تطبيق التعامل الاجتماعي الذي يحبّه أمير المؤمنين عليه السلام ويرضاه، وذلك من خلال الرجوع إلى النفس وملاحظة ما تُحبّ من أمور فليُحبّها للآخرين أيضاً، وما تكره أن يُصيّبها فليكره الإنسان ذلك للآخرين أيضاً.

وبعبارة أخرى: إذا ارتضت نفس الإنسان شيئاً ما من قول أو فعل، فلترضه للآخرين أيضاً، وليفعله لهم، وإن رفضته نفسه، فليتجنّب ولا يرضى عمله للآخرين.



كثيرة الفوائد، مشتملة على مصالح الدين والدنيا، إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام، وفيها: «يا بني، اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك، فأحب له ما تُحبّ لنفسك، واکره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبّ أن تُظلم، وأحسن كما تُحبّ أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وأرض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك».

المحور الثاني: الرعاية الاجتماعية

لقد اهتمَّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بمسألة رعاية الفقراء والمحرومين والمستضعفين والأيتام اهتماماً بالغاً، فقد كان يُنفق في ذلك وقتاً طويلاً كما تكشف القصة التالية هذا المعنى الذي يُبين كيفية معاملة الإمام علي عليه السلام معهم.

قصة وعبرة

ينقل التاريخ في هذا الصدد حادثة هي عبرة لكل راعٍ يكون في عنقه رعاية مجموعة من الناس، وهذه الحادثة كانت أيام خلافة الإمام أمير المؤمنين، وقعت مع امرأة أرملة قُتل زوجها في أحد ثغور الدولة الإسلامية في زمن أمير المؤمنين عليه السلام مع أعدائه، ونحن سوف نتوقف قليلاً عند سرد كل مقطع منها؛ لأجل استلھام الدروس التربوية التي تحويها:

كان أمير المؤمنين عليه السلام في أحد الأيام ماراً في أحد، الطرق فنظر «إلى امرأة تحمل على كتفها قربة ماء، فحملها معها إلى موضعها، وسألها عن حالها؟ فقالت: بعث علي بن أبي طالب صاحبي إلى بعض الثغور، فقتل وترك علي صبيانا يتامى، وليس عندي شيء، فقد ألجأتني الضرورة إلى خدمة الناس»^(١).

(١) أورد ابن شهر آشوب في المناقب ما يلي: «ونظر علي إلى امرأة على كتفها قربة ماء، فأخذ منها القربة، فحملها إلى موضعها، وسألها عن حالها؟ فقالت: بعث علي بن أبي طالب صاحبي إلى بعض الثغور، فقتل وترك علي صبيانا يتامى، وليس عندي شيء، فقد ألجأتني الضرورة إلى خدمة الناس. فانصرف وبات ليلته قلقاً، فلما أصبح حمل زنبيلاً فيه طعام، فقال بعضهم: أعطني أحمله عنك. فقال: مَنْ يحمل وزري عني يوم القيامة؟. فأتى وقرع الباب، فقالت: مَنْ هذا؟ قال: أنا ذلك العبد الذي حمل معك القربة، فافتحي؛ فإنَّ معي شيئاً للصبيان. فقالت: رضي الله عنك،

إنّ هذه المرأة الأرملة قد فقدت زوجها ومعينها على الحياة، ويظهر من خلال أحداث القصّة أنّها كانت بحاجة إلى العمل لتقتات من أجرته؛ لتوفير لقمة العيش لها ولأولادها اليتامى، فألجأتها الضرورة والحاجة إلى حمل قرب الماء ونقله إلى الناس وخدمتهم مقابل تعاطي شيء من الأجر. وكانت هذه المرأة لا تعرف أنّ الذي ساعدها في حمل القربة وسأهاها عن حالها هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

تقول الرواية: «فانصرف وبات ليله قلقاً، فلما أصبح حمل زنبيلاً^(١) فيه طعام، فقال بعضهم: أعطني أحمله عنك. فقال: من يحمل وزري عني يوم القيامة؟».

لقد بات أمير المؤمنين عليه السلام تلك الليلة قلقاً يفكر بقلب رحيم حنون عطوف على تلك الأرملة، وعندما أصبح حمل شيئاً من الطعام، وتوجّه إلى دار تلك المرأة وأطفالها، وقد أراد بعض الناس أن يُساعده في حمل الزنبيل - باعتباره قائد الدولة



وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب. فدخل وقال: إني أحببت اكتساب الثواب، فاختاري بين أن تعجني وتخزي، وبين أن تُعلّي الصبيان لأخبز أنا. فقالت: أنا بالخبز أبصر وعليه أقدر، ولكن شأنك والصبيان، فعللهم حتى أفرغ من الخبز. فعمدت إلى الدقيق فعجنته، وعمد عليّ إلى اللحم فطبخه وجعل يُلقم الصبيان من اللحم والتمر وغيره، فكلّموا ناول الصبيان من ذلك شيئاً قال له: يا بني، اجعل عليّ بن أبي طالب في حلّ ممّا مرّ في أمرك. فلما اختمر العجين قالت: يا عبد الله، سجّر التنور، فبادر لسجره، فلما أشعله ولفح في وجهه جعل يقول: ذُق يا عليّ، هذا جزاء من ضيّع الأرامل واليتامى. فرأته امرأة تعرفه، فقالت: ويحك! هذا أمير المؤمنين. قال: فبادرت المرأة وهي تقول: واحياي منك يا أمير المؤمنين. فقال: بل واحياي منك يا أمة الله فيما قصّرت في أمرك». ابن شهر آشوب، محمّد بن عليّ، مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٨٢.

(١) «الزبيل والزنبيل: الجراب، وقيل: وعاء يُحمل فيه، فإذا جمعوا قالوا: زناويل». ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب: ج ١١، ص ٣٠٠ - زبل.

وحاكمها - لكنّه رفض ذلك؛ لأنّه عليه السلام كان يستحضر أثقاله وأحماله يوم القيامة، وقال بطريقة استفهاميّة رافضة لما طلبه منه: مَنْ يحمل وزري عني يوم القيامة؟! تقول الرواية: «فأتى وقرع الباب، فقالت مَنْ هذا؟ قال: أنا ذلك العبد الذي حمل معك القربة، فافتحي؛ فإنّ معي شيئاً للصبيان». فقالت: رضي الله عنك، وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب».

لعلّ شدّة فقر هذه المرأة وحاجتها للمساعدة دفعتها لأن تدعو الله تعالى للشخص الذي حمل لها المساعدة وهي لا تعرفه، وهي في الوقت نفسه كانت تُشعر بأنّ عليّ بن أبي طالب كان سبباً في قتل زوجها وذهابه إلى الحرب؛ فلذلك كانت تقول: «وحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب»، وكان الإمام عليه السلام يسمعها، لكنّه لا يردّ عليها.

تقول الرواية: «فدخل وقال: إني أحببت اكتساب الثواب، فاختاري بين أن تعجني وتخبرني، وبين أن تُعلّلي الصبيان لأخبر أنا. فقالت: أنا بالخبز أبصر وعليه أقدر، ولكن شأنك والصبيان، فعلّهم حتى أفرغ من الخبز. فعمدت إلى الدقيق فعجنته، وعمد عليّ إلى اللحم فطبخه، وجعل يُلقم الصبيان من اللحم والتمر وغيره، فكلّمنا ناول الصبيان من ذلك شيئاً قال له: يا بني، اجعل عليّ بن أبي طالب في حلّ ممّا مرّ في أمرك».

لقد تعامل أمير المؤمنين عليه السلام مع هؤلاء الأيتام بحنان ولطف ورحمة، وكان يُطعمهم بيده، وهو في الوقت الذي يرغب في ثواب الله عزّ وجلّ يطلب من الصبيان أن يجعلوه في حلّ منهم؛ فإنّه عليه السلام قد استشعر معاناتهم وما تحمّلوه من المصاعب والمتاعب وقساوة العيش بعد فقدهم أبيهم.

تقول الرواية: «فلما اختمر العجين قالت: يا عبد الله، سَجِّر^(١) التنور، فبادر لسجره، فلما أشعله ولفح في وجهه جعل يقول: ذُقْ يا عليّ، هذا جزاء من ضيَّع الأرامِل واليتامى. فرأته امرأة تعرفه، فقالت: ويحك! هذا أمير المؤمنين. قال: فبادرت المرأة وهي تقول: واحياي منك يا أمير المؤمنين. فقال: بل واحياي منك يا أمة الله فيما قصّرت في أمرك».

يتحسّس أمير المؤمنين ﷺ ألم نار التنّور، فينقله هذا التحسّس إلى عالم الآخرة ونارها، فهو يستذكر في الدنيا حساب الآخرة وأهوال يوم القيامة، الأمر الذي يبعث في قلبه المزيد من الرحمة باليتامى والفقراء وتعهدهم. وعندما تتعرّف المرأة إليه تبادر في طلبها منه السماح؛ لأنّها لم تعرفه بأنّه أمير المؤمنين. وفي المقام نقف على مجموعة محطّات أخلاقية مهمّة نستلهمها من قصّة الإمام عليّ ﷺ مع الأرملة الفقيرة التي سردنا تفاصيلها:

المحطة الأولى: استشعار الرحمة

يُعطي الإمام ﷺ درساً عملياً للقلوب المؤمنة في كيفية تحصيل الرحمة والعطف، ويعلمّها كيف تصل إلى هذه المرتبة من العطف على اليتيم والأرملة؛ فإنّ هناك الكثيرين لا يحملون في قلوبهم إلّا الغلظة والشدّة والقسوة والخشونة في تعاملهم مع اليتيم وغيره، لكن بالإمكان أن تتحوّل هذه القلوب إلى قلوب رحيمة عطوفة، فإنّ الإنسان إذا نظر إلى يتيم أو أرملة وجعل يُصوّر في نفسه أنّ هذا اليتيم هو ولده مثلاً، أو أنّ هذه الأرملة هي بنته أو أخته، فإنّه سوف يرقّ قلبه حينئذٍ ويحنو على اليتام والأرامِل.

(١) «سَجَّرَ التَّنَوْرَ يَسْجُرُهُ سَجْرًا: أَوْقَدَهُ وَأَحْمَاهُ. وَقِيلَ: أَشْبَعُ وَقُودَهُ». الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ٦، ص ٤٩٧ - سَجَّرَ.

ولأجل أن نقتدي بإمامنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فعلينا أن نستشعر في قلوبنا هذه الرحمة والمحبة والعطف على الأيتام والأرامل والفقراء الذين طالهم يد الحرمان.

المحطة الثانية: استحضار السؤال يوم القيامة

الأمر المهم الذي يجب على المؤمن التوقّف عنده هو استحضار سؤال الله تعالى إياه يوم القيامة عن حقوق هذه الشريحة الفقيرة، الأمر الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام قلقاً تجاهه، مفكراً فيه؛ إذ قالت الرواية: «وبات ليلته قلقاً». فكان يفكر بقلب رحيم حنون عطوف في هذه المرأة الأرملة وأطفالها.

المحطة الثالثة: إظهار المواساة الواقعية

إنّ إظهار المشاعر وحدها لا تكفي في مواساة هذه الشريحة الفقيرة، وإنّما لا بدّ من انطلاقة جسديّة تُشعر تلك الشريحة بالعمل والسلوك بأنّ الجهود قد تضافرت بما تحمل من الإمكانيّات - ولو كانت قليلة - من أجل إظهار المواساة الحقيقيّة، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام مع هذه الأرملة الفقيرة وأطفالها، فقد حضر بنفسه وأتعب جسده وصار يواسي الفقراء ويحسّسهم بوجوده معهم.

المحطة الرابعة: العفو عن الإساءة

بسبب الظروف الصعبة والقاسية التي يمرّ بها الفقراء والمساكين والمحرومون، فربّما تدفع هذه الظروف أحد هؤلاء إلى إظهار الإساءة أو التصرف غير اللائق؛ بإصدار الكلمات الجارحة أو السلوك غير المقبول، فمن خلال تصرف أمير المؤمنين عليه السلام مع هذه المرأة الأرملة نتعلّم الصّح عن تلك الإساءة الصادرة عن

ضنك العيش، فها هو الإمام عليه السلام يتجاهل ما تفوّت به المرأة من كلام قاسٍ عندما قالت له وهي لا تعرفه: «واحكم بيني وبين عليّ بن أبي طالب»، فكان أمير المؤمنين يواجه تلك الإساءة بعطفه وحنانه، ويبدأ برعاية أيتامها، فيُجالسهم ويُلقمهم بيده.

المحطة الخامسة: رضا الله تعالى

الدرس الكبير الذي يُعلّمه أمير المؤمنين عليه السلام للناس في هذه الحادثة التاريخية، هو أنّ الهدف الأسمى في كلّ ما يفعله الإنسان هو رضا الله تعالى، فإنّ الغاية من هذه الرعاية الأبويّة التي قدّمها الإمام للأطفال وأمّهم، والحنان الذي غمرهم به، ليست هي طلباً للمدح أو الثناء لكي يُقال: إنّه يرضى الأيتام، وإنّه صاحب قلب حنون وعطوف، وغير ذلك ممّا يُعدّ نصيباً دنيوياً، وإنّما الغاية هي رضا الله سبحانه وتعالى وطلب عفوهِ وكسب ثوابه، فإنّ هذا هو الهدف الأساس الذي يسعى إليه المؤمن في جميع خطواته في الحياة الدنيا.

مناشدة

ومن باب الشعور بالمسؤوليّة، ونحن نروي هذه القصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام، نرى أنفسنا ملزمين بمناشدة جميع قادة الأُمّة الإسلاميّة وحكّامها، وخاصّة المسؤولين في الدولة العراقيّة، ابتداءً من رئيس الجمهوريّة ومروراً برئيس الوزراء، وجميع الوزراء والمسؤولين في الدولة، ورجال الدين والوجهاء، وأصحاب الشأن، بالعمل الجادّ على إعانة الطبقات المحرومة والمعدّمة من أبناء شعوبنا المستضعفين والأيتام والأرامل، وصياغة برنامج يتكفّل رعايتهم وسدّ حاجاتهم؛ إذ ما أكثر الأرامل والأيتام والضعفاء والمحرومين والفقراء، فلو وضع كلّ مسؤول نصب عينيه هذه الرواية وتأمّل فيها، واستذكر يوم القيامة الذي يقف فيه هؤلاء الفقراء يشكون أمرهم إلى الله تعالى، وبادر كلّ واحد من المسؤولين إليهم بما يملك من

أُمور ماديّة ومعنويّة، فسوف تُسدّ حاجتهم، ويكون قد عاش حياةً تُشبه حياة الأنبياء، ويُرضي بذلك العمل ربّه، ويُدخل السرور على قلب الإمام الذي علّمنا هذا الدرس الأخلاقي المهمّ.

المحور الثالث: الحلم والصفح

إنّ من جملة الأخلاق النبيلة التي تتمّع بها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هي الحلم والصفح والعفو، فكان الإمام عليه السلام حليماً مع أعدائه وخصومه الذين كانوا يكرهونه ويشتمونه ويُسيئون الأدب معه، فإنّ هذا الحلم كان ثابتاً عنده لم يتغيّر سواء كان قبل تولّيه الخلافة، أم بعدها، فهو لا يغضب إلّا إذا انتهكت حدود الله تعالى، أو يُتعدى على حقوق الأُمّة^(١).

ومن نماذج عفوه وصفحته وحلمه ما تنقل كتب التاريخ والسّير: عندما أَسْر مالك الأشتر مروان بن الحكم يوم الجمل، فلما مثّل بين يديه لم يستقبله بسوء، مع أنّ مروان كان أعدى الناس له، وأشدّهم بغضاً له، لكنّه أطلق سراحه، وصفح عنه بعد أن اكتفى بمعاتبته فقط^(٢).

(١) قال ابن أبي الحديد المعتزلي في حلم الإمام عليه السلام وصفحته: «وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسيء». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٣.

(٢) ابن شهر آشوب المازندراني، محمّد بن عليّ، مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٨١. ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ٦، ص ٢٣.

وينقل ابن أبي الحديد في موضع آخر في كتابه كلاماً قاله الإمام عليه السلام لمروان بن الحكم بالبصرة، قال:

وقد عفا الإمام عليه السلام عن عبد الله بن الزبير بعد أسره يوم الجمل، وكان ابن الزبير هو قائد الفتنة في ذلك اليوم، وكان يشتم علياً، وحين جاء أمير المؤمنين البصرة خطب عبد الله بن الزبير في أهلها محذراً من الإمام عليه السلام - وحاشاه من قول ابن الزبير - قائلاً: «قد أتاكم الوغد اللئيم علي بن أبي طالب». وكان الإمام عليه السلام يقول: «ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شبّ ولده عبد الله». فكان من خلق الإمام عندما ظفر بعبد الله بن الزبير يوم الجمل، وأخذ أسيراً، أطلق سراحه قائلاً: «اذهب فلا أرينك». ولم يزد على ذلك شيئاً^(١).

وغير ذلك الكثير من المواقف التي تبرز عفو وصفح وحلم أمير المؤمنين عليه السلام عمّن يُسيء إليه، ولا سيما عن أعدائه^(٢).



«قالوا: أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلّمه فيه، فخلّى سبيله. فقالا له: يُبايعك يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: أو لم يُبايعني بعد قتل عثمان؟! لا حاجة لي في بيعته، إنّما كفّ يهوديّة، لو بايعني بيده لغدر بسبّته. أما إنّ له إمرة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأُمّة منه ومن وَلَدِه يوماً أحمر». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٤٥.

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) قال ابن أبي الحديد المعتزلي: «وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف، وشتّموه ولعنوه، فلمّا ظفر بهم رفع السيف عنهم، ونادى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يُتبع مؤلّ، ولا يُجهز على جريح، ولا يُقتل مستأسر، ومَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومَن تحيّر إلى معسكر الإمام فهو آمن، ولم يأخذ أثقالهم، ولا سبي ذرارهم، ولا غنم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل، ولكنه أبى إلّا الصفح والعفو». ابن أبي الحديد، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة: ج ١، ص ٢٣.

وقال القاضي النعمان المغربي: «عن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان فيمن أسر يوم الجمل وحُيس

فما أحوجنا إلى هذا الحلم والصفح والمسامحة والمغفرة فيما بيننا؛ فإنّ هذا الخلق العظيم مطلوب منا، لكي نكون من أتباع أمير المؤمنين الحقيقيين، فعلينا قبول عذر المسيء والصفح عن إساءته، فلا نقابل الإساءة بمثلهما، وعلينا الاقتداء بسيّدنا ومولانا الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ومن منطلق الصّفح الذي مارسه أمير المؤمنين عليه السلام نوجّه نداءنا وخطابنا إلى إخواننا في المناطق الساخنة في العراق أتباع أهل البيت عليهم السلام، الذين هجّروا قسراً منها؛ بسبب الأحداث التي أعقبت تفجير مرقد العسكريين عليهم السلام، آملين منهم أن يتخلّصوا بهذا الخلق العظيم، ويصفحوا عمّن أساء إليهم. وإذا كان قد حصل شيء من البغضاء والشحناء والتحسّس النفسي والطائفي - ولا سيّما عند العوائل التي لم تُهاجر من تلك المناطق - من الذين أضروهم وآذوهم، فإنّا نحثّهم على أن يتّسموا بخلق أمير المؤمنين ويصفحوا ويغفروا؛ كي يُبرزوا هذا الخلق الرفيع، ويحتسبوا ذلك عند الله كما هو الأمر في التّضحيات الكبيرة والكثيرة التي بذلوها.



مع من حُبس من الأسارى بالبصرة، قال: كنت في سجن عليّ بالبصرة حتى سمعت المنادي ينادي: أين موسى بن طلحة بن عبيد الله؟ فاسترجعت واسترجع أهل السجن، وقالوا: يقتلك! فأخرجني إليه. فلما وقفت بين يديه قال لي: يا موسى. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: قل: أستغفر الله وأتوب إليه ثلاث مرّات. فقلت: أستغفر الله وأتوب إليه ثلاث مرّات. فقال لمن معي من رسله: خلّوا عنه. وقال لي: اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع [أي: الخيل] فخذ، واثق الله فيما تستقبله من أمرك، واجلس في بيتك». القاضي أبو حنيفة المغربي، النعمان بن محمّد، شرح الأخبار: ج ١، ص ٣٨٩.

نسأل الله تعالى أن يوفّق الجميع للاقتداء بسيرة أمير المؤمنين والسير على نهجه
القويم، والتخلّق بأخلاقه الرفيعة، وأن يمنّ على بلدنا وجميع بلدان المسلمين
بالأمن والفرج العاجل إنّه سميع مجيب.
والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثامنة والثمانون
من وصايا الإمام علي عليه السلام في الأخلاق

بتاريخ: ١ / ٨ / ٢٠٠٨ م

﴿ كلمة الإمام علي عليه السلام في الآداب والأخلاق

﴿ إصلاح عيوب النفس

﴿ القناعة بالرزق المقسوم

﴿ بعض الأرزاق فتنة وامتحان

﴿ كثرة الكلام من موجبات دخول النار

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله استتمماً لنعمته، واستسلاماً لعزّته، واستعصاماً من معصيته،
وأستعينه فاقّةً إلى كفايته^(١).

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه،
وشاهداً على الخلق، أبي القاسم محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين، كلمة التقوى
وأعلام الهدى، الذين أذهب الله تعالى عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو والمبادرة إلى
الخطيئات - بتقوى الله تعالى، والانشغال بتطهير النفوس والقلوب من عيوبها،
والتهيؤ ليوم تُكشف فيه السرائر والخطايا.

كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الآداب والأخلاق

من جملة ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام مجموعة من الآداب والأخلاق
والصفات المحمودّة، التي لو اتّخذناها منهاجاً في الحياة لأمكن أن نضمن لأنفسنا
السعادة والراحة في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ
بِرِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ،
وَمَنْ اقْتَحَمَ اللَّجَجَ غَرِقَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ أَثْمَمَ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ،

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليه السلام: ج ١، ص ٢٧.

وَمَنْ كَثُرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرْعُهُ وَمَنْ قَلَّ وَرْعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَمَنْ نَظَرَ فِي عيوبِ النَّاسِ فَأَنكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَها لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بَعِينُهُ، وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ»^(١).

لقد عدَّ الإمام عليه السلام في هذه الحكمة البليغة مجموعةً من الآداب والأخلاق، فيها ما يلزم على كلِّ فرد أن يراقبها ويُرَاعِيها؛ لتحصيل السعادة والراحة في الدارين الدنيا والآخرة.

وفي المقام لا بأس بالتعرُّض إلى شيء من الشرح لتوضيح بعض مضامين هذه الآداب والأخلاق والصفات المحمودة التي عرضها الإمام عليه السلام.

إصلاح عيوب النفس

مما لا شكَّ فيه أنَّ الذي ينظر في عيب نفسه لا تكون له فرصة ينظر من خلالها في عيب غيره، أو أنَّه لا يرى عيب غيره عيباً؛ لما يراه في نفسه من العيب الذي ابتلي به. فإنَّه لو نظر كلَّ شخص إلى نفسه أو إلى قلبه، أو نظر إلى عمله وسلوكه وكلامه، لوجد أنَّ كلَّ هذه الأمور مليئة بالعيوب، وأنَّه عند انشغاله بهذه العيوب لا يُتيح هذا الأمر له الفرصة بأن ينظر في عيوب الآخرين ممَّن هم حوله. لكنَّ المشكلة على العكس من ذلك؛ فإنَّ بعض الناس يتغاضى عن النظر في عيوبه، بينما يُجيد مهمّة البحث والتفتيش في عيوب الآخرين وإفشائها وسط الناس، ويجعل من نفسه في موضع الناصح لهم محاولاً تصحيح عيوبهم، مع أنَّه لا يُجيد الفحص والتفتيش في عيوب نفسه، أو يتغاضى عن ذلك، فلا يبحث عن العلاج الذي يُصلح به نفسه.

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام عليه السلام: ج ٤، ص ٨١، الخطبة رقم ٣٤٩.

إنّ هذه الدنيا سريعة الزوال؛ إذ لا يعيش الإنسان فيها إلاّ سنين قصيرة، وهي لا تكفي عند بعض الناس في إصلاح عيوبهم الكثيرة والتكفير عن ذنوبهم الكبيرة، لذا كان لزاماً على الإنسان العاقل إذا أراد السعادة والراحة في الدنيا والآخرة؛ فعليه أن يتفحص في عيوب نفسه ويشغل نفسه في إصلاحها، وتطهيرها من مذام الصفات والذنوب والآثام؛ لما مارسه طوال سنين في سلوكه وعمله خارجاً بها عن جادة الصواب، فعليه أولاً أن يشخص عيوب نفسه ومذام صفاته بالبحث عن مناسئها وأسبابها، ثم يهياً نفسه لأجل إصلاح هذه العيوب التي فيه، وهنا ربّما يحتاج إلى سنوات كثيرة يعيشها يُمارس فيها عمليّة إصلاح النفس وتطهيرها.

وكيفيّة عمليّة الإصلاح تكمن في أن يخصّص الإنسان وقتاً معيّناً في نهاية كلّ نهار يراجع فيه أعماله وأقواله وسلوكه، وكلّ ما صدر عنه في ذلك اليوم، وينظر فيها، فينظر في الذي خاطب به الناس، فربّما يكون قد حسد أحداً، أو مارس نفاقاً، أو تكلم بغيبة أو نميّة، أو أفشى سراً، أو ذكر عيباً في آخرين، أو طعن في بعضهم أو اتهمه، أو استهزأ بمؤمن أو سخر منه، أو ... إلى آخره. فإنّ في هذه الحالة يمكنه تشخيص ما صدر عنه من عيب.

ثم يأتي ليسأل نفسه عن الأسباب التي جعلته يرتكب هذه الصفات والأعمال الذميمة، فإذا شخصها وعرفها أشغل نفسه في مستقبل الأيام في معالجتها والتخلّص منها، وذلك بمراقبة جميع ما يصدر عنه من سلوك أو قول.

لذلك يوصي الإمام عليه السلام بأن ينظر الإنسان إلى عيوب نفسه ويشغل بإصلاحها؛ لكي يكون ذلك شاغلاً له عن الفحص والنظر في عيوب الآخرين وذكرها وإفشائها من أجل الانتقاص منهم، الأمر الذي يؤدّي به إلى الهلاك والتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة، فيقول الإمام عليه السلام: «مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ».

القناعة بالرزق المقسوم

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ ...».

الرزق لا يقتصر على المال فقط، وإنما الرزق متنوع مختلف، فبعضه مال، وبعضه صحّة وعافية، وبعضه وجاهة ومنزلة، وبعضه بنين وبنات، فإنّ نعم الله ورزقه لا تُعدّ ولا تُحصى. وهو - الرزق - في الوقت نفسه متفاوت من شخص إلى آخر، فبعض رزقه في المال كثير ووفير، ولكنّه يفقد الصحّة والعافية مثلاً، أو يفقد الأولاد، فترى الأرزاق متفاوتة من ناحية الكمّ ومن ناحية الجنس.

والذي يجب الاعتقاد به بأنّ رزق كلّ إنسان مقسوم ومقدّر من الله تعالى، فهو لا يخرج من هذه الدنيا إلّا وقد أكمل تمام رزقه، ونال ما يستحقّه من الرزق الذي قسمه الله تعالى له، فالإنسان لا بدّ وأن يتنعم بهذا الرزق سواء عاجلاً أم آجلاً.

لكنّ الأمر المهمّ في المقام هو القناعة بالرزق؛ فإنّ الكثير من الناس تراه غير راضٍ بما قسم الله تعالى له من الأرزاق، وغير قانع بذلك، والسبب في ذلك واضح، وهو النظر إلى مَنْ هو الأفضل دائماً، بمعنى أنّ عدم قناعة الإنسان برزقه تأتي من نظره إلى مَنْ هو أكثر منه مالاً، أو أكثر منه ولداً، أو أعلا منه منصباً، أو غير ذلك من الأمور الدنيويّة، لذا يُصاب بالهمّ والغمّ؛ لكونه ينظر إلى مَنْ هو أكثر منه حظّاً ولا يستطيع أن ينال مثل ذلك الحظّ الكبير.

إذا حصلت عند الإنسان القناعة فإنّه تحصل له المنعة، والرضا بما قسمه الله تعالى له، إذ إنّ هناك أحاديث كثيرة تُشير إلى أنّ القناعة هي الغنى^(١)، وهي أغلا

(١) «القناعة بالفتح: الرضا بالقِسْم... وفي الحديث: القناعة كنز لا يفند؛ لأنّ الإنفاق منها لا ينقطع،

كلّم تعذّر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضي». ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان

العرب: ج ٨، ص ٢٩٨ - قنع.

شيء عند الإنسان؛ فإنَّ الإنسان إذا صار قنوعاً برزقه امتنع عن النظر إلى مَنْ هو أعلا منه وأفضل منه، وبذلك يكون قلبه خالياً من الهموم، وإذا كان كذلك تفرَّغ للاشتغال بذكر الله تعالى وأمور الدين والآخرة. أمّا إذا داوم على النظر إلى مَنْ هو أعلا منه وفوقه، وشغل نفسه بالنظر إلى أرزاق الآخرين، فيُصيبه الحزن عند عدم إمكانه أن ينال ذلك الحظَّ العالي، وربّما يستتبع هذا الأمر الحسد والطمع والجشع والبغضاء وغيرها من الصفات الذميمة، فيفوّت عليه حظوظ الآخرة؛ لأنَّ قلبه حينئذٍ لا يتفرَّغ لأُمور الدين؛ بسبب ما يُصيبه من الهمِّ والغمِّ.

ولقد اشتهر عن رسول الله ﷺ قوله عن القناعة بأنّها كنز لا يفنى^(١)، ومن هنا قد يُتساءل عن كيفية تحصيل القناعة؟

يُعَلِّمنا الإمام الصادق عليه السلام كيفية تحصيل ذلك من خلال الحديث الوارد



وقال الراغب الأصفهاني: «قنع: القناعة الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يقال: قنع يقنع قنعةً وقنعاً إذا رضي». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص ٤١٣.

ومن جملة ما ورد فيها عن المعصومين عليه السلام قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا كنز أغنى من القناعة». الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ٣، ص ٣٣٠٤.

وقوله عليه السلام أيضاً: «سعادة المرء القناعة والرضا». الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ٢، ص ١٣٠٥.

وعنه عليه السلام أيضاً: «جمال العيش القناعة». الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٤١٦.

وعن الصادق عليه السلام: «حُرِّمَ الحريص خصلتين، ولزمته خصلتان: حُرِّمَ القناعة فافتقد الراحة، وحُرِّمَ الرضا فافتقد اليقين». الريشهري، محمّد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٥٨٧.

(١) الطبرسي، أبو الفضل عليّ، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ٢٣٣. القتال النيسابوري، محمّد بن الحسن، روضة الواعظين: ص ٤٥٦. وفيها: قال رسول الله ﷺ: «القناعة كنز لا يُفنى».

عنه عليه السلام القائل: «انظر إلى مَنْ هو دونك، ولا تنظر إلى مَنْ هو فوقك في المقدرة، فإنَّ ذلك اقنع لك بما قسم الله لك»^(١).

فإنَّ معنى الحديث الشريف يُشير إلى أنَّه بإمكان الإنسان أن يكون قنوعاً راضياً بما أعطاه الله تعالى وقسمه له من الأرزاق، ويرضى الله تعالى عنه من خلال نظره إلى مَنْ هو أدون منه في الرزق المختلف والمتعدّد في الدنيا، أن ينظر دوماً إلى الذي دونه في كلّ شيء يطلبه في هذه الحياة الدنيا، ينظر إلى الأدنى منه في المال وفي الأولاد وفي العافية، أن ينظر إلى الذي عنده ضيق وشدة وابتلاء في جميع أمور الدنيا، لا أن ينظر إلى مَنْ هو أكثر رزقاً منه، وأكثر تمتعاً بمباهج الحياة الدنيا وزخرفها؛ فإنَّ هذه النظرة تُبعده عن القناعة.

نعم، ينظر الإنسان إلى مَنْ هو أكثر منه حظاً في التقوى والطاعة لله تعالى، ينظر إلى مَنْ هو أكثر منه تعبداً وأداءً للقربات والخيرات والإتيان بالأعمال الصالحة، عسى أن يُكتب له ذلك الحظ العظيم.

ومن هنا يجب أن يلزم الإنسان الاعتقاد بأنَّه يبلغ رزقه المقسوم له في الدنيا، وهو معنى القناعة. وفي هذا الأمر يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «نفث روح القدس في روعي أنَّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٢).

(١) الصدوق، محمد بن عليّ، علل الشرائع: ج ٢، ص ٥٥٩: «... عن ابن محبوب، عن هشام بن سالم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول لحمران بن أعين: يا حمران، أنظر إلى مَنْ هو دونك، ولا تنظر إلى مَنْ هو فوقك في المقدرة؛ فإنَّ ذلك أقنع لك بما قُسم لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربك. واعلم أنَّ العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين. واعلم أنَّه لا ورع أنفع من تجنّب محارم الله، والكفّ عن أذى المسلمين واغتيالهم، ولا عيش أهنأ من حسن الخلق، ولا مال أنفع من القنوع باليسير المجزي، ولا جهل أضرّ من العجب».

(٢) النراقي، ملا محمد مهدي، جامع السعادات: ج ٢، ص ٧٩. المتقي الهندي، علي بن حسام الدين،

فلا ينبغي للإنسان أن يكون جشعاً، أو تحصل عنده حالة الطمع والحرص في الدنيا على طلب المزيد بعد علمه بأنه سوف ينال رزقه عاجلاً أم آجلاً في الدنيا، لذلك يقول الحديث: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»، بمعنى أن يجعل الإنسان طلبه في الحياة الدنيا مجملًا لا يتخلله الطمع أو الاستزادة فوق الحد المقسوم، فإنه - والحال هذه - ربّما يقع في المحرّمات ويرتكب أفعالاً لا تُرضي الله سبحانه وتعالى.

وإذا ما صار الإنسان قنوعاً بما قسم الله تعالى له من الرزق في الحياة الدنيا، امتلك ثلاث صفات ممدوحة وجميلة، وهي أن يكون مؤمناً وشاكراً وورعاً؛ فإنّ رسول الله ﷺ يقول في هذا المعنى ما نصّه: «كُن ورعاً تكن أعدل الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحبّ للناس ما تُحبّ لنفسك تكن مؤمناً»^(١).

إنّ القناعة تستتبعها أمور، ولها مستلزمات، ومنها ما ذكر من الإيمان والشكر والورع.

بعض الأرزاق فتنة وامتحان

تتعرّض بعض الآيات القرآنيّة الشريفة إلى أمر مهمّ في زيادة الرزق ونقصانه، مشيرةً إلى أنّ الزيادة ربّما تكون سبباً في الفتنة، أو اختبار الإنسان وامتحانه، ومن



كنز العمال: ج ٤، ص ٢٣، ح ٩٣١١، وفيه: «نفث روح القدس في روعي: أنّ نفساً لن تخرج من الدنيا حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فأجملوا الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله تعالى؛ فإنّ الله لن يُنال ما عنده إلّا بطاعته».

(١) النراقي، ملا محمد مهدي، جامع السعادات: ج ٢، ص ٧٩.

جملة تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(١).

فإن الآية تُخبر بأن هذا التمتع ليس لأنهم الأفضل، وإنما لأجل امتحانهم واختبارهم^(٢)، فالله تعالى عندما يرزق بعض العباد يُجاسبه على كيفية صرفه لهذا الرزق، فهل يؤدي الحقوق الشرعية لهذا الرزق؟ هل يُساعد من هذا الرزق الوفير الفقراء والمحتاجين والمعوزين؟ هل ينفق هذا الرزق فيما أحل الله تعالى، أو ينفقه في المعاصي والموبقات والملذات الدنيوية المحرمة؟ وهذا هو الامتحان، فهو رباً يفشل في هذا الامتحان فيخسر الدنيا والآخرة.

لذلك جاء الجواب في ذيل الآية ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، ثم يوجه من بعده الخطاب للمؤمن بأنه ينبغي أن يكون قنوعاً؛ لكيلا يفشل في هذا الاختبار، فقالت الآية: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، فإن رزق الآخرة هو الخير، وهو الرزق الباقي.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَحَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣). فإن الآية الشريفة تنهى عن الإعجاب بالأموال والأولاد وكثرتها؛ وذلك لأنها شاغلة للإنسان، فلا

(١) طه: آية ١٣١.

(٢) يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الآية الشريفة المذكورة: «...والفتنة الامتحان والاختبار، وقيل: المراد بها العذاب؛ لأن كثرة الأموال والأولاد نوع عذاب من الله لهم... والمعنى: لا تطل النظر إلى زينة الحياة الدنيا وبهجتها التي متعنا بها أصنافاً أو أزواجاً معدودة منهم لئلا تمتحنهم فيما متعنا به، والذي سيرزقك ربك في الآخرة خير وأبقى». الطباطبائي، محمد حسين، الميزان:

ج ١٤، ص ١٣٨.

(٣) التوبة: آية ٥٥.

تُحتسب من النعمة التي يُرجى منها السعادة، وإنّما هي نعمة تجرّهم إلى الشقاء؛ فإنّ الله تعالى خوّلها لهم وأراد من ذلك تعذيبهم بها في الدنيا^(١).

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في بيان قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاؤُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾: «ومعنى ذلك أنّه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه والراضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يُستحقّ الثواب والعقاب...»^(٢).

فالرزق في المال أو الأولاد هو فتنة حقيقية للإنسان، وهو امتحان صعب ربّما يفشل فيه الإنسان، فيهلك في الحياة الدنيا والآخرة. وعلى العكس من ذلك الرزق القليل، أو الابتلاء، أو الوقوع في المحنة والشدة؛ فإنّ الرضا بذلك الشيء اليسير وبذلك الابتلاء ينال به الإنسان رضا الله تعالى.

ربّما يدخل الإنسان العُجب أو الغرور، فيتمنّى في نفسه أن يرزقه الله المال الكثير، أو تكون له الحظوظ الدنيويّة الكثيرة لأجل أن يتقرّب بها إلى الله تعالى، لكنّه في حقيقة الأمر لا يعلم مستقبله، وأنّه سوف يؤدّي تلك القربات إذا ما حقق الله تعالى له ما يتمنّاه.

(١) أنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، تفسير الميزان: ج ٩، ص ٣٠٨.

ويقول الشيخ المكارم الشيرازي في تفسير الآية المذكورة: «فهي وإن كانت نعمة بحسب الظاهر، إلّا أنّه إنّما يُريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون. وفي الواقع فإنّهم يُعذبون على طريقتين بسبب هذه الأموال والأولاد، أي: القوّة الاقتصاديّة والإنسانيّة». المكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٦، ص ٨٣.

(٢) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ٤٨٤.

إذا عتري الإنسان مثل هذا التفكير فليتأمل فيما ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام من حديث شريف ينصح به الإنسان أن يطرد عن ذهنه وفكره مثل هذا التمني والتفكير، وأن يرضى بما رزقه الله تعالى باليسير؛ فإن يوم القيامة يكون الحساب والجزاء على مقدار الرزق، فمن أعطاه الله تعالى رزقاً وافراً لم يرخص منه بالعمل القليل، ومن ضيق عليه رزقه رضي منه بالقليل من العمل. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله منه باليسير من العمل»^(١).

نعم، هذه هي العدالة الإلهية في الجزاء والحساب، وهذا مقتضى حسن المعاملة؛ فإنه تعالى إذا لم يكمن الإنسان من الحظوظ والأرزاق الكثيرة يرضى منه باليسير من الأعمال، على خلاف الغني الذي زاد في حظوظه وأرزاقه^(٢). وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن الغنى والوفرة في الرزق غير محصورين بالمال، وإنما يمكن تحققهما في أمور أخرى أيضاً، كالوجاهة والمنصب وغيرها من المراتب الدنيوية؛ فإن الله سبحانه يحاسب الإنسان على حجم ما منحه من كل هذه الأرزاق في الدنيا.

كثرة الكلام من موجبات دخول النار

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٣٨، ح ٣.

(٢) يقول المازندراني في شرحه للحديث الشريف المذكور: «لأن من رضي عما على الله باليسير رضي الله عما عليه باليسير، كما يقتضيه حسن المعاملة. وأيضاً النعمة توجب شكراً، والعمل منه، فكلاً كانت النعمة أقل كان العمل أقل. وفيه ترغيب في الرضا بالتقليل من الرزق؛ لأنه يستلزم خفة المؤونة وزوال المشقة من العمل. وأيضاً من رضي بالتقليل من المعاش فقد زهد في الدنيا وطهر ظاهره وباطنه من الأعمال والأخلاق القبيحة». المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي: ج ٨، ص ٤٠٨.

خطؤه قلّ حياؤه، ومَنْ قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَنْ قلّ ورعه مات قلبه، ومَنْ مات قلبه دخل النار».

يوصي الإمام عليه السلام في هذا المقطع من كلامه أبناء الجنس الإنساني بعدم الإكثار من الكلام، ومراقبة ما يصدر عن الإنسان من ألفاظ، فإنّ نتيجة الإكثار من الكلام هي دخول النار، وذلك من خلال مجموعة من المقدمات تستتبعها هذه النتيجة الوحيدة؛ فإنّ المقدمة الأولى هي كثرة الكلام، ثم تتسلسل عليها المقدمات الأخرى والنتائج حتى تصل إلى النتيجة النهائية، وهي دخول النار.

إنّ كمال العقل يلزمه قلّة الكلام، فإذا كثر كلام الإنسان كان لازم ذلك نقصان العقل، وهذا بطبيعة الحال يستلزم كثرة وقوع الخطأ، وإذا كثرت أخطاء الإنسان يقلّ بذلك حياؤه؛ بسبب عدم الارتداع عن الأمور التي يقبح النيل منها، والإقدام على الخطأ بكثرة الكلام يُنافي الارتداع، فيقلّ بذلك الحياء.

وأما قلّة الورع فإنّها من مستلزمات قلّة الحياء؛ لأنّ معنى الورع المواظبة على الأعمال الحسنة والجميلة، والوقوف على حدودها دون اقتراف الرذائل، ولما كانت الفضيلة هي حياة القلب كان قلّتها موت القلب، الأمر الذي ينتج عنه دخول النار؛ لأنّ الذي يزحزح الإنسان عن الجنّة هو فقدان تلك الفضيلة. فكانت النتيجة النهائية هي أنّ كثرة الكلام تورث دخول النار^(١).

نعم، ربّما يرتكب الإنسان الذي يكثر كلامه - من حيث لا يشعر - المعصية والذنب؛ لأنّ كلامه الكثير ربّما يكون غيبةً أو نميمَةً أو بهتاناً أو حسداً، أو ربّما

(١) ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٤١٤.

يكون فيه إفشاء أسرار المؤمنين أو عيوبهم، وغير ذلك من الأمور المحرّمة والباطلة، أو ربّما يؤدّي كلامه إلى التسبّب في قتل النفس المحترمة، لذلك تكون عاقبته دخول النار. فلا بدّ للإنسان إذا أراد الكلام أن يعرض ما يُريد الخوض فيه من الحديث على قلبه أولاً، لكي يكون مطابقاً للموازين الشرعيّة والعقليّة، حتى لا يدخله في باب المحرّمات، فإذا كان موافقاً لهذه الموازين نطق به، وإلا كفّ عن الكلام؛ فإنّ السكوت خير له.

إذاً هناك مضمّى وهو القلب، فالمؤمن يجب عليه قبل الكلام أن يعرض ما يُريد أن يتحدّث به على ذلك المضمّى، لكي يخرج كلامه نقيّاً خالياً من الشوائب والأكدار والمحرّمات.

من أجل هذا يوصي أمير المؤمنين عليه السلام بعدم كثرة الكلام؛ فإنّ الكثرة منه تؤدّي بالإنسان إلى نتائج وخيمة.
والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة التاسعة والثمانون

بناء الأواصر الاجتماعية

بتاريخ: ١٢ / ٩ / ٢٠٠٨م

﴿ بناء العلاقة الاجتماعية على أساس المال

﴿ حفظ المكانة الاجتماعية

﴿ المال ليس وسيلة للوصول إلى الهدف

﴿ عذاب الأفتدة بالنار

﴿ جزاء القيامة يُناسب عمل الدنيا

﴿ حُسن المعاملة

﴿ النقل الخاطئ إفساد للعلاقة الاجتماعية

﴿ اغتنام شهر رمضان لتقوية الأواصر الاجتماعية

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ، مُحَمَّدًا يَتَقَبَّلُهُ مِنَّا، وَيَرْضَى بِهِ عَنَّا»^(١).

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأثارة بالسوء، والمملوءة بالغفلة، المبادرة إلى الخطيئات والمعاصي - بتقوى الله تعالى، والاعتصام بحبله المتين، والتمسك بعروته الوثقى.

أضواء على سورة الهزمة

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۚ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۚ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۚ (٩)﴾.

لسنا في معرض تفسير أو بيان معاني مفردات آيات السورة المباركة، وهي سورة (الهزمة)، وإننا تلونا آياتها لاقتناص بعض المعاني التربوية منها، ولا سيما ما يرتبط بواقعنا المعاصر، فهي تتعرض لذكر حالة اجتماعية مهمة يجب دراستها ومعالجتها من أجل بناء مجتمع إسلامي حيوي رصين.

(١) الصحيفة السجادية: ص ٢١١.

(٢) الهزمة: آية ١-٩.

وقبل الخوض في تفاصيل ذلك لا بأس بإشارة سريعة نذكر فيها معنى ما تصدّرته السورة في الآية الأولى منها، وهو لفظ (هُمزة لمزة)؛ فإنّه وقع الخلاف بين المفسّرين في أنّها بمعنى واحدٍ، أو أنّ لكل كلمة معنىً يختلف عن المعنى الذي تحمله الأخرى.

إنّ المقصود منهما الإنسان الذي يطعن في غيره، ويستهزئ به ويحتقره ويقلّل من شأنه الاجتماعي، وهو المغتاب، والمشاء بالنميمة، المفرّق بين الأحبة^(١)، والذين يزرون بالناس ويعييونهم بما ليس بعيب^(٢). فإنّ الله تعالى قد وعد من كان بهذه الصفات الذميمة بالعذاب الشديد.

بناء العلاقة الاجتماعية على أساس المال

تتعرّض الآيات المباركة في هذه السورة إلى ذكر صنف من الناس ممن يعيشون حالة الاستعلاء والتكبّر والتجبر، وهم أصحاب المال الذين همّهم جمع المال وكنتزه؛

(١) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤٣٩. وفيه أيضاً في ص ٤٣٨: «الهمزة: الكثير الطعن على غيره بغير حقّ، العائب له بما ليس بعيب. وأصل الهمز الكسر، فكأنّ العائب بعيبه إيّاه، وطعنه فيه يكسره ويهمزه...»

واللمز: العيب أيضاً، والهمزة واللمزة بمعنى. وقد قيل: بينهما فرق؛ فإنّ الهمزة الذي يؤذي جلسه بسوء لفظه. واللمزة: الذي يكسر عينه على جلسه ويشير برأسه، ويومئ بعيه. ويقال: لمزه يلمّزه ويلمّز بكسر الميم وضمها. ورجل لماز ولمزة، وهماز وهمزة».

والهمزة واللمزة صيغتا مبالغة، الأوّل من الهمز، وهي في الأصل الكسر؛ فإنّ العائين والمغتائبين يكسرون شخصية الآخرين، فلذلك أطلق عليهم اسم (الهمزة). واللمزة من اللمز، وهو اغتيال الآخرين وإلصاق العيوب بهم». مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٢، ص ٤٤٨، وفيه أيضاً: «للمفسّرين آراء متعدّدة في معاني هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، وهو المغتابون الناس، العائون عليهم، أو أنّ معناهما مختلف؟ قال بعضهم: إنّ معناهما واحد، وذكرهما معاً للتأكيد».

(٢) أنظر: الطباطبائي، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٢، ص ٣٥٨.

لما يتصوّرون من أنّ قيمة الإنسان بما يملكه من الثروة الماديّة، وهذا في الحقيقة تصوّر خاطئ، يخالف التعاليم والآداب الإسلاميّة التي جعلت قيمة الإنسان في تقواه وأخلاقه ودينه.

ولمّا كان هذا التصرّو يشغل فكر هذا الصنف من الناس، فنراهم دائماً مشغولين في جمع الأموال، فهم يحاولون أن يكتنّزوا أكبر قدر منه؛ لكي ترتفع قيمتهم الاجتماعيّة حسب نظرهم.

وعلى أساس هذا التصرّو الخاطئ يبني هؤلاء الناس علاقاتهم الاجتماعيّة مع الآخرين من أبناء جنسهم، فيكون احترامهم للآخرين على قدر ما يملكه الآخر من المال، فيحترمون الغني، ويرفعون من مكانته، بينما الفقير الذي لا يملك شيئاً من أموال الدنيا فليس محترماً عندهم، وإنّما يواجهونه بالاحتقار والاستهزاء والسخرية؛ لأنّه في نظرهم لا يملك أيّة قيمة اجتماعيّة.

إنّ هذا التصرّو مليء بالتكبّر والاستعلاء، وإنّ ديدن هؤلاء الناس هو الانتقاص من الآخرين واغتيالهم، وتتبع عثراتهم وزلّاتهم؛ يشيعون ذلك بين الناس ويعيروهم به. وهذا ما كان سبباً في نزول هذه الآيات المباركات؛ فإنّها نزلت في مجموعة من رؤوس المشركين وعتاتهم وطغاتهم، الذين كانوا يتعاملون مع المجتمع على أساس هذا التصرّو الذي يحملونه في أنفسهم، وقد كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ ويسخرون منه، ويعيبون على من آمن به من الناس^(١).

(١) أنظر: مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٢٠، ص ٤٤٧، وجاء فيه: «قال جمع من المفسّرين: إنّ آيات هذه السورة نزلت في الوليد بن المغيرة الذي كان يغتاب النبيّ ويطعن فيه ويستهزئ به. وقيل: إنّها نزلت في أفراد آخرين من رؤوس المشركين وأعداء الإسلام، مثل الأخنس بن شريق، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل».

لا يتوهم أحد بأن هذا التصور الخاطئ يحمله الأغنياء والأثرياء وأصحاب الأموال فقط؛ فإن هذا ليس صحيحاً، وإنما إذا ألقينا نظرة فاحصة على أفراد المجتمع نجد أن بعض الناس من غير الأغنياء والأثرياء ينظرون إلى الثروة والمال نظرة مقدسة، فالمال عندهم شيء يجب أن يُحترم، وكأن هدفهم الأساسي في الحياة هو امتلاك للمال وحسب؛ لذلك يحرص على أن يحصل على الثروة حتى بالوسائل غير المشروعة، بأن يعتدي على أبناء مجتمعه، أو يتجاوز معهم الحدود الشرعية وإن أدى ذلك الأمر به إلى قتلهم أو الطعن في كرامتهم أو أعراضهم، وغير ذلك من الأمور المحرمة؛ بغية الوصول إلى هدفه الكبير، وهو جمع المال.

وهذه الشريحة من الناس ربما يتجاوزون في جرائمهم شريحة الأغنياء والأثرياء؛ لأن الشخص منهم يحاول جمع المال دون مبالاة وإن ارتكب المحرمات وبخس الناس حقوقهم؛ لأن المال شيء مهم في حياته. وهو بالإضافة إلى وقوعه في المحرمات يُصاب بالغرور والتكبر والتجبر أيضاً، فلا يُعير أهمية لغيره؛ لأنه قد مارس ما هو الأشنع والأفضع من ذلك، فينظر إلى الناس نظرة احتقار وازدراء.

حفظ المكانة الاجتماعية

إن من جملة الأمور المهمة في الشريعة الإسلامية حفظ شخصية الإنسان الاجتماعية وكرامته، وكذلك حفظ موقعه الاجتماعي؛ فإن من البديهي أن يكون لكل إنسان قيمة اجتماعية وسط المجتمع، أن يكون الإنسان محترماً عند الآخرين، تُحيط به عزة نفسه، لذا فإن أي تصرف أو سلوك من قبل شخص يחדش فيه كرامة إنسان آخر، أو يُسبب في توهينه، أو يؤدي إلى الانتقاص من قيمته الاجتماعية، أو انتهاك حرمة والخط من كرامته وشأنه الاجتماعي أمام الناس، فهذا يُعدّ مخالفاً للأداب والأخلاق الإسلامية والأعراف الاجتماعية، ويستحق فاعله عليه العذاب الشديد الذي وعد الله تعالى به.

وإنّما أعطى الإسلام للإنسان هذه القيمة الاجتماعية لما له من حركة وعطاء في المجتمع، فإنّ لكلّ إنسان سلوكاً ونشاطاً محدّدين داخل مجتمعه، سواء كان متمثلاً بالوظيفة الحكوميّة التي يشغلها، أو بالمكانة الاجتماعيّة التي يحظى بها. وهذا النشاط الاجتماعي مبني على أساس ما له من الشخصية الاجتماعيّة، فكلّما حفظ للإنسان مكانته وقيّمته الاجتماعيّة، وشعر بأنّه معزّز ومكرّم داخل مجتمعه ازداد عطاؤه الاجتماعي وكثرت خدماته لمجتمعه وأبنائه. بينما إذا حُطّت تلك القيمة والمكانة الاجتماعيّة، وشعر الإنسان بالمهانة وقلة الشأن سوف تُقتل شخصيّته وتُشَلّ بذلك جميع حركاته ونشاطاته.

وربّما لم يقتصر الأمر على هذه الحال، فلعلّ الإنسان عند شعوره بالانتقاص يتحوّل من إنسان نافع إلى إنسان ضارّ، فيتبدّل سلوكه إلى ممارسة ما هو سيّئ ومضرّ بمجتمعه، وتكون نشاطاته سلبيةً على الآخرين وليست إيجابيةً، وكلّ ذلك بسبب إحساسه بأنّ المجتمع أو أفرادَه يحطّون من شأنه، ويقلّلون من أهمّيّة وجوده، وهذا مرض خطير لا بدّ من علاجه. وطريقة العلاج هي ما أوصى به الإسلام من حفظ كرامة الإنسان وقيّمته الاجتماعيّة.

المال ليس وسيلةً للوصول إلى الهدف

المال من الأمور المحبوبة عند العقلاء، وهو ما تُرشد إليه النظرة السليمة؛ يستعين به الإنسان لتوفير مستلزمات الحياة، فهو أمر مطلوب لإعانة الفقراء والمحتاجين والمعوزين، ولقضاء حوائج المؤمنين، ومساعدة الضعفاء من الناس، فهو بهذا المقدار أمر محبّب. لكنّه إذا زاد عن الحدّ المتعارف المذكور وأصبح وسيلةً للوصول إلى أهداف وغايات ليست شرعيّة، فيخرج عن كونه محبوباً ومطلوباً.

يتصور بعض الناس بأن المال هو الوسيلة الوحيدة لحل جميع مشاكله، ولتحقيق جميع طموحاته وأهدافه، فلذلك يجعل من وفرة المال هدفاً مقدساً له، فيسعى من أجله ويحرص على توفيره وخزنه من أجل تحقيق هذه الغايات، لكنه لا يشعر بأن هذا المال إذا جُمع وكُنز بهذه الطريقة سوف يُحاسب عليه وعلى طريقة جمعه وتحصيله، وعلى خزنه وعدم إنفاقه.

وربما بلغ الأمر عند بعضهم أنه يشعر من خلال جمعه الأموال وتوفيرها أنه باستطاعته شراء عافيته وصحته بهذا المال، فأصبح المال في نظره مفتاحاً وحيداً لحل كل مشكلة تُصيبه وإن كانت السقم والمرض، فهو - المال - مفتاحه للصحة والعافية والعلو والارتقاء، وحتى الخلود في الحياة الدنيا؛ وذلك لاعتقاده الخاطيء بأن المال سوف يحميه من المخاطر ويبعد عنه المشاكل، فيبقى بذلك مخلداً في الحياة الدنيا.

من هنا تُبين الآية الكريمة ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾^(١) أن هذه الفكرة - فكرة الخلود - التي يحلم بها هؤلاء فكرة تافهة خاطئة؛ فإن الإنسان مهما امتلك من أموال الدنيا وإمكاناتها وسبلها، لا يستطيع استخدام شيء منها لتأخير أجله لحظة واحدة. وهذا الظن بقدرة الأموال على جعل الإنسان مخلداً في الدنيا هو السبب الذي

(١) جاء في تفسير الأمثل: «أخلده، جاء في الآية بصيغة الماضي، ويعني أن هذا الهمزة اللمزة يحسب أن ماله قد صير منه موجوداً خالداً لا يستطيع الموت أن يصل إليه، ولا عوامل المرض والحوادث قادرة أن تنال منه، فالمال في نظره هو المفتاح الوحيد لحل كل مشكلة، وهو يملك هذا المفتاح. ما أنفه هذا التفكير! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبة أو لو القوة أن تحمل مفاتيحها، لم يستطع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: الآية ٨١]». مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:

يدفع هؤلاء الناس إلى جمع المال، والمال بدوره يُعدّ عاملاً أساسياً على جعل الإنسان يتحوّل إلى كونه ذا صفات ذميمة سيئة، يتشجّع من خلالها على الاستهزاء والسخرية بالآخرين.

عذاب الأفئدة بالنار

بعدما أزلت الآية الكريمة المتقدّمة الوهم عند جامعي الأموال أنّهم يحسبون أموالهم تخلّدهم، جاءت الآية الشريفة التالية ردّاً على هؤلاء، تقول: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾. ومعنى (النبد) هو رمي الشيء لتفاهة قيمته^(١)، فكأنّ الآية الكريمة تُخاطب هؤلاء وتقول لهم: أنتم في الحياة الدنيا قد تكبرتم وأصابكم الغرور والتعالي على الآخرين، وأصبح سلوككم سيئاً بأن عاملتم أبناء مجتمعكم بالاحتقار والازدراء، لذا فإنّ مصيركم يوم القيامة هو الذلّ والهوان، والرمي في نار جهنّم بطريقة مهينة تكشف عن إذلالكم واحتقاركم كما يرمى الشيء التافه الذي لا قيمة له.

ثم يقول الله تعالى من بعد ذلك: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ٦ التي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ٧، يقول المفسّرون: إنّ هذه النار هي نار عظيمة دائمة الاستعار، وإتّما أوّل ما تنفذ إلى القلب، فتُصيب قلب من دخل النار بالعذاب أوّلاً، ومنه ينتشر إلى ما يُحيطه، ثم جميع الجسم^(٢).

(١) «النبد: إلقاء الشيء وطرحه؛ لقلة الاعتداد به، ولذلك يُقال: نبذته نبذ النعل الخلق، قال: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمّد، المفردات في غريب القرآن: ص ٤٨٠.

(٢) جاء في تفسير (الأمثل): «عبارة (نار الله) دليل على عظمة هذه النار، و(الموقدة) تعني استعارها المستمرّ.

بما أنّ القلب هو مركز نشوء الصفات الذميمة عند الإنسان، الذي بسببه أصبح الإنسان مستعليّاً على الآخرين ومغروراً ومتكبّراً، حتى احتقر الآخرين وطعن فيهم وأعاب عليهم وسخر منهم؛ فإنّ أوّل عضو من أعضاء البدن يتوجّه إليه العقاب والعذاب هو هذا القلب؛ لأنّه المنشأ لكلّ ذلك.

من هنا يكون القلب هو مبدأ تهذيب السلوك والأفعال، فإذا بدأ الإنسان بتهذيب قلبه من مذامّ الصفات التي تسلك به إلى الأعمال السيئة؛ فإنّه عند تطهير قلبه وتهذيبه سوف يقضي على منشأ هذه المذامّ وجذورها. وهو بذلك سوف يستبدل داخل قلبه الصفات المذمومة بالصفات الطيبة الحسنة، فيكون القلب حينئذٍ منشأً للأخلاق الكريمة الفاضلة، لذا تُشير آيات الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) **﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** (٨٩)؛ فإنّ القلب السليم هو القلب الذي يسلم من تلك الآفات الأخلاقية التي تؤدّي به إلى الهلاك والعذاب في النار.



والعجيب أنّ هذه النار ليست مثل نار الدنيا التي تحرق الجلد أولاً ثم تنفذ إلى الداخل، بل هي تبعث بلهبها أولاً إلى القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أولاً بالقلب ثم بما يحيطه، ثم تنفذ إلى الخارج.

ما هذه النار التي تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أولاً؟ ما هذه النار التي تحرق الداخل قبل الخارج؟ كلّ شيء في القيامة عجيب ومختلف كثيراً عن هذا العالم حتى إحراق نارها.

لماذا لا تكون كذلك وقلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر والكبر والغرور، وبؤرة حبّ الدنيا والثروة والمال؟ لماذا لا تُسيطر نار الغضب الإلهي على قلوب هؤلاء قبل أيّ شيء آخر، وهم في هذه الدنيا

أحرقوا قلوب المؤمنين بسخريّتهم وهمزهم ولزهم؟

العدالة الإلهية تقتضي أن يرى هؤلاء جزاءً يُشبه أعمالهم». مكارم الشيرازي، ناصر، الأمثل في تفسير

كتاب الله المنزل: ج ٢، ص ٤٥٢.

(١) الشعراء: آية ٨٨ - ٨٩.

جزاء القيامة يُناسب عمل الدنيا

إنّ الذي جمع الأموال وكنزها وحفظها وحرص عليها بخزنها في خزائن مقفلة مؤصدة، سوف يواجه يوم القيامة الطريقة نفسها في الإيصاد، لكنّ ذلك إيصاد في النار، فيوضع يوم القيامة في غرف مغلقة محكمة لا يستطيع الخروج منها، وهو العذاب، فإنّه مثلما كان يخزن المال ويمنعه عن الخروج لكيلا تصل الحقوق إلى مستحقّيها، يكون جزاؤه يوم القيامة أن يُمنع من الخروج من غرف التعذيب التي أغلقت عليه وأحكم غلقها. لذلك يقول الله تعالى واصفاً هذه الحالة ومعبراً عنها بقوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

وهذا يدلّ على أنّ نوع العذاب أو صنفه في الآخرة يتناسب مع نوع العمل وطبيعته في الدنيا، وهذا ما تدرّجت الآيات الكريمة في بيانه؛ فإنّه عندما كان الإنسان المتكبّر صاحب المال الوفير يتعامل مع المؤمنين من أبناء مجتمعه باحتقار وازدراء، ولا يتأّم من إذلال الناس وإهانتهم، فإنّه سوف يُرمى يوم القيامة في النار بطريقة مذلة مهينة، جزاءً على ما كان يُعامل به غيره من أبناء جنسه. ولما كان قلبه هو مبدأ الصفات الذميمة السيئة ومنشؤها، كانت النار تنفذ إلى قلبه أولاً لتذيقه العذاب، ولما أحكم خزن المال ولم ينفقه على المستحقّين، أوصد الله تعالى عليه يوم القيامة غرف نار العذاب، فلا يستطيع الخلاص منها.

حُسن المعاملة

بناءً على ما تقدّم لا بدّ أن نُلفت النظر إلى الطريقة التي يجب أن يتعامل بها المؤمنون بعضهم مع بعض، أو التي يتعامل بها الإنسان مع أفراد المجتمع، وهي التحلّي بالأخلاق السامية الفاضلة العالية المتمثلة أولاً بالاحترام المتبادل الذي

يحفظ القيمة الاجتماعية، ويرفع من مستوى الشخصية الاجتماعية ويزيد من كرامتها، وذلك من خلال الابتعاد عن كل تصرف أو سلوك أو قول يؤدي إلى القدح في شخصية إنسان أو الانتقاص من كرامته، وهذا إنَّما يتحقق حتماً إذا ابتعد الإنسان عن الغيبة والنميمة والسبِّ والنظر بنظرة الاحتقار إلى غيره، وترك السخرية منه والاستهزاء به، وكل ما يحطُّ من شأنه وموقعه ومكانته الاجتماعية، وهذا هو أساس حفظ الشخصية للمؤمن.

وإذا ما سلك الإنسان الطريق الصحيح في التعامل مع الآخرين، يصدق عليه أنَّه قد أحسن المعاملة معهم، وبذلك يكون بعيداً عن التحذير بالعذاب الذي ذكرته الآيات الكرييات التي مرَّ ذكرها.

لقد ورد عن الرسول ﷺ ما يُبين تلك المكانة الاجتماعية من خلال خطاباته مع المسلمين؛ فإنَّ الذي يلتزم بالأخلاق العالية يمثل قمة الخير بين المؤمنين، وهو الذي ينفع الناس، وقد قال الرسول ﷺ: «خير الناس من نفع الناس»^(١). وهناك في مقابله بين صفوف المجتمع المسلم من هو شرُّ الناس، وهو الذي يتعامل بذلٍّ وهوان معهم، فقد قال رسول الله ﷺ في ذلك: «أذلَّ الناس من أهان الناس»^(٢).

النقل الخاطي لإفساد للعلاقة الاجتماعية

أشار رسول الله ﷺ إلى ظاهرة خطيرة أخرى يجب على أبناء المجتمع التخلص منها، وهي ظاهرة نقل الكلام الصادر عن شخص إلى آخرين، سواء كان بحسن نية أو بغير حسن نية، أو كان الغرض منه إيصال الحقيقة كما هي للآخرين؛ فإنَّ هذا

(١) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٢٣٩.

(٢) الريشهري، محمد، ميزان الحكمة: ج ١، ص ٦٦.

النقل ربّما يؤدّي إلى البغضاء والشحناء والتفرقة بين أبناء المجتمع وتشتت المؤمنين، وهو على كلّ حال فيه إفساد للعلاقات بين أبناء المجتمع وإن كان الغرض منه هو نقل حقيقة ما يضره أو ما يتحدّث به أحدهم عن شخص أو أشخاص آخرين؛ فإنّ الخلاف الناتج عن هذا الأمر لا يقتصر على شخصين، وإنّما يتطوّر حتى يكون خلافاً بين عائلات المجتمع، فتتسع بذلك دائرة التفرقة والشحناء، وربّما يتوسّع الخلاف أكثر حتى يكون خلافاً عشائريّاً، وهو من الأمور السيّئة التي يجب تجنّبها؛ طلباً للأمن والسلام والوئام.

لذلك يقول رسول الله ﷺ في هذا المعنى ما نصّه: «ألا أخبركم بشراكم؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة»^(١). نعم، على المؤمن أن ينشر في كلامه المحبة والمودة والكلمة الهادفة التي تربط بين أفراد المجتمع، لا أن يتحرّى عيوب الناس وينقل لهم الكلام الخطير الذي يؤدّي إلى تفرقتهم.

وإذا كان هناك نقص أو عيب أو عثرة عند شخص وأراد أحدهم أن يُخبره بذلك، فعليه أن ينصحه أو ينقل إليه النصيحة سرّاً، وليس أمام الملاء؛ فإنّ إظهار ذلك العيب له أمام الناس أمر مبغوض؛ باعتباره يكشف عن عيوبه ويظهرها أمام الآخرين، مع أنّ الواجب ستر ذلك عليه.

اغتنام شهر رمضان لتقوية الأواصر الاجتماعية

إنّ أحسن فرصة يغتنمها الإنسان لمراجعة نفسه ومحاسبتها من أجل تهذيب

(١) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق: ص ٤٤٦.

أخلاقه، وبخاصة صون لسانه من الخطأ، هو شهر رمضان المبارك، فقد جعل الله تعالى هذا الشهر الفضيل لتوظيف الطاقات والجوارح في طاعة الله تعالى؛ إذ ليس صوم شهر رمضان هو الامتناع عن المأكّل والمشرب والكفّ عنهما فقط؛ فإنّ هذا الامتناع أيسر وأسهل شيء أمر الله تعالى به الصائم، فقد ورد في بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ قوله: «إنّ أيسر ما افترض الله على الصائم في صيامه ترك الطعام والشراب»^(١).

وفي رواية أخرى إنّما جعل هذا الامتناع - من الطعام والشراب - «حجاباً ممّا سواهما من الفواحش من الفعل والقول»^(٢).

فإنّ من جملة المهمّات في شهر رمضان هو صوم الجوارح وصونها عن ارتكاب السيّئات، وعلى الصائم أن يُراعي جوارحه، ويحفظها من كلّ ما يضرّها ويُخرجها عن قبول عبادته.

إذن؛ جعل الله تعالى شهر رمضان المبارك شهراً لغفران الذنوب، وشهراً

(١) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٠، ص ١٦٤، ح ٨، باب استحباب إمساك سمع الصائم وبصره وشعره وبشره.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده... فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضّوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تغتابوا، ولا تماروا، ولا تكذبوا،... الزموا الصمت والسكوت والحلم والصبر والصدق... وإنّ أباي عليه السلام قال: سمع رسول الله ﷺ امرأة تسابّ جارية لها وهي صائمة، فدعا رسول الله ﷺ بطعام فقال لها: كُلي. فقالت: أنا صائمة يا رسول الله! فقال: كيف تكونين صائمةً وقد سببت جارتك؟! إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب، وإنّما جعل الله ذلك حجاباً عن سواهما من الفواحش من الفعل والقول يفطر الصائم، ما أقلّ الصوّم وأكثر الجوع». الأشعري القمي، أحمد بن محمّد، النوادر: ص ٢١ - ٢٢.

لقبول التوبة، وذلك من خلال صوم الجوارح وصونها عن فعل المحرمات، ففي هذا الشهر تقوى الإرادة الإنسانية المؤمنة أمام الشهوات المحرمة بكافة أنواعها، من النظر المحرم، والسمع المحرم، والكلام المحرم، فهو موسم لتهديب الأخلاق، وتقوية الأواصر الروحية مع الله عز وجل، وكذا تقوية الأواصر الاجتماعية بما يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ.

نعم، لقد كان رسول الله ﷺ يحرص في كل سنة عند حلول شهر رمضان الكريم على تنبيه المسلمين، ويعرفهم بحقيقة الصوم الذي يُريده الله تعالى من المسلم، ويحثهم على صومه، ذاكراً لهم حجم الثواب الذي يناله المسلم في هذا الشهر، فهو موسم الجوائز الإلهية الكبيرة. بالإضافة إلى كونه دورة تدريبية على جهاد النفس وتهذيبها، وتحليها بالأخلاق الفاضلة.

وكان رسول الله ﷺ قد خطب خطبة شهيرة في أول شهر رمضان المبارك تضمنت جملة من المضامين التربوية، حتى كان الأئمة عليهم السلام يذكرونها لأصحابهم، ويحثونهم على العمل بمضامينها. ومن جملة ما ورد فيها ما يرتبط بطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أبناء المجتمع المسلم، فقد ورد فيها: «وقرؤا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغضوا عما لا يحل النظر إليه أبصاركم، وعما لا يحل الاستماع إليه أسماكم...»^(١).

إن العلاقات الاجتماعية مبنية على احترام الكبير وتوقيره، وكذلك على العطف على الصغير والرحمة به، بحيث يُعامل معه معاملة تُشعره بذلك العطف.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٩٣، ص ٣٥٨.

وأهم ما يبني العلاقات الاجتماعية هو صلة الأرحام، وحفظ اللسان وصونه عن الغيبة والنميمة والكذب والطعن والسخرية والشتم والجدال وغيرها من مذام الصفات اللسانية.

إن الله تعالى قد جعل شهر رمضان باباً كبيراً من أبواب مغفرته، يدخل إليه التائبون، فحريّ بالعبد أن يستثمر هذه الفرصة وينتهازها، ويدخل هذا الباب للوصول من خلاله إلى التوبة وغفران الذنوب؛ فإن العبد أشد ما يكون محتاجاً إليه بعد رحمة الله تعالى هو الوصول إلى التوبة المقبولة عند الله تعالى.

وإن من جملة العبادات النافعة يوم القيامة هي القيام بأعمال الخير الخالية من الشوائب التي تمحقها، وذلك من خلال الإخلاص فيها ونية القربة لله تعالى، فإنها يطهرانها من شوائب الرياء، ومن الحصول على السمعة، فيحصل بذلك الثواب العظيم.

وفي شهر رمضان الفضيل يجد الإنسان باباً واسعاً مفتوحاً للقيام بهذه الأعمال الخيرية، فلا بد أن ينتهاز هذه الفرصة ويربّي نفسه على الأخلاق الفاضلة التي أمر بها الإسلام.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبّ ويرضى، إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

الخطبة التسعون
التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة

بتاريخ: ٢٦ / ٩ / ٢٠٠٨ م

﴿ تمهيد في بعض أهداف خطب نهج البلاغة

﴿ دنو الأجل

﴿ الدنيا ثمن شراء الحياة الحقيقية الأخرى

﴿ الاستعداد للموت

﴿ الأمر الأول: التوبة

﴿ الأمر الثاني: الصبر على الطاعة

﴿ خداع الشيطان

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يُحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعدُ الهمم، ولا يناله غوصُ الفطن»^(١).
والصلاة والسلام على خيرته من خلقه، وصفيّه من عباده، المبعوث رحمةً للعالمين، أبي القاسم محمد وعلى آله معادن الحكمة، وينابيع الرحمة، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو - بتقوى الله تعالى.

تمهيد في بعض أهداف خطب نهج البلاغة

نتعرّض في هذه الخطبة لذكر مقاطع شريفة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الواردة في (نهج البلاغة)، ومضمونها هو التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة، وما يكون وسيلةً إلى نعيمها، والترهيب ممّا يكون سبباً للشقاء فيها^(٢)، وعرض ما تتضمنه من

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ص ٣٩.

(٢) ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٦٢. ونصّ كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَابْتَاعُوا مَا يَبْقَى لَكُمْ بِمَا يَزُولُ عَنْكُمْ، وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جَدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكَكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صَاحِبِينَ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدُّوا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، وَمَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ. وَإِنَّ غَايَةَ تَنْقُصِهَا اللَّحْظَةُ وَتَهْدِيمِهَا السَّاعَةُ، جَدِيرَةٌ بِقَصْرِ الْمُدَّةِ. وَإِنَّ غَايَةَ تَحْدُوهُ الْجُدِيدَانِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لِحَرِيٍّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ. وَإِنَّ قَادِمًا يَقْدُمُ

مضامين تربويّة وروحيّة، بما يتيسّر لنا من شرح لها.

وقبل البدء بذلك لا بأس بالإشارة السريعة إلى ما تهدف إليه خطب (نهج البلاغة) من أغراض؛ فإنّ المتأمل في تلك الخطب الشريفة يجدها تُشير إلى مجموعة أغراض، أهمّها:

أولاً: تنبيه الناس إلى حقيقة الحياة الدنيا، وأنها حياة زائلة وفانية متقلّبة سريعة الزوال، فلا يغترّ بها الإنسان ولا ينخدع بمغرياتها، وأنّ الحياة الحقيقيّة التي ينبغي للإنسان العاقل الفطن أن يطلبها هي الحياة الآخرة التي هي دار القرار.

ثانياً: التنبيه على ما يُمكن أن يُصيب الإنسان من الغفلة عن الموت والاستعداد للآخرة.

وفي فقرات كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) التي سوف نستعرضها ما يُشير إلى هذين الغرضين؛ وذلك لأنّ مجمل ما فيها هو تزهيد الإنسان بهذه الحياة الدنيا وتنفيره عنها، وفي الوقت نفسه ترغيب في الحياة الآخرة والاستعداد لها.

تذكّر دنو الأجل

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ».



بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ مُسْتَحِقٌّ لَأَفْضَلِ الْعُدَّةِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْزُرُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا، فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ نَصَحَ نَفْسَهُ وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَ مَسْتَوْرٍ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمْنِيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَيِّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا فَيَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وَأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشَّقْوَةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ، وَلَا تُقْصِرُ بِهِ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ غَايَةٌ، وَلَا تَحُلُّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ نَدَامَةٌ وَلَا كَابَةٌ».

إنَّ أوَّل ما يوصي به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو التقوى؛ لأنَّها الوسيلة إلى تحصيل ثواب الآخرة والنجاة من عقابها، وتحصيل التقوى إنَّما يكمن بالمسارعة إلى لزوم الأعمال الصالحة وتوقُّع سرعة الأجل وإخطاره في البال، وترقُّب الموت وعدم الغفلة عنه إنَّما يكون بالإعراض عن دار الغرور دار الحياة الدنيا، والاستعداد للموت قبل نزوله بالإنسان.

إنَّ الموت قريب من الإنسان؛ لذا عليه ألاَّ يُجَدِّع بهذه الحياة الدنيا أو يغترَّ بها؛ لأنَّها دنيا زائلة فانية؛ فإنَّه قد اغترَّ بها الكثير وانخدع فيها ناس كانوا يطلبونها، لكنَّهم سرعان ما فقدوها، فزالت عنهم بدنو أجلهم وملاقاة حتفهم بالموت. نعم، الأجل أمر غير معلوم وقته عند الإنسان، لكنَّه حتمي الوقوع؛ فإنَّ الإنسان لا يدرك متى يحين أجله، ومتى سيحلُّ به الموت، فربَّما يُفاجأ به، لذا عليه الاستعداد لتلك اللحظات التي يُفارق فيها الدنيا، بالنظر إلى المصير الأخروي الذي ينتظره؛ فإنَّ هناك الحساب والعقاب، فإنَّما سعادة دائمة وحياة كاملة، وإنَّما شقاء وعذاب دائمين.

ليعلم الإنسان بأنَّه كلَّما انقضى منه يوم أو شهر أو سنة فإنَّه يقترب من أجله، ويطوي زماناً للدنو من الموت المحتم، فهو يقترب من الموت من حيث لا يشعر، فيكون الموت مسرعاً إليه، لذا عليه هو أن يُسارع بالعمل الصالح استعداداً لاستقبال الموت.

ثمن الحياة الحقيقيَّة الأخرويَّة

يقول أمير المؤمنين وسيد الوصيين عليه السلام: «وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم». عرض الله تعالى الحياة الدنيا صفقةً بينه وبين عبده، والمبتاع هو الحياة الحقيقيَّة

الأخروية، حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وعلم بلا جهل، وشباب بلا هرم، والتمن الذي يدفع مقابل هذه الحياة إنما هي حياة سريعة الزوال، مليئة بتبدل الأحوال، فيها المرض والكدر، والحزن والهم والغم، وكثير من المشاكل والكربات والابتلاءات.

لقد شبه الإمام عليه السلام دار الدنيا بسوق تجارة، عرض الله فيها متاع الآخرة للبيع؛ لذا فعلى الإنسان العاقل الفطن الكيس أن يغتنم هذه الفرصة قبل أن ينتهي وقت هذه الصفقة بحلول الأجل، ويشترى ذلك المتاع الأخروي قبل أن يندم على تفويته فرصة شراء الحياة الحقيقية.

وفي هذا المقطع الشريف إشارة إلى لزوم الزهد في الدنيا، والتخلي عن متاعها الفاني، وأن يشتري به ما يبقى من متاع الآخرة^(١).

الاستعداد للموت

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «وَتَرَحَّلُوا فَقَدْ جَدَّ بِكُمْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكُكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرَكْكُمْ سُدىً».

يصف الإمام عليه السلام الموت بأنه قريب؛ فإنه قد أشرف على الناس بظلاله، فهو قريب منهم سوف يلقي بظلاله عليهم، وقد كان قبل ذلك قد أمر بقطع منازل السفر إلى الله تعالى وسلوك الطرق الموصولة إلى رضوانه، فقد شبه الدنيا بمنزل تنزل فيه قافلة المسافرين ليستريحوا ثم يُنادى فيهم بالرحيل، ويُأمر بهم بالسير والارتحال والتعجيل.

بعض الناس يُسَوِّل لهم الشيطان ويوسوس في آذانهم، ويُزَيِّن لهم حب الدنيا،

(١) أنظر: ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٦٣.

فيغترون بها، فيتصور أنّ أجله بعيد، فيُسوّف التوبة إلى الله تعالى، ويؤخر ما عليه من أداء الطاعات والفرائض والحقوق؛ مغترّاً بطول الأمل، لكنه سرعان ما يُفاجأ بالموت الذي لم يكن على استعداد له. لذا يُشير الإمام عليه السلام إلى التهيؤ للموت، فإنّه قريب من الإنسان، وقد أشرف عليه، وإنّما يحصل ذلك التهيؤ ويتحقّق اذا علم الإنسان بأنّ أمامه طريقاً وسفراً إلى الله، ولازم ذلك السفر الزاد؛ فإنّ من لم يتزوّد في سفره يهلك.

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل هذه الحياة الدنيا مقراً للناس، وإنّما هي دار مرور، ينزلها الإنسان مدّة ثم يغادرها إلى الدار الآخرة، لكنّه في أثناء مدّة إقامته في هذه الحياة الدنيا يُمتحن فيها ويُختبر، وهذا إنّما هو لغاية وهدف، لذا يُنبّه الإمام عليه السلام الإنسان الغافل عن هذا الأمر بقوله: «وَكُونُوا قَوْمًا صَيِّحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدىً».

أمّا كيفية الاستعداد للموت فهو عليه السلام يُنبّه على ذلك في مقام آخر وحديث آخر، كما ورد في (أمالى) الشيخ الصدوق أعلى الله مقامه: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ قال: «أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والاشتغال على المكارم، ثم لا يُبالي أوقع على الموت أم الموت وقع عليه. والله، ما يُبالي ابن أبي طالب أوقع على الموت أم الموت وقع عليه»^(١).

فالاستعداد للموت يتمثّل في أداء الواجبات والفرائض التي تشمل الفرائض العباديّة والماليّة والاجتماعيّة؛ فإنّ الفرائض غير منحصرة بالعباديّة فقط، فلا بدّ من

(١) الصدوق، محمد بن عليّ، الأمالي: ص ١٧٢-١٧٣.

أداء تلك الفرائض بكاملها في أوقاتها، فإن حصل التقصير في الأداء فمعنى ذلك أن الإنسان قد فوت على نفسه الفرصة في كسب الصفقة مع الله تعالى، ولذا عليه أن يتدارك هذا بأداء كل تلك الفرائض.

وإنما يكمن أداء الفرائض واجتناب المحارم والآثام في التمسك بأمرين مهمين، فإن تحققاً يتحقق بهما الاستعداد للموت، وهما:

الأمر الأول: التوبة

إن ارتكاب المعاصي والذنوب يمكن أن يُتدارك بالتوبة؛ فإنه على الرغم من أن الإنسان محجوب عنه ساعة أجله وموته، ولكن ليس معنى ذلك أن يعتقد بأن الموت بعيد عنه، ويعتقد كذلك بأن هناك فرصة قادمة في المستقبل يمكن انتهازها لأجل التوبة، فإن هذا الاعتقاد غير صحيح؛ إذ لعل الموت يُفاجئ الإنسان في أية لحظة من لحظات حياته، فتفوت بذلك التوبة إلى الله، فيُقبل الإنسان على ربه وهو محمّل بالذنوب والآثام، لم يستغفر الله لمحوها وتكفيرها، بسبب خديعة الدنيا له في تسويفه أوقاتاً كانت صالحةً للتوبة إلى الله عز وجل.

الأمر الثاني: الصبر على الطاعة

إن الحياة الدنيا مليئة بالمحن والابتلاءات، الأمر الذي يتطلب من الإنسان الصبر على ما يتعرض له من مشاكل الدنيا وامتحاناتها، والذي يُطلب من هذا الصبر هو رضا الله تعالى، لا أن يُطلب من ورائه حطام الدنيا، إذ الصبر على طاعة الله وعن معصيته هو المطلوب من الإنسان، وهذا ما يُشير إليه الحديث القدسي: «يا بن آدم، إني لم أخلقكم عبثاً ولا جعلتكم سُدىً، ولا أنا بغافل عما تعملون، وإنكم لن تنالوا ما عندي إلا بالصبر على ما تكرهون في طلب رضائي، والصبر على طاعتي أيسر عليكم من حرّ النار، وعذاب الدنيا أيسر عليكم من عذاب الآخرة. يا بن آدم، كلّكم ضالّ إلا من هديته، وكلّكم مريض إلا من شفيته، وكلّكم فقير إلا من أغنيته، وكلّكم

هالك إلا من أنجيتَه، وكلّكم مُسيءٌ إلا مَنْ عصمته، فتوبوا إليّ أرحمكم، ولا تهتكوا أَسْأَارَكُمْ عند مَنْ لا يخفى عليه أسراركم»^(١).

إنّ الصبر على طاعة الله تعالى أيسر من أن يُعرّض الإنسان نفسه لعذاب الآخرة، إذ عذاب الدنيا - بما يشمل من الابتلاء والامتحان كالفقير والحرمان والمرض وتحمل المشقة وجميع الأمور التي يكرهها الإنسان - أهون من عذاب الآخرة.

ولقد أشار الحديث القدسي أيضاً إلى مجموعة أمور كلّها من نعم الله تعالى، كالهداية والصحة والغنى والنجاة، وهذه أيضاً تحتاج إلى الصبر، فإنّه لا يتصور الإنسان بأنّ الطاعات والعبادات هي التي تحتاج إلى الصبر دون غيرها، كلا؛ فإنّ النعم كذلك تحتاج إلى الصبر، ولعلّ شكر الله على هذه النعم هو نوع من الصبر، لكنّ الأهم هو الصبر على طاعة الله تعالى.

وعليه إذا ما حقّق الإنسان هذين الأمرين - وهما: المسارعة إلى التوبة بحيث يتدارك الإنسان نفسه قبل مجيئ أجله وبلوغه حتفه، فإنّ الموت يأتيه فجأة؛ لأنّه مستور عنه. والصبر على طاعة الله تعالى - يكون على استعداد للموت، لذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذكر الاستعداد للموت مشيراً إلى هذا المعنى: «فَاتَّقَى عَبْدُ رَبِّهِ، نَصَحَ نَفْسَهُ، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ».

خداع الشيطان

قال الإمام عليه السلام: «وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُؤَمِّنِيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، حَتَّى إِذَا هَجَمَتْ مَبْنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا».

(١) الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٤، ص ٤٠١.

يواصل الإمام عليه السلام الكلام عن الإنسان وحاله في هذه الدنيا مُشيراً إلى أنَّ الشيطان يخدعه ويمنّيه ويجعله يسوّف في التوبة إلى الله، وذلك بتزيين المعصية له ليرتكبها، ويبعّده عن التوبة بوسوسته له بطول عمره وعدم دنو أجله، وكذلك بانتهاز الفرصة في حال عدم مرضه والتمتّع بصحّته، فإنّ هذا في الواقع كلّ خداع للإنسان من أجل أن يُبعده عن طاعة الله تعالى.

وحين وقوع الإنسان في شباك الشيطان وحبائله لا يُفيد الندم، لذلك يختم أمير المؤمنين عليه السلام هذه الخطبة مُشيراً إلى هذا المعنى بقوله: «فيا لها حسرة على كلّ ذي غفلة أن يكون عمره عليه حُجّة، وأن تؤدّيه أيامه إلى الشقوة. نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممّن لا تُبطّره نعمة، ولا تُقصر به عن طاعة ربّه غاية، ولا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا كآبة».

فإنّه عليه السلام قد سأل الله الخلاص من ثلاثة أمور: أن يخلّصه من شدّة الفرح والبطر بنعمة الدنيا؛ فإنّ ذلك من لوازم محبّتها المستلزمة للهلاك الأبدي. وكذلك ألا تقصر به غاية عن طاعة ربّه. وألا تحلّ به بعد الموت ندامة ولا حزن بسبب اتّباع الهوى في الدنيا والعدول عن طاعة الله^(١).

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لعاجل التوبة، وأن يوفّقنا للمبادرة إلى صالح الأعمال قبل أن يحلّ بنا الموت، إنّه سميع مجيب. والحمد لله ربّ العالمين.

(١) أنظر: ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٦٧.

الخطبة الحادية والتسعون

دور العلم في الحياة اليومية

بتاريخ: ١٠ / ١٠ / ٢٠٠٨ م

﴿ طلب العلم ﴾

* الأمر الأول: أهميّة العلم في الحياة

ﷺ الحديث الأول: العلم مصباح العقل

ﷺ الحديث الثاني: العلم حياة القلوب

ﷺ الحديث الثالث: التفقه في أمر الدين

ﷺ الحديث الرابع: العلم طريق الجنة

﴿ احترام طالب العلم ﴾

* الأمر الثاني: الأهداف المتوخاة من طالب العلم

ﷺ النقطة الأولى: العلم النافع

ﷺ النقطة الثانية: طريقة اكتساب العلوم

ﷺ النقطة الثالثة: حقّ المعلم والمتعلّم

﴿ نشر علوم أهل البيت ﷺ ﴾

﴿ وصايا تربويّة ﴾

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله على ما عرّفنا من نفسه، وألهمنا من شكره، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيّته، ودلّنا عليه في الإخلاص له في توحيده، وجنّبنا من الشكّ والإلحاد في أمره. حمداً تقرّ به عيوننا إذا برقت الأبصار، وتبيّض به وجوهنا إذا اسودّت الأبصار»^(١).
والصلاة والسلام على نجيّبه من خلقه، وصفيه من عباده؛ وسيّد أنبيائه ورسله أبي القاسم محمّد، وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته
أوصيكم - إخواني وأخواتي - بتقوى الله تعالى والتزوّد بها ليوم: ﴿تَرْوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٢).

طلب العلم

الاهتمام بطلب العلم من الأمور التي أكّدت عليه الشريعة الإسلاميّة، وحثّت عليه روايات أهل البيت (عليهم السلام) كما سوف يأتي في مطاوي الكلام؛ إذ بالعلم يتوصّل الإنسان لمعرفة أحكام الله تعالى، والاطّلاع على سيرة النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)، وكذا سير الأنبياء والأوصياء والأولياء والصالحين. وبالعلم كذلك يُتوصّل إلى إحراز التقوى والسعادة والراحة والكمال في الدنيا والآخرة.

(١) الصحيفة السجّاديّة: ص ٣٠.

(٢) الحجّ: آية ٢.

وطلب العلم أمر متاح للجميع، الصغير والكبير، والغني والفقير، وكلّ بحسب قابليّته واستعداده.

نعم، ليس تحصيل العلوم أمراً مطلوباً من الجميع، وإنّما على الإنسان السعي من أجل تعلّم أحكامه الشرعيّة التي هي مورد ابتلائه، فيتعلّم مسائل وأحكام الحلال والحرام التي تخصّه؛ فإنّ الإنسان إذا أحرز ذلك يكون هذا الأمر كفيلاً له للوصول به إلى السعادة والراحة في الدنيا والآخرة، فلكي يصل الإنسان إلى رضا الله تعالى، ويحقّق الهدف الذي ينشده، وهو الحياة الحقيقيّة الأخرويّة التي يطلبها كلّ عاقل، فعليه العمل بلزوم التقوى، والسبيل إلى ذلك هو العلم والمعرفة بأحكام الله تعالى.

فحريّ بالإنسان أن يُخصّص وقتاً من يومه لتعلّم أحكامه الشرعيّة، والتعرّف عليها. والمطلوب - كما أشرنا - هو أن يتعرّف كلّ مكلف على ما هو مورد ابتلائه، حتى يُمكنه أداء واجباته وما هو المكلف به على الوجه الصحيح الذي يحرز معه صحّة عمله وقبوله عند الله تعالى.

وتزامناً مع بدء السنة الدراسيّة الجديدة، لا بأس بالتعرّض لأمرين يخصّان العلم وطلّابه في المقام:

الأمر الأوّل: أهميّة العلم في الحياة

إنّ طلب العلم كمال في الدين^(١)، فلكي يكتمل دين الإنسان المسلم عليه أن

(١) عن أبي إسحاق السبيعي، عمّن حدّثه، قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «أيّها الناس، اعلّموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإنّ طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، إنّ المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم، وضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله، وقد أمرتم بطلبه من أهله، فاطلبوه». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٠، باب فرض العلم ووجوب طلبه والحثّ عليه، ح ٤.

يندفع للتعرف على أحكام الله تعالى والاهتمام بها، فإنّ تعلّم العلوم - ولا سيّما الدينية منها - هو نور يُضيء حياة الفرد والمجتمع، وهو أساس السعادة والرفاهية والتقدم.

والعلم هو الوسيلة التي تقود الإنسان لتحقيق أهدافه المنشودة، ولقد شجّع الدين الإسلامي على طلب العلم والتعلّم، وحثّ على ذلك النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وهذا هو خير دليل على أثر العلم في حياة الإنسان. وفي المقام نستعرض جملةً من الأحاديث الشريفة لبيان أهميّة العلم في الحياة:

الحديث الأول: العلم مصباح العقل

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «العلم مصباح العقل»^(١). إذا ما أراد الإنسان أن يتخذ مصباحاً يجعل منه نوراً لعقله، فعليه بطلب العلم؛ لأنّ الإنسان إنّما يصير إنساناً بعقله، فإنّه إن لم يتصف بالعقل لا يختلف شيئاً عن البهيمة، والعقل إذا لم يتنور بنور العلم لا يقود إلى السعادة والحياة الطيبة، وإنّما يبقى في ضلالٍ وتيه، فبواسطة العلم يتنور عقل الإنسان.

الحديث الثاني: العلم حياة القلوب

قال النبي ﷺ: «قلب ليس فيه شيء من الحكمة كبيت خرب، فتعلّموا وعلموا، وتفقهوا، ولا تموتوا جهالاً؛ فإنّ الله عزّ وجلّ لا يعذر على الجهل»^(٢).

(١) الليثي الواسطي، عليّ بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٠.

(٢) الريشهري، محمّد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة: ص ٢٠٤.

يُشير هذا الحديث الشريف إلى أنَّ القلوب إنَّما تحيا بواسطة العلم والحكمة، ومن دونها يصير القلب ميتاً لا حياة فيه، وإذا فَقَدَ قلب الإنسان الحياة صار الإنسان بكامله فاقداً للحياة.

وقد شبه الرسول ﷺ القلب الخالي من الحكمة بالبيت الخرب، فإنَّ هكذا بيت لا يمكن أن يصل الإنسان به إلى الهدف المنشود من السكن والمأوى والراحة والسعادة، وهكذا هو القلب إذا لم يتزوّد بالعلم والحكمة لا يمكن أن يصل بصاحبه إلى الهدف المنشود.

إنَّ الغرض الأساسي من تزوّد القلب بالحكمة والعلم هو النجاة يوم القيامة عند الوقوف أمام المحكمة الإلهية للحساب، فإنَّ الله لا يعذر الإنسان على جهله وعدم علمه إذا ترك التكاليف الشرعية المأمور بها ولم يمثلها تقصيراً منه بجهله بها وعدم تعلّمها، فلا عذر لمن ترك الصلاة والصيام والحجّ وغيرها من الواجبات الإلهية والأحكام الشرعية؛ فإنَّ الله عزّ وجلّ بعد أن أرسل الأنبياء، وتوارث الأئمة عليهم السلام والعلماء علومهم، وبينوا تلك العلوم وأوضحوها للناس بشتّى الطرق والوسائل؛ حرصاً منهم لوصول تلك المعارف إلى العباد، قطع الحجة أمامهم للاعتذار عن عدم أدائها.

لذا حتّ الحديث الشريف على طلب العلم وكسبه ثم تعليمه والتفقه فيه؛ كي لا يُغادر الإنسان هذه الدنيا وهو جاهل بأحكامه وتكاليفه، فالله تعالى ليس عاذراً له إذا قصّر في ذلك.

الحديث الثالث: التفقه في أمر الدين

عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفّ لكلّ مسلم لا يجعل في كلّ جمعة يوماً يتفقه فيه أمر دينه ويسأل عن دينه»^(١).

(١) البرقي، أحمد بن محمّد، المحاسن: ج ١، ص ٢٢٥.

يُشير الحديث الشريف إلى ضرورة مذاكرة العلم في المسائل الفقهية المتعلقة بالدين، أي الأحكام والتكاليف الإسلامية المتعلقة بالمكلفين؛ فإنه من الضروري مذاكرتها ومعرفتها والتفقه فيها؛ لكي يصل الإنسان المسلم بها إلى الغاية المنشودة منها.

ويمكن تلخيص ما يُشير إليه الحديث الشريف في نقطتين:

النقطة الأولى: إنَّ أقلَّ المذاكرة المطلوبة مرّة في كلّ أسبوع، فإنه ليس المقصود من لفظ (جمعة) في الحديث هو يوم الجمعة، وإنّما المراد هو الأسبوع، فإنَّ تعيين وقت وإن كان ساعة واحدة في الأسبوع يكفي لاستحضار الإنسان أمور دينه وتعلّم ما هو خفي عنه، وخاصّة في الوقت الحاضر؛ فإنَّ هناك الكثير من الطرق والوسائل والإمكانات لأجل المذاكرة والمتابعة ومواصلة طلب العلم؛ فإنَّ أبواب العلماء ومكاتبهم مفتوحة للسؤال، والوسائل الإلكترونية الحديثة متوفرة ويتوفّر فيها عدد هائل من المحاضرات الثقافية والعلمية والدروس الحوزوية والمسائل الشرعية، ومجالس الوعظ الإرشاد معقودة، وما على الإنسان إلّا أن يبذل جهده ويوفّر شيئاً من وقته لمتابعة أحكام دينه.

النقطة الثانية: الإنصات والتوجّه وإحضار الذهن في تعلّم أحكام الله تعالى، فإنَّ مَنْ يحضر درساً، أو يُشارك في الحضور في مجلس علمي أو ثقافي، عليه الإنصات والإصغاء لأجل سماع ما يُطرح في ذلك الدرس أو المجلس من أحكام أو مواظ وإرشادات لأجل إدراكها وفهمها، حتى يحفظها ويعمل بها، ثمَّ يُعلّمها الآخرين.

الحديث الرابع: العلم طريق الجنة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً، سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِهِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لَطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَوْتُ فِي الْبَحْرِ...»^(١).

ذكر الحديث الشريف مجموعة امتيازات يمتاز بها طالب العلم، أو الإنسان الذي يسلك طريقاً يطلب فيه العلم، وذلك عن لسان النبي ﷺ وهو الصادق الأمين، ومنها ما يلي:

الامتياز الأول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرَّمَ طَالِبَ الْعِلْمِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُ، بِأَنْ جَعَلَ مَكَافَأَتَهُ الْجَنَّةَ، فَإِنَّهُ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ.

الامتياز الثاني: وهو أمر غيبي لا يستطيع الإنسان في دار الدنيا رؤيته، ولكنه واقعة حقيقية أخبر بها النبي ﷺ، وهو أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَفْرَشُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ، فَيَطَّأُ تِلْكَ الْأَجْنَحَةَ وَيَمْشِي عَلَيْهَا، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ طَالِبِ الْعِلْمِ وَارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

الامتياز الثالث: شمول طالب العلم باستغفار المخلوقات له، فَإِنَّ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ يَذْكُرُ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَحَتَّى الْخَوْتُ فِي الْبَحْرِ.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٤. و: الصفار، محمد بن الحسين بن فروخ، بصائر الدرجات: ص ٢٣. وتكملة الحديث الشريف فيه: «... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ لَوَرُثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ».

احترام طالب العلم

لأجل الامتيازات الكثيرة التي يحظى بها طالب العلم الحقيقي، ولما يناله من الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، يتحتم على الناس توقيره واحترامه؛ فإنه الذي يُنير الطريق إلى أبناء المجتمع ليسلكوا طريق التقوى والسعادة، وطريق رضا الله تعالى في الدنيا.

وإذا ما أراد الإنسان الحصول على تلك الامتيازات التي كرم الله تعالى بها العالم الحقيقي، والوصول إلى تلك المراتب العالية، وحصوله على الحظّ الأوفر عند الناس من الاحترام والإجلال، عليه أن يسلك طريق طلب العلم لينفع به نفسه أولاً، وغيره من الناس ثانياً.

الأمر الثاني: نقاط مهمة على طالب العلم اتّباعها

يتطلّب البحث في هذا الأمر الحديث عن مسائل كثيرة مرتبطة ومتعلّقة بالعلم وكيفية استحصاله ونشره، ونوعية العلوم التي تُطلب، فلكي تتحقّق الأهداف التي يتوخّاها طُلاب العلوم في بذل جهدهم وصرف وقتهم لاكتسابها، يجب عليهم الاهتمام بمجموعة أمور يمكن أن نستعرض منها في المقام الشيء اليسير كما يأتي في مطاوي الكلام، وذلك من خلال ذكر نقاط:

النقطة الأولى: اختيار العلم النافع

العلوم على أقسام وأنواع، ومنها علوم للدين والشرعة، ومنها علوم للدنيا والحياة، والعلم الذي يرأس جميع العلوم هو العلم الذي يوصل إلى معرفة الله تعالى وإحراز رضاه، لذا ينبغي ألا يشغل الإنسان نفسه بمتابعة ودراسة علوم لا تنفعه، وإنما يُحشد طاقاته في العلوم النافعة.

من هنا تجدر بنا الإشارة إلى الفحص والنظر فيما يتطلّب قراءته من الكتب أو المنشورات المرئية والسمعية، والتأكد من العلوم التي تحويها من كونها ذا نفع أو لا؛ لأنّ الإنسان سوف يصرف عليها وقتاً ويكرّس في قراءتها أو سماعها طاقةً فكريّةً وجسديّةً وروحيّةً بالتوجّه إليها والإصغاء إليها وإعمال الفكر فيها.

نعم، هناك الكثير - في الزمن الحاضر الذي نعيشه - من القنوات الفضائية والإذاعات ووسائل الإعلام الإلكترونيّة ومواقع التواصل الاجتماعي تطرح يومياً برامج وحوارات وغيرها من أمور لا ينتفع بها.

لأجل ذلك يوصي النبي ﷺ في حديث له الناس أن ينظروا في العلوم التي تُطرح؛ فإنّه لا يؤخذ بكلّ ما يتّفوه به أصحاب العلوم غير الضروريّة، فيقول ﷺ: «إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة. وما خلاهنّ فهو فضل»^(١).

(١) الكليني، محمّد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٣، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ح ١. ونصّ الحديث فيه هكذا: «... عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هذا؟ فقليل: علامة، فقال: وما العلامة؟ فقالوا له: أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعها، وأيام الجاهليّة، والأشعار العربيّة. قال: فقال النبي ﷺ: ذاك علم لا يضرّ من جهله، ولا ينفع من علمه. ثم قال النبي ﷺ: إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل».

وجاء في تفسير الحديث: «أي: العلم النافع آية محكمة، أي: واضحة الدلالة، أو غير منسوخة، فإنّ المتشابه والمنسوخ لا يُنتفع بهما غالباً. وفريضة عادلة أي: الواجبات المصونة من الإفراط والتفريط. وسنّة قائمة أي: المندوبات الباقية غير المنسوخة». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ١٠، ص ٣٦٣.

وفي حديث للإمام الكاظم عليه السلام يذكر فيه أنَّ المعرفة تكمن في أربع، قال عليه السلام: «وجدت علم الناس في أربع: أوَّلها أن تعرف ربَّك، والثانية أن تعرف ما صنع بك، والثالثة أن تعرف ما أراد بك، والرابعة أن تعرف ما يُخرجك من دينك»^(١).

إنَّ الإمام الكاظم عليه السلام قد حصر العلم في معرفة أربعة أمور؛ هي:

أولاً: معرفة الله ربَّ العالمين. ثانياً: معرفة الصنع، فلقد أرسل الله تعالى الأنبياء وجعل لهم أوصياء، ووهب للإنسان عقلاً، ثم سخر له المخلوقات والأرض وما عليها لينتفع بها. وهذا كله لأجل غاية، وهي ما يأتي في المعرفة الثالثة.

ثالثاً: معرفة الغاية من الخلق، فعلى الإنسان أن يعيَّ الهدف الذي خُلق من أجله، والذي لا بدَّ أن يسير إليه، فإنَّ الله تعالى حاشاه أن يخلق شيئاً عبثاً، وإنَّما ابتدع المخلوقات لحكمة وغاية، وهي عبادته جلَّ وعلا. لذا لا بدَّ من سلوك وسيلة صحيحة توصل إلى هذه الغاية المرجوة، وتلك الوسيلة هي العلم الذي يكمن في المعرفة الرابعة.

رابعاً: معرفة الحلال والحرام، بمعنى معرفة ما يؤدِّي بالإنسان إلى الضلال كي لا يقع فيه فريسةً للدعوات الباطلة الضالَّة، لكي يجتنبها ويتبعد عنها.

(١) الإربلي عليّ بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج ٣، ص ٤٨. وفيه بعد المذكور من كلام الإمام الكاظم عليه السلام: «معنى هذه الأربع: الأولى: وجوب معرفة الله تعالى التي هي اللطف. الثانية: معرفة ما صنع بك من النعم التي يتعيّن عليك لأجلها الشكر والعبادة. الثالثة: أن تعرف ما أراد منك فيما أوجبه عليك وندبك إلى فعله لتفعله على الحدّ الذي أَرادَه منك فتستحقّ بذلك الثواب. الرابعة: أن تعرف الشيء الذي يخرج عن طاعة الله فتجتنبه».

يُضاف إلى ما ذكر في هذه النقطة أنّ هناك بعض العلوم الدنيويّة تقوّم الإنسان؛ لأنّها تدخل في باب إصلاح الدين والنفس وتعمير الدنيا، وهذا في الحقيقة نعمة سخّرها الله تعالى لعباده للاستفادة منها، فإنّ هناك ما لا تستقيم الأمور الدنيويّة إلّا به، لكنّ على الإنسان إذا أراد أن يصلح أو يُقيم أمور الدنيا إلّا يؤدّي به الأمر إلى عدم استقامة أمور الدين، فيجب إصلاح أحوال الدنيا بما يرضي الله تعالى؛ لكي يكون ذلك وسيلةً للوصول إلى الغاية المنجية من الضلال، لذلك يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام): «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطبّ للأبدان، والنحو للّسان، والنجوم لمعرفة الزمان»^(١).

وهذا معناه أنّ هناك علوماً دنيويّة نافعةً في حياة الإنسان لا بدّ له أن يطلبها ويتعلّمها، شريطة ألا تكون مضرّةً باستقامة الدين.

النقطة الثانية: الحرص على الفهم الدقيق

هناك أسس يجب على الإنسان الذي يبغى التعلّم واكتساب العلم أن يُراعيها؛ كي يستفيد من الوقت الذي يصرفه في حضوره للدرس أو مجلس العلم، حتى يستحكم هذا العلم في عقله ويوظّفه في خدمة دينه ودنياه.

نعم، إنّ التزوّد بالعلم وأحكام الله تعالى فرصة ثمينة ينبغي استغلالها وعدم التفريط فيها؛ لأنّ العلم هو سلاح الإنسانيّة في مواجهة الجهل وظلامه، من هنا لا بدّ من التدرّج والتأمّل في الموادّ العلميّة التي يسمعها المتعلّم، أو التي يقرأها؛ لكي يتفهّم النظريّات والآراء المطروحة، ويتعمّق في دراستها للوصول إلى النتيجة

(١) النوري الطبرسي، حسين، مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ١٠٤، باب وجوب تعلّم إعراب القرآن...، ح ١.

الإيجابية التي يتوخاها العلم، لذا عليه ألا يجعل حضوره للدرس مضيعةً للوقت والجهد، وتفويت فرصة التعلم، وإنما يجعل من حضوره فاعلاً ومثابراً ومتابعاً.

فلو تعلم الإنسان شيئاً من الأحكام الشرعية فعليه أن يفهم معنى تلك الأحكام جيداً ويتفقه فيها ويتدبرها، حتى إذا تكلم فيها وتحدث للناس عنها يكون كلامه عن علم ودراسة وتفقه، لذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم... ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه»^(١).

وهناك إشارة واضحة من قبل أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن الأحكام الإلهية والفرائض والعبادات إذا لم يكن فيها تفقه ووعي وإدراك ودراية فإنها لا تنفع شيئاً، فهي - والحال هذه - مسلوقة الخير، لا يكتب لمن أداها حسن العاقبة، وإنما عاقبته تكون إلى السوء؛ فإن الكثير من العباد أضلوا الطريق وساءت عاقبتهم، فلم تنفعهم صلاتهم ولا صيامهم، ولا عبادتهم؛ لأنها لم تكن عن تفقه وفهم.

النقطة الثالثة: مراعاة حق المعلم والمتعلم

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في رسالة الحقوق: «وأما حق رعيّتك بالعلم، فإن تعلم أن الله قد جعلك لهم خازناً فيما آتاك من العلم، وولاك من خزانة

(١) عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يرخّص لهم في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبةً عنه إلى غيره. ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه». الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٢٢٦.

الحكمة، فإن أحسنت فيما ولّاك الله من ذلك وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق، الناصح لمولاه في عبيده الصابر المحتسب الذي إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التي في يديه، كنت راشداً وكنت لذلك آملاً معتقداً، وإلا كنت له خائناً، ولخلقه ظالماً^(١).

يتضمّن كلام الإمام السجّاد عليه السلام مضامين مهمّة، ومسائل دقيقة تختصّ بالمتعلّمين وحملة العلم، إذ كما هو واضح أنّ نهضة الشعوب والأمم وعدادها في قائمة الشعوب المتطورة والمتقدّمة والمزدهرة والمتحضّرة يتعلّق بالعلم واللجوء إليه، فلكي نصل بشعبنا إلى هذا المستوى من الرقي علينا أن يشدّ بعضنا على سواعد بعض، والنهوض به إلى التقدم كي يُصبح بلداً يسوده العلم، ويسمّى شعباً متعلّماً مثقفاً واعياً. وهذا الأمر يحتاج إلى معرفة الحقوق المتبادلة بين حامل العلم والمتعلّم، والتي يطرح الإمام زين العابدين عليه السلام شيئاً منها في الجُمْل التي نقلناها عنه عليه السلام.

إنّ من حقّ الرعيّة بالعلم (أي: المتعلمين) أن يتلقّوا ما يشاؤون من العلم عن طريق أهله وخزنته، وعلى حملة العلم أن يؤدّوا ما وجب عليهم أدائه من هذا الحقّ، فإنّهم إن لم يُعلّموا الناس ما يخزنونه من العلم يُساءلون أمام الحقّ والعدل^(٢).

وهنا نوجّه كلامنا مخاطبين جميع الكوادر التدريسيّة والتربويّة في الجامعات والمعاهد والمدارس، ولكلّ معلّم حتى في مجال الدراسات الدينيّة من جهة، ولجميع الطلاب والمتعلّمين من جهة أخرى، أن يُراعي كلّ واحد منهم الحقوق التي عليه تجاه الآخر، فيزكّي المعلّم به عمله وعلمه، ويستوفي المتعلّم حقه ممّا كسبه من معلّمه ومربيّه، ويحفظ كلّ منهما الحقوق تجاه الآخر.

(١) القبانجي، حسن، شرح رسالة الحقوق: ص ٤٧١. ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف

العقول عن آل الرسول ﷺ: ص ٢٦١.

(٢) القبانجي، حسن، شرح رسالة الحقوق: ص ٤٧٣.

حق المتعلم

لقد حثَّ الإمام عليّ بن الحسين السَّجَّاد عليه السلام حملةَ العلم وخزنته والعلماء على نشر علومهم وبذلها لمن يطلبها من المتعلِّمين، وجعل ذلك حقًّا عليهم، فإنَّ من حقوق المتعلِّم على العالم أن يبذل علمه إليه؛ لأنَّ العلماء مسؤولون عن ذلك؛ فإنَّ الله قد رزقهم الحكمة والعلم، فعليهم زكاة هذا العلم وإنفاقه، فإن بذلوه إلى المتعلِّمين فقد قاموا بواجبهم وأدوا رسالتهم، وإلا كانوا قد خانوا الأمانة وتعرَّضوا لنقمة الله وسخطه.

حقَّ المعلم

وأما حقَّ سائس العلم (العالم)، إنَّ من حقِّه التعظيم، والتوقير بمجلسه، وحسن الاستماع والإنصات له، والإقبال عليه بصدر رحب واسع، وأن يُعين الطالبُ أستاذَه على نفسه بأن يُفرِّغ له عقله وفهمه لاستيعاب دروسه وفهمها، وأن يُعيّنه في تأدية رسالته والقيام بها، فإنَّ المعلم هو صانع الفكر ومعلِّم الأجيال، فله اليد البيضاء على الإنسانية عامَّةً.

ومن الحقوق الأساسيَّة للمعلِّم أن ينشر المتعلِّم المعارف والعلوم التي تلقَّاهَا من أستاذَه؛ لأنَّه بذلك قد كتب الاستمرار لرسالة أستاذَه.

حقَّ العلم

إنَّ العلم نعمة من نعم الله تعالى على عبده، فلا يتصوّر العبد أنَّ علمه قد نتج من ذكائه ونبوغه في العلم، أو توجَّهه وإقباله على الدرس، فإنَّ هذا تصوّر خاطئ، فلقد أشار الإمام السَّجَّاد عليه السلام إلى ذلك بأنَّ حامل العلم بمثابة الخازن له؛ فإنَّ العلم خزانة من الله جعلها في العالم، وجعله أميناً عليه، ومن حقَّ هذه الخزانة أن تصل إلى مستحقِّيها من طُلاب العلوم.

وكما أنّ للمعلّم حقّاً وللمتعلّم حقّاً كذلك العلم نفسه فإنّ له حقّاً على المعلّم والمتعلّم، فإنّ العلم هو الذي يصل بالإنسان إلى الغاية والهدف والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة، فمن حقوقه أن نسمعه بإنصات وتأمّل وتدبّر، ثم الاعتناء به أشدّ الاعتناء، ومن بعد ذلك حفظه، والعمل به ونشره. يقول الإمام عليّ عليه السلام في هذا المضمار: «جاء رجل من الأنصار إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حقّ العلم؟ قال ﷺ: الإنصات له. قال: ثم مه؟ قال: الاستماع له. قال: ثم مه؟ قال: الحفظ له. قال: ثم مه يا نبي الله؟ قال: العمل به. قال: ثم مه؟ قال: ثم نشره»^(١).

نعم، إنّ ضريبة العلم هو نشره في الأوساط والمجتمعات؛ ليتنوّر به جميع أبناء الإنسانية، فلا يترك العالم والمتعلّم نفسيهما لآفة الغرور والتكبّر، فيشعران بأنّهما أفضل من الآخرين لتصوّرهما بأنّهما يحملان شيئاً من العلم، وإنّما عليهما أن يفهما بأنّ العلم هو خزانة كما ذكرنا، والحكمة كذلك أمانة من الله تعالى في عنقيهما لا بدّ وأن يفيضا بهما على الناس، فمن تعلّم مسألةً عليه أن ينشرها إلى الآخرين، فإذا فتح هذا الباب فسوف يفتح الله عليه مزيداً من أبواب المعرفة، وبهذه الطريقة ينمو العلم ويُنشر. يقول النبي ﷺ: «ما تصدّق الناس بصدقة مثل علم يُنشر»^(٢).

نشر علوم أهل البيت عليه السلام

إنّ نشر مذهب أهل البيت عليه السلام وعلومهم تارةً يكون بالدعوة الصامتة، وهي التخلّق بأخلاقهم والتأدّب بأدابهم واتباع سيرتهم وطريقهم، وتارةً أخرى بنقل كلامهم وأحاديثهم، وكلّ كلامهم حسن، وكلّ حديثهم طيب. بهذين الأمرين

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٦٠٣.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد: ص ١٠٥.

يُنشر حديث وعلم أهل البيت عليه السلام، فيهتدي به الآخرون البعيدون عن منهجهم عند سماع محاسن كلامهم وطيب أحاديثهم.

ولقد ورد في حديث الإمام الرضا عليه السلام لعبد السلام بن صالح الهروي الوصية بإحياء أمرهم، ولا يفهم من إحياء أمرهم عليه السلام الاقتصار على إقامة مجالس الغناء والشعائر فقط، فإن إقامة الشعائر أمر مطلوب، لكن الإمام الرضا عليه السلام قد ركّز على أمر آخر يُعتبر إحياء حقيقياً لأمرهم، وهو تعلّم علومهم عليه السلام، فعن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «رحم الله عبداً أحيّا أمرنا». فقلت له: فكيف نُحيي أمركم؟ قال: «يتعلّم علومنا ويعلمها الناس؛ فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»^(١).

إنّ علوم أهل البيت عليه السلام متاحة للجميع، فلا يصحّ أن يُقال: إنّ تعلّمها في عهدة طلاب العلوم الدينيّة والمبلّغين والواعظين فقط، وإنّا بإمكان كلّ شخص السعي من أجل تحصيل شيء من هذه العلوم؛ وذلك بمجالسة أهل العلم، وحضور المنتديات والحلقات العلميّة والمحاضرات الدينيّة والثقافيّة، وعند اكتساب شيء من تلك العلوم ونيل محاسن كلامهم يمكن تبليغه ونشره بين الناس، فيعلّم غيره تلك العلوم من أجل اتباع مذهب أهل البيت عليه السلام.

سوف ينال الذي يُحيي أمر أهل البيت عليه السلام استغفار أهل الأرض والسماء، وحياتان البحر، وهو ثواب عظيم؛ ذلك لأنّه قد ساهم في نشر علوم أهل البيت عليه السلام، فيُعتبر كالمعلّم، والنبي صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ معلّم الخير يستغفر له دوابّ أهل

(١) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ١٨٠.

الأرض، وحيتان البحر، وكلّ ذي روح في الهواء، وجميع أهل السماء والأرض، وإنّ العالم والمتعلّم في الأجر سواء»^(١).

وصايا تربويّة

بمناسبة بدء السنة الدراسيّة الجديدة، ومن منبر الجمعة، ولأجل نشر العلم والارتقاء بشعبنا وأبناء أُمّتنا إلى مستوى الشعوب المتمدّنة والمتعلّمة والمتقدّمة، نوجّه نداءنا ووصيّتنا إلى الفئات أصحاب الشأن بما يلي:

أولاً: المسؤولون في وزارة التربية والتعليم العالي، عليكم بالحدّ والتقليل من العُطل؛ فإنّ الإكثار منها لا يصبّ في مصلحة البلد؛ إذ ما أحوجنا اليوم إلى العمل ومدارسه العلوم من أجل انشغال بلدنا من مستنقع التخلف والإهمال، ومسألة نشر العلم أمانة في عنق الكادر التربوي والتعليمي؛ فإنّ استثمار الوقت من أجل دراسة كافّة موادّ المناهج التدريسيّة إلى أذهان الطّلاب إنّما يتحقّق بعدم الإكثار من العُطل في البلاد.

ثانياً: إعطاء العلوم حقوقها من المذاكرة والتدريس، فعلى المعلّم إيصال كلّ المعلومات وفي مختلف العلوم إلى ذهن الطالب، وبذل قصارى جهده في تفهيمه، وفي الوقت نفسه متابعة مستوى الطّلاب الدراسي والعلمي. وعلى الطالب الاهتمام والإصغاء للمعلّم من أجل كسب أكبر كمّيّة من المعلومات العلميّة التي يطرّحها.

ثالثاً: الاهتمام بالجانب الأخلاقي بالإضافة إلى الجانب الثقافي، ولا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار بأنّ أبناءنا طّلاب اليوم هم الذين سوف يقودون البلد غداً، وهم الذين يمارسون عملية بنائه وتطويره، فتغذيتهم بالأخلاق إلى جانب التغذية

(١) الصّفّار، محمّد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات: ص ٢٣.

العلمية أمر مهم جداً؛ لأنّ العلوم لوحدها إذا لم تقترن بالأخلاق والآداب الإسلامية ربّما تنقلب إلى نقمة ووبال، كما هي الحال في بعض الدول التي لم تتعلّم الأخلاق كما تعلّمت العلوم، فإنّها لم تتخلّق بالأخلاق الإلهية والإنسانية، فصارت علومهم سلاحاً مدمراً قضى على الشعوب والإنسانية، وأصبحت وسيلة قتل ودمار وإهلاك.

لذا على المؤسسات التعليمية والمدارس والمعاهد والكليات والجامعات كافّة أن يهتمّوا بالجانب الأخلاقي الديني، بأن يُخصّص وقتٌ معيّن لتدريس مادّة الأخلاق الإسلامية، لكي ينشأ الجيل الجديد على أخلاق الإسلام، التي تحترم حقوق الآخرين، وتحترم النظم والقوانين، وتقّدر العمل والوقت، وتهتمّ بالقيم والمبادئ الإنسانية والحضارية، التي هي منشأ التقدّم في الشعوب.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا في ذلك، وأن يسلك بنا مسالكه في طلب العلم، إنّه

سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثانية والتسعون
رشحات من دور الإمام الصادق عليه السلام التربوي
في المجتمع

بتاريخ: ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٨ م

﴿ دور الإمام الصادق عليه السلام التربوي

﴿ أولاً: حفظ اللسان

﴿ ثانياً: علامات الشيعي الحقيقية

﴿ العلامة الأولى: الصمت عن الفحشاء

﴿ العلامة الثانية: الابتعاد عن الرئاسة

﴿ العلامة الثالثة: ألا يكون مشاء

﴿ العلامة الرابعة: الاهتمام بأوقات الصلاة

﴿ العلامة الخامسة: الصفح

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ بِكُلِّ مَا حَمَدَهُ بِهِ أَذْنَى مَلَائِكَتِهِ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمُ خَلِيقَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَرْضَى حَامِدِيهِ لَدَيْهِ... حَمْدًا لَا مُنْتَهَى لِحَدِّهِ، وَلَا حِسَابَ لِعَدَدِهِ، وَلَا مَبْلَغَ لِعَاقِبَتِهِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِأَمَدِهِ^(١).

والصلاة والسلام على أمينه على وحيه، ونجييه من خلقه، وصفيّه من عباده، إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، سيّدنا ونبيّنا أبي القاسم محمّد، وعلى آله خزان الوحي، ورحمة الله وبركاته.

أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو - بتقوى الله تعالى، والكون مع الصادقين، والاهتداء بهديهم، والسير على نهجهم القويم.

تمرّ علينا بعد يومين - في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال المكرّم - ذكرى استشهاد علم من أعلام الهدى، ألا وهو العلم والإمام السادس من أئمة أهل البيت الأطهار، الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

وبهذه المناسبة علينا أن نستذكر بعض الأدوار التي قام بها الإمام الصادق عليه السلام في إحياء الأمة الإسلاميّة، حيث إنّه أدّى ومارس أدواراً مهمّةً في الحفاظ على الفكر الإسلامي وأصالته، والحفاظ على المجتمع الإسلامي^(٢).

(١) الصحيفة السجّاديّة: ص ٣٢.

(٢) أشار سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) في هذه الخطبة إلى بعض الأدوار التي قام بها الإمام الصادق عليه السلام، كدوره السياسي في عصره، ودوره في الحفاظ على المجتمع الإسلامي

دور الإمام الصادق عليه السلام التربوي

مارس الإمام الصادق عليه السلام دور ترسيخ المفاهيم التربوية والأخلاقية في الأمة الإسلامية، معلماً الفرد المسلم كيفية الخوف من الله تعالى واللجوء إليه والتقرب إليه عز وجل في جانب، وحب المؤمنين وعدم بغضهم في جانب آخر. كما وأكد على كيفية زرع الثقة بالله والتوكل عليه، وأنه سبحانه وتعالى ناصر المؤمنين ومؤيدهم.

ومما لا شك فيه أن كل أمة أو كل مجتمع لا بد وأن يواجه تحديات ومصاعب حياتية، وأزمات وصعوبات معيشية تحتاج إلى الصبر والثبات بوجهها حتى تخرج منها الأمة منتصرة حافظة لكرامتها وعزتها. وهذا الأمر لا يتحقق للأمة إلا إذا التزمت بالآداب والأخلاق الإسلامية، لذا بذل الإمام الصادق عليه السلام ما بوسعه في هذا المجال لتعليم الناس كيفية التحلي بهذه الآداب المنجية من المصاعب والمتاعب الحياتية.

ومن جملة ما ورد عنه عليه السلام في هذا المجال حديث شريف يختصر فيه معاني كثيرة تُنجي الإنسان من الهلاك، يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).

لا شك في أن الإنسان يخاف من أشياء كثيرة في الحياة، وإذا ما سيطر عليه هذا الخوف فإنه سوف يقيد حركته ونشاطه، ويمنعه من ممارسة أدواره في الحياة، فلا يمكنه حينئذ القيام بشيء، لكن الإمام عليه السلام يضع ضابطةً كليّةً في هذا الحديث يُعلم من خلالها المسلم كيفية مواجهة ذلك الخوف، وتلك الضابطة هي مخافة الله عز وجل.



بشكل عام والمجتمع الشيعي بشكل خاص، لكن اقتصرنا على إيراد الدور التربوي والأخلاقي في بناء الفرد والمجتمع؛ وذلك حفاظاً على وحدة موضوع الكتاب المتعلق بهذا الغرض.

(١) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٨، ص ٣٣.

وجلّ، فإذا خاف المسلم ربّه خاف منه كلّ شيء، وأمّا العكس من ذلك فإنّه إذا لم يخف ربّه سوف يخاف من كلّ شيء.

وهناك جوانب تربويّة كثيرة كان الإمام الصادق عليه السلام له فيها دور فاعل في بناء المجتمع المسلم، وفيما يلي نُجمل مجموعةً من تلك المفاهيم التربويّة الأخلاقيّة التي يحثّ الإمام الصادق عليه السلام الناس وشيعته عليها؛ لיתمسّكوا بها:

أولاً: حفظ اللسان

أكّد الإمام الصادق عليه السلام على مسألة هي في غاية الأهميّة بالنسبة للفرد والمجتمع، وهي مسألة حفظ اللسان وصونه عن الخطأ، وعن التعرّض لأعراض الناس؛ فإنّ في التعرّض لذلك خفّة ومهانة وانحطاطاً للمتعرّض في أعين الناس، وفي حفظ اللسان عن الفضول من الكلام باب للنجاة، وأنّ سلامة الإنسان في حفظ اللسان، وأنّ نجاته من وبال الدنيا ونكال الآخرة في الإمساك عن فضول الكلام.

فما على الإنسان إلّا التسلّط على لسانه وليس العكس؛ فإنّ اللسان من جملة مهلكات الإنسان، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن كان الشؤم في شيء فهو في اللسان، فاخزنوا ألسنتكم كما تخزنون أموالكم، واحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أقتل للرجال من اتّباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»^(١).

يُشير الحديث الشريف إلى شيئين يهلكان الإنسان، أوّلهما اللسان، وثانيهما اتّباع هوى النفس، لذا يحذّر الإمام عليه السلام منها أشدّ تحذير، موصياً الإنسان بأن يحرص على

(١) الطبرسي، أبو الفضل عليّ، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ١٣٦.

حفظ لسانه وخزنه كما هو حريص على حفظ ماله وخزنه وصونه من الهلاك أو الضياع أو التلف، فإنَّ اللسان ينبغي أن يُحفظ ويُصان، وذلك من خلال منعه من النطق بالمحرّم، أو التهجّم على أعراض الناس.

كما وحذّر كذلك عن اتّباع الهوى والشهوات والرغبات النفسيّة بدون هدي القرآن والسنة الشريفة؛ فإنَّ الأمزجة والميول النفسيّة وغرائز الإنسان يجب أن تسيّر وفق منهج معتدل مأخوذ من القرآن والسنة الشريفة؛ كي لا تجمع بصاحبها إن أُطلق لها العنان، فإنّها - والحال هذه - تكون قد أهلكت صاحبها.

ثانياً: علامات الشيعي الحقيقية

يدّعي بعض الناس التشيع وكونه من أتباع أهل البيت عليه السلام وموالياً لهم، لكنّ تصرّفه وسلوكه وأخلاقه منافية لتعاليم أهل البيت عليه السلام ومنهجهم وطريقتهم، الأمر الذي يُسيئ لأهل البيت عليه السلام بادّعاء الانتساب إليهم، لذلك يؤكّد الإمام الصادق عليه السلام على بيان العلامات الحقيقية لَن يدّعي الانتساب إليهم، أو كونه موالياً لهم ومن شيعتهم، فيوضح علامات الإيمان الحقيقية التي يعكسها المؤمن في جميع مجالات الحياة، سواء العقائديّة، أم الفكرية، أم الاجتماعيّة، أم التربويّة، أم غيرها، وذلك من خلال أمور تجمعها الأحاديث الشريفة الواردة عنه عليه السلام.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في بيان مواصفات وعلامات الشيعي الحقيقية: «إنّما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، وصبر في دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقّاً، وهم المؤمنون. إنّ أبغضكم إليّ المترسّون المشاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا منّي ولا أنا منهم، إنّما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا واتبعوا آثارنا واقتدوا بنا في كلّ أمورنا...»^(١).

(١) البروجردي، حسين، جامع أحاديث الشيعة: ج ١٤، ص ٥٣٩. والنصّ مقطع من وصيّة طويلة صادرة عن الإمام الصادق عليه السلام يوصي بها أبا جعفر محمّد بن النعمان الأحول.

ويقول عليه السلام أيضاً في حديث آخر يكشف فيه علامات الشيعي: «امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة، كيف محافظتهم عليها، وإلى أسرارنا كيف حفظهم لها عن عدونا، وإلى أمواهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها»^(١).
ويقول في حديث ثالث في هذا المعنى أيضاً: «لا يفترق رجلان على الهجران إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك كلاهما».

فقال له متعب: جعلني الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعاس»^(٢) له عن كلامه. سمعت أبي يقول: إذا تنازع اثنان فعاز أحدهما الآخر فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول لصاحبه: أي أخي أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه؛ فإن الله تبارك حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم»^(٣).

ويمكن أن نذكر من هذه العلامات - كما وردت في الروايات الشريفة - ما يلي:

العلامة الأولى: الصمت عن الفحشاء

إن الذي ينجو بتشيعه وولائه لأهل البيت عليه السلام ليس من يدعي التشيع والولاء؛ فإن مجرد الادعاء غير كافٍ في دخول الإنسان إلى دائرة التشيع والانتفاء لأهل البيت عليه السلام، وإنما هناك سلوك وأفعال وأقوال وتصرفات يجب مراعاتها

(١) الحميري القمي، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد: ص ٧٨.

(٢) «العَمَس»: أن تُريَّ أنك لا تعرف الأمر وأنت عارف... وتعاس عنه: تغافل وهو به عالم». ابن

منظور، علي بن مكرم. لسان العرب: ج ٦، ص ١٤٧ - عمس.

(٣) الطبرسي، أبو الفضل علي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ٣٦٥.

وتطبيقها حتى ينجو الإنسان ويُحسب من شيعة أهل البيت عليه السلام، ومن تلك السلوكيات هي إطالة الصمت من الفحشاء، وهو تعبير آخر عن الصبر وحفظ اللسان في آن واحد، فإذا حفظ الإنسان لسانه عن كل ما يصدق عليه فحشاء كانت قد توفرت فيه إحدى علامات الشيعي الحقيقية.

العلامة الثانية: الابتعاد عن الرئاسة

حبّ الرئاسة وطلبها أمر لا يُنكر، لكنّ هناك مَنْ يطلب الرئاسة قاصداً من ذلك خدمة إخوانه المؤمنين وخدمة المجتمع، وهذا في نفسه شيء حسن، لكنّ الذي يبيغضه الإمام الصادق - كما يُشير إليه الحديث المتقدم - هو طلبه الرئاسة لنفسه لا من أجل خدمة غيره، فإنّ مَنْ يطلب الرئاسة الأخيرة وإن كان يدّعي بأنّه من موالى أهل البيت عليه السلام لكنّه ليس شيعياً حقيقياً؛ إذ من علامات التشيع الحقيقية الابتعاد عن هذا الأمر.

وليس المقصود بالرئاسة هنا الرئاسة العالية فقط، كرئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء، وإنّما المقصود هو التّروّس وإن كان على المستوى البسيط؛ فإنّ كلّ مَنْ ترأس شخصين أو أكثر في مكان ما يجمعهم يُسمّى رئيساً لهم، فهذا الأمر يحصل في مكان العمل الصغير، وفي السوق، وفي غيرهما.

فواحدة من علامات الشيعي الحقيقية هي عدم طلبه للرئاسة والابتعاد عن هذا الأمر المبعوض لدى الإمام الصادق عليه السلام.

العلامة الثالثة: ألا يكون مشاءً

المشاء: هو الذي يمشي بين الناس بالنميمة^(١)، لذلك ورد التعبير في حديث الإمام الصادق عليه السلام المتقدم: «المشاؤون بالنائم»، وهم الذين ينقلون الكلام بين

(١) أنظر: ابن منظور، علي بن مكرم، لسان العرب: ج ٥، ص ٢٨٢.

الناس، فينقلون كلام شخص إلى آخر، فإنّ في ذلك مفسدة كبيرة؛ لأنّه يُسبّب في إثارة الفتنة، الأمر الذي يبعث على العداوة والحسد والبغض بين الناس.

نعم، قد يتصوّر بعض الناس أنّه يحاول التقريب بين وجهات النظر عند الناس من خلال نقله كلام بعضهم بعض، وهو مصلحة للجميع، لكن ربّما يكون الأمر على العكس من هذا التصوّر، فقد يُسبّب في زرع البغضاء والشحناء والعداوة في نفوس الناس، فيسبّب في فكّ أواصر المجتمع وتباعد بعضهم عن بعض.

لذا يؤكّد الإمام الصادق عليه السلام على أنّ الشيعي الحقيقي لا يكون مشاءً بالنائم بين الناس، فإنّ الإمام عليه السلام يقول: مَنْ اتّصف بهذه الصفات من الناس فإنّه ليس منّي. فالإمام عليه السلام بريء من هؤلاء الناس المشائين بين إخوانهم بالنائم، وإنّهم ليسوا من شيعته الحقيقيين وإن ادّعوا ذلك.

العلامة الرابعة: الاهتمام بأوقات الصلاة

الصلاة وسيلة كشف العلاقة بين الإنسان وربّه، فعندما يُراد البحث عن نمط العلاقة التي تربط الإنسان برّبّه يُنظر في اهتمامه ومحافظة على أوقات الصلاة، وهذه العلاقة هي العلاقة الحقيقية لموالي أهل البيت عليهم السلام، يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه المتقدّم: إنّ امتحان الشيعي الحقيقي عند مواقيت الصلاة ومحافظة عليها، فكلّما كان الإنسان مهتمّاً بصلاته وأوقاتها ومحافظةً عليها فهو شيعي حقّاً، وأمّا إذا أهمل ذلك ولم يهتمّ به فهو يدّعي التشيع وليس شيعياً حقيقياً.

يُضيف الحديث المتقدّم عن الإمام الصادق عليه السلام - والذي ذكر المحافظة على أوقات الصلاة - خصلتين أُخريين، وهما: كتم أسرار أهل البيت وحفظهما عن

عدوهم، ومواساتهم لإخوانهم في أموالهم. فإنّ هاتين الخصلتين من علامات الشيعي الحقيقيّة أيضاً.

العلامة الخامسة: الصفح

الإنسان معرّض في الحياة لزلّات حياتيّة مع إخوانه وأبناء جنسه، وتصدر عنه سلوكيّات كثيرة ربّما يكون بعضها فاقداً للصواب أو للطريقة اللائقة بالتفاهم أو التعامل مع الآخرين، الأمر الذي يؤدّي إلى الإساءة لهم، سواء عن قصد، أم عن غير قصد، وهنا يُميّز الشيعي الحقيقي عن غيره من الناس، فالذي يغفر أخطاء إخوانه ويصفح عنهم ويُسامح مَنْ أساء له، فهذا هو الشيعي الحقيقي الموالي لأهل البيت عليه السلام؛ لأنّ من صفات أهل البيت عليه السلام هو التسامح والصفح والحلم عمّن يُسيء إليهم.

أمّا الذي يكتُم في قلبه الحقد والبغضاء والعداوة حتى تحين له فرصة الانتقام، فيبادر إلى الانتقام من أخيه، فهذا ليس من الموالين لأهل البيت عليه السلام، وليس من شيعتهم الحقيقيّين.

من هنا يُطلق الإمام الصادق عليه السلام كلمته في هذا المعنى يحثّ فيها شيعته وأبناء الأُمّة الإسلاميّة على المحافظة على علاقة المودّة، والمحبة والتآخي بين أبناء المجتمع، رافعاً شعار التسامح والعفو والصفح عن الإساءة؛ لكي تقوى الأواصر بين الأسر والمجتمعات، ويتكاتف المؤمنون والمسلمون فيما بينهم، ويعضد بعضهم بعضاً من أجل الدفاع عن أنفسهم وإرهاب عدوهم.

إنّ العداوة سبب للهجران وقطع الصلة بين الناس، فإذا ما اختلف اثنان من المؤمنين في قضية ما، وفارق أحدهما الآخر وهجره، فإذا لم يسامح بعضهم بعضاً وقعت القطيعة، لذلك الصفح والتسامح عاملان مهمّان في الصلة وعدم المقاطعة،

بل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المعنى يُشير إلى أشدّ من ذلك، وهو البراءة واللعنة، اللتين ربّما يستحقّهما الاثنان، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يفرق رجلان على المهجران إلّا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربّما استحقّ ذلك كلاهما». يُثير هذا الأمر استغرابَ بعض أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، فيسأله عن سبب ذلك؛ إذ كيف يستحقّ الاثنان البراءة واللعنة مع أنّ أحدهما ظالم والآخر مظلوم؛ فإنّ الحال يقتضي أن يكون المسيء هو الظالم، وهو الذي يستحقّ اللعنة والبراءة، أمّا الآخر الذي وقعت عليه الإساءة فهو مظلوم، فلماذا يستحقّ ذلك أيضاً؟! يقول الحديث: فقال له متعب: جعلني الله فداك، هذا الظالم، فما بال المظلوم؟ قال: «لأنّه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعاسس له عن كلامه».

ومضمون جواب الإمام عليه السلام أن يحمل المسلم في قلبه روح التسامح والعفو والصفح حتى مع أخيه الذي ظلمه، وذلك بأن يتجاهل أو يتغافل عمّا صدر عنه من قول أو فعل؛ حفاظاً على علاقة المودّة والتقارب، ونبذاً للمهجران والقطيعة. قال الصادق عليه السلام: «سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان فعاز أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه حتى يقول لصاحبه: أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع المهجران بينه وبين صاحبه؛ فإنّ الله تبارك وتعالى حكم عدل يأخذ للمظلوم من الظالم»^(١).

إنّ الأخوة بين المؤمنين - والتي هي أخوة الولاء لأهل البيت عليهم السلام، أخوة الإيمان - تقتضي مرتبةً عاليةً من التسامح والصفح، فلا ينال الإنسان صفة التشيع الحقيقية والولاء لأهل البيت عليهم السلام إلّا بهذه المرتبة، تلك المرتبة التي تجعل من المظلوم

(١) الطبرسي، أبو الفضل علي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: ص ٣٦٥.

هو الذي يُبادر لقطع الهجران بينه وبين صاحبه الذي ظلمه، مودعاً حقّه لله تعالى الحكم العدل الذي لا يترك هذه الظلامة تذهب أدراج الرياح، وإنّما يستوفي ذلك الحقّ من الظالم يوم الحساب.

نعم، لا يكون الإنسان شيعياً حقيقياً إلا إذا تجاهل تلك الإساءة وتغافل عنها وعفا عن صاحبها، وتصالح مع أخيه وأحكم العلاقة والرابطة والمودّة بينهما. نسأل الله تعالى أن يوفّقنا للاقتداء بهدي آل البيت عليهم السلام، وأن نسير على نهجهم، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

الخطبة الثالثة والتسعون

مفهوم الخير في الإسلام

بتاريخ: ٧ / ١١ / ٢٠٠٨ م

﴿ مفهوم الخير

﴿ تصحيح انطباع مفهوم الخير عند عامّة الناس

﴿ المال مصدر التعاسة

﴿ الخير في بيان أمير المؤمنين عليه السلام

﴿ مصاديق مفهوم الخير

﴿ المصداق الأول: نفع عباد الله المؤمنين

﴿ المصداق الثاني: النصيحة الصادقة

﴿ المصداق الثالث: الزهد في الدنيا

﴿ المصداق الرابع: الرضا بقضاء الله تعالى

﴿ المصداق الخامس: الزوجة الصالحة

﴿ المصداق السادس: قطع الطمع ممّا في أيدي الناس

﴿ المصداق السابع: التحلّي بالأخلاق الحميدة

﴿ المصداق الثامن: المبادرة إلى التوبة

﴿ أهميّة المسارعة إلى الخيرات

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَارَ لَنَا مُحَاسِنَ الْخَلْقِ، وَأَجْرَى عَلَيْنَا طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ، وَجَعَلَ لَنَا الْفَضِيلَةَ بِالْمَلَكَةِ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَكُلُّ خَلِيقَتِهِ مُنْقَادَةٌ لَنَا بِقُدْرَتِهِ، وَصَائِرُهُ إِلَى طَاعَتِنَا بِعِزَّتِهِ»^(١).

والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير المبعوث رحمةً للعالمين أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الأبرار آل طه وباسين.
أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأتارة بالسوء - بتقوى الله تعالى، والكون مع الصادقين آل طه وباسين، والمسارة إلى الخيرات والتوبة من السيئات والخطيئات.

مفهوم الخير

لقد حثَّت الشريعة الإسلامية على فعل الخيرات، وعبَّجت النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة على ترغيب العباد في المبادرة والإسراع إليها، لهذا علينا أن نتعرَّف على مفهوم الخير لدى المشرِّع الإسلامي؛ فإنَّ المطبوع في أذهان الناس وفهمهم لذلك هو غير المقصود من الخير في نظر الشريعة. ولأجل ذلك سوف نتعرَّض في المقام لبيان ما المقصود من مفهوم الخير من خلال عرض نصِّ شريف من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الوارد في (نهج البلاغة)، فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الخير ما هو؟ فأجاب ما نصّه:

(١) الصحيفة السجّادية: ص ٣٠.

«ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنّ الخير أن يكثر علمك، وأن يعظم حلمك، وأن تُباهي الناس بعبادة ربّك، فإن أحسنت حمدت الله، وإن أسأت استغفرت الله، ولا خير في الدنيا إلّا لرجلين: رجل أذنب ذنباً فهو يتداركها بالتوبة، ورجل يُسارع في الخيرات»^(١).

تصحيح انطباع مفهوم الخير عند عامة الناس

مما تقدّم في النصّ الشريف الوارد عن أمير المؤمنين عليه السلام يمكن بيان مفهوم الخير، أو توضيح النظرة الصحيحة والواقعية لهذا المفهوم في الشريعة الإسلامية، وفي نظر أهل البيت عليهم السلام، والذي هو في الواقع يُخالف الانطباع العامّ عند عموم الناس حول فهمهم لهذا المفهوم، وهذا ما يؤكّده قول أمير المؤمنين عليه السلام في أوّل كلامه: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك»؛ فإنّ تصديره الجواب عن الخير الذي سُئل عنه بهذه العبارة يُشير إلى أنّ هناك انطباعاً عامّاً أو نظرةً عامّةً عند عموم الناس تختلف عن نظرة أهل البيت عليهم السلام إلى مفهوم الخير، لذلك عالج أمير المؤمنين عليه السلام هذه النظرة الخاطئة بنفي أن يكون الخير هو في كثرة الأموال والأولاد التي كانت سائدةً عند الناس^(٢).

إنّ الجاري على ألسن الكثير من الناس تفسير النعمة أو الخير بالمال، فإذا أنعم

(١) نهج البلاغة، (تحقيق: صبحي صالح): ص ٤٨٤.

(٢) يقول الخوئي في (شرح نهج البلاغة): «وقد نفى عليه السلام في حكمته هذه أن يكون كثرة المال والولد خيراً، على خلاف ما يعتقدّه عامة الناس من أنّ الخير في كثرة المال والولد، ويجهدون في تحصيلها وتكثيرها بكلّ وجه ممكن، وهذا النفي قد يكون حقيقياً والمقصود منه تخطئة الناس في هذا الاعتقاد، وكثيراً ما يشتهر في العرف وعند العامة أمور لا واقعية لها أصلاً». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٢١، ص ١٤١ - ١٤٢.

الله على إنسان ومنّ عليه بكثرة الأموال والأملأك، وجعله في يسر وغنى، ينظر إليه الناس من هذه الناحية بأنّه صاحب خير، فيقولون في حقّه: أنظروا إلى فلان لقد تفضّل الله عليه بالخير.

وربّما يتمنّى الكثيرون أن يرزقهم الله تعالى مثله من المال وحطام الدنيا، وبهذا يكونون قد حصروا الخير في المال فقط.

نعم، قد يكون المال والولد طريقاً للوصول إلى رضا الله تعالى، وإلى الخير، وذلك بصرف الحقوق الشرعيّة وكذا الأموال في إقامة المشاريع الخيريّة، وفي إعانة الفقراء والمرضى والمحتاجين، وغيرها فيما ينفع الناس، فبهذا الأمر جعل المال وسيلةً لنيل رضا الله تعالى.

ومّا يؤسف له أن لا أحد يُقيّم الخير أو يفسّره بالعلم، أو بالأخلاق الحميدة، فلا أحد يتمنّى أن يمنّ الله تعالى عليه بالأخلاق أو بالعلم الوافر كغيره من العلماء، فلا يُقال في ذلك كما يُقال في المال والأولاد، فلا يُقال: بأنّ فلاناً قد منّ الله تعالى عليه بالعلم والأخلاق الحسنة، أو قد منّ الله عليه تعالى بالزهد والعبادة والتقوى، ونتمنّى ما هو فيه من النعمة والخير.

من هنا يفتتح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جوابه عن السؤال الذي سُئل به عن الخير بتلك الجملة قاصداً تصحيح انطباع هذا المفهوم في أذهان الناس، مبيناً خطأ هذه النظرة، ومصححاً لها، نافياً أن يكون الخير هو كثرة المال والأولاد، وإنّما الخير هو في كثرة العلم والعمل، والخير في عظم الحلم عند الإنسان، والخير في كثرة عبادة الإنسان التي يُباهي بها الإنسان الناس، فإنّ هذا هو الخير الحقيقي الذي يجب أن يسعى الإنسان لتحصيله، فيسلك به طريق الوصول إلى رضا الله تعالى.

المال مصدر التعاسة

لا يكون المال مصدراً لسعادة الإنسان دوماً، فربما يكون مصدراً لتعاسته أحياناً، ويكون نقمة لا حسنة، ويكون وبالاً لا خيراً، وذلك حينما يكون الإنسان حريصاً على جمعه وكنزه وخزنه، ويكون همه وشغله كيفية إنثائه وزيادته، فإن هذا الأمر يُدخل الإنسان في معاملات محرمة، أو يُلجئه إلى استخدام الوسائل المحرمة من أجل تحصيله وزيادته. أو ربما يستعمله الإنسان في المحرمات، أو في ممارسة ظلم الناس وإيذائهم، أو يتجبر به على الناس، فالمال في هذه الحالة يؤدي بصاحبه إلى الشر وإلى الهلاك، فهو إذا ما أصبح مصدراً لتعاسة الإنسان وهلاكه لا يكون خيراً، ولأجل ذلك عمد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لبيان الخير الحقيقي مصححاً ما عليه اعتقاد الناس الخاطئ في ذلك المفهوم.

الخير في بيان أمير المؤمنين عليه السلام

بعد أن أبطل الإمام عليه السلام التصور المتعارف عن الخير، ذكر ثلاثة موارد يتجلى فيها هذا المفهوم بمعناه الصحيح، وهي: العلم، والحلم، والعبادة. فعلى الإنسان أن يصرف همه إلى تحصيل العلم الذي يسمو بنفسه وينفعه في دينه ودنياه وآخرته، وأن يتولى تهذيب نفسه على الحلم والخلق الرفيع، فلا تثور لديه غريزة الانتقام والتعدي على الآخرين بما يوقعه في استحقاق العقاب والمساءلة. وأن يبذل جهده في تحصيل القرب من الله تعالى من خلال العبادة والطاعة واستغفار الله عند الذنب والزلل، والحمد له على التوفيق للأعمال الصالحة.

وليس المراد من مباهاة الناس بالعبادة التفاخر المذموم الذي يتنافى مع روح العبادة والتقرب، بل أن لا يرى الإنسان لنفسه فضلاً على الآخرين بالمال والولد والمتع الدنيوية، وإنما «بالعلم والحلم وطاعة الله وحسن السلوك»^(١).

(١) مغنية، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة: ج ٤، ص ٢٧٢.

من هنا يجب أن يسعى الإنسان - بحسب قدرته واستطاعته - إلى تحصيل الفقه في الدين لمعرفة الأحكام الشرعية وتطبيقها امتثالاً لأمر الله تعالى، وذلك من خلال السعي في حضور مجالس العلم والوعظ والإرشاد، والإصغاء إلى البرامج الدينية التي يُبَيِّن من خلالها مسائل الحلال والحرام، فإنه بالإضافة إلى ما تتطلبه الحياة من اشتغال الإنسان بالعمل من أجل الحصول على الرزق ولقمة العيش، هو مأمور أيضاً بمتابعة التكاليف الشرعية الواجبة عليه، فاللازم معرفتها بالقدر المستطاع، وخاصة في الزمن الحاضر التي تتوفر فيه كافة الوسائل المساعدة على الوصول إلى المعلومات بسرعة فائقة ودون عناء.

فإذا ما تعلّم الإنسان أحكامه الشرعية وتكاليفه الإلهية، وامتلأ الواجب منها واجتنب الحرام، وتخلّق بالأخلاق الحميدة التي يُريدها الدين الإسلامي، سينال بذلك الخير.

مصاديق مفهوم الخير

إنّ مصاديق الخير التي على الإنسان السعي من أجل تحصيلها وتحقيقها كثيرة، نورد في المقام ما يتيسّر لنا منها:

الأول: نفع عباد الله المؤمنين

عمل الخير حسن وإن كان صغيراً، فإذا أعطى الله تعالى للإنسان فرصة وألهمه عمل الخير، فليتنهز هذه الفرصة ولا يستصغر شيئاً - فعلاً أو قولاً - إذا كان فيه خير، وإنما لا بدّ من المبادرة والإسراع إلى ذلك؛ إذ ربّما يكون ذلك فرصة لا تکرّر ولا تعوّض. يقول رسول الله ﷺ في حديث يُشير فيه إلى هذا المعنى: «خصلتان ليس

فوقهما من البرّ شيء: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله. وخصلتان ليس فوقهما من الشرّ شيء: الشرك بالله، والضرر لعباد الله»^(١).

فلا بدّ أن يسعى الإنسان لتحقيق الخير وإن كان عمله لذلك صغيراً؛ فإنّ نفع عباد الله خصلة حميدة ليس فوقها من البرّ شيء من الخير والإحسان إلى الآخرين. وفي قبّال ذلك يذكر رسول الله ﷺ اجتناب الإضرار بعباد الله، فإذا ما صادف الإنسان يوماً شيئاً من عمل أو فعل أو سلوك فيه ضرر على الآخرين فعليه اجتنابه؛ فإنّه شرّ ما فوقه شرّ.

الثاني: النصيحة الصادقة

الكلمة الطيبة هي نصيحة وإن كانت كلمة واحدة، وتُعتبر من مصاديق الخير إذا كانت صادقةً ونابعةً من القلب، والغرض منها الهداية والنصح، فلا يتردّد الإنسان في النصيحة إذا رأى هناك من ينحرف عن جادة الصواب، أو لا ييأس من نصيحته وهدايته، فلعلّ هذه النصيحة تُؤثّر فيه بعد يوم أو أكثر وإن طالّت المدّة.

نعم، حبّ الآخرين والاهتمام بشؤونهم يدفع الإنسان نحو نصيحتهم، وذلك خوفاً عليهم من أن يتعرّضوا غداً لعذاب الله بانحرافهم، وكلّما كان الإنسان مخلصاً في النصيحة يرى أثرها في الوقت القريب.

ومما يُذكر في هذا الشأن الرواية التي كثيراً ما تطرق أسماعنا، وهي قصّة هداية بشر الحافي^(٢)، حيث مرّ الإمام موسى الكاظم عليه السلام ذات يوم في طريقه على أحد

(١) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٣٥.

(٢) أبو نصر بشر بن الحارث عبد الرحمن بن عطاء المعروف بالحافي، توفّي سنة (٢٢٦هـ) أو

(٢٢٧هـ) ببغداد. ذُكرت له في (أعيان الشيعة) ترجمة طويلة نقل فيها صاحب (الأعيان) كلّ ما

البيوت، فسمع صوت الغناء والنغم يصدر عن ذلك البيت، وقد كانت خادمة صاحب الدار خارجةً خارج الدار، فسألها الإمام الكاظم: هل سيّدك عبد أم حرّ؟ فأجابت: هو حرّ. فقال الإمام عليه السلام: بلى، لو كان عبداً لأطاع مولاه! فذهبت الجارية فأخبرت سيدها بما قاله الإمام الكاظم عليه السلام، فتأثّر بشر بكلمة الإمام الكاظم عليه السلام ونصيحته الصادقة، فخرج مسرعاً حافياً من بيته إلى الإمام الكاظم عليه السلام حتى تاب على يديه، وصار زاهداً، حتى أعطاه الله تعالى منزلةً في الدنيا، فصار قبره يُزار ويقصده الناس^(١).

أظهرت نصيحة الإمام الكاظم عليه السلام تأثيرها على الرغم من أنّها كانت جملةً قصيرةً، وذلك بسبب كونها صادرةً عن قلب مخلص مشفق خائف على ذلك الإنسان أن يتعرّض إلى عذاب الله تعالى، فليست النصيحة إظهاراً لفضل الناصح



ورد حوله وما ذكرته الكتب في ترجمته. أنظر: الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ٣، ص ٥٧٨.

(١) ورد في (أعيان الشيعة): «في مجالس المؤمنين: كان أوّل أمره يشتغل بالملاهي والمناهي، ثم وفّقه الله تعالى فتاب على يد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، ففي كتاب (منهاج الكرامة): أنّ الكاظم عليه السلام اجتاز على باب دار بشر، فسمع منها الغناء واللّهو، ورأى على باب الدار جاريةً، فقال لها: أيتها الجارية، مولاك حرّ أو عبد؟ فقالت: حرّ. فقال لها: صدقتي، لو كان مولاي عبداً لعمل بمقتضى العبودية، وخاف الله تعالى! فذهبت الجارية إلى داخل الدار وأخبرت بشراً بذلك، فأثر فيه هذا الكلام، وكان سبب هدايته، وخرج حافياً إلى خارج الدار، وجعل يركض خلف الإمام حتى وصل إليه، فوقع على قدميه وتاب على يده وأناب، وبقي حافياً طول عمره». الأمين، محسن، أعيان الشيعة: ج ٣، ص ٥٧٩.

وتفوّقه أو امتيازَه على الآخرين، وإلّا لو كانت كذلك فما أثّرت في النفوس، ومن هنا أثّرت نصيحة الإمام الكاظم عليه السلام في هذا الإنسان، فتحوّل من عالم الانحراف والفساد والرديلة إلى عالم الخير والطاعة لله تعالى.

فلا ييأس الإنسان من نصيحة مَنْ يرتكب المعاصي، أو كان منحرف العقيدة وضالّاً، فإنّه قد ورد في بعض الأحاديث أنّ الإنسان إذا كان سبباً لهداية إنسان آخر فهو خير له ممّا طلعت عليه الشمس وغربت^(١).

الثالث: الزهد في الدنيا

يُعطي الإمام الصادق عليه السلام الضابطة لهذا المصداق في حديث شريف عنه يقول فيه: «جُعِلَ الشرُّ كلّهُ في بيت، وجُعِلَ مفتاحه حبّ الدنيا، وجُعِلَ الخير كلّهُ في بيت، وجُعِلَ مفتاحه الزهد في الدنيا»^(٢).

الزهد هو سبب التقرب إلى الله تعالى والابتعاد عن الحرام، وذلك لأنّه مفتاح لجميع أبواب الخير، والخير يقرب الإنسان من ربّه وخالقه تعالى. لكنّ الذي ينبغي إدراكه هو مفهوم الزهد الحقيقي الذي يحقّق ذلك الخير. فليس معنى الزهد حقيقةً هو ترك الطيّبات ممّا أحلّ الله تعالى للناس من الرزق، وإنّما المفهوم الحقيقي له هو إخراج حبّ الدنيا من قلب الإنسان، بمعنى ألاّ يتعلّق قلب الإنسان بالدنيا حتى

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فقال: يا علي، لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه، وأيم الله؛ لأن يهدي الله على يديك رجلاً خيراً لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي». الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج ٦، ص ١٤١، ح ٢.

(٢) الطبرسي، علي، مشكاة الأنوار: ص ٤٦٢.

وإن رزق من الأموال ومقتنيات الدنيا الشيء الكثير، وهذا إنما يكتشفه الإنسان حين يتعرض للتلف أو الزوال، فإنه إذا تأثر الإنسان وحزن وأصابه الهم والغم بفقده شيئاً من حطام الدنيا، فهو ليس من الزاهدين. أمّا إذا لم يؤثر ذلك الشيء على قلبه فهو من الزاهدين. تقول الآية الكريمة مشيرةً إلى هذا المعنى: ﴿لَيْكِلَاتَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١).

وكذلك ألا يكون مصدر فرح الإنسان وسروره ازدياد ماله ونصيبه من الدنيا، أو كونه قد نال حظاً وافراً منها؛ فإنه قد يمتلك الإنسان الكثير من أموال الدنيا وهو من الزاهدين؛ لعدم اهتمامه بذلك؛ لأنه أخرج حب هذه الأموال وحب الدنيا من قلبه، وجعل حبه وتعلقه بالله تعالى. وقد ترى إنساناً يعيش فقيراً لا يمتلك شيئاً لكنه ليس من الزاهدين؛ لتعلق قلبه بالدنيا.

بهذا المفهوم الحقيقي للزهد صار واحداً من مصاديق الخير؛ لأنه يقرب الإنسان من الله عز وجل، ويبعده عن الحرام وحب الدنيا وحطامها.

الرابع: الرضا بقضاء الله تعالى

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): «ثلاث من كن فيه فقد رُزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بقضاء الله، والصبر على البلاء، والشكر على الرخاء»^(٢). إن من مصاديق الخير ما ذكره الحديث الشريف، وهو ثلاث خصال، أولها الرضا بقضاء الله، فإن ذلك من علامات الإيمان عند الإنسان، فإنه إذا تعرض في

(١) الحديد: آية ٢٣.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٢١٢.

الدنيا إلى أمر يحتسبه عند الله، فإذا تعرّض إلى الفقر، أو إلى مصيبة، أو إلى مشكلة، فيرضى بما قدّر الله تعالى له وقضى عليه، فإنّ ذلك هو مفتاح الخير له، وسوف ينال الثواب ورضا الله سبحانه وتعالى. أما إذا سخط وجزع فربّما تزداد عليه المغموم والغموم ولا يفرّج الله تعالى عنه.

وكذلك من جملة الخير في الدنيا ما يُضيفه الإمام عليّ عليه السلام إلى الرضا بقضاء الله تعالى خصلتان أخريان، هما: الصبر عن الشدائد، والشكر عند الرخاء. فهما كذلك من مصاديق رزق الخير في الدنيا، أو من مفاتيح خير الإنسان فيها.

الخامس: الزوجة الصالحة

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة أشياء في كلّ زمان عزيزة: الأخ في الله، والزوجة الصالحة الأليفة تعينه في دين الله، والولد الرشيد. ومن أصاب أحد الثلاثة فقد أصاب خير الدارين، والحظّ الأوفر من الدنيا»^(١).

ذكر الإمام الصادق عليه السلام ثلاثة أشياء عزيزة، أي: قليلة الحصول، أوّلها أن يجد الإنسان أحاً في الله تعالى، بمعنى أن تكون علاقته بهذا الأخ وارتباطه به خالصاً لله تعالى، لا يبغي من وراء ذلك مصلحةً دنيويّةً أو فائدةً معنويّةً. وثالث تلك الأمور الولد الرشيد؛ فإنّه يكون عوناً لأبيه وخلفاً له. وأمّا ثاني هذه الأمور فهو مكّون الأسرة الصالحة ونواتها الأولى، وهي الزوجة المتديّنة العفيفة، والزوج العفيف المتديّن.

وفي الأسرة كلام كثير عمّا ينبغي فعله للشابّ أو الشابة إذا أراد أحدهما الإقبال على الزواج، فليجعل معياره في البحث عن شريك الأسرة والقبول به التديّن والعفة والصلاح، لا أن يكون المعيار في ذلك هو الجمال أو المال أو عنوان العائلة.

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٧١، ص ٢٨٢.

نعم، إذا اجتمع بعض هذه الأمور مع التدبّر والعفة والصلاح، كأن اجتمع الجمال وعنوان العائلة، بأن كانت عائلةً كريمةً معروفةً بالصلاح والتقوى، فهذا شيء حسن، لكن لا يكون همّ الإنسان الأوّل هو البحث عن البنت الجميلة، أو صاحبة الثروة، ولا يكون همّ المرأة البحث عن الشابّ الوسيم الغني، فالكثير من العوائل تجعل المعيار في قبولها ورفضها في الزواج هو الجمال والمال، وهو شيء خطير.

لذلك يذكر الإمام الصادق عليه السلام أنّ واحداً من الأشياء العزيزة الثلاثة في كلّ زمان هي الزوجة الصالحة الأليفة في دين الله؛ فإنّ إصابتها إصابةً للخير في الدار الدنيا والدار الآخرة، ونيل الحظّ الأوفر في الدنيا، فإذا ما تكوّنت الأسرة من امرأة بهذه المواصفات سلكت الأسرة طريق الصلاح والأخلاق والاستقامة، وتربّى ونشأ الأبناء على القيم الإسلامية، وهذا مصداق من مصاديق الخير الذي يسعى الإنسان لنيله، ليبلغ به السعادة في الدنيا والآخرة.

السادس: قطع الطمع ممّا في أيدي الناس

قال الإمام الصادق عليه السلام: «... فإن أردت أن تقرّ عينك وتنال خير الدنيا والآخرة، فاقطع الطمع ممّا في أيدي الناس، وعدّ نفسك في الموتى، ولا تحدّث نفسك إنّك فوق أحد من الناس، واخزن لسانك كما تخزن مالك»^(١).

(١) الصدوق، محمّد بن عليّ، الخصال: ص ١٢٢. والحديث فيه طويل، عن حمّاد بن عيسى، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال لقمان لابنه: يا بني، لكلّ شيء علامة يُعرف بها ويشهد عليها، وإنّ للدين ثلاث علامات: العلم، والإيمان، والعمل به. وللإيمان ثلاث علامات: الإيمان بالله،

أورد الإمام الصادق عليه السلام في هذا المقطع من الحديث مجموعة خصال ينال فيها الإنسان خير الدنيا والآخرة، أولها قطع الطمع مما في أيدي الناس، وذلك بأن يجعل الإنسان رجاءه بالله وطمعه عند الله لا عند الناس؛ فإن الله بذلك يهبه ما يُريد، ويجعل له العزة والكرامة عند الناس، وذلك بأن يخشى الله تعالى ويخافه ويتوكل عليه في كل شيء.

السابع: الاستعداد للموت

هذه الخصلة ينال فيها الإنسان خير الدنيا والآخرة، وهي أن يُهيئ الإنسان نفسه للموت، ويعدّ نفسه ليوم انتقاله من هذه الدار إلى الدار الثانية؛ لأنّ الإنسان لا يعلم بوقت موته؛ فإنّ الآجال غير معلومة، فلعلّ الموت يُفاجئ الإنسان بعد دقيقة أو ساعة أو يوم أو شهر، ولا يتعجّب الإنسان عند سماعه بموت أحد من أصدقائه أو أهله وقد كان حديث عهد بلقائه أو مجالسته؛ فإنّ الإنسان يرحل عن هذه الدنيا فجأةً.

لذلك يجعل الإمام الصادق عليه السلام الاستعداد للموت والانتقال إلى الآخرة واحداً من الأمور التي ينال الإنسان بها الخير، فإنّ الإنسان إذا عدّ نفسه دوماً في عداد الأموات، فهذا يكشف عن عدم غفلته عن ذكر الله وعبادته وطاعته، الأمر الذي يجلب له الخير في الدنيا والآخرة؛ لأنّه بذلك سوف يعيش زاهداً نقيّاً ورعاً عابداً ناسكاً بعيداً عن الدنيا، متهيّئاً للآخرة.



وكتبه، ورسله... قال حمّاد بن عيسى: قال أبو عبد الله عليه السلام: ولكلّ واحدة من هذه العلامات شُعب يبلغ العالم بها أكثر من ألف باب وألف باب وألف باب، فكن يا حمّاد طالباً للعلم أثناء الليل وأطراف النهار، فإن أردت أن تقرّ عينك وتنال خير الدنيا والآخرة...».

الثامن: عدم التعالي على الآخرين

أودع الله تعالى عند الإنسان غريزة الاستعلاء وحبّ الظهور والتعالي على الآخرين، لكنّه تعالى في الوقت نفسه وهب للإنسان عقلاً لأجل أن يتحكّم بتلك الغريزة وبغيرها من الغرائز التي تجلب للإنسان الهلاك إذا لم يُحكم السيطرة عليها. وهنا يُشير الإمام الصادق عليه السلام إلى ما ذكرناه مخاطباً الإنسان بآلاً يجعل من نفسه تحدّثه بأنّه فوق أحد من الناس، فلا يعتقد في نفسه بأنّه أحسن من الآخرين وأفضل منهم، كأن يغترّ بعلمه مثلاً، فيقول في نفسه، بأنّه أعلا من الناس وفوقهم؛ لأنّه أعلم منهم، أو يرى في نفسه أنّه يمتلك القوّة والسلطة والجاه، فيميّز نفسه على أقرانه من الناس، فإنّ كلّ هذه من المهلكات. وإنّما الصحيح أن ينظر الإنسان إلى نفسه بأنّه أدون من الناس، فيجعل نفسه دونهم، فهو إن فعل ذلك نال به خير الدنيا والآخرة.

التاسع: خزن اللسان

اللسان آفة الهلاك، وسبب الفتن والحروب والدمار، لكنّه يمكن أن يكون مصدراً للسعادة ونيل الخير في الدنيا والآخرة؛ وذلك بخزنه، فكما أنّ الإنسان حريص كلّ الحرص على خزن أمواله ووضعها في مكان آمن خوفاً عليها من التلف أو السرقة، فكذلك يجب عليه خزن لسانه وصونه عن الكلام الذي لا فائدة فيه، فهو إن خزن لسانه نال الخير.

أمّا كيفية خزن اللسان والسيطرة عليه، فعن طريق التأمّل في كلّ ما يُريد أن يصدره من كلام، فإن كان فيه رضا لله تعالى ونفع للناس فيُطلقه ويتحدّث به، وأمّا إن كان ليس كذلك، وإنّما هو شرّ للناس وإيذاء لهم، فيُمْسك لسانه عن النطق.

وهذه العلميّة إنّما تكون بعرض الكلام - قبل نطقه - على القلب والعقل فإنّهما مضافان للكلام، فإنّ الإمام عليّاً عليه السلام يقول في ذلك: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»^(١).

ومعنى ذلك أنّ لسان العاقل إذا أراد التكلّم لا بدّ أن يمرّ كلامه أولاً على قلبه، فينظر القلب فيه، فإذا كان فيه رضا لله تعالى ومنفعة للآخرين سمح له بالمرور ونطق به اللسان، وإلاّ أمسك عنه. أمّا الأحمق فعلى العكس من ذلك؛ فإنّ قلبه وراء لسانه، فيتكلّم دون ما يعرض كلامه على القلب، فيصدر منه الكلام غير الموزون بالموازين الشرعيّة، والذي فيه شتم وغيبة ونميمة وقذف وغير ذلك من الرذائل الكلاميّة.

لذا إذا حرص الإنسان على لسانه بخزنه فينال بذلك الخير في الدنيا والآخرة.

العاشر: التحليّ بالأخلاق الحميدة

قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلّكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «مَن وصل مَن قطعه، وأعطى مَن حرمه، وعفا عمّن ظلمه»^(٢). إنّ من جملة أمور الخير المهمّة التحليّ والتمسك بالأخلاق الحميدة الفاضلة، والأخلاق على مراتب، وأنّ أكرم وأسمى أخلاق الدنيا والآخرة هي ما ذكره الرسول ﷺ في الحديث المتقدّم، وهي أن يصل الإنسان مَن قطعه، وأنّ يُعطي مَن حرمه، ويعفو عمّن ظلمه، فإنّ هذه ثلاثة صفات أخلاقيّة هي خير أخلاق الدنيا والآخرة، لذلك يوصي النبي ﷺ بالتحليّ بها.

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، هداية الأئمة إلى أحكام الأئمة: ج ٥، ص ٥٤٦.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٧، ص ١٠٢.

ويمكن تحقيق هذه الخصال، وذلك إذا ترك الإنسان الاختلاف بينه وبين الآخرين جانباً ولم يهتم بذلك، فيذهب لزيارة مَنْ قطعه وَمَنْ لم يصل إليه، أو يقدم له المساعدة، ويعفو عَمَّنْ أساء إليه أو مَنْ ظلمه، ولا شك في أنَّ هذه الأخلاق إذا ما توفّرت عند الإنسان فهي تُعطيه مرتبة القرب من رسول الله ﷺ في الآخرة، فلذلك جعلها من مصاديق الخير.

الحادي عشر: المبادرة إلى التوبة

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ خير العباد مَنْ يجتمع فيه خمس خصال: إذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظلم غفر»^(١). من جملة ما يجب أن يلتفت إليه الإنسان هو التعرّف على الذنب أو الإساءة أو المعصية، وذلك من خلال متابعة سلوكه والسؤال عمّا يصدر عنه من كلام وأفعال، فهل يدخل في باب الذنب والمعصية، أم لا؟ فإنَّ الإنسان إذا عرف السوء والمعصية، وأحسَّ بصدور ذلك عنه بعد مراقبة نفسه، أسرع بالاستغفار إلى الله تائباً له عمّا صدر عنه من إساءة وذنب، فيتدارك ذلك بالتوبة، فإنَّه إن فعل ذلك حصل على واحدة من الخصال الخمس التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في حصول الخير له، وهي الاستغفار بعد الإساءة.

وينبغي أن يكون الاستغفار أو المبادرة إلى التوبة في وقت حصول المعصية، فإنَّ الإنسان إذا تحقّق منه حصول المعصية وارتكاب الذنب ولم يتدارك ذلك

(١) الإرْبلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ج ٢، ص ٤٢٤.

بالاستغفار، وسوف التوبة لله عزّ وجلّ، حينها تتراكم عليه الذنوب، وربّما يصل به الأمر إلى بلوغه مرتبةً من كثرة الذنوب لا يستطيع أن يكفر عنها في حياته.

أهميّة المسارعة إلى الخيرات

بعد عرض موجز لبعض مصاديق الخير نُشير في ختام الخطبة إلى أهميّة المسارعة إلى فعل الخيرات، فإنّ أثر فعل الخير قد يكمن في فعل صغير يفعله الإنسان يكون مصداقاً من مصاديق الخير الكثيرة، ويكون ذلك سبباً في رضا الله تعالى عن الإنسان، لذا لا يستصغر الإنسان أيّ فعل خير وإن كان صغيراً، فقد يكون هذا الفعل الصغير هو السبب في دخول فاعله الجنّة.

وهناك أحاديث شريفة تؤكد هذا المعنى، فعن رسول الله ﷺ قوله: «مَنْ فُتِحَ له باب خير فليتنهزه؛ فإنّه لا يدري حتى يُغلق عنه»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تصغر شيئاً من الخير، فإنّك تراه غداً حيث يسرك»^(٢). من هنا نوجّه نداءنا إلى إخواننا وأبنائنا بالمسارعة إلى فعل الخيرات، وأن يُنجزوا أعمال الخير دون أن يستصغروها أو يتجاهلوها؛ فإنّها إن لم تكن ذات أثر لهم في الدنيا سوف تكون مؤثّرةً في الدار الآخرة، فلعلّ الله يفتح أبواب الجنان بسبب عمل صغير دون أن يشعر به فاعله.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لعمل الخير، وأن يهدينا إلى الصواب والرشاد، إنّه سميع مجيب.

والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي: ص ٢٨٩.

(٢) الصدوق، محمّد بن علي، ثواب الأعمال: ص ١٣٤.

الخطبة الرابعة والتسعون
من دعائه الإيمان (الصبر واليقين)

بتاريخ: ٢١ / ١١ / ٢٠٠٨ م

﴿ أصل الإيمان وكماله

﴿ الدعامة الأولى: الصبر

﴿ المنشأ الأول: الشوق

﴿ المنشأ الثاني: الإشفاق من النار

﴿ المنشأ الثالث: الزهد في الدنيا

﴿ المنشأ الرابع: ارتقاب الموت

﴿ الدعامة الثانية: اليقين

﴿ طرق الوصول إلى اليقين

﴿ الشعبة الأولى: الفطنة

﴿ الشعبة الثانية: تأوّل الحكمة

﴿ الشعبة الثالثة: موعظة العبرة

﴿ الشعبة الرابعة: سنّة الأوّلين

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«الحمد لله النَّاشِر في الخلق فضله، والباسط فيهم بالجلود يده. نَحْمَدُهُ في جميع أموره، ونستعينه على رعاية حقوقه، ونشهد أن لا إله غيره، وأنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً»^(١).

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، أبي القاسم مُحَمَّد وعلى آله أعلام الهداية وسبل النجاة، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي المملوءة بالغفلة والسهو - بتقوى الله تعالى، والاعتصام بحبله المتين، والتمسك بالعروة الوثقى، وتدعيم إيمانكم بما أوصى به النبي ﷺ وآل بيته الأطهار عليهم السلام.

سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان، فقال عليه السلام: «الإيمان على أربع دعائم: على: الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد»^(٢).

(١) نهج البلاغة (تحقيق: صبحي صالح): ص ١٤٦.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام: ج ١، ص ٧. وفيه: «وسُئِلَ عليه السلام عن الإيمان؟ فقال: الإيمان على أربع دعائم: على: الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد. والصبر منها على أربع شُعب: على: الشوق، والشفق، والزهد، والترقب. فَمَنْ اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، وَمَنْ أشفق من النار اجتنب المحرمات، وَمَنْ زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، وَمَنْ ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. واليقين منها على أربع شُعب: على: تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة،

تعرّض الحديث الشريف الصادر عن مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لذكر أربع دعائم قام عليها الإيمان، وسوف نتعرّض في المقام لذكر اثنتين منها، وهما: الصبر، واليقين.

وقد ذكر بعض شراح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام أنّ هذه الدعائم الأربع يُراد منها إمّا الوصول إلى أصل الإيمان، وإمّا إلى كمال الإيمان^(١).

والدعامة^(٢) هي بمثابة العمود الذي يستند إليه سقف البيت؛ فإنّ البيت من غير دعائمه أو أعمدته لا يكون بيتاً، فلا يُمكن الوصول إلى الهدف أو الغاية



وسنة الأولين. فمن تبصّر في الفطنة تبَيَّن له الحكمة، ومن تبَيَّن له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنّها كان في الأولين. والعدل منها على أربع شعب: على: غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم. فمن فهم علِم غور العلم، ومن علِم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلّم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميداً. والجهاد منها على أربع شعب: على: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنّان الفاسقين. فمن أمر بالمعروف شدّد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنّى الفاسقين وغضب الله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة.

(١) قال البحراني: «أمّا الإيمان فاعلم أنّه عليه السلام أراد الإيمان الكامل، وذلك له أصل وله كمالات بها يتمّ أصله، فأصله هو التصديق بوجود الصانع تعالى وما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وبها تنزّلت له من كتب وبلّغته، وكمالاته المتّمة هي الأقوال المطابقة ومكارم الأخلاق والعبادات».

ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢٥٤.

(٢) «الدعامة بالكسر: عماد البيت الذي يقوم عليه، واستعير لغير ذلك. والجمع دعائم. ومنه في

وصف أهل البيت عليهم السلام: أشهد أنّكم دعائم الدين». الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ٦،

المقصودة من البيت إذا كان خالياً من تلك الدعائم. وكذلك دعائم الإيمان أو أعمدته، إذ يتوصّل من خلالها الإنسان إلى الأهداف المرجوة من إيمانه. وهذه الأهداف لا تتحقّق إذا كانت الدعائم منفردة، وإنّما يبلغ الإنسان الغاية من هذه الدعائم إذا كانت مجتمعةً مشتركةً^(١). وفيما يلي عرض وشرح وتوضيح لهاتين الدعامتين، وما يترتّب عليهما من آثار تربويّة:

الدعامة الأولى: الصبر

أوّل الدعائم الصبر، وهو من الأعمدة المهمّة التي يتوصّل من خلالها إلى الهدف المقصود، ومعناه المقاومة تجاه المكاره وتحمل المشاقّ لنيل المقاصد^(٢). ويدخل الصبر في كافّة المجالات الحياتيّة والعباديّة، فهناك صبر على الطاعة وأداء الواجبات، كالصبر على الصلاة والصوم والحجّ والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الواجبات الدينيّة. وهناك صبر عن المعصية ومقاومة الشهوات؛ فإنّ الإنسان معرّض في حياته لكثير من الأمور المحرّمة المحيطة به، فربّما لا يستطيع الصمود والثبات أمام بعضها؛ لكثرة الشهوات والإغراءات التي فيها،

(١) «والظاهر أنّ السؤال ليس ما هو الإيمان؟ بل كيف الإيمان؟ أو على ما هو الإيمان؟ فأجاب عليه

بأنّ الإيمان على أربع دعائم، وظهره أنّ إقامة هذه الدعائم الأربعة شرط الإيمان، ولا يمكن إقامته على ثلاثة منها أو اثنتين منها، وقوّة الإيمان وضعفه يُقاس بقوّة هذه الدعائم وضعفها، لا تمامها ونقصانها». الخوئي الهاشمي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٢١، ص ٥٠.

(٢) الخوئي الهاشمي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٢١، ص ٥٠.

فيحتاج إلى صبر لكي يتجاوزها. وهناك صبر على المصائب والابتلاءات التي تعرض على الإنسان؛ فإن الحياة مليئة بالمصائب والمحن والابتلاءات، وكلّها تحتم على الإنسان أن يواجهها بالصبر لكي يصل إلى الهدف المقصود الذي يُريده.

من هنا يجب الفحص والسؤال عن كيفية الوصول إلى تحصيل الصبر، وما هي المناشئ التي يصل الإنسان بها إلى الصبر؟ وما هي الثمار التي يجنيها حال تحليّه بالصبر وحصوله على تلك المناشئ؟

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حكمته التي استعرضنا مقطعاً منها في بداية الحديث موضعاً ذلك: «والصبر منها على أربع شعب: على: الشوق، والشفق، والزهد، والترقب».

فيذكر عليه السلام أربعة مناشئ للصبر:

المنشأ الأول: الشوق

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات»^(١).
أول شعبة أو منشأ من مناشئ الصبر هو الاشتياق إلى الجنة، وهذا قصد أهل الإيمان، وهو يستلزم أن يفارق الإنسان كلّ الشهوات المادّية التي تحتاج بطبيعة الحال إلى صبر وثبات.

وإنّما يتحصّل هذا الأمر بالتأمل في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وبالتأمل في الجنة والنار؛ فإنّه على الرغم من كون الحياة الدنيا مليئة بالملذّات والشهوات

(١) «سلا عن الشيء: ذهل عن ذكره وهجره». الهاشمي الخوئي، حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ٢١، ص ٤٨.

«سلو: وسلأه وعنه، كدعاه ورضيه، سلوا بالفتح، وسلوا كعلو، وسلواناً بالضمّ، وسلّياً كعُتي، ويكسر: نسيه وذهل عن ذكره». الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ١٩، ص ٥٣٣.

والأمتعة، إلّا أنّها في الوقت نفسه كذلك مليئة بالهموم والمشاكل والمصاعب، لذلك تكون ملذّاتها وشهواتها مشوبةً بالمصاعب، فلا تتحقّق اللذّة المطلقة فيها للإنسان وإن كان غنياً، أو كان حاكماً، أو رئيساً، أو عالماً، أو مهما بلغ من المناصب ومهما امتلك من الأموال ووسائل العيش الرغيد.

نعم، إنّما تتحقّق هذه اللذّة المطلقة في دار الآخرة، تلك الدار الخالدة التي فيها الحياة الأبدية التي لا يعترها الموت، والشباب الذي لا يطارده الهرم، والصحة التي لا يدناها المرض، والغنى الذي لا يلحقه الفقر، والعلم الذي لا يتدنّى إليه الجهل، الحياة التي تجتمع فيها كلّ أنواع اللذّات والشهوات التي لم يرها الإنسان في الحياة الدنيا، الحياة التي ادّخر لها الله تعالى النعيم والنعمة الحقيقية، التي تُقارن بها نعم هذه الحياة الدنيا.

نعم، من اشتاق إلى الجنّة التي هذه حالها سوف يسلا عن الشهوات، بمعنى أنّه يهجر هذه الشهوات ويذهل عنها؛ لأنّها شهوات مزيفة زائلة؛ فإنّه حينما يتوق إلى الجنّة سوف يترك هذه الشهوات وإن كانت محلّلة في دار الدنيا.

إنّ الوصول إلى مرتبة الشوق إلى الجنّة يكشف عن كون الإنسان قد جعل نفسه في طاعة الله تعالى وذكره؛ فإنّه بهذه الطاعة يذهل عن جميع الشهوات التي أمامه وتحت متناول يده ويتجاهلها.

لذا فإذا مرّت بالإنسان آية قرآنية، أو حديث شريف عن أهل البيت عليهم السلام، فيه ذكر الآخرة والجنّة، ينبغي التوقّف عند ذلك والتأمّل فيه واستحضار جميع صورته وتفاصيله وما فيه من النعم، عندئذ يكون هذا التأمّل والتدبّر محفّزاً للإنسان لكي يصل إلى مرتبة الشوق إلى الجنّة، فتذهل نفسه عن هذه الشهوات والملذّات.

المنشأ الثاني: الإشفاق من النار

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «وَمَنْ اشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمَحْرَمَاتِ». يحتاج الإنسان إلى قوّة هائلة تجعله يدفع عن نفسه الوقوع في المحرّمات والمعاصي، فكيف يولّد الإنسان في نفسه هذه القوّة المانعة التي تحميه من الانحراف وارتكاب الشهوات المحرّمة؟

يُشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى تلك القوّة، وهي الخوف من النار، فإذا ما استحضّر الإنسان في قلبه العذاب ودخول النار يوم القيامة وهول تلك الساعة، اجتنب المحرّمات وابتعد عن ارتكابها، وخاصّة إذا ما قارن بين نار الدنيا التي يُشاهدها ونار الآخرة التي هي أشدّ.

ومن هنا على الإنسان أن يتمعّن ويتدبّر في الآيات الكريمة التي تخصّ هذا المعنى، ويتوقّف عند كلّ آية تُشير إلى عذاب النار يوم الحساب، وإلى غيرها من أنواع العذاب الأخرى.

المنشأ الثالث: الزهد في الدنيا

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالمصِيبَاتِ».

خلقت الدنيا للابتلاء والاختبار، ولم تُخلَق للراحة، وهذه من المسائل المهمّة التي ينبغي للإنسان التوقّف عندها؛ فإنّه لا أحد في هذه الدنيا إلّا ويتعرّض للبلاء والمصائب، وهو نوع من الاختبار لاكتشاف طاقة الإنسان وكميّة صبره وتحمله حتى يحصل على الأجر بمقدار ما يمتلك من صبر، تقول الآية الشريفة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(١).

(١) الملك: آية ٢.

وللاختبار أنواع كثيرة، فربما يُختبر شخصٌ بالفقر، وآخر بالغنَى، وثالث بالمرض، ورابع بتسلُّط الحاكم الظالم عليه، وغير ذلك.

ومن أبرز المصاديق التي تكشف الصبر وعمقه في النفوس ما تحمَّله الأنبياء في حركاتهم الإصلاحية ونشر الدعوة الإلهية، وكذلك الذين ساروا على نهجهم واتَّبَعُوا خطاهم ممَّن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأراد أن يُصلح المجتمع، فإنَّ مثل هذا الذي يدعو إلى إصلاح الفرد والمجتمع يواجه كثيراً من الصعوبات، إذ يتعرَّض للسبِّ والشتيم والطعن والافتراء وتشويه السمعة من قِبَل الظلمة والفاسقين، وخاصَّة ممَّن تتعارض مصالحهم الدنيوية والشخصية مع هذه الدعوة، فالمصلح يواجه المشاكل الكثيرة لكنَّه يصبر على ذلك من أجل بلوغ غايته، وهي تحقيق ما يدعو له، لذا ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: بأنَّ أشدَّ الناس بلاءً النبيون^(١).

أمَّا كيفية العمل من أجل النجاح في هذا الاختبار، فهو التحلِّي بالصبر، بأنَّ يوطِّن الإنسان نفسه ويروضها على تحمُّل هذا الابتلاء، وذلك باستحضار الأجر العظيم الذي كتبه الله للصابرين في الآخرة، فإنَّ هذا الصبر يُقابلهُ الثواب من الله تعالى، إذ لا وسيلة للخلاص من هذا الاختبار إلَّا بالصبر، فلا يتصوَّر أحد بأنَّ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٥٢. «عن عبد الرحمن بن الحجاج، قال: ذُكر عند أبي عبد الله عليه السلام البلاء وما يخصُّ الله عزَّ وجلَّ به المؤمن، فقال: سئل رسول الله ﷺ: مَنْ أشدَّ الناس بلاءً في الدنيا؟ فقال: النبيون، ثم الأمثل فالأمثل، ويتلى المؤمن على قدر إيمانه وحسن أعماله، فمن صحَّ إيمانه وحسن عمله اشتدَّ بلاءه، ومن سَخِفَ إيمانه وضعف عمله قلَّ بلاءه».

الجزع محلّ مشكلة أو يدفع بلاءً، بل يكون الإنسان خاسراً إذا جزع ولم يتحمّل، فلا أجر ولا ثواب له، فيكون خاسراً على كلّ حال.

وفي حديث عن الصادق يهوّن فيه على الناس أمر التعب والعناء الذي يُصيب الإنسان في الدنيا، فإنّه عليه السلام قال لأصحابه: لا تتمنّوا المستحيل. فقالوا: وما المستحيل؟ قال: الراحة في الدنيا^(١).

إنّ هذا الحديث يوضّح شيئاً مهمّاً جدّاً، وهو ما ذكرناه بداية الكلام من أنّ الدنيا لم تُخلَق للراحة، وإنّما جميع البشر وعلى اختلافهم في العقيدة والصلاح والمعيشة كلّهم لا بدّ وأن يتعرّضوا إلى المشاكل الدنيويّة والهموم والابتلاءات، فلا يتمنّى الإنسان الراحة في الدنيا، وإنّما يواجه ذلك بالصبر والثبات من أجل أن ينال الراحة الأخرويّة.

المنشأ الرابع: ارتقاب الموت

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات». الارتقاب هو الانتظار^(٢)، فلا أحد من الناس يعلم بوقت موته؛ فإنّ هذا الأمر غير معلوم بالنسبة للجميع، لكن على الإنسان الاستعداد والتهيؤ لهذا الأمر المهمّ، فيرتقب تلك الساعة، بأن يجعل نصب عينيه أنّ الموت يأتيه لا محالة. ولا بدّ أن يتضمّن هذا الانتظار والاستعداد للموت زاداً يتزوّد به الإنسان

(١) وقال عليه السلام لأصحابه: «لا تتمنّوا المستحيل. قالوا: ومن يتمنّى المستحيل؟ فقال: أنتم، ألسنتم تمنّون الراحة في الدنيا؟! قالوا: بلى. فقال: الراحة للمؤمن في الدنيا مستحيلة». المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٨، ص ١٩٥.

(٢) رقبه يرقبه رقبَةً ورقبائاً - بالكسر فيهما - ورقوباً، وترقبه، وارتقبه: انتظره ورصده. والترقب الانتظار، وكذلك الارتقاب. ابن منظور، محمّد بن مكرم، لسان العرب: ج ١، ص ٤٢٤- رقب.

لللقاء ربّه، فكما أنّ الإنسان إذا أقبل على سفر فإنّه يتزوّد له ويتهيأ للسفر ويستعدّ له، فكذلك الحال في المقام؛ فإنّه لا بدّ وأن يشعر بأنّه سوف يُسافر ويرتحل من دار إلى أخرى، تلك الدار الثانية تحتاج إلى زاد ومتاع، وهذا المتاع هو الإسراع إلى فعل الخيرات، وذلك بعدم تفويت الفرص التي تحصل للإنسان في هذه الحياة، فيُسارع إلى الأعمال الصالحة وأداء الطاعات والمشاركة في كلّ عمل فيه برّ وخير وإحسان.

بهذه الشعب الأربع - الشوق، الشفق، الزهد، الترقّب - تكون دعامة الإيمان الأولى - التي هي الصبر - قد اكتملت؛ فإنّ كلّ الهموم والابتلاءات والمصائب والمتاعب سوف تهون مع الصبر. وهذا يكشف عن أنّ الإنسان الصابر راضٍ بقضاء الله وقدره، ومسلّم إليه أمره، وجاعل الله ثقته، وهذه علامة من علامات الإيمان.

الدعامة الثانية: اليقين

اليقين من دعائم الإيمان، وهو الاعتقاد بحقائق الأشياء عن دليل وبرهان^(١)، وهو ما تحتاج إليه المسائل في أصول الدين وغيرها التي يُبحث فيها عن الدليل والبرهان وإن لم يكن معقّداً؛ وذلك لإثبات المدّعى بعيداً عن التأثير بالعواطف والرغبات في المسائل، ولا سيّما الحساسّة والمهمّة منها؛ فإنّ هناك الكثير ممّن يدّعي أموراً هو ليس أهلاً لها، فعليه أن يُثبت ذلك، فهناك من يدّعي - مثلاً - قُربه من

(١) يَقِنَ الأمر - كَفَرَحَ - يقنّاً وأيقنه وأيقن به وتيقّنه... أي: علمه وتحقّقه كلّهُ... واليقين إزاحة الشكّ

والعلم وتحقيق الأمر. ونقيضه الشكّ. الزبيدي، مرتضى، تاج العروس: ج ١٨، ص ٥٩٦.

اليقين: العلم الذي لا شكّ معه. وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء بأنّه كذا مع اعتقاد أنّه لا يمكن إلّا

كذا، مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال. الجرجاني، علي بن محمّد، كتاب التعريفات: ص ٢٥٩.

الإمام الحجة المنتظر عليه السلام، وأنَّ له مكاشفات ومقامات دينيةً عاليةً، وربَّما يتبعه جمع من الناس، لكنَّهم لو تأمَّلوا وتفكَّروا في حقائق هذه الدعاوى لوجدوها من الأمور الباطلة، وهي مجرد أوهام ليس لها واقع، ولا تربطها صلة بالحقائق.

طرق الوصول إلى اليقين

لذا ينبغي البحث عن حقائق الأشياء للوصول إلى اليقين بها، فما هي الطريقة الموصلة لليقين؟

يبيِّن الإمام عليه السلام ذلك ذاكراً شعب اليقين من خلال قوله: «واليقين منها على أربع شعب: على: تبصرة الفطنة، وتأوُّل الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين».

الشعبة الأولى: الفطنة

يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «فمَن تبصَّر في الفطنة بيَّنت له الحكمة».

الفطنة^(١) هي سرعة هجوم النفس على حقائق ما تورده الحواس عليها^(٢)، بمعنى الفهم والإدراك للأمور مع الخدق. والمراد بتبصَّر الفطنة النظرة الثاقبة إلى عاقبة الأمور، فإنَّها هي النظرة الموصلة لليقين.

إنَّ الله تعالى منح الإنسان العقل من أجل أن يتفكَّر ويتدبَّر في الأمور وعواقبها، لا أن ينظر إليها نظرة هامشيَّة سطحيَّة؛ فإنَّ الأخيرة لا توصل الإنسان إلى الحقيقة، إنَّما

(١) الفطنة كالفهم. والفطنة ضدَّ الغباوة. ورجل فطن بيَّن الفطنة. ابن منظور، محمَّد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٣، ص ٣٢٣.

(٢) ابن ميثم البحراني، ميثم بن عليّ، شرح نهج البلاغة: ج ٥، ص ٢٥٥.

يحتاج الإنسان من أجل إدراك حقائق الأمور أن يعمل عقله في المسائل جميعها مهما كان موضوعها، وينظر فيها نظرةً ثابتةً حتى يصل فيها إلى اليقين.

الشعبة الثانية: تأول الحكمة

يقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ». معنى بيان الحكمة التي ذكرها الإمام عليه السلام هو تفسير الحكمة، أي: الوقوف عندها وفهمها، بمعنى اكتساب الحقائق ببراينها، واستخراج وجوه الفضائل ومكارم الأخلاق من مظانها، ككلام يؤثر أو عبرة يُعتبر بها^(١). فإذا سمع الإنسان حكمةً ما، يحتاج أن يقف قليلاً ويتدبرها ويسأل عن تأويلها وتفسيرها لأجل فهمها وإدراك معناها.

ومن هنا على الإنسان القارئ والسامع أن يجعل عبرته بما يقرأ أو يسمع من العلوم هو فهمها وإدراكها، لا مجرد الإكثار منها من غير حكمة وإدراك لحقائقها؛ فإنّ اكتسابه العلم مع فهمه وإن كان قليلاً أفضل من الإكثار من الاستماع والقراءة للعلوم من دون فهم، وهكذا كلّ مَنْ يُريد أن يحفظ حكمةً أو حديثاً فليحفظه مع فهم معناه.

الشعبة الثالثة: موعظة العبرة

يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ».

(١) أنظر: المصدر السابق: ج ٥، ب ٢٥٦.

إنَّ في العبرة موعظةً، فالإنسان المعترُّ هو الذي يحصل من اعتبار الصبر على اتِّعَاط وانزجار^(١)، من خلال الأحداث الكثيرة التي تمرُّ بالأفراد والمجتمعات والشعوب؛ فإنَّه ينبغي الاستفادة من هذه الأحداث والتجارب والتعلُّم منها، بحيث يتدارك الإنسان ما وقع فيه أوَّلئك الأوَّلون من أخطاء فيعالج هو في حياته تلك الأخطاء كي لا يقع فيها.

الشبعة الرابعة: سنَّة الأوَّلين

يتعرَّض القرآن الكريم في كثير من آياته الشريفة إلى ذكر أحوال الأمم الغابرة والسالفة، وليس الغرض من ذلك مجرَّد سرد لقصصهم؛ فإنَّ كتب التاريخ مليئة بهذه القصص، وإنَّما الغرض هو بيان ما مرَّت به تلك الأمم من أحوال وكيفيَّة تعاملهم مع الأحداث ورسَل الله تعالى وأنبيائه؛ لكي تتَّعظ منها الأمم اللاحقة، ويعتبروا بها، مستفيدين من تجاربهم بعد تقويمها وحذف الأخطاء التي وقعوا فيها. من هنا على الإنسان دوماً أن يلحظ سنَّة الأوَّلين حتى يصير كأنَّه فيهم، أي كأنَّه قد عاش في تلك السنين السابقة والقرون الماضية، وأدرك تلك التجارب التي مرَّت بأوَّلئك الناس، حتى يستفيد منها في حياته؛ لأنَّه - والحال هذه - يكون قد رأى أعمالهم وما يتعقَّبها من العقوبات الدنيويَّة، أو بعد موتهم فيرى حسراتهم، فيكون قد اهتدى بذلك الطريق القويم.

نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا لما ذكره الإمام عليه السلام من هذه الدعائم، وأن نفهمها ونعمل على طبقها، وأن يرزقنا جميعاً ثمرات فهمها، إنَّه سميع مجيب. والحمد لله ربِّ العالمين.

(١) أنظر: المصدر السابق: ج ٥، ص ٢٥٦.

الخطبة الخامسة والتسعون
أخلاق الشيعة في كلمات الإمام الباقر عليه السلام

بتاريخ: ٥ / ١٢ / ٢٠٠٨ م

﴿ كرامة الشيعة عند الله تعالى

﴿ أخلاق الشيعي الحقيقي

﴿ ١- التقوى وطاعة الله تعالى

﴿ ٢- طاعة القيادة

﴿ ٣- حبّ المؤمن في الله

﴿ ٤- الحلم والعفو

﴿ ٥- التكافل الاجتماعي

مقدمة الخطبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من فضله، ودليلاً على آلائه وعظمته^(١).

اللهم صلّ على سيّد أنبيائك ورسلك، ونجيبك من خلقك، وصفيّك من عبادك، أبي القاسم محمّد، وعلى أهل بيته موضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وقادة الأمم، وأولياء النعم، أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. أوصيكم عباد الله تعالى - ونفسي الأمارة بالسوء - بتقوى الله تعالى والورع عن محارم الله.

تمرّ علينا في اليوم السابع من ذي الحجة ذكرى استشهاد العَلَم الخامس من أعلام الهداية من أهل البيت الأطهار عليهم السلام، الإمام محمّد الباقر عليه السلام. وبهذه المناسبة الأليمة الحزينة نعزي نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله، وأهل البيت الأطهار عليهم السلام، وخاصة صاحب العصر والزمان عليه السلام، ومراجعنا العظام، والأمة الإسلامية جمعاء^(٢).

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام (تحقيق: صبحي صالح): ص ٢٢١.

(٢) أُلقيت هذه الخطبة قبل يوم من ذكرى استشهاد الإمام الهام محمّد بن علي الباقر عليه السلام، فافتتحها سباحة الشيخ الكربلائي (دامت بركاته) بعرض بعض ملامح شخصيّة الإمام الباقر عليه السلام، وجوانب من سيرته العطرة، وتطرّق لذكر جملة من القضايا العقائديّة والأخلاقيّة التي عاجلها الإمام عليه السلام، وخاصة المتعلقة منها ببناء شخصيّة الشيعي؛ لكي يكون مصداقاً حقيقياً لما يدّعيه من الولاء والتشيّع لأهل البيت عليهم السلام، ولقد اقتصرنا على إيراد الجانب الأخلاقي؛ لكونه موضوع هذا الكتاب.

كرامة الشيعة عند الله تعالى

ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قوله: «إِنَّ الله سبحانه يبعث شيعتنا يوم القيامة من قبورهم على ما كان منهم من الذنوب والعيوب، ووجوههم كالقمر ليلة البدر، مسكّنة روعاتهم، مستورة عوراتهم، قد أعطوا الأمن والأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون، يُحشرون على نوق لها أجنحة تتلأأ من ذهب، قد دُلّت من غير رياضة، أعناقها من ياقوت أحمر، ألين من الحرير، كلّ ذلك جزاء كرامتهم على الله»^(١).

إنّ ما ورد في الحديث الشريف هو بشارة من الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى أبناء الشيعة، تدفعهم إلى المزيد من العمل والجدّ والاجتهاد والمثابرة في أن يحقق كلّ واحد منهم هذه السمة العظيمة التي يدّعيها الكثيرون، وهي سمة التشيع والولاء لأهل البيت عليهم السلام؛ فإنّ هذه الدعوى تحتاج إلى مقومات يمتلكها الشخص لكي يكون شيعياً حقيقياً تنطبق عليه كلمة الشيعي؛ إذ ليس كلّ من يدّعي هذه السمة يصدق عليه أنّه من الشيعة.

وبما أنّ لهذه الصفة مقومات عديدة فسوف نتعرّض لذكر شيء منها في مطاوي الكلام؛ فإنّ من كرامة الشيعة عند الله عزّ وجلّ أن رزقهم الأمن والأمان من الفزع يوم القيامة، وجعل جزاءهم وأجرهم عظيماً؛ لأنّهم حقّقوا تلك المقومات التي أرادها الله تعالى منهم.

أخلاق الشيعي الحقيقي

ولكي ننال هذه الكرامة لا تقتصر على ادّعائنا بانتمائنا لأهل البيت عليهم السلام

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦٥، ص ١٢٧، ح ٥٧.

والانضمام تحت ولايتهم فقط، من دون تطبيق للموازين التي تبتني عليها جماعة الشيعة المؤمنة الصالحة، تلك الموازين التي ذكرها الأئمة عليهم السلام وأكدوا على الالتزام بها وتطبيقها؛ وذلك لكي تكون دعوانا للتشيع صحيحة.

هذه الموازين هي صفات الشيعة، وأخلاق الشيعة الحقيقي، وسوف نورد شيئاً منها فيما يلي:

١: التقوى وطاعة الله تعالى

هناك جوانب تربوية وأخلاقية - وغيرها اجتماعية واقتصادية - يجب على الشيعة الحقيقي الالتزام بممارستها، ومنها طاعة الله تعالى، وملازمة التقوى، وهذا ما تؤكده جملة من الأحاديث الشريفة الواردة عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام، ومنها:

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل»^(١).

وعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال لي: «يا جابر، أيكثفي من يتحلل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟! فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه. وما كانوا يعرفون - يا جابر - إلا بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء. قال جابر: فقلت: يا بن رسول الله، ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة. فقال: يا جابر، لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٣، ح ١.

مع ذلك فعلاً؟ فلو قال: إني أحب رسول الله، فرسول الله ﷺ خير من عليّ عليه السلام، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبه إياه شيئاً. فاتّقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحبّ العباد إلى الله عزّ وجلّ وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر، والله ما يُتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجة، مَنْ كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومَنْ كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»^(١).

حفل الحديث الشريف الأخير بجملة من التوصيات التربويّة والاجتماعيّة التي تؤكد على أسس التكافل الاجتماعي فيما بين الشيعة أنفسهم، بالإضافة إلى التقوى والورع وطاعة الله تعالى عزّ وجلّ، الأمر الذي يكشف عن أنّ وصف (الشيعة) يحمل التزامات كثيرةً عباديّة وأخلاقيّة واجتماعيّة لا بدّ وأن يحرص الشيعة على الالتزام بها وبتطبيقها من أجل أن يكونوا شيعةً حقيقيّين لأهل البيت عليه السلام. وفي الوقت نفسه يحمل الحديث الشريف أيضاً بشارّةً كبيرةً للشيعة الحقيقيّين، وهي نيل الكرامة من الله تعالى فيما إذا حفظوا وفهموا وطبقوا ما ذكره الحديث الشريف من الخصال والصفات.

٢. طاعة القيادة

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ما نظر الله عزّ وجلّ إلى ولي له يجهد نفسه بالطاعة لإمامه والنصيحة، إلا كان معنا في الرفيق الأعلى»^(٢). من جملة الأمور المهمّة التي أكّد عليها الإمام الباقر عليه السلام، والتي تكشف حقيقة الشيعة الموالي لأهل البيت عليه السلام، هي التواصل مع القيادة والانقياد لها وطاعتها.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٤ - ٧٥، ح ٣.

(٢) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول: ج ٤، ص ٣٣١ - ٣٣٢، ح ٣.

وهذا الأمر لا يقتصر على مَنْ كان في زمان الأئمة عليهم السلام من أتباعهم وشيعتهم، فلا يُتصور بأن الإمام عليه السلام ليس حاضراً في وقتنا فمن غير الممكن التواصل معه؛ فإنّ هناك مَنْ ينوب عن الإمام، وهم مراجع التقليد من الفقهاء الذين يستحقّون هذا المقام الإلهي، لذا يجب التواصل مع هذه القيادة النائبة عن الإمام والانقياد لأوامرها وطاعتها. لكنّ الأمر الأكثر أهميّة في المقام هو ترك الانقياد للعواطف في اتباع نائب الإمام عليه السلام، فلا يتّبع الإنسان ما تُملّيه عليه عواطفه أو ميوله الشخصية، وإنّما هناك شروط يجب أن يتّصف بها النائب تؤهله لهذا المنصب العظيم، فيجب مراعاة تلك الشروط في اتباع القيادة النائبة عن الإمام عليه السلام.

والذي يكشف صدق الطاعة لمقام المرجعيّة - التي هي في موقع النيابة عن الإمام - هو تطبيق ما يصدر عن هذه الجهة من التوجيهات والمواقف حتى لو كانت تخالف الأهواء والعواطف والتوجّهات الشخصية؛ فإنّ الطاعة الحقيقيّة تتمثّل في الاستجابة والانقياد لتلك التوجيهات والمنهج الذي تنتهجه المرجعيّة العليا، فإنّ الاختلاف معها وجعل الرأي في مقابلها لا يكشف عن الولاء والتشيّع الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام.

يُضاف إلى ذلك بناء العلاقات الطيّبة بين أبناء الأئمة وبين القيادة من خلال إدامة التواصل مع المرجعيّة الدينيّة ووكلائها الذين هم موضع ثقتها واعتمادها، وكذا موضع ثقة الناس، فإنّ هذا التواصل يكشف عن مدى الانقياد للإمام المعصوم؛ إذ المرجعيّة هي النائبة عنه، فيجب التمسك بهذه القيادة وأخذ الفتوى والتوجيهات الدينيّة منها وتطبيقها، والمحافظة على لحمّة التواصل والألفة والمحبة والمودّة بين أبناء المجتمع وبين وكلاء المرجعيّة ومعتمديها من خلال التزاور والتآزر ومدّ جسور الإعانة بين الطرفين.

٣. حبّ المؤمن في الله

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ومن أحبّ في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله»^(١).

يعطي الإمام الباقر عليه السلام عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ضابطةً كلّيةً في اكتشاف حقيقة الإيمان عند مَنْ يدّعي أنّه من أهل الإيمان، وتلك الضابطة هي ودّ أو حبّ المؤمن، فإذا كان خالصاً لله وفي الله يكون من أهل الإيمان، وكذلك البغض، والعطاء والمنع، فإذا كان بغضه لأخيه المؤمن، أو منعه العطاء لله فهو من المؤمنين الحقيقيين.

إنّ من مكارم الأخلاق أن يتغلّب الإنسان على هوى نفسه، فلا يبغض أخاه المؤمن إلّا إذا كان ذلك البغض لله، وأمّا البغض الناتج عن الميل النفسي وهوى النفس، فلا يكشف ذلك عن الأخلاق الكريمة الحميدة. من هنا يجب أن يقوّي الإنسان ارتباطه بأخيه المؤمن ويودّه، بحيث يسحق جميع الأسباب التي تؤدّي إلى القطيعة بينهما، ويغضّ البصر عن جميع الإساءات التي صدرت منه، فإنّ تحقيق هذا الأمر من مقوّمات مجاهدة هوى النفس، لذا جعل الإمام عليه السلام ذلك المؤمن من أصفياء الله إذا ما امتلك هوى نفسه وحاز على مكارم الأخلاق.

٤. الحلم والعفو

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك»^(٢).

(١) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن: ج ١، ص ٢٦٣، ح ٣٢٩.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٧٣.

يذكر الإمام الباقر عليه السلام ثلاث خصال أخلاقية تُعدّ من مكارم الدنيا والآخرة، والتحليّ بهذه المكارم والاتّصاف بها يكشف عن سمو الإنسان ورفعته.

ليس من السهولة أن يتغافل الإنسان عن الظلم، أو يتجاهل مَنْ يظلمه؛ فإنّه لا يمتلك ملكة العفو والصفح عن الظالم إلّا مَنْ رَوّض نفسه وعلمّها على اكتساب أخلاق أهل البيت عليهم السلام. وفي هذا المجال لم يكتفِ الإمام الباقر عليه السلام بأن يُحدّث أصحابه وشيعته بذلك، وإنّما طبّق هذا المعنى عمليّاً مع الناس، الأمر الذي يكشف سمو أخلاق أهل البيت عليهم السلام مع المآلف والمخالف، وذلك في حادثة تاريخية يذكرها أصحاب السير والتاريخ، فإنّ من جملة ما ذُكر في مناقب أهل البيت عليهم السلام أنّ نصرانياً كان يخاطب الإمام محمّد الباقر عليه السلام بقوله: أنت بقر؟ فيجيبه الإمام عليه السلام بوجه منشرح من دون أن ينزعج منه: أنا باقر. ثم يتنادى الرجل النصراني مع الإمام فيقول: أنت ابن الطّبّاخة؟ فيجيبه الإمام أيضاً بارتياح: ذاك حرفتها. فيتنادى الرجل النصراني أكثر على الإمام، مع أنّ الإمام عليه السلام يكظم غيظه ويحلم عنه، فيقول الرجل للإمام عليه السلام: أنت ابن السوداء الزنجيّة البذية؟ وهنا يُظهر الإمام عليه السلام كرم أخلاقه ونبليها وسموها، فيقول للرجل: إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك^(١).

(١) ابن شهر آشوب المازندراني، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ج ٣، ص ٣٣٧. ونصّ الحادثة فيه: «وقال له نصراني: أنت بقر؟ قال: أنا باقر. قال: أنت ابن الطّبّاخة؟ قال: ذاك حرفتها. قال: أنت ابن السوداء الزنجيّة البذية؟ قال: إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك. قال: فأسلم النصراني».

وبعد أن رأى هذا الرجل النصراني حقيقة أخلاق الإمام عليه السلام التي هي أخلاق الأنبياء، اهتدى وأسلم على يديه.

يُعطي الإمام الباقر عليه السلام في هذه الحادثة درساً عملياً في الأخلاق، فيُعلم الناس كيفية الحلم والعفو عن الإساءة والظلم، بل يفوق الأمر هذا الحدّ، فيجعل من المخالف أن يهتدي ويُسلم على يديه، كلّ ذلك إنّما كان بالأخلاق لا بالدليل ولا بالبرهان.

لذا علينا أن نجعل من هذا التصرف والسلوك الراقي نبزاً ومشعلاً ونور هداية نهتدي به كلّما تعرّضنا لمواقف الإساءة أم الظلم، لكي نكون حقاً من شيعة الإمام الباقر عليه السلام.

وأما إذا أردنا أن نبلغ الذروة في ذلك فنطبّق ما عمله الإمام الباقر عليه السلام مع النصراني عندما بالغ في الإساءة معه؛ فإنّ الإمام عليه السلام في نهاية المطاف - بعد أن كظم غيظه وحلم عنه - دعا له بأن يغفر الله تعالى ذنبه.

٥. التكافل الاجتماعي

مسألة التكافل الاجتماعي بين أبناء الأُمَّة الإسلامية من المسائل المهمّة جدّاً، ولقد أكّدت عليها جملة من الأحاديث الشريفة الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام ولا يمكن إحصاء مفردات هذا التكافل؛ لأنّها كثيرة جدّاً، لكنّ هناك مصاديق بارزة منها يستطيع الإنسان ممارستها، كمساعدة الفقراء وقضاء حاجاتهم، وإطعام مَنْ لا يملك لقمة العيش، وكسوة المحتاج إلى الكسوة، وغيرها من الاحتياجات التي يمكن معالجتها بالمال وبالكلمة الطيبة والموقف المساند.

ونحن إذ ندّعي بأننا من شيعة أهل البيت عليهم السلام فإنّهم عليهم السلام قد أمروا بالتكافل الاجتماعي الذي يكشف عن صدق الولاء والانتماء لهم، ولا سيّما في مثل هذه

الظروف الراهنة التي كثرت فيها الحروب حتى شُرِدت العوائل، وأُيِّمت الأطفال، وترملت النساء، فصار هناك الكثير من العائلات الفقيرة المشرّدة التي باتت لا يظللّها سقف تحتمي تحته من حرّ الصيف أو برد الشتاء. بالإضافة إلى تفشي الأمراض المتنوّعة بين الناس؛ فإنّ هناك مَنْ لا يملك ما يُعالج به مرضه أو مرض أبنائه، فيُعاني من ذلك حتى يهلك.

ويمكن المشاركة بتفعيل عمليّة التكافل الاجتماعي وإحيائها، وذلك بوضع صندوق مالي في كلّ مكان من الأماكن التي يجتمع الناس فيها، كالمساجد والحسينيّات وحتى المؤسّسات الحكوميّة والأهليّة، فيشارك الناس بتمويل هذا الصندوق كلّ بحسب ما يتمكّن، فتُجمع المبالغ بطريقة أسبوعيّة أو شهريّة، وتُنفق على الفقراء وأصحاب الحاجة.

ومن جملة ما ورد في هذا الشأن ما عن الإمام الباقر عليه السلام - في مسألة الإطعام والإكساء وإعالة الفقراء والمحتاجين وإعانتهم، وقضاء دين الغارمين، وقضاء حاجات المؤمنين - ما يلي:

عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مَنْ أطعم ثلاثة نفر من المسلمين، أطعمه الله من ثلاث جنان: ملكوت السماء والفردوس، ومن جنة عدن، ومن شجرة في جنة عدن»^(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ كسا أحداً من فقراء المسلمين

(١) البرقي، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن: ج ٢، ص ٣٩٣.

ثوباً من عري، أو أعانه بشيء مما يقوته من معيشته، وكلّ الله عزّ وجلّ به سبعين ألف ملك من الملائكة، يستغفرون لكلّ ذنب عمله إلى أن يُنفخ في الصور»^(١).

وعن أبي حمزة، عن جعفر الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: جُعلت فداك، ما تقول في مسلم أتى مسلماً زائراً وهو في منزله، فاستأذن عليه فلم يأذن له، ولم يخرج إليه؟ قال: يا أبا حمزة، أيّما مسلم أتى مسلماً زائراً أو طالب حاجة وهو في منزله، فاستأذن عليه فلم يأذن له، ولم يخرج إليه لم يزل في لعنة الله تعالى حتى يلتقيا. فقلت جُعلت فداك، في لعنة الله حتى يلتقيا؟ قال: نعم يا أبا حمزة»^(٢).

أكّدت هذه المجموعة من الأحاديث الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام على مسألة التكافل الاجتماعي، ولا سيّما مسألة قضاء حاجة المؤمن التي يستطيع المؤمن الآخر أن يقضيها له، وجعل الله تعالى لمن يلتزم بهذا التكافل جزاءً وكرامةً، لكنّه في الوقت نفسه جعل جزاءً آخر لمن يتعد عن هذه المبادئ ويتركها.

من هنا نوصي أنفسنا وإخواننا وأبناءنا بأن يهتمّوا بهذه المبادئ الكريمة كما يهتمّون بمشاغل الدنيا وزخرفها وحطامها، فإنّنا إذا ما أدركنا هذه المفاهيم وحفظناها وطبقناها حينئذ سنكون حقاً من شيعة أهل البيت عليه السلام، وننال تلك الكرامة العظيمة عند الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لمراضيه، وأن يجعلنا من أتباع أهل البيت عليه السلام حقاً في العقيدة والسلوك والقول، إنّه سميع مجيب.
والحمد لله ربّ العالمين.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٠٥، ح ٣.

(٢) المجلسي، محمد تقي، روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ج ١٣، ص ٦٦ - ٦٧.

مصادر الكتاب

✽ القرآن الكريم.

✽ نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق وشرح: محمد عبده، دار الذخائر، قم - إيران، ١٤١٢ هـ، ط: ١.

✽ نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، تحقيق: صبحي الصالح، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، بيروت. لبنان، ط: ١.

✽ الصحيفة السجّادية، أدعية الإمام السجّاد، الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، نشر الهادي، قم إيران، ١٤١٨ هـ، ط: ١. وطبعة (نمونه - قم) تحقيق: محمد باقر الموحّد الأبطحي، الناشر: مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، مؤسّسة الأنصارين للطباعة والنشر، قم - إيران، ١٤١١ هـ، ط: ١.

١. ابن أبي الحديد المعتزلي، عبد الحميد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م، ط: ١.

٢. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي، الورع، تحقيق: أبو عبد الله محمد بن حمد الحمود، دار السلفية، الكويت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ط: ١.

٣. ابن أبي جمهور الإحسائي، محمد بن علي بن إبراهيم الإحسائي، عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق: آقا مجتبی العراقي، مطبعة سيّد الشهداء، قم - إيران، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ط: ١.

٤. ابن الأثير الجزري، المبارك علي بن أبي أكرم محمد بن محمد الشيباني، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد النراوي، محمود محمد الطناجي، مؤسّسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم - إيران، ١٣٦٤ هـ. ش، ط: ٤.

٥. ابن الأثير الجزري، المبارك علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، الكامل في

التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ط: ١.

٦. ابن بابويه القمي، علي بن الحسين، الإمامة والتبصرة، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، قم - إيران، ١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش، ط: ١.

٧. ابن شعبة الحراني، أبو محمد الحسن بن علي الحسين، تحف العقول عن آل الرسول (ص)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، قم - إيران، ١٤٠٤هـ، ط: ٢.

٨. ابن شهر آشوب، محمد بن علي السروي المازندراني، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف - العراق، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.

٩. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر الحسيني، مقتل الحسين (عليه السلام) المسمى باللهوف في قتلى الطفوف، أنوار الهدى، قم - إيران، ١٤١٧هـ، ط: ١.

١٠. ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، تصحيح وشرح: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة - مصر، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

١١. ابن فهد الحلبي، أحمد بن فهد الحلبي، عدّة الداعي ونجاح الساعي، تصحيح وتعليق: أحمد الموحي القمي، مكتبة الوجداني، قم - إيران.

١٢. ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تقديم: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٣. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، نشر: أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.

١٤. ابن ميثم البحراني، ميثم بن علي بن ميثم البحراني، شرح مئة كلمة لأمر المؤمنين (عليه السلام)، تصحيح وتعليق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم - إيران.

١٥. ابن ميثم البحراني، ميثم بن عليّ بن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، تصحيح: عدّة من الأفاضل، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم - إيران، ١٣٦٢هـ. ش، ط: ١.
١٦. ابن نما الحلّي، محمّد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله الحلّي، مثير الأحران، منشورات المطبعة الحيدريّة في النجف، النجف الأشرف - العراق، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
١٧. الإريلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، الناشر: دار الأضواء، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ط: ٢.
١٨. الأشعري، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن عيسى القمّي، كتاب النوادر، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، قم - إيران، ١٤٠٨هـ، ط: ١.
١٩. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمّد، مقاتل الطالبين. تقديم وإشراف: كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، ط: ٢.
٢٠. الأعرج، عميد الدين عبد المطلب، كنز الفوائد في حلّ مشكلات القواعد، تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسي، قم - إيران، ١٤١٦هـ، ط: ١.
٢١. الآمدي، عبد الواحد بن محمّد التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: مهدي الرجائي، دار الكتاب الإسلامي، دمشق - سوريا، ١٤١٠م.
٢٢. الأمين، محسن، لوايع الأشجان في مقتل الحسين، منشورات مكتبة بصيرتي، قم - إيران، ١٣٣١هـ.
٢٣. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، تحقيق وإخراج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان.

٢٤. الأنصاري، محمد عليّ، الموسوعة الفقهيّة الميسّرة، مجمع الفكر الإسلامي، ١٤١٥هـ، ط: ١.

٢٥. البحراني، هاشم بن سليمان بن إسماعيل التوبلاني، حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار، تحقيق: غلام رضا مولانا البروجردى، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم - إيران، ١٤١١هـ، ط: ١.

٢٦. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، كتاب المحاسن، تصحيح وتعليق: جلال الدين الحسيني المحدث، دار الكتب الإسلاميّة، طهران - إيران، ١٣٧٠هـ - ١٣٣٠ش.

٢٧. البروجردى الطباطبائي، حسين، جامع أحاديث الشيعة، المطبعة العلمية، قم - إيران، ١٣٩٩هـ.

٢٨. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ط: ١.

٢٩. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ، ط: ١.

٣٠. الجلالى، محمد رضا الحسينى، جهاد الإمام السجّاد زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، مؤسّسة دار الحديث الثقافية، ١٤١٨هـ، ط: ١.

٣١. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربيّة)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ط: ٤.

٣٢. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، هداية الأئمة إلى أحكام الأئمة عليهم السلام، تحقيق: قسم الحديث في مجمع البحوث الإسلاميّة، مجمع البحوث الإسلاميّة، مشهد - إيران، ١٤١٢هـ، ط: ١.

٣٣. الحرّ العاملي، محمد بن الحسين، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم - إيران، ١٤١٤هـ، ط: ٢.

٣٤. الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، مختلف الشيعة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤١٢هـ، ط: ١.
٣٥. الحميري القمي، أبو العباس عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، قم - إيران، ١٤١٣هـ، ط: ١.
٣٦. الخصبي، الحسين بن حمدان، الهداية الكبرى، مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان، ١٩٩١م، ط: ٤.
٣٧. الخوارزمي، الموفق بن أحمد بن محمد المكي، المناقب، تحقيق: مالك المحمودي - مؤسسة سيّد الشهداء (عليه السلام)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم - إيران، ١٤١٤هـ، ط: ٢.
٣٨. الخوئي، أبو القاسم الموسوي، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ط: ٥.
٣٩. الخوئي، حبيب الله الهاشمي، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، تحقيق: إبراهيم الميانجي، الناشر مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام) الثقافية، المطبعة الإسلامية، طهران - إيران، ط: ٤.
٤٠. الديلمي، أبو محمد الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، انتشارات الشريف الرضي، ١٤١٥هـ، ط: ٢.
٤١. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتاب العربي، منشورات الشريف الرضي، ١٩٦٠م، ط: ١.
٤٢. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، الناشر: دفتر نشر كتاب، ١٤٠٤هـ، ط: ٢.
٤٣. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، طليعة النور، قم - إيران، ١٤٢٧هـ، ط: ٢.

٤٤. الريشهري، محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، تحقيق ونشر: مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم - إيران، ط: ١.

٤٥. الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، تحقيق ونشر: مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم - إيران، ط: ١.

٤٦. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٤٧. الزمخشري، جار الله محمود بن عمرو الخوارزمي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة مصطفى البابي وأولاده بمصر، ١٤٨٥هـ - ١٩٩٦م.

٤٨. السبحاني، جعفر، الأقسام في القرآن الكريم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٠هـ، ط: ١.

٤٩. السماوي، مهدي بن طاهر، إِبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، تحقيق: محمد جعفر الطوسي، مركز الدراسات الإسلامية الممثلة الولي الفقيه في حرس الثورة الإسلامية، ١٤١٩هـ، ط: ١.

٥٠. السند، محمد، فقه علائم الظهور، تقديم وتحقيق: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي في النجف الأشرف، الناشر: دليلنا، قم - إيران، ١٤٢٥هـ، ط: ١.

٥١. شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين، الدار الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ط: ٢.

٥٢. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد العاملي، مسكن الفؤاد عند فقد الأجرة والأولاد، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم - إيران، ١٤٠٧هـ، ط: ١.

٥٣. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد العاملي، منية المريد في أدب المفيد والمستفيد، تحقيق: رضا المختاري، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ، ط: ١.

٥٤. الشهيد الثاني، زين الدين علي بن أحمد العاملي، حقائق الإيمان، تحقيق: مهدي الرجائي، إشراف: محمود المرعشي، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العلميّة، قم - إيران، ١٤٠٩هـ، ط: ١.

٥٥. الصدر، مهدي، أخلاق أهل البيت عليهم السلام، الناشر: دار الكتاب الإسلامي.

٥٦. الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ، معاني الأخبار، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم - إيران، ١٣٧٩هـ.

٥٧. الصدوق، محمد بن عليّ القميّ، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، قم - إيران، ١٤١٧هـ، ط: ١.

٥٨. الصدوق، محمد بن عليّ القميّ، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تقديم: محمد مهدي الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم - إيران، ١٣٦٨ش، ط: ٢.

٥٩. الصدوق، محمد بن عليّ القميّ، علل الشرائع، تقديم: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

٦٠. الصدوق، محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤٠٣هـ.

٦١. الصدوق، محمد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ، كمال وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤٠٥هـ.

٦٢. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ، من لا يحضره الفقيه،

تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر- الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم- إيران، ط: ٢.

٦٣. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤، ط: ١.

٦٤. الصفار، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد عليهم السلام، تقديم وتعليق وتصحيح: الحاج ميرزا محسن (كوجه باغي)، منشورات الأعلمي، طهران- إيران، ١٤٠٤هـ.

٦٥. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر- الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم- إيران.

٦٦. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، بدون تاريخ، ط: ٢.

٦٧. الطبرسي، أبو الفضل علي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق: مهدي هوشمند، دار الحديث، قم- إيران، ١٤١٨هـ، ط: ١.

٦٨. الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف - العراق، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.

٦٩. الطبرسي، أبو نصر الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، منشورات الشريف الرضي، ١٩٧٢م، ط: ٦.

٧٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوري بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم- إيران، ١٤١٧هـ، ط: ١.

٧١. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين. تقديم: السيد محسن الأمين العاملي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ط: ١.

٧٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم - إيران، ١٤١٣هـ، ط: ١.
٧٣. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط: ٤.
٧٤. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: أحمد الحسيني، منشورات المكتبة المرتضوية، طهران - إيران، ١٣٩٥هـ، ط: ٢.
٧٥. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بشيخ الطائفة، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، تصحيح وتعليق: المعلم الثالث ميرداماد الاستربادي، تحقيق: مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم - إيران، ١٤٠٤هـ.
٧٦. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بشيخ الطائفة، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد، تحقيق وتعليق: حسن الموسوي الخراساني، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، ١٣٦٤ش، ط: ٣.
٧٧. الطوسي، محمد بن الحسن المعروف بشيخ الطائفة، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم - إيران، ١٤١٤هـ، ط: ١.
٧٨. عبد المنعم، محمود بن عبد الرحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة - مصر.
٧٩. العسكري، مرتضى، معالم المدرستين، مؤسسة النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٨٠. علي ذو الفقار، ذو الفقار، الحركات المهدوية تاريخها - عقائدها - خطرهما، مركز بانقيا للأبحاث والدراسات، ٢٠١٤م، ط: ٢.

٨١. العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، كتاب التفسير (تفسير العياشي)، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران - إيران.

٨٢. الغروي، علي، التنقيح في شرح العروة الوثقى، تقرير أبحاث السيّد الخوئي، (موسوعة الإمام الخوئي) (الطهارة)، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي قدس سره، قم - إيران، ١٤٣٦هـ - ٢٠٠٥م، ط: ٢.

٨٣. الفيض الكاشاني، محمد محسن، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، بدون تاريخ، ط: ٢.

٨٤. الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، تحقيق: ضياء الدين الحسيني (العلامة) الأصفهاني، مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة، أصفهان - إيران، ١٤٠٦هـ، ط: ١.

٨٥. القاضي أبو حنيفة المغربي، النعمان بن محمد التميمي، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تحقيق: محمد الحسيني الجلاي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤١٤هـ، ط: ٢.

٨٦. القبانجي، حسن، شرح رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام)، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر، قم - إيران، ١٤٠٦هـ، ط: ٢.

٨٧. القمي، عباس، الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - إيران، ١٤١٧هـ، ط: ١.

٨٨. القمي، عباس، الكنى والألقاب، تقديم: محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، طهران - إيران.

٨٩. القمي، عباس، نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ط: ١.

٩٠. الكربلائي، جواد بن عباس، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، مراجعة: محسن الأسدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ط: ١.

٩١. الكربلائي، عبد المهدي، المواعظ الحسنة (مواضيع أخلاقية من خطب الجمعة الدينية)، إعداد وتنظيم وتحقيق: مؤسسة الخلق العظيم، العتبة الحسينية المقدسة، النجف الأشرف - العراق، ١٤٣٩هـ، ط: ١.

٩٢. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران - إيران، ١٤٠٧هـ، ط: ٤.

٩٣. الكوفي، الحسين بن سعيد الأهوازي، الزهد، تحقيق: ميرزا غلام رضا عرفانيان، المطبعة العلمية، قم - إيران، ١٣٩٩هـ.

٩٤. الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، قم - إيران، ط: ١.

٩٥. المازندراني، محمد صالح، شرح أصول الكافي، تعليق: أبو الحسن الشعراني، ضبط وتصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط: ١.

٩٦. المتقي الهندي، علي بن عبد الملك، كنز العمال، ضبط وتصحيح: بكري حياني - صفوة السفا، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١٩٨٩م.

٩٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط: ٢.

٩٨. المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ﷺ، تقديم: السيد

مرتضى العسكري، تصحيح: السيّد هاشم الرسولي، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٤هـ، ط: ٢.

٩٩. المجلسي، محمد تقي، روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه، تعليق: حسين الموسوي الكرمانى وعلي پناه الاشتهااردى، بنياد فرهنگ إسلامي حاج محمد حسين كوشانيور.

١٠٠. مجمع اللغة العربية بالقاهرة (مجموعة مؤلّفين)، المعجم الوسيط، دار الدعوة.
١٠١. المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسّسة الرسالة، بيروت - لبنان.
١٠٢. المسعودي، محمد فاضل، الأسرار الفاطميّة، تقديم: السيد عادل العلوي، مؤسّسة الزائر في الروضة المقدّسة الفاطمة المعصومة عليها السلام للطباعة والنشر، قم - إيران، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ط: ٢.

١٠٣. المشهدي، محمد بن جعفر، المزار، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم - إيران، ١٤١٩هـ، ط: ١.
١٠٤. المظاهري، حسين، الأخلاق البيّتيّة، تحقيق وترجمة: لجنة الهدى، دار المحجّة البيضاء، بيروت - لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ط: ١.

١٠٥. مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ١٩٨١م، ط: ٣.

١٠٦. مغنية، محمد جواد، التفسير المبين، مؤسّسة دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط: ٢.

١٠٧. مغنيّة، محمد جواد، في ظلال نهج البلاغة، انتشارات كلمة الحق، ١٤٢٧هـ، ط: ١.
١٠٨. المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الاختصاص، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ط: ٢.

١٠٩. المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، كتاب الأمل، تحقيق: الحسين أستاذ ولي، علي أكبر الغفاري، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ط: ٢.
١١٠. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ط: ٢.
١١١. مكارم الشيرازي، ناصر، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، قم - إيران، ١٤٢١، ط: ١.
١١٢. الميرجهاني، حسن الطباطبائي المحمدآبادي، مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة (مستدرک نهج البلاغة)، ١٣٨٨ هـ.
١١٣. النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الأسدي الكوفي، فهرست أسماء مصنفی الشيعة (رجال النجاشي)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسي، قم - إيران، ١٤١٦ هـ، ط: ٥.
١١٤. النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، تحقيق: محمد كلانتر، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف - العراق.
١١٥. النمازي الشاهرودي، علي، مستدرکات علم رجال الحديث، المطبعة: شفق - طهران، الناشر: ابن المؤلف - أصفهان، ١٤١٢ هـ، ط: ١.
١١٦. النوري، حسين الطبرسي، مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث بيروت - لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، ط: ١.

١١٧. النيسابوري، محمد بن الفتال، روضة الواعظين، تقديم: محمد مهدي الخراسان،

منشورات الشريف الرضي، قم - إيران.

١١٨. الهمداني، رضا محمد هادي، مصباح الفقيه، تحقيق ونشر: المؤسسة الجعفرية

لإحياء التراث، قم - إيران، ١٤١٧هـ، ط: ١.

١١٩. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي،

تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت - لبنان.

المحتويات

كلمة سماحة المتوليّ الشرعي للعتبة الحسينيّة المقدّسة	٧
كلمة المؤسسة	٩
(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها	١٠
رؤية المؤسسة	١١
أولاً: الله تعالى بصفاته الكمالية والجمالية	١١
ثانياً: النظام الأخلاقي	١١
ثالثاً: الإنسان	١٢
أهداف المؤسسة	١٣
مشاريع المؤسسة	١٥
١- موسوعة المواعظ الحسنة	١٥
٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية الألفبائية	١٥
٣- ترجمة النتاجات الأخلاقية	١٦
٤- مشروع التراث الأخلاقي	١٦
٥- تأليف سلسلة الفضائل والردائل	١٦
٦- مشروع المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية	١٦
٧- المشاريع الإعلامية	١٧
٨ - إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية	١٧
٩ - المكتبة الإلكترونية الأخلاقية	١٧
هذا الكتاب	١٧
منهجنا في العمل	١٨

الخطبة الثالثة والستون

دروس أخلاقية من النهضة الحسينية المباركة

القسم الأول

- مقدمة الخطبة ٢٣
- مفهوم النصر وحقيقته ٢٣
- الدروس والعبر المستوحاة من واقعة كربلاء وسيرة المعصومين عليه السلام ٢٥
- أولاً: دروسٌ حسينيةٌ للقادة والمسؤولين ٢٥
- ١- ضرورة السعي للإصلاح في المجتمع ٢٥
- ٢- الشجاعة في قول الحق ومجابهة الباطل ٢٧
- ٣- ديمومة الارتباط الروحي مع الله تعالى ٢٨
- ٤- تقوية الترابط والانفتاح بين المسؤول وعامة الشعب ٣٠
- ٥- تبني سياسة نكران الذات ٣١
- نصائح وتوصيات للإخوة المسؤولين في الدولة ٣٢
- ثانياً: دروسٌ حسينيةٌ إلى عامة الناس ٣٥
- ١- الصبر والتضحية ٣٥
- ٢- الاستعداد للتضحية ٣٧

الخطبة الرابعة والستون

دروس أخلاقية من النهضة الحسينية المباركة

القسم الثاني

(مقومات توطين النفس على البلاء)

- مقدمة الخطبة ٤٣
- مقومات توطين النفس على البلاء ٤٣
- المقوم الأول: عدم الاغترار بالدنيا والانخداع بها ٤٥
- المقوم الثاني: عدم الانقياد للشهوات والملذات الدنيوية ٤٨

المقوّم الثالث: التحلّي بالوعي والبصيرة	٤٩
المقوّم الرابع: الشعور بالمسؤوليّة	٥١
المقوّم الخامس: الانقياد للقيادة الحقّة والوفاء لها	٥١
المقوّم السادس: الاستقامة والثبات	٥٢
المقوّم السابع: الشجاعة والاستهانة بالموت في سبيل المبادئ	٥٣
المقوّم الثامن: تقوية الارتباط بالله تعالى	٥٤

الخطبة الخامسة والستون

نفحات من توجيهات الإمام السجّاد عليه السلام الأخلاقية

القسم الأوّل

مقدمة الخطبة	٥٩
رسالة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام إلى بعض أصحابه	٦٠
من ملامح سيرة الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام	٦١
الملح الأوّل: الإمام السجّاد عليه السلام هو الامتداد لخطّ الإمامة وصوت الحقّ	٦١
الملح الثاني: إثراء الساحة الدينيّة بالأدعية والمناجاة	٦٢
دعاء الإمام عليه السلام لأهل الثغور وتغليب المصلحة العامة	٦٣
الإفادة من سيرة الإمام السجّاد عليه السلام في مواجهة الفتن	٦٤
جملة من الإرشادات التربويّة الواردة عن الإمام السجّاد عليه السلام	٦٧
١- صرف الوقت في طلب العلم	٦٧
٢- رفقة الصلحاء	٦٩
٣- صون اللسان	٧٠
٤- صون السمع	٧١

٥- الاستغفار والتوبة ٧٢

الخطبة السادسة والستون

نفحات من توجيهات الإمام السجاد عليه السلام الأخلاقية

القسم الثاني

مقدمة الخطبة ٧٧

دعاء الإمام السجاد عليه السلام في الاستعاذة من المكروه وسبب الأخلاق ٧٨

وقفه عند جملة من الخصال الأخلاقية الواردة في الدعاء ٨٠

أولاً: الحرص ٨٠

الحرص الممدوح والحرص المذموم ٨٠

بعض آثار الحرص المذموم ٨١

علاج الحرص المذموم ٨٢

ثانياً: الغضب وآثاره ٨٤

ثالثاً: الحسد وعواقبه ٨٧

رابعاً: الصبر وأقسامه ٨٨

الخطبة السابعة والستون

وحدة الأمة الإسلامية مصدر قوة المسلمين

مقدمة الخطبة ٩٥

مقدمة البحث ٩٥

مفهوم الوحدة الإسلامية وعوامل تحقيقها ٩٦

أسس تحقيق الوحدة الإسلامية ٩٩

الأساس الأول: الموقف الواحد ٩٩

الأساس الثاني: الحرية في الفكر والرأي ٩٩

الأساس الثالث: مراعاة الحقوق العامة ١٠٠

- الأساس الرابع: الإخوة الإسلامية ١٠٠
- الأساس الخامس: لغة الحوار ١٠١
- الأساس السادس: الحكم على أساس الظاهر ١٠٢
- الأساس السابع: التعايش السلمي ١٠٤

الخطبة الثامنة والستون

من صفات المتقين

القسم الثالث

- مقدمة الخطبة ١٠٩
- تزئین المتقي بالعلم والحلم والتواضع ١١٠
- مزج القول بالفعل ١١٢
- قرب الأمل ١١٤
- خشوع القلب ١١٥
- قناعة النفس ١١٦
- عدم الإكثار من الطعام ١١٨
- حصانة الدين ١١٩
- عفة البطن والفرج ١٢١
- كظم الغيظ ١٢٢

الخطبة التاسعة والستون

من صفات المتقين

القسم الرابع

- مقدمة الخطبة ١٢٩

١٢٩.....	صفات المتّقين في خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام)
١٣٠.....	ذكر الله تعالى
١٣٠.....	مراتب ذكر الله عزّ وجلّ
١٣٢.....	مثالان من الواقع لذكر الله تعالى
١٣٧.....	ثلاث خصال هنّ خير أخلاق الدنيا والآخرة
١٣٧.....	الخصلة الأولى: العفو عن الإساءة
١٣٨.....	الخصلة الثانية: بذل العطاء لمنّ حرمه منه
١٣٩.....	الخصلة الثالثة: صلة القاطع
١٣٩.....	أهل الفضل
١٤٠.....	دفع شبهة
١٤٠.....	ضبط النفس
١٤١.....	الصبر في الشدّة والشكر في الرخاء
١٤٣.....	قصة وعبرة

الخطبة السبعون

من صفات المتّقين

القسم الخامس

١٤٩.....	مقدمة الخطبة
١٥٠.....	مراعاة الموازين الشرعيّة في إصدار الأحكام والقرارات
١٥١.....	حفظ الأمانة
١٥٣.....	استحضار المؤمن ما ذكّر به
١٥٣.....	المنابذة بالألقاب
١٥٤.....	حفظ الجوار
١٥٦.....	عدم الشماتة بنزول المصيبة

فضيلة الصمت	١٥٧
-------------------	-----

الخطبة الحادية والسبعون

مجاهدة أهل الباطل

مقدمة الخطبة

الحكمة في تأخير النيل من الظالم	١٦٥
التقاعس عن نصره الحق	١٦٧
النقطة الأولى: الإبطاء في نصره الحق	١٦٨
النقطة الثانية: ترك الاستماع لكلام القائد	١٧٠
النقطة الثالثة: سوء حال أهل الحق	١٧٢
النقطة الرابعة: انخفاض قيمة الفرد بخذلانه الحق	١٧٣
الفقهاء قادة الأمة	١٧٤

الخطبة الثانية والسبعون

تسبيح الزهراء عليها السلام حبوة الرسول إليها

مقدمة الخطبة	١٧٩
التسبيح من الركائز الإسلامية المهمة	١٧٩
فضل تسبيح الزهراء عليها السلام في مرويات أهل البيت عليهم السلام	١٨٤
المضامين التي يحملها التسبيح	١٨٦
النقطة الأولى: الابتداء بلفظ الجلالة (الله) والانتهاى به	١٨٦
النقطة الثانية: تطبيق مضمون التسبيح	١٨٧
النقطة الثالثة: الإخلاص لله تعالى سبب نشوء البركة	١٨٨
النقطة الرابعة: عطاء تسبيح الزهراء عليها السلام العقائدي	١٨٩

الفصل الأول: جملة: (الله أكبر) ١٨٩

الفصل الثاني: جملة: (الحمد لله) ١٨٩

الفصل الثالث: جملة: (سبحان الله) ١٩٠

الخطبة الثالثة والسبعون

المضامين الوعظية

في رسالة الإمام العسكري عليه السلام إلى أحد أصحابه ١٩١

مقدمة الخطبة ١٩٣

مضامين الرسالة ١٩٦

المضمون الأول: الرقة والرحمة ١٩٦

المضمون الثاني: الغبطة ١٩٨

المضمون الثالث: أسباب الفجوة بين الإمام وشيعته ١٩٩

المضمون الرابع: التأكيد على اتباع الحق ٢٠٢

المضمون الخامس: نعمة الفرائض ٢٠٢

الخطبة الرابعة والسبعون

أهداف إحياء شعيرة عاشوراء

مقدمة الخطبة ٢٠٧

من أهداف الملحمة الحسينية ٢٠٧

الأمر الأول: الانشداد إلى مبادئ مذهب أهل البيت عليه السلام ٢٠٩

الأمر الثاني: خلوص النية لله تعالى ٢١١

الأمر الثالث: إبراز قيم الثورة ٢١١

الأمر الرابع: الشعور بالمسؤولية ٢١٢

الأمر الخامس: وحدة الأمة ٢١٣

الأمر السادس: الصلاة أول الوقت ٢١٣

الأمر السابع: جهاد النفس ٢١٧

الأمر الثامن: حسن المعاشرة ٢١٨

الخطبة الخامسة والسبعون

دعوى المهدويّة المزيّفة في عصر الغيبة

مقدمة الخطبة ٢٢٣

امتحان الأُمّة بدعوى المهدويّة المزيّفة ٢٢٣

إرشادات وتوجيهات أهل البيت عليهم السلام ٢٢٥

الأمر الأوّل: المعرفة الحقيقيّة بشخصيّة الإمام المنتظر عليه السلام ٢٢٥

الأمر الثاني: الاطمئنان من عواقب الأمور ٢٢٧

الأمر الثالث: الاتّعاظ بالدعوى الباطلة على مرّ التاريخ ٢٣٠

الأمر الرابع: الابتعاد عن ظاهرة التوقيف ٢٣١

الأمر الخامس: معنى الانتظار الحقيقي ٢٣٥

الأمر السادس: المرجعيّة الدينيّة الحقيقيّة ٢٣٧

الخطبة السادسة والسبعون

الحثّ على العمل الصالح

مقدمة الخطبة ٢٤٣

الوعي عند سماع الحكمة ٢٤٤

الاستجابة لدعوة الرشاد ٢٤٦

النجاة بعد الهداية ٢٤٧

الاعتقاد بمراقبة الله تعالى لعباده ٢٥٠

الأعمال الخالصة لله تعالى ٢٥٢

٢٥٤ ادّخار الأعمال الصالحة

٢٥٥ الصبر وسيلة النجاة

الخطبة السابعة والسبعون

نفحات أخلاقية من وصايا الإمام الحسن العسكري عليه السلام

٢٦١ مقدمة الخطبة

٢٦١ إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام

٢٦٣ وصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام

٢٦٤ التقوى والورع

٢٦٧ الوصول إلى التقوى والورع

٢٦٩ صدق الحديث وأداء الأمانة

٢٧١ القرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة

٢٧٢ حسن الجوار

٢٧٤ الوحدة الإسلامية

٢٧٥ الانتماء الحقيقي لأهل البيت عليهم السلام

٢٧٧ خاتمة الوصية

الخطبة الثامنة والسبعون

نفحات أخلاقية مستوحاة من كلام الإمام علي عليه السلام

٢٨١ مقدمة الخطبة

٢٨١ نص خطبة الإمام علي عليه السلام

٢٨٣ المحطة الأولى: النهضة الإصلاحية في الأمة الإسلامية

٢٨٤ المحطة الثانية: الاستعداد والتهيؤ

٢٨٥ النقطة الأولى: التمهيد والغربة

٢٨٥ النقطة الثانية: التقوى

٢٨٦	 الاعتبار بالأُمم السابقة من وسائل التقوى
٢٩٠	 نماذج تاريخية للاتعاظ والاعتبار
٢٩٣	 عودة الامتحان والاختبار
٢٩٤	 الخطايا والتقوى
٢٩٥	 الحقّ والباطل

الخطبة التاسعة والسبعون

الاتعاظ بذكر الموت

٢٩٩	 مقدمة الخطبة
٣٠٠	 المنفعة في سلب النعمة
٣٠٥	 الصبر على سلب النعمة
٣٠٦	 مراقبة الله تعالى لعباده
٣٠٦	 الشهادة بالتوحيد والنبوة
٣٠٨	 ذكر الموت
٣١٠	 ما بعد الموت
٣١١	 تركة المال
٣١٢	 البيوت والأزواج
٣١٣	 طي الكتاب عند الموت
٣١٤	 التقوى

الخطبة الثمانون

الغيبية مرض اجتماعي خطير

٣١٩	 مقدمة الخطبة
-----	--------------------

- الشَّقُّ الأوَّل: صون حرَمات الإنسان ٣٢١
- ألف: حرمة الدماء والأموال والأعراض ٣٢١
- باء: حرمة هتك المنزلة الاجتماعية ٣٢٢
- الآثار السلبية لمرض الغيبة ٣٢٣
- أولاً: انعدام حالة التكاتف والتعاون ٣٢٣
- ثانياً: تآكل المجتمع وتفكك العلاقات ٣٢٥
- ثالثاً: انحطاط المنزلة عند الله تعالى ٣٢٦
- رابعاً: خسران رصيد الحسنات ٣٢٧
- الشَّقُّ الثاني: خطبة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ٣٢٨
- الطائفة الأولى: البعيدون عن الذنوب ٣٢٩
- الطائفة الثانية: مستورو العيوب ٣٢٩
- الطائفة الثالثة: المشغولون بعيوب الآخرين ٣٣٠
- الطائفة الرابعة: مرتكبو الصغائر ٣٣١
- التأكيد على الابتعاد عن مرض الغيبة ٣٣٣

الخطبة الحادية والثمانون

الانتفاع بالقرآن الكريم

(نفحات تربويّة من خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام في بيان فضل القرآن)

- مقدمة الخطبة ٣٣٧
- الترغيب في طاعة الله والتحذير عن معاصيه ٣٣٨
- المقارنة بين العلوم الدنيويّة وما أتى به القرآن الكريم ٣٣٩
- محاب الله ومكارهه من الأعمال ٣٤١
- ميل النفس إلى المعصية ٣٤٤
- محاسبة النفس ٣٤٥

٣٤٦	فضل القرآن
٣٤٧	أ) زيادة في هدى أو نقصان من عمى
٣٤٩	ب) القرآن شفاء من الداء
٣٥٠	ج) ثمرة القرآن الأخروية

الخطبة الثانية والثمانون

التلون والنفاق

٣٥٧	مقدمة الخطبة
٣٥٨	تلون الأخلاق وتبدلها
٣٦١	اتحاد اللسان
٣٦٣	إمساك اللسان وحفظه
٣٦٥	العلاقة بين القلب واللسان
٣٦٩	القلب محل الإيمان
٣٦٩	حقيقة المسلم

الخطبة الثالثة والثمانون

حسن التبعل (الزهراء عليها السلام نموذجاً)

٣٧٣	مقدمة الخطبة
٣٧٣	قبس من فضائل الزهراء عليها السلام
٣٧٤	المنقبة الأولى: يرضى الله لرضاها
٣٧٥	المنقبة الثانية: نور الزهراء عليها السلام
٣٧٦	سيرة الزهراء عليها السلام المباركة
٣٧٧	الأمر الأول: مساندة الرجل

- الأمر الثاني: مسؤوليّة التربية ٣٨٠
- الأمر الثالث: طاعة الزوج ٣٨١
- الأمر الرابع: العفة والستر ٣٨٢

الخطبة الرابعة والثمانون

من مواعظ الإمام علي عليه السلام البليغة

- مقدمة الخطبة ٣٨٧
- تمهيد ٣٨٧
- الموعظة الأولى: الرجاء والخوف الحقيقيّان ٣٨٩
- الموعظة الثانية: عدم الاغترار بسعة رحمة الله والطمع في ثوابه بغير عمل ٣٩٠
- الموعظة الثالثة: الإسراع إلى التوبة ٣٩٢
- الموعظة الرابعة: التظاهر بالزهد مع عدم القناعة ٣٩٣
- الموعظة الخامسة: عدم التقصير في العمل والمبالغة في السؤال ٣٩٦
- الموعظة السادسة: عدم البطر والافتتان بالغنى ٣٩٨

الخطبة الخامسة والثمانون

التحصين التربوي في سيرة الإمام الهادي عليه السلام

- مقدمة الخطبة ٤٠١
- تمهيد ٤٠١
- التحصين التربوي والأخلاقي ٤٠٢
- أساليب الإمام الهادي عليه السلام التربويّة ٤٠٢
- الأسلوب الأوّل: زيارة الأئمة عليهم السلام ٤٠٣
- الأسلوب الثاني: تعهّد القرآن الكريم وسنّة أهل البيت عليهم السلام ٤٠٦
- الأسلوب الثالث: الدعاء والتوجّه إلى الله تعالى في الحوائج ٤٠٧
- الأسلوب الرابع: الثقة بالله تعالى والتوكّل عليه ٤١١

الخطبة السادسة والثمانون

اتباع الهوى وطول الأمل

٤١٥	مقدمة الخطبة
٤١٥	التحذير من اتباع الهوى وطول الأمل
٤١٦	الخصلة الأولى: اتباع الهوى
٤١٦	أقسام النفس
٤١٨	مصاديق اتباع الهوى
٤٢٢	الخصلة الثانية: طول الأمل
٤٢٤	شبهة العمل لأجل الدنيا وردّها
٤٢٤	علاج حبّ الدنيا والتمسك بها

الخطبة السابعة والثمانون

دروس في التعايش الاجتماعي من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام

٤٣١	مقدمة الخطبة
٤٣١	استذكار سيرة أمير المؤمنين عليه السلام والاقتداء بها
٤٣٣	منقبة الإيمان
٤٣٤	محاور التعايش الاجتماعي في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام
٤٣٤	المحور الأوّل: قاعدتنا التعامل الاجتماعي
٤٣٤	القاعدة الأولى: المماثلة الإنسانية
٤٣٥	القاعدة الثانية: ميزان النفس
٤٣٧	المحور الثاني: الرعاية الاجتماعيّة
٤٣٧	قصة وعبرة
٤٤٠	المحطة الأولى: استشعار الرحمة

٤٤١	المحطة الثانية: استحضار السؤال يوم القيامة
٤٤١	المحطة الثالثة: إظهار المواساة الواقعية
٤٤١	المحطة الرابعة: العفو عن الإساءة
٤٤٢	المحطة الخامسة: رضا الله تعالى
٤٤٢	مناشدة
٤٤٣	المحور الثالث: الحلم والصفح

الخطبة الثامنة والثمانون

من وصايا الإمام علي عليه السلام في الأخلاق

٤٤٩	مقدمة الخطبة
٤٤٩	كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الآداب والأخلاق
٤٥٠	إصلاح عيوب النفس
٤٥٢	القناعة بالرزق المقسوم
٤٥٥	بعض الأرزاق فتنة وامتحان
٤٥٨	كثرة الكلام من موجبات دخول النار

الخطبة التاسعة والثمانون

بناء الأواصر الاجتماعية

٤٦٣	مقدمة الخطبة
٤٦٣	أضواء على سورة الهمزة
٤٦٤	بناء العلاقة الاجتماعية على أساس المال
٤٦٦	حفظ المكانة الاجتماعية
٤٦٧	المال ليس وسيلة للوصول إلى الهدف
٤٦٩	عذاب الأفتدة بالنار
٤٧١	جزاء القيامة يُناسب عمل الدنيا
٤٧١	حُسن المعاملة

النقل الخاطيء إفساد للعلاقة الاجتماعية ٤٧٢

اغتنام شهر رمضان لتقوية الأواصر الاجتماعية ٤٧٤

الخطبة التسعون

التنفير عن الدنيا والترغيب في الآخرة

مقدمة الخطبة ٤٧٩

تمهيد في بعض أهداف خطب نهج البلاغة ٤٧٩

تذكر دنو الأجل ٤٨٠

ثمن الحياة الحقيقية الأخرى ٤٨١

الاستعداد للموت ٤٨٢

الأمر الأول: التوبة ٤٨٤

الأمر الثاني: الصبر على الطاعة ٤٨٤

خداع الشيطان ٤٨٥

الخطبة الحادية والتسعون

دور العلم في الحياة اليومية

مقدمة الخطبة ٤٨٩

طلب العلم ٤٨٩

الأمر الأول: أهمية العلم في الحياة ٤٩٠

الحديث الأول: العلم مصباح العقل ٤٩١

الحديث الثاني: العلم حياة القلوب ٤٩١

الحديث الثالث: التفقه في أمر الدين ٤٩٢

الحديث الرابع: العلم طريق الجنة ٤٩٤

احترام طالب العلم ٤٩٥

٤٩٥	الأمر الثاني: نقاطٌ مهمّةٌ على طالب العلم اتّباعها
٤٩٥	النقطة الأولى: اختيار العلم النافع
٤٩٨	النقطة الثانية: الحرص على الفهم الدقيق
٤٩٩	النقطة الثالثة: مراعاة حقّ المعلّم والمتعلّم
٥٠١	حقّ المتعلّم
٥٠١	حقّ المعلّم
٥٠١	حقّ العلم
٥٠٢	نشر علوم أهل البيت عليه السلام
٥٠٤	وصايا تربويّة

الخطبة الثانية والتسعون

رشحات من دور الإمام الصادق عليه السلام التربوي

٥٠٧	في المجتمع
٥٠٩	مقدمة الخطبة
٥١٠	دور الإمام الصادق عليه السلام التربوي
٥١١	أولاً: حفظ اللسان
٥١٢	ثانياً: علامات الشيعي الحقيقيّة
٥١٣	العلامة الأولى: الصمت عن الفحشاء
٥١٤	العلامة الثانية: الابتعاد عن الرئاسة
٥١٤	العلامة الثالثة: ألا يكون مشاءً
٥١٥	العلامة الرابعة: الاهتمام بأوقات الصلاة
٥١٦	العلامة الخامسة: الصفح

الخطبة الثالثة والتسعون

مفهوم الخير في الإسلام

٥٢١	مقدمة الخطبة
-----	--------------------

المحتويات	٥٩٣
مفهوم الخير	٥٢١
تصحيح انطباع مفهوم الخير عند عامّة الناس	٥٢٢
المال مصدر التعاسة	٥٢٤
الخير في بيان أمير المؤمنين عليه السلام	٥٢٤
مصاديق مفهوم الخير	٥٢٥
الأوّل: نفع عباد الله المؤمنين	٥٢٥
الثاني: النصيحة الصادقة	٥٢٦
الثالث: الزهد في الدنيا	٥٢٨
الرابع: الرضا بقضاء الله تعالى	٥٢٩
الخامس: الزوجة الصالحة	٥٣٠
السادس: قطع الطمع ممّا في أيدي الناس	٥٣١
السابع: الاستعداد للموت	٥٣٢
الثامن: عدم التعالي على الآخرين	٥٣٣
التاسع: خزن اللسان	٥٣٣
العاشر: التحلّي بالأخلاق الحميدة	٥٣٤
الحادي عشر: المبادرة إلى التوبة	٥٣٥
أهميّة المسارعة إلى الخيرات	٥٣٦

الخطبة الرابعة والتسعون

من دعائه الإيمان (الصبر واليقين)

مقدمة الخطبة	٥٣٩
الدعامة الأولى: الصبر	٥٤١
المنشأ الأوّل: الشوق	٥٤٢

المنشأ الثاني: الإشفاق من النار	٥٤٤
المنشأ الثالث: الزهد في الدنيا	٥٤٤
المنشأ الرابع: ارتقاب الموت	٥٤٦
الدعامة الثانية: اليقين	٥٤٧
طرق الوصول إلى اليقين	٥٤٨
الشعبة الأولى: الفطنة	٥٤٨
الشعبة الثانية: تأوّل الحكمة	٥٤٩
الشعبة الثالثة: موعظة العبرة	٥٤٩
الشعبة الرابعة: سنّة الأوّلين	٥٥٠

الخطبة الخامسة والتسعون

أخلاق الشيعة في كلمات الإمام الباقر عليه السلام

مقدمة الخطبة	٥٥٣
كرامة الشيعة عند الله تعالى	٥٥٤
أخلاق الشيعي الحقيقي	٥٥٤
١- التقوى وطاعة الله تعالى	٥٥٥
٢- طاعة القيادة	٥٥٦
٣- حبّ المؤمن في الله	٥٥٨
٤- الحلم والعفو	٥٥٨
٥- التكافل الاجتماعي	٥٦٠
مصادر الكتاب	٥٦٣
المحتويات	٥٨٣